مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن

الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

مجمع البيان في تفسير القرآن

مجمع البيان في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

الجزء الثامن

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :٢٥/١٥٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة طباعة
أو ترجمة الكتاب أو جزء منه إلا بإذن
خطي من المؤلف والناشر

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية

سُورَةُ العَنكبُوت

مكية كلها في قول عكرمة وعطاء والكلبي، ومدنية في أحد القولين عن ابن عباس وقتادة، ومكية إلا عشر آيات من أولها فإنها مدنية، عن الحسن. وفي أحد القولين عن ابن عباس، وهو عن يحيى بن سلام.

● **النظم:** ● **عدد آيها:** تسع وستون آية بالإجماع.

● **إختلافها:** ثلاث آيات ﴿الٓمٓ﴾ كوفي، ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ حجازي ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بصري شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد كل المؤمنين والمنافقين». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان، ليلة ثلاث وعشرين، فهو ـ والله يا أبا محمد ـ من أهل الجنة لا أستثني فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله عليَّ في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله مكاناً.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة القصص بذكر الوعد والوعيد، وافتتح هذه السورة بذكر تكليف العبيد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ علي عليه السلام: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بضم الياء وكسر اللام فيهما، وهو المروي عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عبد الله بن الحسن، ووافقهم الزهري في ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وقرأ أيضاً ﴿وليعلمن المنافقين﴾.

● **الحجة:** معناه: ليعرفن الناس من هم، فحذف المفعول الأول، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ وقال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ويجوز أن يكون من قولهم: ثوب مَعْلَم وفارس مُعْلِم بالكسر، إذا أعلم نفسه في الحرب، فيكون معناه: وليشهرن، فيرجع إلى المعنى الأول، لأنه على تقدير حذف المفعول.

ويجوز أن يكون على حذف المفعول الثاني، أي: وليعلمن الصادقين ثواب صدقهم، والكاذبين عقاب كذبهم.

● **الإعراب**: قال الزجاج: موضع ﴿أَن﴾ الأولى نصب باسم حسب وخبره.

وموضع ﴿أَن﴾ الثانية نصب من جهتين: أجودهما أن تكون منصوبة بيتركوا، فيكون المعنى: أحسب الناس أن يتركوا لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، فلما حذف حرف الخفض، وصل ﴿يُتْرَكُوٓا﴾ إلى ﴿أَن﴾ فنصب.

ويجوز أن تكون أن الثانية العامل فيها حسب، أي حسب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

قال أبو علي: أما ما ذكره من أنه نصب بيتركوا فإنه بَيِّنُ السقوط، لأن تَرَكَ فعل يتعدى إلى مفعول واحد، فإذا بني للمفعول لم يتعد إلى آخر. فـ﴿أَن يَقُولُوٓا﴾ لا يتعلق به، ولا يتعدى إليه حتى يقدر حرف ثم يقدر الحذف فيصل الفعل.

وأما ما ذكره من انتصابه بحسب فلا يخلو إذا قدر انتصابه به، من أن يكون مفعولًا أولًا أو ثانياً أو صفة أو بدلًا، فلا يكون مفعولًا أولًا، لتعديه إلى المفعول الذي قبله وهو الترك، ولا يجوز أن يكون مفعولًا ثانياً من وجهين:

أحدهما: أن باب ظننت وأخواته إذا تعدى إلى هذا الضرب من المفعول لم يتعد إلى مفعول ثان ظاهر في اللفظ.

والآخر: أن المفعول الثاني هو الأول في المعنى، وليس القول الترك، ولا يكون أيضاً بدلًا، لأنه ليس الأول، ولا بعضه، ولا مشتملًا عليه، ولا يكون أيضاً صفة، لأن أن الثانية لحسب، وعمله فيها لا يخلو مما ذكرناه، فإذا لم يستقم حمله على شيء مما ذكرناه تبينت مواضع إغفاله في المسألة.

وأقول وبالله التوفيق: إن البدل هنا صحيح، فإنه إذا قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ - وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ جملة في موضع الحال، فكأنه قال: أحسبوا أن يدَّعوا الإيمان غير مختبرين ممتحنين بمشاق التكليف، فيكون التقدير في معنى الآية: أحسبوا أن يتركوا أحسبوا أن يهملوا، ولا شك أن الإهمال في معنى الترك، فيكون الثاني في معنى الأول بعينه.

وأما الوجه الأول فإنك لو قدرت اللام، فقلت: لأن يقولوا. أو الباء فقلت: بأن يقولوا. فلا شك أن الحرف يتعلق بيتركوا، فإن الجار والمجرور في موضع نصب به، فتساهل الزجاج في العبارة عن المجرور بأنه منصوب.

وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. ﴿مَا﴾ هذه يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون اسماً مفرداً نكرة في موضع النصب على التمييز، والتقدير: ساء حكماً يحكمون.

والثاني: أن يكون حرفاً موصولاً، و ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صلته، وتقديره: ساء الحكم حكمهم.

● **الحجة**: قيل: نزلت الآية في عمار بن ياسر، وكان يعذب في الله، عن ابن جريج.

وقيل: نزلت في أناس مسلمين كانوا بمكة، فكتب إليهم من كان بالمدينة: إنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا. فخرجوا إلى المدينة، فاتبعهم المشركون فآذوهم وقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، عن الشعبي.

وقيل: إنه أراد بالناس الذين آمنوا بمكة، سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وغيرهم، عن ابن عباس.

● **المعنى**: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي: أظن الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون فقط، ويقتصر منهم على هذا القدر، ولا يمتحنون بما تبين به حقيقة إيمانهم، هذا لا يكون، وهذا استفهام إنكار وتوبيخ.

وقيل: إن معنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون في أنفسهم وأموالهم ـ عن مجاهد. وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. ويكون المعنى: ولا يشدد عليهم التكليف والتعبد، ولا يؤمَرون ولا يُنهَون.

وقيل معناه: ولا يصابون بشدائد الدنيا ومصائبها، أي: إنها لا تندفع بقولهم آمنا.

وقال الحسن معناه: أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: لا إله إلا الله. ولا يختبروا، أصدقوا أم كذبوا؟ يعني أن مجرد الإقرار لا يكفي، والأوْلى حمله على الجميع، إذ لا تنافي، فإن المؤمن يكلف بعد الإيمان بالشرائع، ويمتحن في النفس والمال، ويمنى بالشدائد والهموم والمكاره، فينبغي أن يوطن نفسه على هذه الفتنة ليكون الأمر أيسر عليه إذا نزل به.

ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ولقد ابتلينا الذين من قبل أمة محمد صلى الله عليه وآله، من سالف الأمم بالفرائض التي افترضناها عليهم، أو بالشدائد والمصائب على حسب اختلافهم، وذكر ذلك تسلية للمؤمنين. قال ابن عباس: منهم إبراهيم خليل الرحمن وقوم كانوا معه، ومن بعده نشروا بالمناشير على دين الله فلم يرجعوا عنه. وقال غيره: يعني بني إسرائيل، ابتلوا بفرعون يسومونهم سوء العذاب ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه.

وإنما قال: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ مع أن الله سبحانه كان عالماً فيما لم يزل بأن المعلوم سيحدث، لأنه لا يصح وصفه سبحانه فيما لم يزل بأنه عالم بأنه حادث، وإنما يعلمه حادثاً إذا حدث. وقيل معناه: فليميزنَّ الله الذين صدقوا من الذين كذبوا بالجزاء والمكافأة، وعبر عن الجزاء والتمييز بالعلم، لأن كل ذلك إنما يحصل بالعلم، فأقام السبب مقام المسبب، ومثله في إقامة السبب مقام المسبب قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فهذا سبب قضاء الحاجة، فكنّى بذكره عنها، ومعنى ﴿صَدَقُواْ﴾ أي: ثبتوا على الشدائد، وكذبوا أي: لم يثبتوا، ومنه قول زهير:

«إذا ما الليثُ كذَّب عن أقرانه صَدَقا»(١)

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أم هذه استفهام منقطع عما قبله، وليست التي هي معادلة الهمزة، والمعنى: بل أحسب الذين يفعلون الكفر والقبائح أن يفوتونا فوت السابق لغيره، ويعجزونا فلا نقدر على أخذهم والانتقام منهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الشيء الذي يحكمون، ظنُّهم أنهم يفوتوننا. وروى العياشي بالإسناد عن أبي الحسن عليه السلام قال: جاء العباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: امشِ حتى نبايع لك الناس. فقال: أتراهم فاعلين؟ قال: نعم، فأين قول الله: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآيات.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: من كان يأمل لقاء ثواب الله. وقيل معناه: من كان يخاف عقاب الله، عن سعيد بن جبير والسدي، والرجاء قد يكون بمعنى الخوف، كما في قول الشاعر:

إذا لسعته النحلُ لم يرجُ لسعها   وحالفها في بيتِ نوب عواسل(٢)

والمعنى: من كان يخشى البعث، ويخاف الجزاء والحساب، أو يأمل الثواب فليبادر بالطاعة قبل أن يلحقه الأجل ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ أي: الوقت الذي وقته الله للثواب والعقاب جاءٍ لا محالة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿حُسْنًا﴾ مفعول فعل محذوف تقديره: ووصينا الإنسان بأن يفعل بوالديه حسناً، أي: ما يحسن، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ موصول وصلة في موضع نصب بأنه مفعول ﴿تُشْرِكَ﴾.

● **النزول:** قال الكلبي: نزلت الآية الأخيرة في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك

(١) تمام البيت: «ليث بعثر يصطاد الرّجال إذا ما الليثُ كذب عن أقرانه صدقا» وعثّر بتشديد الثاء - موضع كثير الأسد.

(٢) مرَّ البيت في الأجزاء السابقة.

أنه أسلم فخاف أهل بيته، فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ، فحلفت أمه أسماء بنت مخزمة بن أبي جندل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كناً[١] حتى يرجع إليها، فلما رأى ابناها: أبو جهل والحرث ابنا هشام ـ وهما أخوا عياش لأمه ـ جزعها ركبا في طلبه، حتى أتيا المدينة فلقياه وذكرا له القصة، فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه وتبعهما، وقد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت. فلما خرجوا من المدينة أخذاه وأوثقاه كتافاً، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة حتى برىء من دين محمد ﷺ جزعاً من الضرب، وقال ما لا ينبغي، فنزلت الآية. وكان الحرث أشدهما عليه، فحلف عياش لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضربن عنقه، فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حيناً، ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، وهاجر عياش وحسن إسلامه، وأسلم الحرث بن هشام وهاجر إلى المدينة، وبايع النبي ﷺ على إسلامه، ولم يحضر عياش، فلقيه عياش يوماً بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه، فضرب عنقه، فقيل له: إن الرجل قد أسلم، فاسترجع عياش وبكى، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فنزل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية.

وقيل: نزلت الآية في ناس من المنافقين، يقولون آمنا، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك، عن الضحاك.

وقيل: نزلت في قوم ردهم المشركون إلى مكة، عن قتادة.

● **المعنى:** لما رَغَّب سبحانه في تحقيق الرجاء والخوف بفعل الطاعة، عقبه بالترغيب في المجاهدة، فقال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي: ومن جاهد الشيطان بدفع وسوسته وإغوائه، وجاهد أعداء الدين لإحيائه، وجاهد نفسه التي هي أعدى أعدائه، فإنما يجاهد لنفسه، لأن ثواب ذلك عائد عليه، وواصل إليه دون الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ غير محتاج إلى طاعتهم، فلا يأمرهم ولا ينهاهم لمنفعة ترجع إليه، بل لمنفعتهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها قبل ذلك، أي: لنطلبنّها حتى تصير كأنهم لم يعملوها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم بأحسن أعمالهم، وهو ما أمروا به من العبادات والطاعات. والمعنى: لنكفرن سيئاتهم السابقة منهم في حال الكفر، ولنجزينهم بحسناتهم التي عملوها في الإسلام.

ولما أمر سبحانه بمجاهدة الكفار ومباينتهم، بين حال الوالدين في ذلك، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: أمرناه أن يفعل بوالديه ﴿حُسْنًا﴾ وألزمناه ذلك. ثم خاطب سبحانه كل واحد من الناس فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي وإن جاهداك أبواك أيها الإنسان، وألزماك، واستفرغا مجهودهما في دعائك ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ في العبادة ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: وليس لأحد به علم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فأمر سبحانه إطاعة الوالدين في الواجبات حتماً، وفي المباحات ندباً، ونهى عن طاعتهما في المحظورات، ونفى العلم به كأنه كناية عن تعريه من الأدلة، لأنه إذا لم

(١) الكن - بالكسر - البيت.

يكن عليه حجة ودليل لم يحصل العلم به، فلا يحسن اعتقاده ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: إلى حكمي مصيركم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أخبركم بأعمالكم فأجازيكم عليها.

وروي عن سعد بن أبي وقاص قال: كنت رجلًا برًّا بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمَّهْ إني لا أدع ديني هذا لشيء، قال: فمكثت يوماً لا تأكل وليلة، ثم مكثت يوماً آخر وليلة، فلما رأيت ذلك قلت: والله يا أمَّه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا، فكلي واشربي، وإن شئت فلا تأكلي ولا تشربي، فلما رأت ذلك أكلت، فأنزلت هذه الآية ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس.

وروي عن بهز بن أبي حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله: من أبر؟ قال: أمك. قلت: ثم من؟ قال: ثم أمك. قلت: ثم من؟ قال: ثم أمك. قلت: ثم من؟ قال: ثم أبوك، ثم الأقرب فالأقرب.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بوحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرتهم وجملتهم في الجنة. ولما ذكر سبحانه خيار المؤمنين، عقبه بذكر ضعفائهم، وقيل: بل عقبه بذكر المنافقين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بلسانه ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دين الله، أو في ذات الله ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: فإذا أوذي بسبب دين الله، رجع عن الدين مخافة عذاب الناس، كما ينبغي للكافر أن يترك دينه مخافة عذاب الله، فيسوي بين عذاب فانٍ منقطع، وبين عذاب دائم غير منقطع أبداً لقلة تمييزه، وسمى أذية الناس فتنة، لما في احتمالها من المشقة. ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا محمد، أي: ولئن جاء نصر من الله للمؤمنين، ودولة لأولياء الله على الكافرين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ليقولَن هؤلاء المنافقون للمؤمنين: إنا كنا معكم على عدوكم، طمعاً في الغنيمة، ثم كذبهم الله فقال ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق، فلا يخفى عليه كذبهم فيما قالوا.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

● **اللغة:** الثَّقَل: متاع البيت، وجمعه أثقال، وهو من الثُّقْل، يقال: ارتحل القوم بثَقلهم وثِقلتهم، أي: بأمتعتهم، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثَّقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». قال ثعلب(١): سميا به لأن الأخذ بموجبهما ثقيل. وقال غيره: إن العرب تقول لكل شيء خطير نفيس: ثَقل، فسماهما ثقلين تفخيماً لشأنهما، وكل شيء يُتنافس فيه فهو ثقل، ومنه سمي الجن والإنس ثقلين، لأنهما فُضِّلا على غيرهما من الخلق. والطوفان: الماء الكثير الغامر، لأنه يطوف بكثرته في نواحي الأرض. قال الراجز:

أفناهم الطوفان موت جارف

الجرف: الأخذ الكثير، وقد جرفت الشيء أجرفه ـ بالضم ـ جرفاً: أي ذهبت به كله، شبه الموت في كثرته بالطوفان.

● **الإعراب:** قوله: ﴿بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ تقديره: وما هم بحاملين من شيء من خطاياهم، فقوله: ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ في الأصل: صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾ فقدم عليه، فصار في موضع نصب على الحال. ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ نصب على الظرف، و ﴿خَمْسِينَ﴾ نصب على الاستثناء و ﴿عَامًا﴾ تمييزه.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله على الحقيقة ظاهراً وباطناً ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم. قال الجبائي: معناه، وليميزنَّ الله المؤمن من المنافق، فوضع العلم موضع التمييز توسعاً، وقد مرَّ بيانه، وفي هذه الآية تهديد للمنافقين، بما هو معلوم من حالهم التي استهزؤوا بها، وتوهموا أنهم قد نجوا من ضررها بإخفائها، فبين أنها ظاهرة عند من يملك الجزاء عليها، وأنه يحل الفضيحة العظمى بها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ نعم الله وجحدوها ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بتوحيده، وصدقوا رسله ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: ونحن نحمل آثامكم عنكم، إن قلتم: إن لكم في اتباع ديننا إثماً، ويعنون بذلك أنه لا إثم عليكم باتباع ديننا، ولا يكون بعث ولا نشور، فلا يلزمنا شيء مما ضمنا، والمأمور في قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ هو المتكلم به نفسه في مخرج اللفظ، والمراد به إلزام النفس هذا المعنى، كما يلزم الشيء بالأمر، وفيه معنى الجزاء، وتقديره: إن تتبعوا ديننا حملنا خطاياكم عنكم. ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لا يمكنهم حمل ذنوبهم عنهم يوم القيامة، فإن الله سبحانه عَدْلٌ لا يعذب أحداً بذنب غيره، فلا يصح إذاً أن يتحمل أحد ذنب غيره، وهذا مثل قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ولا يجري هذا مجرى تحمل الدية عن الغير، لأن الغرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول، فلا فرق بين أن يؤديه زيد عنه وبين أن يؤديه عمرو، فإنه بمنزلة قضاء الدين. ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد النحوي الشيباني، وكان من المعروفين بالأدب، وكثرة العلم، وإمام الكوفيين في النحو واللغة، وسُمّي بثعلب لأنه كان إذا سئل عن مسألة، أجاب من ههنا ومن ههنا، فشبهوه بثعلب إذا أغار.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ يعني أنهم يحملون خطاياهم وأوزارهم في أنفسهم التي لم يعملوها بغيرهم، ويحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم.

وقيل معناه: يحملون عذاب ضلالهم، وعذاب إضلالهم غيرهم، ودعائهم لهم إلى الكفر، وهذا كقوله: (**من سنَّ سنة سيئة**) الخبر. وهذا كقوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ومعناه: أنهم يسألون سؤال تعنيف وتوبيخ، وتبكيت وتقريع، لا سؤال استعلام واستخبار.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ فلم يجيبوه وكفروا به ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ جزاء على كفرهم فهلكوا ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، بما فعلوه من الشرك والعصيان ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: فأنجينا نوحاً من ذلك الطوفان، والذين ركبوا معه في السفينة من المؤمنين به ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ أي: وجعلنا السفينة[1] ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: علامة للخلائق أجمعين، يعتبرون بها إلى يوم القيامة، لأنها فرقت بين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار، وهي دلالة للخلق على صدق نوح وكفر قومه.

● **النظم:** إنما اتصل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما تقدمه من ذكر المنافقين، فإنه سبحانه لما بيَّن حالهم عند إيراد الشبهة عليهم، بيَّن في هذه الآية أن من الواجب أن لا يغتر المؤمنون بما يورده أهل الكفر عليهم من الشبه الفاسدة، وقد ذكر في اتصال قصة نوح بما قبلها وجوه:

أحدها: أنه لما قال: ﴿فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فصَّل ذلك، فبدأ بقصة نوح ثم بما يليها.

وثانيها: أنه لما ذكر حال المجاهد الصابر، وحال من كان بخلافه، ذكر قصة نوح وصبره على أذى قومه، وتكذيبهم تلك المدة الطويلة، ثم عقب ذلك بذكر غيره من الأنبياء.

وثالثها: أنه لما أمر ونهى، ووعد وأوعد، على امتثال أوامره وارتكاب نواهيه، أكد ذلك بقصص الأنبياء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ

---

(١) قد يقال: الضمير يرجع إلى العقوبة، أو الواقعة، أو النجاة، ويؤيد الأول أي الذي اختاره المصنف (ره) قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ فإن المراد بالفلك على ما قاله أكثر المفسرين سفينة نوح عليه السلام.

لَهُۥٓ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ
ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بالتاء، والباقون: بالياء، وروي عن أبي بكر بالتاء والياء جميعاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ بفتح الشين ممدودة مهموزة، وقرأ الباقون: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بسكون الشين غير ممدودة. وفي الشواذ قراءة السلمي وزيد بن علي: ﴿وتخلّقون إفكاً﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة التاء في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أن قبلها ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ وحجة الياء أن المعنى: قل لهم: أولم يروا، النشاءة والنشأة، مثل الرآفة والرأفة، والكآبة والكأبة، وقال أبو زيد: نشأت أنشأ نشأ إذا شببت، ونشأت السحابة نشأ، ولم يذكر النشاءة. وأما ﴿تخلّقون﴾ فإنه على وزن ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وفي معناه.

● **الإعراب:** ﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ كيف: في موضع نصب على الحال من الله، والتقدير: أمبدعاً يبدىء الله الخلق أم لا؟ ويجوز أن يكون حالاً من الخلق، فيكون تقديره: أمبدعاً يبدىء الله الخلق أم لا؟ ثم يعيده أم لا؟ ويجوز أن يكون في موضع مصدر، والتقدير: أي أبدأ لبيدأ، ومثله ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ و﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ منصوبة على المصدر، ومفعول ﴿يُنشِئُ﴾ محذوف، تقديره: وينشىء الخلق.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم، فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أي: أطيعوا الله وخافوه بفعل طاعاته واجتناب معاصيه ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ذلك التقوى خير لكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ما هو خير، مما هو شر لكم ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ ﴿مَآ﴾ في هذا الموضع كافة، والمعنى: إنكم تعبدون أصناماً من حجارة، لا تضر ولا تنفع ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ أي: تفتعلون كذباً بأن تسموا هذه الأوثان آلهة، عن السدي. وقيل معناه: وتصنعون أصناماً بأيديكم، وسماها إفكاً، لادعائهم أنها آلهة، عن مجاهد وقتادة وأبي علي الجبائي. ثم ذكر عجز آلهتهم عن رزق عابديها فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم، والملكُ: قدرة القادر على ماله أن يتصرف في ماله أتم التصرف، وليس ذلك إلا لله على الحقيقة، فإن الإنسان إنما يملك ما يملكه الله تعالى، ويأذن له في التصرف فيه، فأصل الملك لجميع الأشياء لله تعالى، فمن لا يملك أن يرزق غيره لا يستحق العبادة، لأن العبادة تجب بأعلى مراتب النعمة، ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى، فلا يستحق العبادة سواه ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: اطلبوا الرزق من عنده دون سواه ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ على ما أنعم به عليكم من أصول النعم، من الحياة والرزق وغيرهما ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: إلى حكمه تصيرون يوم القيامة فيجازيكم على قدر أعمالكم، ثم خاطب العرب فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي: وإن

تكذبوا محمداً ﷺ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أنبياءهم الذين بعثوا إليهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه إلا التبليغ الظاهر البين، وليس عليه حمل من أرسل إليه على الإيمان.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يعني كفار مكّة الذين أنكروا البعث وأقروا بأن الله هو الخالق، فقال: أولم يتفكروا فيعلموا كيف أبدأ الله الخلق بعد العدم، ثم يعيدهم ثانياً إذا أعدمهم بعد وجودهم. قال ابن عباس: يريد الخلق الأول والخلق الآخر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ غير متعذر، لأن من قدر على الإنشاء والابتداء، فهو على الإعادة أقدر. ثم خاطب محمداً ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ وتفكروا في آثار من كان فيها قبلكم، وإلى أي شيء صار أمرهم لتعتبروا بذلك، ويؤديكم ذلك إلى العلم بربكم. وقيل معناه: انظروا وابحثوا، هل تجدون خالقاً غير الله؟ فإذا علموا أنه لا خالق ابتداءً إلا الله لزمتهم الحجة في الإعادة، وهو قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها، وأنشأ خلقها ابتداء، ينشئها نشأة ثانية، ومعنى الإنشاء: الإيجاد من غير سبب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله على الإنشاء والإفناء والإعادة وعلى كل شيء يشاؤه قدير.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي: ﴿مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع والإضافة. وقرأ حمزة وحفص بنصب ﴿مودة﴾ وإضافتها إلى ﴿بينكم﴾ وقرأ الباقون: ﴿مودة﴾ منصوبة منونة، ﴿بينكم﴾ بالنصب، إلا الشموني والبرجمي فإنهما قرآ: ﴿مودة﴾ مرفوعة منونة ﴿بينكم﴾ بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: يجوز في قول من قال: ﴿مودةُ بينكم﴾ أن يجعل ما اسم أن ويضمر ذِكراً يعود إلى ما، كما جاء في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ فيكون التقدير: إن الذين اتخذتموهم أوثاناً ذوو مودة بينكم. ويكون دخول أن على ﴿مَآ﴾ لأنه بمنزلة الذي، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ لعود الذكر إليه.

ويجوز أن يضمر هو ويجعل ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خبراً عنه، والجملة في موضع خبر أن.

ومن قرأ ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ بالنصب جعل ما مع إن كلمة ولم يُعِد إليها ذِكراً كما أعاد في الوجه الأول، وجعل الأوثان منتصباً باتخذتم، وعداه أبو عمرو إلى مفعول واحد كقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ والمعنى: إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً آلهة، فحذف، كما أن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ معناه: اتخذوا العجل إلهاً، فحذف. وانتصب ﴿مَوَدَّةَ﴾ على أنه مفعول له، و ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصب على الظرف، والعامل فيه المودة. ومن قال: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أضاف المودة إلى البين، واتسع بأن جعل الظرف إسماً لما أضاف إليه، ومثل ذلك قراءة من قرأ ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ ومن قرأ ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جاز في قوله: ﴿بينكم﴾ إذا نون ﴿مودة﴾ ضربان:

أحدهما: أن يجعله ظرفاً متعلقاً بالمصدر، لأن الظرفين أحدهما من المكان، والآخر من الزمان، وإنما الذي يمتنع أن يعلق به إذا كانا ظرفين من الزمان، أو ظرفين من المكان، فأما إذا اختلفا فسائغ، فقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرف زمان، لأن المعنى: في وقت الحياة الدنيا، ولا ذكر في واحد من الظرفين، كما أنك إذا قلت: لقيت زيداً اليوم في السوق، كان كذلك. فإن جعلت الظرف الأول صفة للنكرة، كان متعلقاً بمحذوف، وصار فيه ذكر يعود إلى الموصوف، فإذا جعلته صفة للمصدر جاز أن يكون قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في موضع حال، والعامل فيه الظرف الذي هو صفة للنكرة، وفيه ذكر يعود إلى ذي الحال، وذو الحال الضمير الذي في الظرف العائد إلى الموصوف، الذي هو ﴿مودة﴾، وهو هي في المعنى.

فإن قلت: هل يجوز أن يتعلق الظرف الذي قد جاز أن يكون حالًا بالمودة، مع أنه قد وصف بقوله بينكم؟ قيل: لا يمتنع ذلك، لأنك إذا وصفته فمعنى الفعل قائم فيه، والظرف يتعلق بمعنى الفعل، وإنما الذي يمتنع أن يعمل فيه إذا وصف للمفعول به، فأما الحال والظرف فلا يمتنع أن يتعلق كل واحد منهما به، وإن كان قد وصف به، وقد جاء في الشعر ما يعملُ عملَ الفعل إذا وُصف عاملًا في المفعول به، وإذا جاز أن يعمل في المفعول به، فلا نظر في جواز عمله فيما ذكرناه من الظرف والحال، فمن ذلك قوله:

إذا فاقدٌ خطباء فرخين رجعت، ذكرت سليمى في الخليط المباين(١)

والتحقير في ذلك بمنزلة الوصف، لو قال: هذا ضويرب زيداً، لقبح، كما يقبح ذلك في الصفة، ولم يجز ذلك في حال السعة والاختيار.

● **المعنى**: ثم ذكر سبحانه الوعد والوعيد، فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ معناه: أنه المالك للثواب والعقاب، وإن كان لا يشاء إلا الحكمة والعدل، وما هو الأحسن من الأفعال، فيعذب

(١) البيت منسوب إلى بشر بن أبي حازم، يقول: إذا رجعت الحمامة التي لونها الخطبة، وهي لون كدر مشرب حمرة في صفرة، في غنائها وصوتها، حزناً لفقد ولديها، ذكرت «سليمى» (معشوقته) في الأعداء. والشاهد في إعمال إسم الفاعل الموصوف - وهو فاقد - في فرخين.

من يشاء ممن يستحق العقاب ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن هو مستحق للرحمة، بأن يغفر له بالتوبة، وغير التوبة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ معاشر الخلق، أي: إليه ترجعون يوم القيامة. والقلب: هو الرجوع والرد، فمعناه: أنكم تردون إلى حال الحياة في الآخرة، حيث لا يملك فيه النفع والضر إلا الله، وهذا يتعلق بما قبله، كأن المنكرين للبعث قالوا: إذا كان العذاب غير كائن في الدنيا، فلا نبالي به، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ وكأنهم قالوا: إذا صرفنا إلى حكم الله فررنا، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ولستم بفائتين عن الله في الدنيا ولا في الآخرة، فاحذروا مخالفته. ومتى قيل: كيف وصفهم بذلك وليسوا من أهل السماء؟ فالجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن المعنى: لستم بمعجزين، فراراً في الأرض ولا في السماء، كقولك: ما يفوتني فلان هاهنا، ولا بالبصرة، يعني ولا بالبصرة لو صار إليها، عن قطرب وهو معنى قول مقاتل.

والآخر: أن المعنى: ولا مَن في السماء بمعجزين، فحذف مَن لدلالة الكلام عليه، كما قال حسان:

أمـن يـهـجـو رسـول الله مـنـكـمْ، ويـمـدحُـه ويـنـصـره سـواء؟

فكأنه قال: ومن يمدحه وينصره سواء أم لا يتساوون، عن الفراء. وهذا ضعيف عند البصريين.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم ويدفع عذاب الله عنكم، فلا تغتروا بأن الأصنام تشفع لكم.

وقيل: إن الولي الذي يتولى المعونة بنفسه، والنصير يتولى النصرة تارة بنفسه، وتارة بأن يأمر غيره به.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا بالقرآن وبأدلة الله ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: وجحدوا بالبعث بعد الموت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أخبر أنه سبحانه آيسهم من رحمته وجنته، أو يكون معناه: يجب أن ييأسوا من رحمتي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم. وفي هذا دلالة على أن المؤمن بالله واليوم الآخر لا ييأس من رحمة الله.

ثم عاد سبحانه إلى قصة إبراهيم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ يعني حين دعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة الأصنام ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وفي هذا تسفيه لهم، إذ قالوا حين انقطعت حجتهم: لا تحاجوه، ولكن اقتلوه أو حرقوه، ليتخلصوا منه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهاهنا حذف تقديره: ثم اتفقوا على إحراقه، فأججوا ناراً، فألقوه فيها، فأنجاه الله منها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي: علامات واضحات وحججاً بينات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بصحة ما أخبرنا به، وبتوحيد الله وكمال قدرته ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لتتوادوا بها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد تقدم بيانه في الحجة ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ

﴿بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: يتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ويلعن الأتباع القادة، لأنهم زينوا لهم الكفر، وقال قتادة: كل خلة تنقلب يوم القيامة عداوة إلا خلة المتقين، قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: ومستقركم النار ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب الله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص: ﴿أئنكم لتأتون الفاحشة﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ أبو عمرو بالاستفهام فيهما بهمزة ممدودة ﴿آنكم﴾ وقرأ الباقون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بكسر الهمزة من غير استفهام ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ بالاستفهام، إلا أن ابن كثير وورشاً ويعقوب قرأوا بهمزة واحدة غير ممدودة، وابن عامر وحفص بهمزتين، وأهل المدينة غير ورش بهمزة واحدة ممدودة.

● **اللغة:** هاجر القوم من دار إلى دار: معناه: تركوا الأولى للثانية. قال الأزهري: أصل المهاجرة خروج البدوي من البادية إلى المدن. وتهجَّر أي: تشبه بالمهاجرين. ومنه حديث عمر: هاجروا ولا تَهجَّروا، أي: أخلصوا الهجرة لله. والنادي والنديُّ: المجلس إذا اجتمعوا فيه، وتنادى القوم إذا اجتمعوا في النادي، ودار الندوة: دار قصي بن كلاب، كانوا يجتمعون فيه للمشاورة تبركاً به، والأصل من النِّداء لأن القوم ينادي بعضهم بعضاً.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم بأن قال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ أي: فصدَّق بإبراهيم لوط، وهو ابن أخته، وكان إبراهيم خاله، عن ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين، وهو أول من صدق بإبراهيم عليه السلام ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ أي: خارج من جملة الظالمين، على جهة الهجر لهم لقبيح أعمالهم، من حيث أمرني ربي. وقيل معناه: قال لوط: إني مهاجر إلى ربي، عن الجبائي. وخرج إبراهيم عليه السلام ومعه لوط وامرأته سارة، وكانت ابنة عمه من كوثى - وهي قرية من سواد الكوفة إلى أرض الشام - عن قتادة. ومثل هذا هجرة المسلمين من مكة إلى أرض الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة ثانياً، لأنهم هجروا ديارهم وأوطانهم بسبب أذى المشركين لهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يذل من نصره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يضيع

من حفظه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي: لإبراهيم من بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ من وراء إسحاق ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ وذلك أن الله سبحانه لم يبعث نبياً من بعد إبراهيم إلا من صلبه، فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان كلها أنزلت على أولاده ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وهو الذكر الحسن والولد الصالح، عن ابن عباس. وقيل: هو رضى أهل الأديان به، فكلهم يحبونه ويتولونه، عن قتادة. وقيل: هو أنه أريَ مكانه في الجنة، عن السدي. وقال بعض المتأخرين: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره من الأنبياء. قال البلخي: وفي هذا دلالة على أنه يجوز أن يثيب الله في دار التكليف ببعض الثواب ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني أن إبراهيم مع ما أُعطي من الأجر والثواب في الدنيا، يحشره الله في جملة الصالحين العظيمي الأقدار، مثل آدم ونوح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، ويجوز أن يريد: واذكر لوطاً حين قال لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ من قرأ بلفظ الاستفهام أراد به الإنكار دون الاستعلام، ومن قرأ ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر أراد أن لوطاً قال ذلك لقومه منكراً لفعلهم لا مفيداً معلماً لهم، لأنهم قد علموا ما فعلوه، والفاحشة هاهنا ما كانوا يفعلونه من إتيان الذكران ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ أي: بهذه الفاحشة ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أحد من الخلائق، ثم فسر الفاحشة بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل فيه وجوه.

أحدها: تقطعون سبيل الولد باختياركم الرجال على النساء.

وثانيها: أنكم تقطعون الناس عن الأسفار بإتيان هذه الفاحشة، فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم، وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالحذف[١] فأيهم أصابه كان أولى به، ويأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم، وكان لهم قاض يقضي بذلك.

وثالثها: أنهم كانوا يقطعون الطريق على الناس، كما يفعل قطاع الطريق في زماننا.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قيل فيه أيضاً وجوه:

أحدها: هو أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، عن ابن عباس. وروي ذلك عن الرضا عليه السلام.

وثانيها: أنهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً، عن مجاهد.

وثالثها: كانت مجالسهم تشتمل على أنواع من المناكير والقبائح، مثل الشتم، والسخف، والصفع[٢]، والقمار، وضرب المخراق[٣]، وحذف الأحجار على من مرَّ بهم، وضرب المعازف والمزامير، وكشف العورات واللواط. قال الزجاج: وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المناكير، ولا أن يجتمعوا على المناهي، ولما أنكر لوط على قومه ما كانوا يأتونه

(١) ضرب من الرمي والضرب.
(٢) صفعه صفعاً: ضرب قفاه أو بدنه بكفه مبسوطة.
(٣) المخراق: المنديل.

من الفضائح، قالوا له استهزاء: ائتنا بعذاب الله، وذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين فعلوا المعاصي، وارتكبوا القبائح، وأفسدوا في الأرض.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: ﴿لننجِيَنَّه﴾ خفيفة الجيم ساكنة النون، والباقون: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بالتشديد. وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير حفص ويعقوب: ﴿إِنَّا مُنجُوكَ﴾ بالتخفيف، والباقون: بالتشديد. وقرأ ابن عامر: ﴿منزّلون﴾ بالتشديد، والباقون: ﴿مُنزِلُونَ﴾ بالتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: ﴿لننجِيَنَّه﴾ و﴿إِنَّا مُنجُوك﴾ قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وحجة من ثقل قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقال: نجا زيدٌ ونجَّيته وأنجيته، مثل: فرَّحته وأفرَحته، وكذلك قولك: نزل، إذا عدّيته قلت: نزَّلته وأنزلته.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه أنه استجاب دعاء لوط، وبعث جبرائيل ومعه الملائكة لتعذيب قومه بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: يبشرونه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعنون قرية قوم لوط ﷺ، وإنما قالوا هذا، لأن قريتهم كانت قريبة من قرية قوم إبراهيم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: مشركين مرتكبين للفواحش ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فكيف تهلكونها ﴿قَالُواْ﴾ في جوابه ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: لنخلصنَّ لوطاً من العذاب بإخراجه منها، ولنخلصن أيضاً أهله المؤمنين منهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فإنها تبقى في العذاب لا تنجو منه، وذلك قوله: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين في العذاب ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ﴿أَن﴾ هذه مزيدة ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ معناه: سيء لوط بالملائكة، أي: ساءه مجيئهم لما رآهم في أحسن صورة، لما كان يعلمه من خبث فعل قومه، عن قتادة. وقيل: معناه، سيء بقومه لما علم من عظيم البلاء النازل بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق قلبه. وقيل: ضاقت حيلته فيما أراد من حفظهم وصيانتهم، عن الجبائي. فلما رأى الملائكة حزنه وضيق صدره ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ علينا وعليك

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بما نفعله بقومك. وقيل: لا تخف ولا تحزن علينا، فإنا رسل الله لا يقدرون علينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ الكافرة ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ أي: عذاباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، أي: جزاء بفسقهم. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: تركنا من تلك القرية عبرة واضحة، ودلالة على قدرتنا، قال قتادة: هي الحجارة التي أمطرت عليهم. وقال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة. وقال مجاهد: هي الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذلك ويبصرونه، ويتفكرون فيه ويتعظون به، فيزجرهم ذلك عن الكفر بالله، واتخاذ شريك معه في العبادة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **اللغة:** الرجفة: زعزعة الأرض تحت القدم، يقال: رَجف السطح من تحت أهله يرجُف رجفاً، ورجْفةً شديدة، والبحر رجَّاف لاضطرابه، وأرجف الناسَ بالشيء أي: أخبروا بما يُضطربُ لأجله من غير تحقق به، والحاصب: الريح العاصفة التي فيها الحصباء، وهي الحصى الصغار يشبَّهُ به البرَدُ والجليدُ، قال الفرزدق:

مستقبلين رياح الشام تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور

وقال الأخطل:

ولقد علمت إذا العِشار تروَّحت ... هدج الرِّئال بكُنهنَّ شِمالا
ترمي العضاةَ بحاصبٍ من ثلجها ... حتى تبيتَ على العضاة جفالا[1]

(١) قوله لقد علمت أي: أيها الأمير، إذا هو ظرف مفعول ثان لعلمت، والعشار: جمع عشر، أو هي الناقة يمضي لها من حين اللقاح عشرة أشهر، وتروحت استنشق، ومفعوله شمالاً، وبه ريح معروفة توصف بشدة البرد، وهدج الرئال: الهدج مصدر هدج الظليم أي: ذكر النعام إذا مشى في ارتعاش، والرئال: جمع رائل، وهو فرخ النعام=

والخسف: سوْخُ الأرض بما عليها، يقال: خسف الله به الأرض، وخسَف القمر: إذهاب نوره، والخسوف للقمر، والكسوف للشمس.

● **الإعراب:** ﴿أَخَاهُمْ﴾ ينتصب بفعل مضمر، والتقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم. ﴿وَعَادًا﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: وأهلكنا عاداً وثمود. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ فاعله مضمر تقديره: وقد تبين إهلاكهم لكم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام لتأكيد النفي، ولا يجوز إظهار أن بعده.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وهذا مفسر فيما مضى ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدأ بالدعاء إلى التوحيد والعبادة ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: وأمّلوا ثواب اليوم الآخر، واخشوا عقابه بفعل الطاعات، وتجنب السيئات ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسعوا في الأرض بالفساد، ثم أخبر أن قومه كذبوه، ولم يقبلوا منه، فعاقبهم الله، وذلك قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وقد مرَّ بيانه ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: باركين على ركبهم ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي: وأهلكنا أيضاً عاداً وثموداً جزاء لهم على كفرهم ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ معاشر الناس كثيرٌ ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ وقيل معناه: وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحِجر واليمن آية في هلاكهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فمنعهم عن طريق الحق ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر، ولكنهم أغفلوا ولم يتدبروا. وقيل معناه: إنهم كانوا مستبصرين عند أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدى، عن قتادة والكلبي ﴿وَقَٰرُونَ﴾ أي: وأهلكنا قارون ﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات من قلب العصا حية، واليد البيضاء، وفلق البحر، وغيرها ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي طلبوا التجبر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولم ينقادوا للحق ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين الله كما يفوت السابق ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: فأخذنا كلاً من هؤلاء بذنبه، وعاقبناهم بتكذيبهم الرسل ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة. وقيل: ريحاً فيها حصى، وهم قوم لوط، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: هم عاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، وقوم شعيب، عن ابن عباس وقتادة. والصيحة: العذاب. وقيل: صاح بهم جبرائيل فهلكوا ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح، وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيعذبهم على غير ذنب، أو قبل إزاحة العلة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم وتكذيبهم الرسل. وفي هذا دلالة واضحة على فساد

=وهو مفعول أول لعلمت. بكنهن الكن: ما يكتن به من الحر والبرد، وترمي العضاة: وهي شجرة كبيرة بحاصب أي: ريح عاصف، والمراد به هنا الثلج على التشبيه. فتكون «من» في قوله (من ثلجها) بيانية «حتى تبيت» أي: ذلك الحاصب على العضاة. جفالًا وهو الصوف الكثير، والمعنى: ولقد علمت أيها الأمير مشي الفراخ في ارتعاش في مسكنهن عند هبوب هذه الريح الموصوفة بالصفات المذكورة، فارحمني وجد علي، والمراد من البيت الإسترحام والإستعطاف (كذا في هامش بعض المخطوطة).

مذهب أهل الجبر، فإن الظلم لو كان من فعل الله كما يزعمون، لما كان هؤلاء هم الظالمين لنفوسهم، بل كان الظالم لهم مَن فعل فيهم الظلم، تعالى الله عن ذلك.

●●●

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة وعاصم إلا الأعمش والبرجمي: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء.

الحجة و● الإعراب: قال أبو علي: التاء على قوله قل لهم: إن الله يعلم ما تدعون لا يكون إلا عند هذا، لأن المسلمين لا يخاطبون بذلك، و﴿مَا﴾ استفهام، وموضعه نصب بـ ﴿يَدْعُونَ﴾ ولا يجوز أن يكون نصباً بيعلم، ولكن صارت الجملة التي هي منها في موضع نصب بيعلم، ولا يكون يعلم بمعنى يعرف، كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ لأن ذلك لا يلغى، وما لا يلغى لا يعلق، ويبعد ذلك دخول من في الكلام، وهي إنما تدخل في نحو قولك: هل من طعام، وهل من رجل، ولا تدخل في الإيجاب، هذا قول الخليل، وكذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ المعنى: فستعلمون: آلمسلم تكون له عاقبة الدار أم الكافر؟ وكل ما كان من هذا فهكذا القول فيه، وهو قياس قول الخليل.

اللغة: جمع العنكبوت: عناكب، وتصغيره: عنيكب، ووزنه: فعللوت، وهو يذكر ويؤنث، قال الشاعر:

على هطالهم منهم بُيوتٌ كأن العنكبوت هو ابتناها(١)

ويقال فيه: العنكباء.

● **المعنى:** ثم شبه سبحانه حال الكفار الذين اتخذوا من دونه آلهة بحال العنكبوت، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: شبه من اتخذ الأصنام آلهة، يريدون نصرها ونفعها، وضرها والرجوع إليها عند الحاجة. ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها

---

(١) هطال: اسم جبل.

لتأوي إليه، فكما أن بيت العنكبوت لا يغني عنها شيئاً، لكونه في غاية الوهن والضعف، ولا يجدي نفعاً، كذلك الأصنام لا تملك لهم خيراً وشراً، ونفعاً وضراً، والولي هو المتولي للنصرة، وهو أبلغ من الناصر، لأن الناصر قد يكون ناصراً بأن يأمر غيره بالنصرة، والولي هو الذي يتولى النصرة بنفسه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ صحة ما أخبرناهم به، ويتحققون، و ﴿لَوْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: لو علموا أن اتخاذهم الأولياء كاتخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتخذوهم أولياء، ولا يجوز أن تكون متعلقة بقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لأنهم كانوا يعلمون أن بيت العنكبوت واه ضعيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ هذا وعيد منه سبحانه، ومعناه: أنه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفار، وما يتخذونه من دونه أرباباً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب فيما يريده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ وهي الأشباه والنظائر، يعني أمثال القرآن ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نذكرها لهم لندعوهم إلى المعرفة والتوحيد، ونعرفهم قبح ما هم فيه من عبادة الأصنام ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يفهمها إلا من يعلم وجه الشبه بين المثل والممثل به. وقيل معناه: وما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله. وروى الواحدي بالإسناد عن جابر قال: تلا النبي ﷺ هذه الآية وقال: «العالم الذي عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

ثم بين سبحانه ما يدل على إلهيته واستحقاقه العبادة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أخرجهما من العدم إلى الوجود ولم يخلقهما عبثاً، بل خلقهما ليسكنهما خلقه، وليستدلوا بهما على إثباته ووحدانيته ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: على وجه الحكمة. وقيل معناه: للحق وإظهار الحق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفعون بذلك.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن، أي: اقرأه على المكلفين، واعمل بما تضمنه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدها بحدودها في مواقيتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ في هذا دلالة على أن فعل الصلاة لطف للمكلف في ترك القبيح والمعاصي التي ينكرها العقل والشرع، فإن انتهى عن القبيح يكون توفيقاً، وإلا فقد أتى المكلف من قبل نفسه.

وقيل: إن الصلاة بمنزلة الناهي بالقول، إذا قال لا تفعل الفحشاء والمنكر، وذلك لأن فيها التكبير والتسبيح، والتهليل والقراءة، والوقوف بين يدي الله تعالى، وغير ذلك من صنوف العبادة، وكل ذلك يدعو إلى شكله، ويصرف عن ضده، فيكون مثل الأمر والنهي بالقول، وكل دليل مؤدٍّ إلى المعرفة بالحق، فهو داع إليه، وصارف عن الباطل الذي هو ضده.

وقيل معناه: أن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها.

وقيل معناه: أنه ينبغي أن تنهاه، كقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وقال ابن عباس: في الصلاة مَنهىً ومُزدجرٌ عن معاصي الله، فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد من الله إلا بعداً. وقال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه.

وروى أنس بن مالك الجهني عن النبي ﷺ قال: «إنه من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعداً».

وروي عن ابن مسعود أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر». ومعنى ذلك: أن الصلاة إذا كانت ناهية عن المعاصي، فمن أقامها ثم لم ينته عن المعاصي لم تكن صلاته بالصفة التي وصفها الله بها، فإن تاب من بعد ذلك وترك المعاصي، فقد تبين أن صلاته كانت نافعة له ناهية، وإن لم ينته إلا بعد زمان.

وروى أنس: أن فتى من الأنصار كان يصلي الصلاة مع رسول الله ﷺ ويرتكب الفواحش، فوصف ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً».

وعن جابر قال: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل. فقال: «إن صلاته لتردعه».

روى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحب أن يعلم: أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر: هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قبلت منه.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته عن ابن عباس وسلمان وابن مسعود ومجاهد.

وقيل معناه: ذكر العبد لربه أكبر مما سواه وأفضل من جميع أعماله، عن سلمان في رواية أخرى وابن زيد وقتادة.

وروي ذلك عن أبي الدرداء، وعلى هذا فيكون تأويله: أن أكبر شيء في النهي عن الفحشاء ذكر العبد ربه، وأوامره ونواهيه، وما أعده من الثواب والعقاب، فإنه أقوى لطف يدعو إلى الطاعة وترك المعصية، وهو أكبر من كل لطف.

وقيل معناه: ذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة، عن أبي مالك.

وقيل: إن ذكر الله هو التسبيح والتقديس والتهليل، وهو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر، عن الفراء، أي: من كان ذاكراً لله فيجب أن ينهاه ذكره عن الفحشاء والمنكر. وروي عن ثابت البناني قال: إن رجلاً أعتق أربع رقاب، فقال رجل آخر: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم دخل المسجد فأتى حبيب بن أوفى السلمي وأصحابه، فقال: ما تقولون في رجل أعتق أربع رقاب، وإني أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فأيهما أفضل؟ فنظروا هنيهة، فقالوا: ما نعلم شيئاً أفضل من ذكر الله. وعن معاذ بن جبل قال: ما مِن عمَل آدميٍّ عُمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل. وقيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وعنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل». وقال ﷺ: «يا معاذ! إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل، ومن أحبَّ أن يرتع في رياض الجنة، فليكثر ذكر الله عز وجل».

وروي عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال: قال ابن عباس: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: قلت: ذكر الله بالقرآن حسن، وذكره بالصلاة حسن، وبالتسبيح والتكبير والتهليل حسن، وأفضل من ذلك أن يذكر الرجل ربه عند المعصية فينحجز عنها، فقال ابن عباس: لقد قلت قولاً عجيباً، وما هو كما قلت، ولكن ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم بحسبه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير حفص وقتيبة: ﴿ءاية من ربه﴾ على التوحيد، والباقون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على الجمع.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الإفراد قوله ﴿فليأتنا بآية﴾. ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ وحجة الجمع أن في حرف أبي زعموا ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقد تقع آية على لفظ الواحد ويراد به كثرة، كما جاء ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وليس في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على ترجيح من قرأ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ لأنه لما اقترحوا آية قبل: إنما الآيات عند الله. والمعنى: الآية التي اقترحتموها وآيات أخر لم تقترحوها.

اللغة: أصل الجدل: شدة الفتل، يقال: جدلته أجدله جدلاً، إذا فتلته فتلاً شديداً. والجدال: فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه. وقيل: إن أصله من الجدالة، وهي الأرض، فإن كل واحد من الخصمين يروم أن يلقى صاحبه بالجدالة. الخط معروف. الارتياب والريبة: شك مع تهمة.

● **الإعراب:** ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ في محل النصب على الاستثناء من ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وكذلك ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تقديره: وكما أنزلنا إلى أهل الكتاب الكتاب أنزلنا إليك الكتاب. ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ اللام للقسم، وفي الكلام حذف، تقديره: ولو خططته بيمينك أو تلوت قبله كتاباً إذاً والله لارتابوا به. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في موضع رفع بأنه صفة ﴿ءَايَٰتٌ﴾.

● **المعنى:** لما تقدم الأمر بالدعاء إلى الله سبحانه بين عقيبه كيف يدعونهم، وكيف يجادلونهم، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم نصارى بني نجران، وقيل: اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن، وإنما يكون أحسن إذا كانت المناظرة برفق ولين، لإرادة الخير والنفع بها، ومثله قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ والأحسن: الأعلى في الحسن من جهة قبول العقل له، وقد يكون أيضاً أعلى في الحسن من جهة قبول الطبع، وقد يكون في الأمرين جميعاً، وفي هذا دلالة على وجوب الدعاء إلى الله تعالى على أحسن الوجوه وألطفها، واستعمال القول الجميل في التنبيه على آيات الله وحججه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: إلا من أبى أن يقر بالجزية منهم ونصب الحرب، فجادلوا هؤلاء بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية ـ عن مجاهد وسعيد بن جبير.

وقيل: إلا الذين ظلموا منهم بالعناد وكتمان صفة نبينا ﷺ بعد العلم به، عن أبي مسلم.

وقيل: إلا الذين ظلموا منهم بالإقامة على الكفر بعد قيام الحجة، عن ابن زيد.

والأولى أن يكون معناه: إلا الذين ظلموك في جدالهم، أو في غيره مما يقتضي الإغلاظ لهم، فيجوز أن يسلكوا معهم طريقة الغلظة.

وقيل: إن الآية منسوخة بآية السيف، عن قتادة. والصحيح أنها غير منسوخة لأن الجدال على الوجه الأحسن هو الواجب الذي لا يجوز غيره.

﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لهم في المجادلة وفي الدعوة إلى الدين ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: بالكتاب الذي أنزل إلينا، وبالكتاب الذي أنزل اليكم ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مخلصون طائعون ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: علم الكتاب، فحذف المضاف ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام ونظرائه ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ يعني من أسلم منهم، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿بِهِۦ﴾ راجعة إلى النبي ﷺ، ويجوز أن تكون راجعة إلى القرآن، ويحتمل أيضاً أن يريد بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المسلمين، والكتاب القرآن ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني ومن اليهود والنصارى من يؤمن به ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: وما ينكر دلالاتنا إلا الكافرون، ولا يضرك جحودهم.

ثم خاطب نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ أي: وما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً، والمعنى: إنك لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى إليك بالقرآن ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ معناه: وما كنت أيضاً تكتبه بيدك ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى اكتساب الشك في أمرك، وإلقاء الريبة لضعفة الناس في نبوتك، ولقالوا: إنما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الأولين، فلما ساويتهم في المولد والمنشأ ثم أتيت بما عجزوا عنه، وجب أن يعلموا أنه من عند الله تعالى وليس من عندك، إذ لم تجر العادة أن ينشأ الإنسان بين قوم يشاهدون أحواله من عند صغره إلى كبره، ويرونه في حضره وسفره، لا يتعلم شيئاً

من غيره، ثم يأتي من عنده بشيء يعجز الكل عنه وعن بعضه، ويقرأ عليهم أقاصيص الأولين. قال الشريف الأجل المرتضى علم الهدى قدس الله روحه: هذه الآية تدل على أن النبي ﷺ ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة. أمّا بعد النبوة فالذي نعتقده في ذلك التجويز، لكونه عالماً بالكتابة والقراءة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين، وظاهر الآية يقتضي أن النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها، ولأن التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة، لأن المبطلين إنما يرتابون في نبوته ﷺ لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة، فأما بعد النبوة فلا تعلق له بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون قد تعلمها من جبرائيل عليه السلام بعد النبوة. ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني أن القرآن دلالات واضحات في صدور العلماء، وهم النبي ﷺ والمؤمنون به، لأنهم حفظوه ووعوه ورسخ معناه في قلوبهم، عن الحسن.

وقيل: هم الأئمة عليهم السلام من آل محمد، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

وقيل: إن ﴿هُوَ﴾ كناية عن النبي ﷺ، أي: إنه في كونه أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب آيات بينات في صدور العلماء من أهل الكتاب، لأنه منعوت في كتبهم بهذه الصفة، عن الضحاك. وقال قتادة: المراد به القرآن، وأعطى هذه الأمة الحفظ، ومن كان قبلها لا يقرؤون الكتاب إلا نظراً، فإذا طبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا اليسير ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلّا الظالمون﴾ الذين ظلموا أنفسهم بترك النظر فيها، والعناد لها بعد حصول العلم لهم بها. وقيل: يريد بالظالمين كفار قريش واليهود.

﴿وَقَالُوا۟﴾: يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أراد به الآيات التي اقترحوها في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات، وأن يجعل الصفا ذهباً. وقيل: إنهم سألوا آية كآية موسى عليه السلام، من فلق البحر، وقلب العصا حية، وجعلوا ما أتى به من المعجزات والآيات غير آية وحجة، إلقاء للشبهة بين العوام، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح عباده، وينزل على كل نبي منها ما هو أصلح له ولأمته، ولذلك لم تتفق آيات الأنبياء كلها، وإنما جاء كل نبي بفن منها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: منذر مخوف من معصية الله، مظهر طريق الحق والباطل، وقد فعل الله سبحانه ما يشهد بصدقي من المعجزات.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وأهل الكوفة: ويقول: بالياء، والآخرون بالنون.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿وَيَقُولُ﴾ أي: ويقول الموكل بعذابهم ﴿ذُوقُوا﴾ كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: يقولون لهم. ومن قرأ بالنون، فلأن ذلك لما كان بأمره سبحانه جاز أن ينسب إليه. والمعنى: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون، وإنما قيل: ﴿ذُوقُوا﴾ لوصول ذلك إلى المعذبين، واتصاله كوصول المذوق إلى الذائق، قال:

دونك ما جنيته فاحْس وذُق[(١)]

● **الإعراب:** ﴿يُتْلَى﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: متلواً عليهم. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يجوز أن يكون صفة لقوله: ﴿شَهِيدًا﴾ ويجوز أن يكون حالاً، ويجوز أن يكون جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾: اللام جواب قسم مقدر. ﴿بَغْتَةً﴾ منصوب على الحال. ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.

● **المعنى:** لما تقدم طلبهم للآيات أجابهم سبحانه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ بيَّن سبحانه أن في إنزال القرآن دلالة واضحة، ومعجزة لائحة، وحجة بالغة، تنزاح معه العلة، وتقوم به الحجة، فلا يحتاج في الوصول إلى العلم بصحة نبوته إلى غيره، على أن إظهار المعجزات مع كونها إزاحة للعلة تراعى فيه المصلحة. فإذا كانت المصلحة في إظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها، ولو أظهر الله سبحانه الآيات التي اقترحوها ثم لم يؤمنوا لاقتضت الحكمة إهلاكهم بعذاب الاستئصال، كما اقتضت ذلك في الأمم السالفة، وقد وعد الله سبحانه ألا يعذب هذه الأمة بعذاب الاستئصال، وفي هذا دلالة على أن القرآن كاف في المعجز، وأنه في أعلى درجات الإعجاز، لأنه جعله كافياً عن جميع المعجزات، والكفاية بلوغ حد ينافي الحاجة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ معناه: إن في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمة عظيمة الموقع، لأن من تبعه وعمل به نال الثواب وفاز بالجنة ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: وتذكيراً وموعظة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون. وقيل: إن قوماً من المسلمين كتبوا شيئاً من كتب أهل الكتاب، فهددهم سبحانه في هذه الآية، ونهاهم عنه، وقال النبي ﷺ: جئتكم بها بيضاء نقية.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لي بالصدق والإبلاغ، وعليكم بالتكذيب والعناد، وشهادة الله له قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو في كلام معجز قد ثبت أنه من الله سبحانه. وقيل: إن شهادة الله له إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي

(١) دونك أي: خذ. واحسُ فعل أمر من حسا يحسو أي: إشرب.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فيعلم أني على الهدى، وأنكم على الضلالة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: صدقوا بغير الله، عن ابن عباس. وقيل: بعبادة الشيطان، عن مقاتل ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا وحدانية الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ خسروا ثواب الله بارتكاب المعاصي والجحود بالله ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ يا محمد، أي: يسألونك نزول العذاب عاجلًا، لجحودهم صحة ما توعدهم به، كما قال النضر بن الحرث: أمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي: وقت قدره الله تعالى أن يعاقبهم فيه، وهو يوم القيامة، أو أجل قدره الله تعالى أن يبقيهم إليه، لضرب من المصلحة ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ الذي استحقوه ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ العذاب ﴿بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه ووقت مجيئه، ثم ذكر أن موعد عذابهم النار، فقال: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أن العذاب وإن لم يأتهم في الدنيا، فإن جهنم محيطة بهم، أي: جامع لهم، وهم معذبون فيها لا محالة ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ يعني أن العذاب يحيط بهم، لا أنه يصل إلى موضع منهم دون موضع، فلا يبقى جزء منهم إلا وهو معذب في النار، عن الحسن. وهذا كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاء أعمالكم وأفعالكم القبيحة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ﴿يرجعون﴾ بالياء يحيى عن أبي بكر وهشام، والباقون: بالتاء. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ بالثاء، والباقون: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بالباء.

● **الحجة:** قال أبو علي: أما ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء، فلأن الذي قبله على لفظ الغيبة، و﴿ترجعون﴾ على أنه انتقل من الغيبة إلى الخطاب، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وحجة من قرأ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بالباء، قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾، ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ وتكون اللام هنا زائدة كزيادتها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ ويجوز أن يكون بوأنا لدعاء إبراهيم عليه السلام، ويكون المفعول محذوفاً، أي: بوأنا لدعائه ناساً مكان البيت. ومن قرأ: ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ فحجته قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ أي: مقيماً نازلاً فيهم، قال الأعشى:

أثْـوَى وقَـصَّـرَ لـيـلـه لـيُـزوِّدا ومضى وأخلف من قُتيلة موعدا[1]

---

(١) قوله: «وأخلف» أي: صادفها مخلفة وعدها، وقتيلة: اسم معشوقته. وقد مر البيت في ما سبق.

وقال حسان:

ثوى في قريش بضع عشرةِ حجة

أي: أقام فيهم، فإذا تعدى بحرف جر، فزيدت عليه الهمزة، وجب أن يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف جر، وليس في الآية حرف جر. قال أبو الحسن: قرأ الأعمش ﴿لَنُثْوِيَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ ولا يعجبني، لأنك لا تقول: أثويتُه الدار. قال أبو علي: ووجهه أنه كان في الأصل: لنثوينهم من الجنة في غرف، كما يقول: لننزلنَّهم من الجنة في غرف، وحذف الجار كما حذف في قولك:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويقوي ذلك أن الغرف وإن كانت أماكن مختصة، فقد أجريت المختصة من هذه الحروف مجرى غير المختص، نحو قوله:

كما عسل الطريق الثعلب(١)

ونحو: ذهبت الشام عند سيبويه.

● **الإعراب:** ﴿خَالِدِينَ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في موضع جر صفة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ويكون المخصوص بالمدح محذوفاً، أي: نعم أجر العامين الصابرين المتوكلين أجرهم. ويجوز أن يكون المضاف محذوفاً، أي: نعم أجر العاملين أجر الذين صبروا، فحذف المخصوص بالمدح، وأقام المضاف إليه مقامه ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ﴾: موضع ﴿وَكَأَيِّن﴾ مرفوع، و ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ في موضع التبيين له، وقوله: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ صفة للمجرور، ويكون قوله: ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ و ﴿يَرْزُقُهَا﴾ خبره، والجملة خبر ﴿وَكَأَيِّن﴾.

● **الحجة:** قيل: نزلت الآية الأولى في المستضعفين من المؤمنين بمكة، أمروا بالهجرة عنها، عن مقاتل والكلبي. ونزل قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ في جماعة كانوا بمكة يؤذيهم المشركون، فأمروا بالهجرة إلى المدينة، فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه أنه لا عذر لعباده في ترك طاعته، فقال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ يبعد أقطارها، فاهربوا من أرض يمنعكم أهلها من الإيمان والإخلاص في عبادتي، وقال أبو عبد الله عليه السلام: معناه: إذا عصى الله في أرض أنت فيها فاخرج منها إلى غيرها. وقيل معناه: إن أرض الجنة واسعة، عن الجبائي، وأكثر المفسرين على القول الأول ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: اعبدوني خالصاً، ولا تطيعوا أحداً من خلقي في معصيتي، وإياي:

---

(١) وتمام البيت

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق... ا.هـ

وهو مذكور في (جامع الشواهد). وقد مر في الكتاب أيضاً غير مرة.

منصوب بفعل مضمر يفسره ما بعده، وقد مرَّ بيانه. وقيل: إن دخول الفاء للجزاء، والتقدير: إن ضاق بكم موضع فاعبدوني ولا تعبدوا غيري إن أرضي واسعة، أمر سبحانه المؤمنين إذا كانوا في بلد لا يلتئم فيه لهم أمر دينهم أن ينتقلوا عنه إلى غيره. ثم خوفهم بالموت ليهون عليهم الهجرة، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كل نفس أحياها الله بحياة خلقها فيه، ذائقة مرارة الموت بأي أرض كان، فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت فنجازيكم بأعمالكم. ثم ذكر سبحانه ثواب من هاجر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني المهاجرين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لننزلنّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علالي عاليات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال ابن عباس: لنسكننهم غرف الدر والزبرجد والياقوت، ولننزلنهم قصور الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يبقون فيها ببقاء الله ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ لله تلك الغرف. ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على دينهم فلم يتركوه لشدة نالتهم، وأذى لحقهم، وصبروا على مشاق الطاعات وعلى ربهم يتوكلون في مهمات أمورهم، ومهاجرة دورهم.

ثم قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: وكم من دابة لا يكون رزقها مدخراً معداً، عن الحسن. وقيل معناه: لا تطيق حمل رزقها لضعفها، وتأكل بأفواهها، عن مجاهد. وقيل: إن الحيوان أجمع من البهائم والطيور وغيرهما مما يدب على وجه الأرض، لا تدخر القوت لغدها إلا ابن آدم والنملة والفارة، بل تأكل منه قدر كفايتها فقط، عن ابن عباس ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: يرزق تلك الدابة الضعيفة التي لا تقدر على حمل رزقها، ويرزقكم أيضاً، فلا تتركوا الهجرة بهذا السبب. وعن عطاء عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال: يا ابن عمر! مالك لا تأكل؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت مع قوم يخبئون رزق سَنتهم لضعف اليقين». فوالله ما برحنا حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم عند مفارقة أوطانكم، العليم بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من سركم وإعلانكم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا

بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وقالون وأهل الكوفة غير عاصم إلا الأعمش والبرجمي: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا۟﴾ ساكنة اللام، والباقون: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بكسر اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: من كسر اللام وجعلها الجارة كانت متعلقة بالإشراك، المعنى: يشركون ليكفروا، أي: لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر، وليس يرد عليهم الشرك نفعاً إلا الكفر، والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة. ومن قرأ: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا۟﴾ وأراد الأمر كان على معنى التهديد والوعيد، كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾، ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ويدل على ذلك قوله في موضع آخر: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ والإسكان في لام الأمر سائغ.

● **اللغة:** قال أبو عبيدة: الحيوان والحياة واحد، وهما مصدران حي حياة وحيواناً، والحياة عرض يُصيِّر الأجزاء بمنزلة الشيء الواحد، حتى يصح أن يكون قادراً عالماً، وخاصية الحياة الإدراك. والتخطف: تناول الشيء بسرعة، ومنه: اختطاف الطير لصيده.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ منصوب الموضع، فيجوز أن يكون حالاً من ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ والتقدير: منكرين يؤفكون، ويجوز أن يكون مصدراً تقديره: أيَّ إفك يؤفكون ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ جملة في موضع الحال.

● **المعنى:** ثم عجب سبحانه ورسوله والمؤمنون من إيمان المشركين بالباطل، مع اعترافهم بأن الله هو الخالق الفاعل، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: إن سألت يا محمد هؤلاء المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: من أنشأهما وأخرجهما من العدم إلى الوجود ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: من ذللهما وسيَّرهما في دورانهما على طريقة واحدة لا تختلف ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في جواب ذلك ﴿ٱللَّهُ﴾ الفاعل لذلك، لأنهم كانوا يقولون بحدوث العالم والنشأة الأولى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة حجر لا ينفع ولا يضر ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: ويضيق ذلك على قدر ما تقتضيه المصلحة، وإنما خصَّ بذكر الرزق على الهجرة لئلا يخلفهم عنها خوف العيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح عباده فيرزقهم بحسبها ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب عن ذلك ﴿ٱللَّهُ قُلِ﴾: يا محمد عند ذلك ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على كمال قدرته وتمام نعمته، وعلى ما وفقنا للإعتراف بتوحيده والإخلاص في عبادته، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربهم مع إقرارهم بأنه خالق الأشياء، ومنزل المطر من السماء، لأنهم لا يتدبرون، وعن الطريق المفضي إلى الحق يعدلون، فكأنهم لا يعقلون ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ لأنها تزول كما يزول اللهو واللعب، ويستمتع بها الإنسان مدة ثم تنصرم

وتنقطع ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني الجنة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة على الحقيقة، لأنها الدائمة الباقية التي لا زوال لها ولا موت فيها، وتقديره: وإن الدار الآخرة لهي دار الحيوان، أو ذات الحيوان، لأن الحيوان مصدر كالنزوان والغليان، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى: أن حياة الدار الآخرة هي الحياة التي لا تنغيص فيها ولا تكدير و﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الحياة الفانية والحياة الباقية الدائمة، أي: لو علموا لرغبوا في الباقي وزهدوا في الفاني، ولكنهم لا يعلمون ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أخبر الله سبحانه عن حال هؤلاء الكفار، فقال: إنهم إذا ركبوا في السفن في البحر، وهاجت به الرياح، وتلاطمت به الأمواج، وخافوا الهلاك، أخلصوا الدعاء لله، مستيقنين أنه لا يكشف السوء إلا هو، وتركوا شركاءهم فلم يطلبوا منهم إنجاءهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فلما خلصهم إلى البر وأمنوا الهلاك عادوا إلى ما كانوا عليه من الإشراك معه في العبادة ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إن جعلت اللام للأمر فمعناه التهديد، أي: ليجحدوا نعم الله في إنجائه إياهم، وليتمتعوا بباقي عمرهم فسوف يعلمون عاقبة كفرهم، وإن جعلتها لام كي، فالمعنى: إنهم يشركون ليكفروا، وقد مرَّ معناه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء الكفار ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يأمن أهله فيه من القتل والغارة ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي: يقتل بعضهم بعضاً فيما حولهم، وهم آمنون في الحرم، ذكرهم سبحانه النعمة بذلك ليذعنوا له بالطاعة، وينزجروا عن عبادة غيره، ثم قال مهدداً لهم: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بعبادة الأصنام، وهي باطلة مضمحلة ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا ظالم أظلم ممن أضاف إلى الله ما لم يقله، من عبادة الأصنام وغيرها ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقرآن. وقيل بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا استفهام تقرير، أي: أما لهؤلاء الكفار المكذبين مثوى في جهنم، وهذا مبالغة في إنجاز الوعيد لهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار ابتغاء مرضاتنا، وطاعة لنا، وجاهدوا أنفسهم في هواها خوفاً منا. وقيل معناه: اجتهدوا في عبادتنا رغبة في ثوابنا، ورهبة من عقابنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنهدينهم السبل الموصلة إلى ثوابنا ـ عن ابن عباس. وقيل: لنوفقنهم لازدياد الطاعات، فيزداد ثوابهم. وقيل معناه: والذين جاهدوا في إقامة السنة، لنهدينَّهم سبل الجنة. وقيل معناه: والذين يعملون بما يعلمون لنهدينَّهم إلى ما لا يعلمون ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، والثواب والمغفرة في عقابهم، وبالله التوفيق.

سُورَةُ الرُّوم

هي مكية، قال الحسن: إلا قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآية.

● **اختلافها:** أربع آيات ﴿الٓمٓ﴾ كوفي ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ غير الكوفي، والمدني الأخير ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ غير الكوفي، والمدني الأول ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المدني الأول.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد كل ملك سبح لله ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته».

● **تفسيرها:** أجمل في آخر العنكبوت، ذكر المجاهدين، ثم فصل في هذه السورة، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

● **اللغة:** قال الزجاج: الغلب والغلبة مصدر غلبت، مثل الجلب والجلبة، والغلبة: الاستيلاء على القِرن بالقهر. والبضع: القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، وهو من بضعته، أي: قطعته، تبضيعاً، ومنه البضاعة القطعة من المال تدور في التجارة. قال المبرد: البضع ما بين العقدين في جميع الأعداد. والفرح والسرور نظيران، ونقيضهما الغم، وليس شيء من ذلك بجنس، والصحيح أنهما من جنس الاعتقاد.

● **الإعراب:** ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ تقديره: من بعد أن غُلبوا، فالمصدر مضاف إلى المفعول ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ وعْدٌ من الله للمؤمنين، فالمعنى: وعد الله ذلك وعداً.

● **المعنى:** ﴿الٓمٓ﴾ مرَّ تفسيره ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ قال المفسرون: غلبت فارس الروم، وظهروا عليهم على عهد رسول الله ﷺ، وفرح بذلك كفار قريش، من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب، وساء ذلك المسلمين، وكان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين، فدفعتهم فارس عنه. وقوله: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: في أدنى الأرض من أرض العرب، عن الزجاج. وقيل: في أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس، يريد الجزيرة،

وهي أقرب أرض الروم إلى فارس، عن مجاهد. وقيل: يريد أذرعات وكسكر ـ عن عكرمة. ﴿وَهُم﴾ يعني الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: من بعد غلبة فارس إياهم سيغلبون فارس ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وهذه من الآيات الدالة على أن القرآن من عند الله عز وجل، لأن فيه أنباء ما سيكون، وما يعلم ذلك إلا الله عز وجل ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: من قبل أن غلبت الروم، ومن بعد أن غلبت، فإن شاء جعل الغلبة لأحد الفريقين على الآخر، وإن شاء جعل الغلبة للفريق الآخر عليهم، وإن شاء أهلكهما جميعاً ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ويوم يغلب الروم فارساً يفرح المؤمنون بدفع الروم فارساً عن بيت المقدس، لا بغلبة الروم على بيت المقدس، فإنهم كفار. ويفرحون أيضاً لوجوه أخر، وهو اغتمام المشركين بذلك، ولتصديق خبر الله عز وجل وخبر رسوله، ولأنه مقدمة لنصرهم على المشركين ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ من عباده ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في الانتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن أناب إليه من خلقه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وعد الله ذلك ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ بظهور الروم على فارس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ صحة ما أخبرنا لجهلهم بالله تعالى ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي: يعلمون منافع الدنيا ومضارها، ومتى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يجمعون، وكيف يبنون، وهم جهال بالآخرة، فعمروا دنياهم، وخربوا آخرتهم ـ عن ابن عباس. وقال الحسن: بلغ ـ والله ـ من علم أحدهم بدنياه، أن يقلب الدرهم على ظهره فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي. وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فقال: منه الزجر[1] والنجوم.

● **القصة:** عن الزهري قال: كان المشركون يجادلون المسلمين وهم بمكة، يقولون: إن الروم أهل كتاب وقد غلبهم الفرس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أنزل إليكم على نبيكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، وأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قال: فأخبرني عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن أبا بكر ناحب[2] بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء إن لم تغلب فارس في سبع سنين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لم فعلت؟ فكل ما دون العشرة بضع، فكان ظهور فارس على الروم في تسع سنين، ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية، ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب.

وروى أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن ابن عباس في قوله: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قال: قد مضى، كان ذلك في أهل فارس والروم، وكانت فارس قد غلبت عليهم، ثم غلبت الروم بعد ذلك، ولقي نبي الله مشركي العرب، والتقت الروم وفارس، فنصر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المسلمين على مشركي العرب، ونصر أهل الكتاب على مشركي العجم، ففرح المسلمون بنصر الله إياهم، ونصر أهل الكتاب على العجم.

---

(١) الزجر: التيمن والتشاؤم بالطير، والتفاؤل بطيرانها. وهو نوع من الكهانة والعيافة، قيل: وإنما سمي الكاهن زاجراً لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة.

(٢) ناحبه على كذا: راهنه.

قال عطية: وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك، فقال: التقينا مع رسول الله ﷺ، ومشركو العرب، والتقت الروم وفارس، فنصرنا الله على مشركي العرب، ونصر أهل الكتاب على المجوس. ففرحنا بنصر الله إيانا على مشركي العرب، ونصر أهل الكتاب على المجوس، فذلك قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

وقال سفيان الثوري: سمعت أنهم ظهروا يوم بدر. وقال مقاتل: فلما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة، وأخبر رسول الله ﷺ أن الروم غلبت فارساً، ففرح المؤمنون بذلك، وروي أنهم استردوا بيت المقدس، وأن ملك الروم مشى إليه شكراً، وبسطت له الرياحين فمشى عليها.

وقال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدها أبو بكر مع أبي بن خلف حتى غلبت الروم فارساً، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية(1)، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثته، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فتصدق به، وروي أن أبا بكر لما أراد الهجرة تعلق به أبيّ، وأخذ ابنه عبد الله بن أبي بكر كفيلًا، فلما أراد أن يخرج أبيّ إلى حرب أحد، تعلق به عبد الله بن أبي بكر وأخذ منه ابنه كفيلًا. وجرح أبيّ في أحد وعاد إلى مكة فمات من تلك الجراحة، جرحه رسول الله ﷺ، وجاءت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: «لفارس نطحة أو نطحتان»، ثم قال: «لا فارس بعدها أبداً، والروم ذات القرون، كلما ذهب قرن، خلف قرن هبهب، إلى آخر الأبد». والمعنى: أن فارس تنطح نطحة أو نطحتين، فيبطل ملكها ويزول أمرها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير البرجمي والشموني عن أبي بكر: ﴿عَاقِبَةَ﴾ بالنصب، والباقون بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب ﴿عَاقِبَةَ﴾ جعلها خبر كان، ونصبها متقدمة، كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأما اسمها على هذه القراءة فيجوز أن يكون أحد الشيئين: ﴿السُّوأَىٰ﴾ والتقدير: ثم كان السوأى عاقبة الذين أساءوا، ويكون أن كذبوا مفعولًا له،

---

(1) الرومية: بلد.

أي: لأن كذبوا، ولا يجوز أن يكون ﴿كَذَّبُواْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ على هذا، لأنك تفصل بين الصلة والموصول باسم كان.

أو يكون ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ اسم كان، والتقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، ويكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ على هذا مصدراً لأساءوا، لأن فُعْلى من أبنية المصادر، كالرجعى، والشورى، والبشرى، ويدل على أن السوأى والسوء بمنزلة المصدر، ما أنشده أبو عمرو:

أنـى جـزوا عـامـراً سـوءاً بـفـعـلهـم أم كيف يجزونني السوأى من الحسن

ومن رفع ﴿عَٰقِبَةُ﴾ جاز أن يكون الخبر أحد الشيئين ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ كما جاز في النصب أن يكون كل واحد منهما الاسم، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ الذين أشركوا، والتقدير: ثم كانت عاقبة المسيء التكذيب بآيات الله، أي: لم يظفر في كفره وشركه بشيء إلا بالتكذيب. وإذا جعلت ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ نفس الخبر جعلت ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ في موضع نصب بأنه مصدر، وقد يجوز أن يكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صفة لموصوف محذوف، كأنه قال: الخلة السوأى، أو الخلال السوأى.

● **المعنى:** ثم حث سبحانه على التفكر والتدبر فيما يدل على توحيده، من خلق السموات والأرض، ثم في أحوال القرون الخالية، والأمم الماضية، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ أي: في حال الخلوة، لأن في تلك الحالة يتمكن الإنسان من نفسه، ويحضره ذهنه. وقيل معناه: أولم يتفكروا في خلق الله أنفسهم، وَالمعنى: أولم يتفكروا فيعلموا، وحذف لأن في الكلام دليلًا عليه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزجاج: معناه: إلا للحق، أي: لإقامة الحق، ومعناه: للدلالة على الصانع والتعريض للثواب ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ أي: ولوقت معلوم توفى فيه كل نفس ما كسبت. وقيل معناه: خلقها في أوقات قدرها اقتضت المصلحة خلقها فيها ولم يخلقها عبثاً، عن الجبائي.

سؤال: قالوا: كيف يعلم المتفكر في نفسه أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً إلا بالحق؟ وكيف يعلم الآخرة؟

(جواب) قلنا: إذا علم بالنظر في نفسه أنه محدث مخلوق، وأن له محدثاً قديماً، قادراً، عالماً، حياً، وأنه لا يفعل القبيح، وأنه حكيم عليم، وأنه لم يخلقه عبثاً، وإنما خلقه لغرض، وهو التعريض للثواب، وذلك لا يتم إلا بالتكليف، فلا بد إذاً من الجزاء، فإذا لم يوجد في الدنيا فلا بد من دار أخرى يجازى فيها، ويعلم إذا خلق ما لا ينتفع بنفسه، فلا بد أن يكون الغرض أن ينتفع الحي به.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي: بلقاء جزاء ربهم، وبالبعث وبيوم القيامة لجاحدون غير معترفين.

ثم نبههم سبحانه دفعة أخرى، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فهلكوا وبادوا فيعتبروا بهم، لعلمهم أنهم أهلكوا بتكذيبهم ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: وقلبوها، وحرثوها بعمارتها، عن مجاهد ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: أكثر مما عمرها هؤلاء الكفار، لأنهم كانوا أكثر أموالًا، وأطول أعماراً، وأكثر أعداداً، فحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وبنوا الدور، وشيدوا القصور، ثم تركوها وصاروا

إلى القبور، وإلى الهلاك والثبور ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أي: أتتهم رسلهم بالدلالات من عند الله، وفي الكلام حذف تقديره: فجحدوا بالرسل، وكذبوا بتلك الرسل، فأهلكهم الله بالعذاب ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بأن يهلكهم من غير استحقاق ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بأن جحدوا برسل الله، وأشركوا معه في العبادة سواه، حتى استحقوا العذاب عاجلاً وآجلاً.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ إلى نفوسهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله، وارتكاب معاصيه ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: الخلة التي تسوء صاحبها إذا أدركها، وهي عذاب النار، عن ابن عباس وقتادة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

●●●

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ
كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ
ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ
﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ
وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ
خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ﴿**يرجعون**﴾ بالياء أبو عمرو، غير عباس، وأوقية، وسهل، وحماد، ويحيى مختلف عنهما، والباقون: بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَكَذَٰلِكَ تَخۡرُجُونَ﴾ بفتح التاء، والباقون: بضمها وفتح الراء. وفي الشواذ قراءة عكرمة: ﴿حينا تُمسون﴾ وما بعده.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الياء أن المتقدم ذكره غيبة ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ والخلق هم المخلوقون في المعنى، وجاء قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ على لفظ ﴿الخلق﴾ وقوله: ﴿**وإليه يرجعون**﴾ على المعنى، ولم يرجع على لفظ الواحد. ووجه التاء: أنه صار الكلام من الغيبة إلى الخطاب.

وحجة من قرأ: ﴿**يخرجون**﴾ قوله: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ وحجة ﴿**تخرجون**﴾: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وقوله: و﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ و ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾.

وأما قوله: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ فالمراد: تمسون فيه، فحذف - فيه - تخفيفاً على مذهب صاحب الكتاب في نحوه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تجزى فيه. قال ابن

جني: قال سيبويه: حذف فيه معتبطاً لحرف الجر والضمير، لدلالة الفعل عليهما. وقال الحسن: حذف في فبقي تجزيه لأنه أوصل الفعل إليه، ثم حذف الضمير من بعد، فهما حذفان متتاليان شيئاً على شيء.

● **اللغة:** الإبلاس: اليأس من الخير. وقيل: هو التحير عند لزوم الحجة، قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً؟ قال: نعم، أعرفه وأبلسا(١)

الحبْرةُ: المسرة، ومنه الحبر العالم، والحبْر الجمال، وفي الحديث: يخرج رجلٌ من النار ذهب حبْرهُ وسبْرهُ، أي: جماله وسخاؤه. والتحبير: التحسين الذي يسرُّ به، وخُص ذكر الروضة هاهنا، لأنه ليس عند العرب شيء أحسن منها، قال الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحزن مُعشبةٌ خضراءُ جاد عليها مُسبلٌ هطلُ(٢)
يُضاحكُ الشمس منها كوكبٌ شرق مُؤزَّرٌ بعميم النبت مكتهل(٣)
يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ، ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصل(٤)

● **الإعراب:** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ يوم ظرف ليتفرقون ويومئذ: بدل عنه، وموضع الكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب بقوله: ﴿تُخرجون﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قدرته على الإعادة، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يوم تقوم القيامة ييأس الكافرون من رحمة الله تعالى، ونعمه التي يفيضها على المؤمنين. وقيل: يتحيرون وتنقطع حججهم بظهور جلائل آيات الآخرة، التي يقع عندها علم الضرورة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ أي: لم يكن لهم من أوثانهم التي عبدوها ليشفعوا لهم شفعاء تشفع لهم، أو تدفع عنهم كما زعموا: أنا نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى. ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني أن المشركين يتبرؤون

---

(١) المكرس: الذي صار فيه الكرس - بالكسر - وهو الأبوال والأبعار. وأبلس: سكت غماً.

(٢) الأبيات من قصيدة معروفة له، واعتبرها بعضٌ من المعلقات وأولها:

ودع هريرة إنَّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

«ما روضة» «ما» نافية و«روضة» إسمها و«بأطيب» في البيت الثالث خبرها والحزن: ما غلظ من الأرض واختص رياض الحزن لأنها أحسن من رياض الخفوض، والمعشبة: ذات العشب. والمسبل الهطل: المطر المتواتر.

(٣) «يضاحك الشمس» أي: يدور معها حيثما دارت، والمراد من الكواكب هنا الزهر. وقيل: الكواكب معظم النبات. والشرق: الريان الممتلىء ماء. والمؤزر: الذي صار النبت كالإزار له. والعميم: النبت الكثيف الحسن. واكتهل النبت: طال وانتهى منتهاه.

(٤) الأصل - بضمتين - جمع الأصيل، والأصيل من العصر: العشاء، وإنما خص هذا الوقت لأن النبات يكون فهي أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفيء عنه. و«نشر رائحة»: منصوب على التمييز. وقيل: على البيان، وإن كان مضافاً لأن المضاف إلى النكرة نكرة.

من الأوثان، وينكرون كونها آلهة، ويقرون بأن الله لا شريك له، عن الجبائي وأبي مسلم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: تظهر القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فيصير المؤمنون أصحاب اليمين، والمشركون أصحاب الشمال. فيتفرقون تفرقاً لا يجتمعون بعده. وقال الحسن: لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا ليتفرقن يوم القيامة، هؤلاء في أعلى عليين، وهؤلاء في أسفل السافلين، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي: في الجنة ينعمون ويسرون سروراً يبين أثره عليهم، عن قتادة ومجاهد. ومنه قيل: كل حبرة تتبعها عبرة. والروضة: البستان المتناهي منظراً وطيباً. وقال ابن عباس: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي: يكرمون. وقيل: يلذذون بالسماع.

عن يحيى بن أبي كثير والأوزاعي، أخبرنا أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد البيهقي، قال: أخبرنا جدي الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، قال: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد، قال: أخبرنا أبو الحسن علي ابن بندار، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن القرباني، قال: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، قال: حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن خالد بن معدان عن أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين، تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه».

وعن أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي القوم أعرابي فجثا لركبتيه، وقال: يا رسول الله! هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي إن في الجنة نهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء، يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعيم الجنة»، قال الراوي: سألت أبا الدرداء بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح.

وعن إبراهيم: إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع، بعث الله ريحاً من تحت العرش، فتقع في تلك الأشجار، فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً. [هذا الحديث ليس في بعض النسخ، وفي أكثرها موجود](١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها سمواً، وأوسطها محلة، ومنها تنفجر أنهار الجنة»، فقام إليه رجل وقال: يا رسول الله، إني رجل حُبِّب إليّ الصوت، فهل لي في الجنة صوت حسن؟ فقال: «أي، والذي نفسي بيده إن الله تعالى يوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط، والمزامير، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق بمثله قط، من تسبيح الرب».

---

(١) ما بين المعقفتين إنما هو نسخة (صيدا) دون سائر النسخ.

ثم أخبر عن حال الكافرين، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: بدلائلنا وبالبعث يوم القيامة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: فيه محصلون، ولفظة الإحضار لا تستعمل إلا فيما يكرهه الإنسان، يقال: أحضر فلان مجلس القضاء، إذا جيء به لما لا يؤثره، ومنه حضور الوفاة.

ثم ذكر سبحانه ما تدرك به الجنة، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وهذا خبر والمراد به الأمر، أي: فسبحوه ونزهوه عما لا يليق به، أو ينافي تعظيمه من صفات النقص، بأن تصفوه بما لا يليق به من الصفات والأسماء، والإمساء: الدخول في المساء، وهو مجيء الليل، والإصباح: نقيضه، وهو الدخول في الصباح، وهو مجيء ضياء النهار، وله الثناء والمدح في السماوات والأرض، أي: هو المستحق لمدح أهلها لإنعامه عليهم ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: وفي العشي، وحين تدخلون في الظهيرة، وهي نصف النهار، وإنما خص تعالى هذه الأوقات بالذكر بالحمد وإن كان حمده واجباً في جميع الأوقات، لأنها أوقات تذكر بإحسان الله، وذلك أن انقضاء إحسان أول إلى إحسان ثان يقتضي الحمد عند تمام الإحسان الأول والأخذ في الآخر، كما أخبر سبحانه عن حمد أهل الجنة بقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن ذلك حال الانتقال من نعيم الدنيا إلى الجنة.

وقيل: إن الآية تدل على الصلوات الخمس في اليوم والليلة، لأن قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يقتضي المغرب والعشاء الآخرة ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يقتضي صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ يقتضي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يقتضي صلاة الظهر - عن ابن عباس ومجاهد، وهو الأحسن، لأنه خص هذه الأوقات بالذكر.

وقيل: إنما خص صلاة الليل باسم التسبيح، وصلاة النهار باسم الحمد، لأن الإنسان في النهار متقلب في أحوال توجب الحمد لله عليها، وفي الليل على أحوال توجب تنزيه الله تعالى من الأسواء فيها، فلذلك صار الحمد في النهار أخص، فسميت به صلاة النهار، والتسبيح بالليل أخص، فسميت به صلاة الليل.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: يخرج الإنسان من النطفة ويخرج النطفة من الإنسان، عن ابن عباس وابن مسعود. وقيل: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، عن مجاهد. وقد ذكرناه فيما تقدم. ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات بعد جدوبها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: كما أحيا الأرض بالنبات كذلك يحييكم بالبعث، وتخرجون من قبوركم أحياء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن دلالاته على وحدانيته، وكمال قدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: خلق آدم الذي هو أبوكم وأصلكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ثم خلقكم منه، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: ثم إذا أنتم ذرية بشر من لحم ودم، تنبسطون في الأرض وتتصرفون على ظهرها، وتتفرقون في أطرافها، فهلا دلكم ذلك على أنه لا يقدر على ذلك غيره تعالى، وأنه لا يستحق العبادة سواه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿للعالمين﴾ بكسر اللام الأخيرة، والباقون: بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: خص العالمين في رواية حفص، وإن كانت الآية لكافة الناس عالمهم وجاهلهم، لأن العالم لما تدبر فاستدل بما شاهده على ما لم يستدل عليه غيره، صار كأنه ليس بآية لغير العالم، لذهابه عنها وتركه الاعتبار بها، ومن قال: ﴿للعالمين﴾ فلأن ذلك في الحقيقة دلالة وموضع اعتبار، وإن ترك تاركون لغفلتهم، أو لجهلهم التدبر بها، والاستدلال بها.

● **الإعراب:** في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أقوال:

أحدها: أن التقدير: ومن آياته أن يريكم، فلما حذف (أن) ارتفع الفعل، كقول طرفة:

ألا أيُّ هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[1]

وفي المثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وثانيها: أن التقدير ومن آياته آية يريكم البرق بها، ثم حذف لدلالة مِن عليها، ومثله من الشعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح[2]

أي فمنها تارة أموتها، أي: أموت فيها.

وثالثها: أن يكون التقدير: ويريكم البرق خوفاً وطمعاً ومن آياته، فيكون عطفاً لجملة على جملة. وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ منصوبان على تقدير اللام، والتقدير: لتخافوا خوفاً، ولتطمعوا طمعاً. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الجار يتعلق بمحذوف في موضع الحال من الكاف

---

(١) البيت في (جامع الشواهد). وضبط البيت الصحيح:
«ألا أيُّهذا اللّائمي أشهدُ الوغى وأنْ أحضُرَ اللذاتِ هل أنت مخلِدِي»
(راجع شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) لابن الأنباري: ص١٩٢.

(٢) قائله ابن مقبل. والكدح: السعي والحرص في العمل في أمر الدنيا أو الآخرة.

والميم، أي: إذا دعاكم خارجين من الأرض، وإن شئت كان وصفاً للنكرة، أي: دعوة ثابتة من هذه الجهة، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبله.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما قدمه من تنبيه العبيد على دلائل التوحيد، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جعل لكم من شكل أنفسكم، ومن جنبكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ وإنما منّ سبحانه علينا بذلك، لأن الشكل إلى الشكل أميل، عن أبي مسلم. وقيل معناه: أن حواء خُلقت من ضلع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن قتادة. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أن النساء خلقن من نطف الرجال ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: لتطمئنوا إليها وتألفوا بها ويستأنس بعضكم ببعض ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يريد بين المرأة وزوجها، جعل سبحانه بينهما المودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما. قال السدي: المودة: المحبة والرحمة والشفقة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في خلق الأزواج مشاكلة للرجال ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: لدلالات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعتبرون به، ثم نبه سبحانه على آية أخرى فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على توحيده ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما من عجائب خلقه، وبدائع صنعه، مثل ما في السماوات من النجوم والشمس والقمر، وجريها في مجاريها على غاية الاتساق والنظام، وما في الأرض من أنواع الجماد والنبات والحيوان المخلوقة على وجه الإحكام ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ فالألسنة جمع لسان، واختلافها هو أن ينشئها الله تعالى مختلفة في الشكل، والهيئة، والتركيب، فتختلف نغماتها وأصواتها، حتى إنه لا يشتبه صوتان من نفسين وهما أخوان. وقيل: إن اختلاف الألسنة هو اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما، ولا شيء من الحيوانات تتفاوت لغاتها كتفاوت لغات الإنسان، فإن كانت اللغات توفيقاً من قبل الله تعالى فهو الذي فعلها وابتدأها، وإن كانت مواضعة من قبل العباد فهو الذي يسرها ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي: واختلاف ألوانكم، من البياض، والحمرة، والصفرة، والسمرة وغيرها، فلا يشبه أحدٌ أحداً مع التشاكل في الخلقة، وما ذلك إلا للتراكيب البديعة، واللطائف العجيبة الدالة على كمال قدرته وحكمته، حتى لا يشتبه اثنان من الناس ولا يلتبسان مع كثرتهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي: أدلة واضحات ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي: للمكلفين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ بالنهار، وهذا تقديره أي: يصرفكم في طلب المعيشة، والمنام والنوم بمعنى واحد. وقيل: إن الليل والنهار معاً وقت للنوم، ووقت لابتغاء الفضل، لأن من الناس من يتصرف في كسبه ليلاً وينام نهاراً، فيكون معناه: ومن دلائله النوم الذي جعله الله راحة لأبدانكم بالليل، وقد تنامون بالنهار، فإذا انتبهتم انتشرتم لابتغاء فضل الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ذلك فيقبلونه ويتفكرون فيه، لأن من لا يتفكر فيه لا ينتفع به، فكأنه لم يسمعه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ معناه: ومن دلالاته أن يريكم النار تنقدح من السحاب، يخافه المسافر، ويطمع فيه المقيم، عن قتادة. وقيل: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، عن الضحاك. وقيل: خوفاً من أن يخلف ولا يمطر، وطمعاً في المطر، عن أبي مسلم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعد انقطاع الماء عنها وجدوبها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: للعقلاء المكلفين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بلا دعامة تدعمها، ولا علاقة تتعلق بها بأمره لهما بالقيام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقيل: بأمره أي: بفعله وإمساكه، إلا أن أفعال الله عزَّ اسمه تضاف إليه بلفظ الأمر، لأنه أبلغ في الاقتدار، فإن قول القائل: أراد فكان، أو أمر فكان، أبلغ في الدلالة على الاقتدار من أن يقول: فعل فكان، ومعنى القيام: الثبات والدوام، ويقال: السوق قائمة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من القبر، عن ابن عباس: يأمر الله عزَّ اسمه إسرافيل عليه السلام، فينفخ في الصور بعدما يصور الصور في القبور، فيخرج الخلائق كلهم من قبورهم ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض أحياء. وقيل: إنه سبحانه جعل النفخة دعاء، لأن إسرافيل يقول: أجيبوا داعي الله، فيدعو بأمر الله سبحانه. وقيل إن معناه: أخرجكم من قبوركم بعد أن كنتم أمواتاً فيها. فعبر عن ذلك بالدعاء، إذ هو بمنزلة الدعاء وبمنزلة كن فيكون، في سرعة تأتي ذلك وامتناع التعذر، وإنما ذكر سبحانه هذه المقدورات على اختلافها ليدل عباده على أنه القادر الذي لا يعجزه شيء، العالم الذي لا يعزب عنه شيء، وتدل هذه الآيات على فساد قول من قال: إن المعارف ضرورية، لأن ما يعرف ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾، ﴿لَّكُم﴾ الجار والمجرور في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، والمبتدأ ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ و ﴿مِّن﴾ مزيدة، ومن في قوله: ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ تتعلق بما يتعلق به اللام، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، ويكون في موضع نصب على الحال، والعامل في الحال ما يتعلق به اللام. ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: جملة في موضع نصب، لأنه جواب قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ وتقديره: فتستووا، وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي: تخافون أن يساووكم كخيفتكم مساواة بعضكم بعضاً. ﴿حَنِيفًا﴾ نصب عن

الحال. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بمعنى إتبع فطرة الله، لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ إتبع الدين القيم، فيكون بدلًا من وجهك في المعنى.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه بعد أن ذكر الدلالات الدالة على توحيده: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من العقلاء يملكهم ويملك التصرف فيهم، وإنما خص العقلاء لأن ما عداهم في حكم التبع لهم، ثم أخبر سبحانه عن جميعهم فقال: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: كل له مطيعون في الحياة والبقاء، والموت والبعث، وإن عصوا في العبادة، عن ابن عباس. وهذا مفسر في سورة البقرة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يخلقهم إنشاء، ويخترعهم ابتداء، ثم يعيدهم بعد الإفناء، فجعل سبحانه ما ظهر من ابتداء خلقه، دليلًا على ما خفي من إعادته، استدلالًا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ هو: يعود إلى مصدر ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ فالمعنى: والإعادة أهون. وقيل فيه أقوال:

أحدها: أن معناه: وهو هين عليه، كقوله: الله أكبر، أي: كبير لا يدانيه أحد في كبريائه، وكقول الشاعر:

لعمرك ما أدري، وإني لأوجلُ ... على أينا تغدو المنية أولُ

فمعنى لأوجل: أي وجِل. وقال الفرزدق:

إن الذي سمَك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول

أي: عزيزة طويلة، وقد قيل فيه: إنه أراد أعز وأطول من دعائم بيوت العرب، وقال آخر:

تمنى رجال أن أموت، وإن أمت ... فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد

أي: بواحد، هذا قول أهل اللغة.

والثاني: أنه إنما قال: ﴿أَهْوَنُ﴾ لما تقرر في العقول أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، ومعنى ﴿أَهْوَنُ﴾: أيسر وأسهل، وهم كانوا مقرين بالإبتداء. فكأنه قال لهم: كيف تقرون بما هو أصعب عندكم، وتنكرون ما هو أهون عندكم؟!

الثالث: أن الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الخلق وهو المخلوق، أي: والإعادة على المخلوق أهون من النشأة الأولى، لأنه إنما يقال له في الإعادة: كن فيكون، وفي النشأة الأولى كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم كسيت العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح. فهذا على المخلوق أصعب، والإنشاء يكون أهون عليه. وهذا قول النحويين، ومثله يروى عن ابن عباس، قال: وهو أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون. وأما ما يروى عن مجاهد أنه قال: الإنشاء أهون عليه من الابتداء، فقوله مرغوب عنه، لأنه تعالى لا يكون عليه شيء أهون من شيء.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: وله الصفات العليا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهي أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لأنها دائمة يصفه بها الثاني كما يصفه بها الأول، عن قتادة. وقيل: هي أنه

ليس كمثله شيء، عن ابن عباس. وقيل: هي جميع ما يختص به عزّ اسمه من الصفات العلى التي لا يشاركه فيها سواه، والأسماء الحسنى التي تفيد التعظيم كالقاهر والإله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه.

ثم احتج سبحانه على عبدة الأوثان، فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بيِّن لكم شبهاً لحالكم ذلك المثل من أنفسكم، ثم بينه فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي: من عبيدكم وإمائكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من المال والأملاك والنعم، أي: هل يشاركونكم في أموالكم، وهو قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: فأنتم وشركاؤكم من عبيدكم، وإمائكم، فيما رزقناكم شرَع سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن يشاركوكم فيما ترثونه من آبائكم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كما يخاف الرجل الحر، شريكه الحر في المال يكون بينهما، أن ينفرد دونه فيه بأمر، وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث أن يشاركه، لأنه يحبّ أن ينفرد به، فهو يخاف شريكه، يعني أن هذه الصفة لا تكون بين المالكين والمملوكين، كما تكون بين الأحرار، ومعنى ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ هاهنا: أمثالكم من الأحرار، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ وكقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: بأمثالهم من المؤمنين والمؤمنات، والمعنى: أنكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم، وأملاككم، فكيف ترضون لربكم أن يكون له شركاء في العبادة. قال سعيد بن جبير: لأنه كانت تلبية قريش: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فأنزل الله تعالى الآية رداً عليهم، وإنكاراً لقولهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ميزنا لكم هذه الأدلة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيتدبرون ذلك.

ثم قال سبحانه مبيناً لهم أنهم إنما اتبعوا أهواءهم فيما أشركوا به ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعلمونه جاءهم من الله ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فمن يهدي إلى الثواب والجنة من أضله الله عن ذلك، عن الجبائي. وقيل معناه: من أضل عن الله الذي هو خالقه ورازقه، والمنعم عليه، مع ما نصبه له من الأدلة، فمن يهديه بعد ذلك، عن أبي مسلم قال: وهو من قولهم: أضل فلان بعيره، بمعنى ضل بعيره عنه، قال الشاعر:

هبوني امرأً منكم أضل بعيره ... له ذمة إن الذمام كثير

وإنما المعنى: ضل بعيره عنه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله تعالى إذا حلّ بهم.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، والمراد جميع المكلفين، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أقم قصدك للدين. والمعنى: كن معتقداً بالدين. وقيل معناه: اثبت ودم على الاستقامة. وقيل معناه: أخلص دينك، عن سعيد بن جبير. وقيل معناه: سدد عملك فإن الوجه ما يتوجه إليه، وعمل الإنسان ودينه مما يتوجه الإنسان إليه لتشديده، وإقامته ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً إليه ثابتاً عليه مستقيماً فيه، لا يرجع عنه إلى غيره ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ الملة:

وهي الدين والإسلام والتوحيد التي خلق الناس عليها ولها وبها، أي: لأجلها والتمسك بها، فيكون كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وهو كما يقول القائل لرسوله: بعثتك على هذا ولهذا وبهذا، والمعنى واحد، ومنه قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه». وقيل معناه: إتبع من الدين ما دلك عليه فطرة الله، وهو ابتداء خلقه للأشياء، لأنهم خلقهم وركبهم وصورهم على وجه يدل على أن لهم صانعاً قادراً عالماً حياً قديماً واحداً لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، عن أبي مسلم ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لدين الله الذي أمر الناس بالثبات عليه في التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله، عن الضحاك ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وإبراهيم وابن زيد، وقالوا: إن ﴿لَا﴾ هاهنا بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا دين الله التي أمرتم بالثبات عليه. وقيل: المراد به النهي عن الخصاء، عن ابن عباس وعكرمة. وقيل معناه: لا تبديل لخلق الله فيما دل عليه، بمعنى أنه فطرة الله على وجه يدل على صانع حكيم، فلا يمكن أن يجعله خلقاً لغير الله، حتى يبطل وجه الاستدلال، عن أبي مسلم. والمعنى: إنما دلت عليه الفطرة لا يمكن فيه التبديل ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الدين المستقيم الذي يجب اتباعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ذلك لعدولهم عن النظر فيه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
(٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا
مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾ بالألف، والباقون ﴿فَرَّقُوا﴾ وقد مضى بيانه في سورة الأنعام، وفي الشواذ قراءة أبي العالية: ﴿فيُمتَّعوا فسوف يَعلمون﴾ ومعناه: تطول أعمارهم على كفرهم فسوف يعلمون تهديداً على ذلك.

● **اللغة:** الإنابة: الانقطاع إلى الله بالطاعة، فأصله على هذا القطع، ومنه الناب لأنه قاطع، وينيب في الأمر: إذا نشب فيه كما ينشب الناب القاطع، ويجوز أن يكون من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد مرة، فتكون الإنابة التوبة التي يجددها مرة بعد مرة. والشيع: الفرق، وكل فرقة شيعة على حدة، سموا بذلك لأن بعضهم يشيّع بعضاً على مذهبه، فشيعة الحق هم الذين اجتمعوا على الحق، وكذلك شيعة أمير المؤمنين عليه السلام هم الذين اجتمعوا معه على الحق.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال الزجاج: زعم جميع النحويين أن معناه: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، لأن مخاطبة النبي ﷺ تدخل معه فيها الأمة، والدليل على ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، فقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ معناه: فأقيموا وجوهكم منيبين

إليه، أي: راجعين إلى كل ما أمر به مع التقوى وأداء الفرض، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ ثم أخبر سبحانه أنه لا ينفع ذلك إلا بالإخلاص في التوحيد، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي لا تكونوا من أهل الشرك من جملة الذين فرقوا دينهم، عن الفراء. ويجوز أن يكون قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ ابتداء كلام، ومعناه: الذين أوقعوا في دينهم الاختلاف، وصاروا ذوي أديان مختلفة، فصار بعضهم يعبد وثناً، وبعضهم يعبد ناراً، وبعضهم شمساً، إلى غير ذلك، وقد تقدم تفسيره في سورة الأنعام و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل أهل ملة بما عندهم من الدين راضون، عن مقاتل. وقيل: كل فريق بدينهم معجبون مسروررون، يظنون أنهم على حق ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم﴾ أي: إذا أصابهم مرض أو فقر أو شدة دعوا الله تعالى ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: منقطعين إليه، مخلصين في الدعاء له ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بأن يعافيهم من المرض، أو يغنيهم من الفقر، أو ينجيهم من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يعودون إلى عبادة غير الله، على خلاف ما يقتضيه العقل من مقابلة النعم بالشكر. ثم بين سبحانه أنهم يفعلون ذلك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم، إذ لا غرض في الشرك إلا كفران نعم الله سبحانه. وقيل: إن هذه اللام للأمر على معنى التهديد، مثل قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ثم قال سبحانه يخاطبهم مهدداً لهم: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بهذه الدنيا، وانتفعوا بنعيمها الفاني كيف شئتم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ هذا استفهام مستأنف، معناه: بل أنزلنا عليهم برهاناً وحجة يتسلطون بذلك على ما ذهبوا إليه ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فذلك البرهان كأنه يتكلم بصحة شركهم، ويحتج لهم به، والمعنى: أنهم لا يقدرون على تصحيح ذلك، ولا يمكنهم ادعاء برهان وحجة عليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ النَّاسِ
فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)
اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: ﴿وما أتيتم من ربا﴾ مقصورة الألف غير ممدودة، وقرأ الباقون: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ بالمد. وقرأ أهل المدينة ويعقوب وسهل: ﴿لتربوا﴾ بالتاء وضمها وسكون الواو، والباقون: ﴿لِيَرْبُوَا﴾ بالياء وفتحها ونصب الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: معنى ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ ما آتيتم من هدية أهديتموها لتعوَّضوا ما هو أكثر منه، وتُكافؤوا أزيد منه، فلا يربو عند الله لأنكم إنما قصدتم إلى زيادة العوض، فلم تبتغوا في ذلك وجه الله، ومثل هذا في المعنى قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ فمن مد ﴿ءَاتَيْتُم﴾ فلأن المعنى أعطيتم، ومن قصر فإنه يؤول في المعنى إلى قول من مد، إلا أن أتيتم على لفظ جئتم، كما تقول: جئت زيداً، فكأنه قال: ما جئتم من ربا، ومجيئهم لذلك إنما هو على وجه الإعطاء له، كما تقول أتيت الخطأ وأتيت الصواب، قال الشاعر:

أتيت الذي يأتي السفيه لغرّتي، إلى أن علا وخطٌ من الشيب مَفرقي[1]

فإتيانه الذي يأتيه السفيه إنما هو فعل منه له، قال: ولم يختلفوا في مد ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ فهو كقوله: ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وإن كان لو قال: أتيت الزكاة، لجاز أن يعني به فعلتُها، ولكن الذي جاء منه في التنزيل وفي سائر الكلام الإيتاء. ومن قرأ ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ فإن فاعله الربا المذكور في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ وقدر المضاف وحذفه، كأنه في اجتلاب أموال الناس واجتذابه ونحو ذلك، وكأنه سمى هذا المدفوع عن وجه اجتلاب الزيادة ربا، ولو قصد به وجه الله لما كان الغرض فيه الاستزادة على ما أعطى، فسمي باسم الزيادة. والرباء هو الزيادة، بذلك سمي المحرم المتوعد فاعله، وبالزيادة ما يأخذ على ما أعطى، والمدفوع ليس في الحقيقة ربا، وإنما المحرم الزيادة التي يأخذها زيداً على ما أعطى، فسمي الجميع ربا، فكذلك ما أعطاه الواهب المُهدي لاستجلاب الزيادة، سمي ربا لمكان الزيادة المقصودة في المكافأة، فوجه ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: ليربو ما آتيتم فلا يربو عند الله، لأنه لم يقصد به وجه البر والقربة، إنما قصد به اجتلاب الزيادة، ولو قصد به وجه الله تعالى لكان كقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي صاروا ذوي أضعاف من الثواب على ما آتوا من الزكاة، يعطَون بالحسنة عشراً ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وقول نافع ﴿لتربوا﴾ أي: لتصيروا ذوي زيادة فيما آتيتم من أموال الناس، أي: تستدعونها وتجتلبونها، وكأنه من أربى، أي صار ذا زيادة مثل أقطف وأجرب.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المشركين، عقبه سبحانه بذكر أحوالهم في البطر عند النعمة، واليأس عند الشدة، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: إذا آتيناهم نعمة من عافية، وصحة جسم، أو سعة رزق، أو أمن ودعة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: سروا بتلك الرحمة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وإن أصابهم بلاء وعقوبة بذنوبهم التي قدموها، وسمي ذلك سيئة توسعاً، لكونه جزاء على السيئة، عن الجبائي. وقيل: وإن يصبهم قحط، وانقطاع مطر وشدة، وسميت سيئة لأنها تسوء صاحبها ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من رحمة الله، وإنما قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ولم يقل: بما قدموا على التغليب للأظهر الأكثر، فإن أكثر العمل لليدين، والعمل للقلب وإن كان كثيراً فإنه أخفى، ثم نبههم سبحانه على توحيده، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق لمن يشاء على حسب ما تقتضيه مصالح

---

(١) الوخط: ظهور الشيب في الرأس. ووخط فلان: إذا شاب رأسه.

العباد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في بسط الرزق لقوم، وتضييقه لقوم آخرين ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله. ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: وأعط ذوي قرباك يا محمد حقوقهم التي جعلها الله لهم من الأخماس، عن مجاهد والسدي. وروى أبو سعيد الخدري وغيره: أنه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً وسلمه إليها، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إنه خطاب له ﷺ ولغيره، والمراد بالقربى: قرابة الرجل، وهو أمر بصلة الرحم بالمال والنفس، عن الحسن. ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ معناه: وآت المسكين والمسافر المحتاج ما فرض الله لهم في مالك ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: إعطاء الحقوق مستحقيها خير ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ بالإعطاء دون الرياء والسمعة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بثواب الله ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ قيل في الربا المذكور في الآية قولان:

أحدهما: أنه ربا حلال، وهو أن يعطي الرجل العطية، أو يهدي الهدية ليثاب أكثر منها، فليس فيه أجر ولا وزر، عن ابن عباس وطاوس، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

والقول الآخر: أنه الربا المحرم، عن الحسن والجبائي. فعلى هذا يكون كقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أي: وما أعطيتموه أهله على وجه الزكاة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: ثواب الله ورضاه، ولا تطلبون بها المكافأة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: فأهلها هم المضعفون يضاعف لهم الثواب. وقيل: المضعفون ذوو الإضعاف في الحسنات، كما يقال: رجل مُقوٍ، أي: ذو قوة، وموسر أي: ذو يسار. وقيل: للمال في العاجل وللثواب في الآجل، لأن الله سبحانه جعل الزكاة سبباً لزيادة المال، ومنه الحديث: «ما نقص مال من صدقة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: فرض الله تعالى الصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبيباً للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، وصلة الأرحام منماة للعدد... في كلام طويل. وبدأ سبحانه في الآية بالخطاب ثم ثنى بالخبر، وذلك معدود في الفصاحة. ثم عاد إلى دليل التوحيد فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم وأنشأ خلقكم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: أعطاكم أنواع النعم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد ذلك ليصح إيصالكم إلى ما عرضكم له من الثواب الدائم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ليجازيكم على أفعالكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ التي عبدتموها من دونه ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ أو يقدر عليه فيجوز لذلك توجه العبادة إليه. ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يشرك معه في العبادة، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا

مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **اللغة:** الصدع: الشق، وتصدع القوم: تفرقوا، قال:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا(١)

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما أصاب الخلق بسبب ترك التوحيد، فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ ومعناه: ظهر قحط المطر، وقلة النبات في البر حيث لا يجري نهر، وهو البوادي والبحر، وهو كل قرية على شاطىء نهر عظيم ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة، عن ابن عباس. وليس المراد بالبر والبحر في الآية كل بر وبحر في الدنيا، وإنما المراد به حيث ظهر القحط بدعاء النبي ﷺ، فعلى هذا يكون التقدير: ظهر عقوبة الفساد في البر والبحر. قال الفراء: أجدب البر وانقطعت مادة البحر بذنوبهم، وكان ذلك ليذوقوا الشدة في العاجل، ويجوز أيضاً أن يسمى الهلاك والخراب فساداً كما يسمى العذاب سوءاً، وإن كان ذلك حكمة وعدلاً. وقيل: البر ظهر الأرض، والبحر: المعروف، والفساد: ارتكاب المعاصي، عن أبي العالية. وقيل: فساد البر قتل قابيل بن آدم أخاه، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً، عن مجاهد. وقيل: ولاة السوء في البر والبحر. وقيل: فساد البر ما يحصل فيه من المخاوف المانعة من سلوكه، ويكون ذلك بخذلان الله تعالى لأهله والعقاب به، وفساد البحر: اضطراب أمره، حتى لا يكون للعباد متصرف فيه، وكل ذلك ليرتدع الخلق عن معاصيه. وقيل: البر البرية، والبحر الريف(٢) والمواضع الخصبة، وأصل البر من البرّ لأنه يُبَرُّ بصلاح المقام فيه، وكذلك البُر لأنه يُبَرُّ بصلاحه في الغذاء أتم صلاح. وأصل البحر الشق، لأنه شق في الأرض، ثم كثر فسمي الماء الملح بحراً، أنشد ثعلب:

وقد عاد عذب الماء بحراً فزادني على مرضي أن أبحر المشرب العذب(٣)

---

(١) البيت منسوب إلى متمم بن نويرة: قاله في مرثية أخيه مالك بن نويرة حين قتله خالد بن الوليد، وبعده:

«فلما تفرقنا كأني ومالك بطول اجتماع لم نبت ليلة معا»

وندماني جذيمة قيل: هما الفرقدان - قاله في منتهى الأرب - وقيل: هما مالك وعقيل نديما جذيمة الأبرش، ملك الحيرة، صاحب الزباء، قتلهما في حال السكر، فلما أصبح ندم وبنى على قبريهما طربان، وكان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه... ولكن الظاهر القول الأول وقد ورد نظيره في كلمات الشعراء. قال عمرو بن معد يكرب:

«وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان»

أي حتى الفرقدان.

(٢) الريف: أرض فيها زرع وخصب.

(٣) أبحر الماء: صار ملحاً.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: جزاء بما عمله الناس، من الكفر والفسوق، وقيل معناه: بسوء أفعالهم وشؤم معاصيهم ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ أي: ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها من المعاصي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليرجعوا عنها في المستقبل. وقيل معناه: ليرجع من يأتي بعدهم عن المعاصي.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس بأمر ولكنه مبالغة في العظة. وروي عن ابن عباس أنه قال: من قرأ القرآن وعمله سار في الأرض، لأن فيه أخبار الأمم ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ﴾ من الملوك العاتية، والقرون العاصية كيف أهلكهم الله، وكيف صارت قصورهم قبورهم، ومحاضرهم مقابرهم، فلم يبق لهم عين ولا أثر، ثم بين أنه فعل ذلك بهم لسوء صنيعهم، فقال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة، أي: لا تعدل عنه يميناً ولا شمالاً، فإنك متى فعلت ذلك أداك إلى الجنة، وهو مثل قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا يرده أحد من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون فيه، فريق في الجنة، وفريق في السعير، عن قتادة وغيره ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ﴾ أي: عقوبة كفره، لا يعاقب أحد بذنبه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطئون لأنفسهم منازلهم، يقال: مهدت لنفسي خيراً، أي: هيأته ووطأته، والمعنى: أن ثواب ذلك يصل إليهم، ويتمهد أحوالهم الحسنة عند الله، وهذا توسع، يقول: من أصلح عمله فكأنه فرش لنفسه في القبر والقيامة وسوى مضجعه ومثواه. وروى منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة، فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ أي: ليجزيهم على قدر استحقاقهم ويزيدهم من فضله. وقيل معناه: بسبب فضله، لأنه خلقه وهداه ومكنه، وأزاح علته حتى استحق الثواب. وقيل: من فضله: يعني فضلاً من فضله، وثواباً لا ينقطع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يريد كرامتهم ومنفعتهم، وإنما يريد عقابهم جزاء على كفرهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن ذكوان: ﴿كسْفاً﴾ بسكون السين، والباقون: بتحريكها، وقد مضى القول فيه. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ على الجمع، والباقون: ﴿أثر﴾ بغير الألف على الواحد. وروي عن علي عليه السلام وابن عباس والضحاك ﴿من خلله﴾ وعن الجحدري وابن السميقع وأبي حيوة ﴿كيف تحيي﴾ بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: الإفراد في «أثر» لأنه مضاف إلى مفرد، وجاز الجمع لأن ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وقوله: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾: يجوز أن يكون فاعل يحيي الضمير العائد إلى أثر، ويجوز أن يكون الضمير العائد إلى اسم الله وهو الأولى، ومن رد الضمير إلى أثر لزمه أن يقول: ﴿تحيي﴾ بالتاء إذا قرأ ﴿ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ فأما من قرأ: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فيجوز أن يكون خلل واحد خلال، كجبل وجبال، ويجدر أن يكون خلال واحداً عاقب خللًا، كالصَّلاً والصِّلاء، ومن قرأ: ﴿إلى إثر رحمت الله كيف تحيي﴾ بالتاء، فإنما جاز ذلك ـ وإن كان لا يجوز أما ترى إلى غلام هند كيف تضرب زيداً بالتاء ـ لأن الرحمة قد يقوم مقامها أثرها، ولا يقوم مقام هند غلامها، تقول: رأيت عليك النعمة، ورأيت عليك أثر النعمة، ولا يعبر عن هند بغلامها.

● **الإعراب:** ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ عطف على المعنى، وتقديره: يرسل الرياح ليبشركم بها وليذيقكم. وقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تقديره: أي مشيئة يشاء، فيكون مفعولًا مطلقاً لـ ﴿يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ يجوز أن يكون ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿يُحْيِ﴾ وذو الحال الضمير المستكن في يحيي، أو الأرض، والتقدير: أمبدعاً يحيي الأرض أم لا، أو مبدعة يحيي الأرض أم لا، ويجوز أن يكون على تقدير المصدر، أيّ: أي إحياء يحيي الأرض.

قال ابن جني: والجملة منصوبة الموضع على الحال حملًا على المعنى لا على اللفظ، وذلك أن اللفظ استفهام، والحال ضرب من الخبر. والاستفهام والخبر معنيان متدافعان، وتلخيص كونها حالًا أنه كأنه قال: فانظر إلى آثار رحمة الله محيية للأرض، كما أن قوله:

ما زلت أسعى بينهم وأختبط   حتى إذا جاء الظلام المختلط
جاؤوا بضيح: هل رأيت الذئب قط؟[1]

فقوله: «هل رأيت الذئب قط»: جملة استفهامية في موضع وصف لضيح، حملًا على المعنى دون اللفظ، فكأنه قال: جاؤوا بضيح يشبه لونه لون الذئب، والضيح: اللبن المخلوط بالماء، وهو يضرب إلى الخضرة والطلسة.

---

(١) نسبه في (جامع الشواهد) إلى أحمد الرجاز، ونسبه بعض إلى رؤبة بن العجاج، وقال في (شرح الأشموني): «ومن الناس من ينسب الرجز للعجاج بن رؤبة الراجز المشهور. ومنهم من يقول لرجل، ولم يعينوه» «انتهى». يصف الراجز قوماً نزل بهم فأطالوا انتظاره في إطعامه. ثم جاءوه بضيح. وفي (جامع الشواهد)، وغيره: «جاؤوا بمذق»، ومعناهما واحد.

● **المعنى**: ولمّا وعد الله سبحانه وأوعد فكأن قائلاً قال: ما أصل ما يجزي الله عليه بالخير، فقيل: العبادة، وأصل عبادة الله معرفته، ومعرفته إنما تكون بأفعاله، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ومن أفعاله الدالة على معرفته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر، فكأنها ناطقات بالبشارة، لما فيها من الدلالة عليه، وإرسال الرياح تحريكها، وإجراؤها في الجهات المختلفة، تارة شمالًا، وتارة جنوباً، صبا، وأخرى دبوراً، على حسب ما يعلم الله في ذلك من المصلحة ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: وليصيبكم من نعمته، وهي الغيث، وتقديره: أنه يرسل الرياح للبشارة والإذاقة من الرحمة ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بها ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتطلبوا بركوب السفن الأرياح. وقيل: لتطلبوا بالأمطار فيما تزرعونه من فضل الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله، تلطف سبحانه بلفظ لعلكم في الدعاء إلى الشكر، كما تلطف في الدعاء إلى البر بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ تسلية له في تكذيب قومه إياه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، والآيات الباهرات، وهاهنا حذف، تقديره: فكذبوهم وجحدوا بآياتنا، فاستحقوا العذاب ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي: عاقبناهم بتكذيبهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. معناه: ودفعنا السوء والعذاب عن المؤمنين، وكان واجباً علينا نصرهم، بإعلاء الحجة، ودفع الأعداء عنهم، إلا أنه دلّ على المحذوف قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجاءت الرواية عن أم الدرداء أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من امرىء مسلم يردُّ عن عِرض أخيه، إلا كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم قال سبحانه مفسراً لما أجمله في الآية المتقدمة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: فتهيج سحاباً فتزعجه ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ الله ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إن شاء بسطه مسيرة يوم، وإن شاء بسطه مسيرة يومين، ويجريها إلى أي جهة شاء، وإلى أي بلد شاء ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي: قطعاً متفرقة، عن قتادة. وقيل: متراكباً بعضه على بعض حتى يغلظ، عن الجبائي. وقيل: قطعاً تغطي ضوء الشمس، عن أبي مسلم ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي القطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من خلال السحاب ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الودق ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون، ويبشر بعضهم بعضاً به ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ معناه: وإنهم كانوا من قبل إنزال المطر عليهم قانطين آيسين من نزول المطر، عن قتادة. وكرر كلمة ﴿مِن قَبْلِ﴾ للتوكيد، عن الأخفش. وقيل: إن الأول من قبل الإنزال للمطر، والثاني من قبل الإرسال للرياح ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ حتى أنبتت شجراً ومرعى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: بعد أن كانت مواتاً يابسة، جعل الله سبحانه اليبس والجدوبة بمنزلة الموت، وظهور النبات فيها بمنزلة الحياة توسعاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ أي: إن الله تعالى يفعل ما ترون، وهو الله تعالى ليحيي الموتى في الآخرة، بعد كونهم رفاتاً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مرَّ معناه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وعباس عن أبي عمرو: ﴿ولا يسمع الصمُّ﴾ والباقون ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وقد ذكرناه في سورة النمل. وقرأ عاصم وحمزة: ﴿من ضَعفٍ﴾ بالضم، والباقون بفتح الضاد، وقد ذكرناه في سورة الأنفال.

● **الإعراب:** جواب الشرط من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ قد حذف، لأنه قد أغنى عنه جواب القسم، لأن المعنى في قوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾ ليظلن، كما أن قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ بمعنى: إن نرسل، فجواب القسم قد ناب عن الأمرين، وكان أحق بالحكم لتقدمه على الشرط، ولو تقدم الشرط لكان الجواب له، كقولك: إن أرسلنا ريحاً ظلوا والله يكفرون، واللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾ يسميها البصريون: لام توطئة القسم، ويسميها الكوفيون: لام إنذار القسم، والمعنى: ظل يفعل في صدر النهار، وهو الوقت الذي فيه الظل للشمس.

● **المعنى:** ثم عاب سبحانه كافر النعمة، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مؤذنة بالهلاك باردة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: فرأوا النبت والزرع، الذي كان من أثر رحمة الله مصفراً من البرد بعد الخضرة والنضارة. وقيل: إن «الهاء» يعود إلى السحاب، ومعناه: فرأوا السحاب مصفراً، لأنه إذا كان كذلك لم يكن فيه مطر ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لصاروا من بعد أن كانوا راجين مستبشرين، يكفرون بالله وبنعمته، ولم يرضوا بقضاء الله تعالى فيه، فِعل مَن جهل صانعه ومدبره، ولا يعلم أنه حكيم لا يفعل إلا الأصلح، فيشكر عند النعمة، ويصبر عند الشدة. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ﴾ يا محمد ﴿الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ شبه الكفار في ترك تدبرهم فيما يدعوهم إليه النبي ﷺ تارة بالأموات وتارة بالصم، لأنهم لا ينتفعون بدعاء الداعي، فكأنهم لا يسمعون ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: إذا أعرضوا عن أدلتنا ذاهبين إلى الضلال والفساد، غير سالكين سبيل الرشاد ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ يعني: أنهم كالعمي لا يهتدون بالأدلة، ولا تقدر على ردهم عن العمى إذ لم يطلبوا الاستبصار ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: ليس تسمع إلا من يصدق بآياتنا وأدلتنا، فإنهم المنتفعون بدعائك وإسماعك ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لأمر الله.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الأدلة، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: من نطف. وقيل معناه: خلقكم أطفالاً لا تقدرون على البطش، والمشي والتصرفات ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي: شباباً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ يعني حال الشيخوخة والكبر ﴿يَخْلُقُ مَا

﴿يَشَآءُ﴾ من ضعف وقوة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما فيه مصالح خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على فعله يفعل بحسب ما يعلمه من المصلحة. ثم بين سبحانه حال البعث، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون ما لبثوا في القبور غير ساعة واحدة، عن الكلبي ومقاتل. وقيل: يحلفون ما مكثوا في الدنيا غير ساعة، لاستقلالهم مدة الدنيا. وقيل: يحلفون ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ بعد انقطاع عذاب القبر ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، عن الجبائي.

ومتى قيل: كيف يحلفون كاذبين، مع أن معارفهم في الآخرة ضرورية؟ قيل فيه أقوال:

أحدها: أنهم حلفوا على الظن، ولم يعلموا لبثهم في القبور، فكأنهم قالوا: ما لبثنا غير ساعة في ظنوننا، عن أبي علي وأبي هاشم.

وثانيها: أنهم استقلوا الدنيا لما عاينوا من أمر الآخرة، فكأنهم قالوا: ما الدنيا في الآخرة إلا ساعة، فاستقلوا حيث اشتغلوا في المدة اليسيرة بما أوردهم تلك الأهوال الكثيرة.

وثالثها: أن ذلك يجوز أن يقع منهم قبل إكمال عقولهم، عن أبي بكر بن الإخشيد.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ في دار الدنيا، أي: يكذبون. وقيل: يصرفون، صرفهم جهلهم عن الحق في الدارين، ومن استدل في هذه الآية على نفي عذاب القبر فقد أبعد، لما بيَّنا أنه يجوز أن يريدوا أنهم لم يلبثوا بعد عذاب الله إلا ساعة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء، وكذلك في حم المؤمن ووافق نافع أهل الكوفة في حم المؤمن.

● **الحجة:** قال أبو علي: التأنيث حسن، لأن المعذرة اسم مؤنث، وأما التذكير فلأن التأنيث غير حقيقي، وقد وقع الفصل بين الفعل وفاعله، والفصل يحسن التذكير.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن علماء المؤمنين في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: آتاهم الله العلم، بما نصب لهم من الأدلة الموجبة له، فنظروا فيها فحصل لهم العلم، فلذلك أضافه إلى نفسه، لما كان هو الناصب للأدلة على العلوم، والتصديق بالله وبرسوله ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: مكثتم ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ومعناه: أن لبثكم ثابت في كتاب الله، ثبته

الله فيه، وهو قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وهذا كما يقال: إن كل ما يكون فهو في اللوح المحفوظ، أي: هو مثبت فيه، والمراد: لقد لبثتم في قبوركم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وقيل: إن الذين أوتوا العلم والإيمان هم الملائكة. وقيل: هم الأنبياء. وقيل: هم المؤمنون. وقيل: إن هذا على التقديم، وتقديره: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله وهم الذين يعلمون كتاب الله والإيمان، لقد لبثتم إلى يوم البعث. وقال الزجاج: في كتاب الله، أي: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ، فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه في الدنيا، فلم ينفعكم العلم به الآن، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فلا يمكّنون من الاعتذار، ولو اعتذروا لم يقبل عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم الإعتاب والرجوع إلى الحق ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بالغنا في البيان للمكلفين في هذا القرآن، الذي أنزلناه على نبينا من كل مثل يدعوهم إلى التوحيد والإيمان ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزة باهرة، مما اقترحوها منك ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل، وهذا إخبار عن عناد القوم وتكذيبهم بالآيات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله، والطبع والختم مفسران في سورة البقرة ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى هؤلاء الكفار، وإصرارهم على كفرهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالعذاب والتنكيل لأعدائك، والنصر والتأييد لك ولدينك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفزنك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب، فهم ضالون شاكون. وقيل: لا يستخفنك أي: لا يحملنك كفر هؤلاء على الخفة والعجلة، لشدة الغضب عليهم، لكفرهم بآياتك، فتفعل خلاف ما أمرت به من الصبر والرفق، عن الجبائي.

سُورَة لُقْمَان

مكية عن ابن عباس، سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخرهن.

● **عدد آيها:** ثلاث وثلاثون آية حجازي، أربع في الباقين.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿الٓمٓ﴾ كوفي ﴿مخلصين له الدين﴾ بصري شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة لقمان كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة، وأعطي من الحسنات عشراً، بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر». وروى محمد بن جبير العزرمي عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة لقمان في كل ليلة، وكل الله به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإن قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسي.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الروم بذكر الآيات الدالة عل صحة نبوته، افتتح هذه السورة بذكر آيات القرآن، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن
كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ حمزة: ﴿ورحمةٌ﴾ بالرفع، والباقون: ﴿ورحمةً﴾ بالنصب. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ويعقوب: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب، والباقون: بالرفع. وقد ذكرنا فيما تقدم أن ابن كثير وأبا عمرو ويعقوب قرؤوا: ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفتح الياء، وأن نافعاً يقرأ الأذن بسكون الذال كل القرآن.

● **الحجة:** قال أبو علي والزجاج: وجه النصب في ﴿وَرَحْمَةً﴾ أنه انتصب عن الاسم

المبهم على الحال، أي: تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة، والرفع على إضمار المبتدأ، أي: هو هدى ورحمة. ومن رفع ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ جعله عطفاً على الفعل الأول، أي: من يشتري ويتخذ، ومن نصب عطفه على: ليضل ويتخذها، وأما الضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ فيجوز أن يكون للحديث، لأنه بمعنى الأحاديث، ويجوز أن يكون للسبيل، لأن السبيل يؤنث، قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ويجوز أن يكون لآيات الله، وقد جرى ذكرها في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

● **الإعراب:** مفعول ﴿لِيُضِلَّ﴾ محذوف، أي: ليضل الناس. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في موضع النصب على الحال، تقديره: ليضل الناس جاهلاً، أو غير عالم. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الكاف في موضع الحال، وكذا قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ في موضع الحال، أي: ولّى مستكبراً مشبهاً للصُم. ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات يرتفع بالظرف على المذهبين، لأنه جرى خبراً على المبتدأ. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر فعل محذوف، و ﴿حَقًّا﴾ صفة للمصدر، وتقديره: وعد الله وعداً حقاً. ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ يجوز أن يكون غير صفة لمحذوف مجرور بالباء، أي: بعمد غير عمدٍ ترونها، و ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة في موضع جر بكونها صفة لعمد، أي: بغير عمد مرئية، ويجوز أن يكون غير بمعنى لا، وعلى الوجهين يتعلق الباء بخلق، ويجوز أن يكون الباء للحال، فيكون حالاً من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ويجوز وجه آخر: وهو أن يتعلق الباء بـ ترون والجملة في موضع نصب على الحال من خلق، فالتقدير: خلق السموات مرئية بغير عمد. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول له، وتقديره: حذر أن تميد، وكراهة أن تميد.

● **الحجة:** نزل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ في النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، كان يتَّجر فيخرج إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار، وأخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن، عن الكلبي. وقيل نزل في رجل اشترى جارية تغنيه ليلاً ونهاراً، عن ابن عباس. ويؤيده ما رواه أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: لا يحل تعليم المغنيات، ولا بيعهن، وأثمانهن حرام، وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾ الآية والذي نفسي بيده ما رفع رجل عقيرته(١) يتغنى إلا ارتدفه شيطانان يضربان أرجلهما على صدره وظهره حتى يسكت.

● **المعنى:** ﴿الٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: بيان ودلالة ونعمة للمطيعين. وقيل: للموحدين. وقيل: للذين يحسنون العمل. ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة البقرة. ثم وصف الذين حالهم تخالف حال هؤلاء فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: باطل الحديث، وأكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن الرضا عليهم السلام.

---

(١) عقيرة الرجل: صوته إذا غنى، وقيل: أصله أنَّ رجلاً عقرت رجله، فوضع العقيرة على الصحيحة بكى عليها بأعلى صوته، فقيل: رفع عقيرته ثم كثر ذلك حتى صير الصوت بالغناء عقيرة.

قالوا: منه الغناء، وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: هو الطعن بالحق والاستهزاء به، وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به، إذ قال: يا معشر قريش! ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم، ثم أرسل إلى زبد وتمر، فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به، قال: ومنه الغناء، فعلى هذا فإنه يدخل فيه كل شيء يلهي عن سبيل الله، وعن طاعته من الأباطيل، والمزامير والملاهي والمعازف، ويدخل فيه السخرية بالقرآن، واللغو فيه، كما قال أبو مسلم، والترهات والبسابس على ما قاله عطاء، وكل لهو ولعب على ما قاله قتادة، والأحاديث الكاذبة، والأساطير الملهية عن القرآن على ما قاله الكلبي. وروى الواحدي بالإسناد عن نافع عن ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: باللعب والباطل كثير النفقة، سمح فيه، ولا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به، وروى أيضاً بالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة». قيل: وما الروحانيون يا رسول الله؟ قال: «قراء أهل الجنة». ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليضل غيره، ومن أضل غيره فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء فالمعنى: ليصير أمره إلى الضلال، وهو إن لم يكن يشتري للضلال فإنه يصير أمره إلى ذلك. قال قتادة: حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وسبيل الله قراءة القرآن وذكر الله، عن ابن عباس ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ معناه: أنه جاهل فيما يفعله لا يفعل عن علم ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أي: ويتخذ آيات القرآن هزواً، أو ويتخذ سبيل الله هزواً يُستهزأ بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: مضل يهينهم الله به ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: وإذا قرىء عليه القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي: أعرض عن سماعه إعراض من لا يسمعه، رافعاً نفسه فوق مقدارها ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ أي: كأن في مسامعه ثقلاً يمنعه عن سماع تلك الآيات ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم موجع في القيامة.

ثم أخبر سبحانه عن صفة المؤمنين المصدقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ يوم القيامة يتمتعون فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي: مؤبدين في تلك الجنات ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أي: وعداً وعده الله حقاً لا خلف له ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

ثم أخبر سبحانه عن أفعاله الدالة على توحيده، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أنشأها واخترعها ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ إذ لو كان لها عمد لرأيتموها، لأنها لو كانت تكون أجساماً عظاماً حتى يصح منها أن تُقلَّ السماوات، ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد أخر فكان يتسلسل، فإذاً لا عمد لها. وقيل: إن المراد بغير عمد مرئية. والمعنى: أن لها عمداً لا ترونها، عن مجاهد. والصحيح الأول ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثابتة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي: كراهة أن تميد بكم. وقيل: لئلا تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: فرق فيها، أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ تدب على وجهها من أنواع الحيوانات ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض بذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٍ﴾ أي: صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: حسن النبتة طيب الثمرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير في رواية البزي: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ساكنة الياء ﴿يا بُنيَّ إنها﴾ مكسورة الياء ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مفتوحة الياء، وقرأ في رواية القواس: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ﴾، ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ﴾ ساكنة الياء فيهما ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ﴾ مكسورة الياء، وقرأ ابن فليح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ﴾، ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ﴾ مكسورة الياء فيهما ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ﴾ مفتوحة الياء، وقرأ حفص: ﴿يا بُنيَّ﴾ بفتح الياء في كل القرآن، والباقون: بكسر الياء في كل القرآن، وفي الشواذ قراءة عيسى الثقفي ورواية بعضهم عن أبي عمرو: ﴿وَهَنًا عَلَىٰ وَهَنٍ﴾ بفتح الهاء، وقراءة الحسن بخلاف، وأبي رجاء والجحدري وقتادة ويعقوب ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: من أسكن الياء في الوصل، فإنه يجوز أن يكون على قول من قال: يا غلام أقبل، فلما وقف قال: يا غلامْ، فأسكن للوقف، ويكون أجرى الوصل مجرى الوقف، وهذا يجيء في الشعر، كقول عمران بن حطان:

قد كنتُ عندك حولًا لا يُروِّعُني ... فيه روائع من إنس ومن جان

فإنما خفف «جان» للقافية، ثم وصل بحرف الإطلاق، وأجري الوصل مجرى الوقف، وهذا لا نعلم جاء في الكلام.

ومن قال: ﴿يا بُنيِّ إنها﴾ فهو على قولك: يا غلامِ أقبل. ومن قال: يا بنيَّ، بفتح الياء، فإنه على قولك: يا بنيا، فأبدل من ياء الإضافة ألفاً، ومن الكسرة فتحة، وعلى هذا حمل أبو عثمان قوله: ﴿يَٰأَبَتَ﴾ وقد تقدم ذكر ذلك فيما سلف. ومن قرأ: ﴿وَهَناً عَلَىٰ وَهَنٍ﴾ بفتح الهاء، فيمكن أن يكون حرَّك الهاء لأجل حرف الحلق، كقراءة الحسن: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعَثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعَثِ﴾ بفتح العين، وأما الفصل فإنه أعم من الفصال، لأنه يستعمل في الرضاع وغيره، والفصال هاهنا أوجه، لأن الموضع مختص بالرضاع.

● **الإعراب:** ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تقديره: أي شيء خلق؟ فماذا بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بأنه مفعول خلق، والجملة معلقة بأروني. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ قال الزجاج: معناه: لأن يشكر لله، ويجوز أن تكون أن مفسرة، فيكون المعنى: أن اشكر لله، وتأويل أن اشكر قلنا له: اشكر لله على ما أتاك. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ جملة في موضع النصب على

الحال بإضمار قد، والعامل في الحال معنى الفعل الذي يدل عليه قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فإن معناه: أمرناه بالإحسان إلى والديه، وحاله أنه كان محمولًا لأمه، ومثله قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي: وحالكم أنكم كنتم أمواتاً. ﴿وَهْنًا﴾ مصدر فعل محذوف في موضع الحال، أي: تهِنُ وهناً، وقوله: ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ في موضع الصفة لقوله: ﴿وَهْنًا﴾ ويجوز أن يتعلق أيضاً بالعامل في ﴿وَهْنًا﴾ وقوله: ﴿مَعْرُوفًا﴾ صفة لمصدر محذوف، وتقديره: مصاحباً معروفاً، بمعنى مصاحبة معروفة.

● **المعنى:** ثم أشار سبحانه إلى ما تقدم ذكره، فقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكرت من السموات على عظمها وكبر حجمها، والأرض وما فيها خلقُ الله الذي أوجده وأحدثه ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني آلهتهم التي يعبدونها ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ المعنى: أنهم لا يجدون لهذا الكلام جواباً، ولا يمكنهم أن يشيروا إلى شيء هو خلق آلهتهم، فلم يحملهم على عبادتهم خلقها لشيء، ولكنهم في عدول ظاهر عن الحق، ولما ذكر سبحانه الأدلة الدالة على توحيده وقدرته وحكمته، بيَّن عقيب ذلك قصة لقمان، وأنه أعطاه الحكمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أعطيناه العقل والعلم والعمل به، والإصابة في الأمور، واختلف فيه:

فقيل: إنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وأكثر المفسرين.

وقيل: إنه كان نبياً، عن عكرمة والسدي والشعبي، وفسروا الحكمة هنا بالنبوة.

وقيل: إنه كان عبداً أسود حبشياً غليظ المشافر[1] مشقوق الرجلين في زمن داود عليه السلام، وقال له بعض الناس: ألست كنت ترعى معنا؟ فقال: نعم، قال: فمن أين أوتيت ما أرى؟ قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني.

وقيل: إنه كان ابن أخت أيوب، عن وهب.

وقيل: كان ابن خالة أيوب، عن مقاتل، وروي عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: حقاً أقول: لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، ومنَّ عليه بالحكمة، كان نائماً نصف النهار، إذ جاءه نداء، يا لقمان! هل لك إن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت: إن خيَّرني ربي قبلت العافية، ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليَّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لِم يا لقمان؟ قال: لأن الحكم أشدُّ المنازل وأكدُّها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن وقي فبالحِرِّي أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلًا، وفي الآخرة شريفاً، خير من أن يكون في الدنيا شريفاً، وفي الآخرة ذليلًا، ومن يختر الدنيا على الآخرة، تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة، فتعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلم بها، ثم كان يؤازر داود بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان، أعطيت الحكمة، وصرفت عنك البلوى.

---

(١) جمع المشفر: الشفة.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ معناه: وقلنا له: اشكر لله تعالى على ما أعطاك من الحكمة ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: من يشكر نعمة الله، ونعمة من أنعم عليه، فإنه إنما يشكر لنفسه، لأن ثواب شكره عائد عليه، ويستحق مزيد النعمة، والزيادة الحاصلة بالشكر تكون له ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكر الشاكرين ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود على أفعاله. وقيل: مستحمد إلى خلقه بالإنعام عليهم، والشكر لا يكون إلا على نعمة سبقت، فهو يقتضي منعماً، فعلى هذا لا يصح أن يشكر الإنسان نفسه، كما لا يصح أن يكون منعماً على نفسه، ويجري مجرى الدَّين في أنه حق لغيره عليه يلزمه أداؤه، فكما لا يصح أن يقرض نفسه، فكذلك لا يصح أن ينعم على نفسه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ معناه: واذكر يا محمد، إذ قال لقمان لابنه، ويجوز أيضاً أن يتعلق إذ بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي: يؤدبه ويذكره، أي: في حالة ما يعظه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: لا تعدل بالله شيئاً في العبادة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أصل الظلم: النقصان ومنع الواجب، فمن أشرك بالله، فقد منع ما وجب لله عليه من معرفة التوحيد، فكان ظالماً. وقيل؛ إنه ظلم نفسه ظلماً عظيماً بأن أوبقها. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ لما قدم الأمر بشكر النعمة، أتبعه بالتنبيه على وجوب الشكر لكل منعم، فبدأ بالوالدين، أي: أمرناه بطاعة الوالدين، وشكرهما والإحسان إليهما، وإنما قرن شكرهما بشكره، لأنه الخالق المنشيء، وهما السبب في الإنشاء والتربية. ثم بين سبحانه زيادة نعمة الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ معناه: ضعفاً على ضعف، عن الضحاك والحسن، يعني ضعف نطفة الوالد على ضعف نطفة الأم، عن أبي مسلم. وقيل: لأن الحمل يؤثر فيها، فكلّما ازداد الحمل ازدادت ضعفاً على ضعف. وقيل: لأنها ضعيفة الخلقة، فازدادت ضعفاً بالحمل. وقيل: وهناً على وهن، أي: شدة على شدة، وجهداً على جهد، عن ابن عباس وقتادة ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: وفطامه من الرضاع في انقضاء عامين، لأن العامين جملة مدة الرضاع، فهو كقوله: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ والمراد أنها بعدما تلده ترضعه عامين، وتربيه فتلحقها المشقة بذلك أيضاً ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ هذا تفسير قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: وصيناه بشكرنا وشكر والديه، فشكر الله سبحانه بالحمد والطاعة، وشكر الوالدين بالبر والصلة ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وفيه تهديد، أي: ﴿إليَّ﴾ مرجعكم فأجازيكم على حسب أعمالكم ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان، أي: جاهدك والداك ﴿عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ معبوداً آخر فلا تطعهما، وهو قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لأن ما يكون حقاً تعلم صحته، فما لا تعلم صحته فهو باطل، فكأنه قال: فإن دعواك إلى باطل ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: وأحسن إليهما وارفق بهما في الأمور الدنيوية، وإن وجبت مخالفتهما في أبواب الدين لمكان كفرهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: واسلك طريقة من رجع إلى طاعتي، وأقبل إليَّ بقلبك، وهو النبي ﷺ والمؤمنون، قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ أي: إلى حكمي ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومنقلبكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دار الدنيا من الأعمال وأجازيكم عليها بحسبها.

فصل في ذكر نبذ من حكم لقمان:

ذكر في التفسير أن مولاه دعاه، فقال: إذبح شاة فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان[١]، فسأله عن ذلك، فقال: إنهما أطيب شيء إذا طابا، وأخبث شيء إذا خبثا. وقيل: إن مولاه دخل المخرج فأطال فيه الجلوس، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة يُفجَع منه الكبد، ويورث منه الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوناً، وقم هوناً، قال: فكتب حكمته على باب الحش[٢].

قال عبد الله بن دينار: قدم لقمان من سفر، فلقي غلامه في الطريق، فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكت أمري. قال ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت. قال: جُدِّد فراشي. قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: سُترت عورتي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: انقطع ظهري. وقيل للقمان: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً. وقيل له: ما أقبح وجهك؟ قال: تعتب على النقش أو على فاعل النقش؟ وقيل: إنه دخل على داود وهو يَسرُد الدِّرع، وقد لين الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها، وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكم وقليل فاعله. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيت حكيماً.

وفي كتاب من لا يحضره الفقيه قال لقمان لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل شراعها التوكل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

وروى سليمان بن داود المنقري عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال في وصية لقمان لابنه: يا بني! سافر بسيفك وخفك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله عز وجل. يا بني! إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم.

واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تتثبت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد، وتنام، وتأكل، وتصلي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإن من لم يمحض النصيحة من استشاره، سلبه الله رأيه. وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا، فإن «لا» عِيٌّ ولؤم، وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا.

---

(١) وفي بعض التفاسير كالبيضاوي والثعلبي: «ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأخرج القلب واللسان فسأله عن ذلك فقال. . . » واحتمل المجلسي (ره) في هامش البحار أنه سقط من الكتاب أيضاً.

(٢) الحش – مثلثة –: المخرج، وأصله من البستان سمي بذلك لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في البساتين.

وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم، ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعله يكون عين اللصوص، أو يكون هو الشيطان الذي حيركم، واحذروا الشخصين أيضاً، إلا أن تروا ما لا أرى، لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلها واسترح منها فإنها دين، وصلِّ في جماعة ولو على رأس زجّ(١)، ولا تنامنَّ على دابتك فإن ذلك سريع في دَبْرها، وليس ذلك من فعل الحكماء، إلا أن تكون في محمل يمكنك التمدد لاسترخاء المفاصل، فإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك، وابدأ بعلفها قبل نفسك فإنها نفسك(٢)، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لوناً، وألينها تربة، وأكثرها عشباً، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فابعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصل ركعتين، ثم ودع الأرض التي حللت بها، وسلم على أهلها، فإن لكل بقعة أهلًا من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدىء فتتصدَّق منه فافعل، وعليك بقراءة كتاب الله ما دمت راكباً، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملًا عملًا، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً، وإياك والسير في أول الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت في مسيرك.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: والله ما أوتي لقمان الحكمة لحسب ولا مال، ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلًا قوياً في أمر الله، متورعاً في الله، ساكتاً سكيناً عميق النظر، طويل التفكر، حديد البصر، لم ينم نهاراً قط، ولم يتكىء في مجلس قوم قط، ولم يتفل في مجلس قوم قط، ولم يعبث بشيء قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط قط، ولا على اغتسال، لشدة تستره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط، ولم يغضب قط مخافة الإثم في دينه، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بما أوتيه من الدنيا، ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء، وولد له الأولاد الكثيرة، وقدم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمر بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحاجزا، ولم يسمع قولًا استحسنه من أحد قط إلا سأله عن تفسيره، وعن من أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والعلماء، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين، فيرثي للقضاة بما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لعزتهم بالله، وطمأنينتهم في ذلك، ويتعلم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز من السلطان، وكان يداوي نفسه بالتفكر والعبر، وكان لا يظعن إلا فيما ينفعه، ولا ينظر إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتيَ الحكمة، ومنح القضية.

● ● ●

(١) الزج: الحديد التي في أسفل الرمح.
(٢) روى الكليني (ره) الحديث في (روضة الكافي) بأدنى اختلاف فيه وليس فيما رواه «فإنها نفسك» راجع الروضة: ٣٤٨ - ٣٤٩.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قد ذكرنا في سورة الأنبياء أن قراء أهل المدينة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالرفع، وقراءة الباقين: بالنصب. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم وأبو عمرو ونافع: ﴿وَلَا تُصَاعِرْ﴾ بالألف، والباقون: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ بالتشديد. وقرأ أهل المدينة والبصرة غير يعقوب وحفص: ﴿نعمه﴾ على الجمع، والباقون: نعمة على الواحد، وفي الشواذ قراءة عبد الكريم الخرزي: ﴿فَتَكِن فِي صَخْرَةٍ﴾ بكسر الكاف، وقراءة يحيى بن عمارة: وَأَصْبَغَ بالصاد ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ﴾ بالرفع فألحق علامة التأنيث بالفعل، فلأن المثقال هو السيئة أو الحسنة، فأنّث على المعنى، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فأنث، ومن قرأ: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب، فالمعنى؛ إن تك المظلمة أو السيئة أو الحسنة مثقال حبة أتى بها الله، وأثاب عليها أو عاقب. وأما قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ فإنه يشبه أن يكون لا تصعر ولا تصاعر بمعنى، كما قال سيبويه في: ضعف وضاعف. وقال أبو الحسن: لا تصاعر لغة أهل الحجاز، ولا تصعِّر لغة بني تميم. قال أبو عبيدة: أصله من الصَّعر الذي يأخذ الإبل في رؤوسها وأعناقها. قال أبو علي: فكأنه يقول: لا تعرض عنهم ولا تزور كازورار الذي به هذا الداء، الذي يلوي منه عنقه، ويعرض بوجهه. والنعم: جمع نعمة، فالنعم للكثير، ونعم الله تعالى كثيرة، والمفرد أيضاً على الكثرة. قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وأما قوله: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فلا ترجيح فيه لإحدى القراءتين على الأخرى، ألا ترى أن النعم توصف بالظاهرة والباطنة، كما توصف النعمة بذلك. ومن قرأ: ﴿فَتَكِن﴾ فهو من وَكَن الطائر يَكِنُ: إذا استقر في وَكْنِهِ، ومنه قول امرئ القيس:

وقد أَغتدي والطير في وُكُناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل(١)

---

(١) البيت من معلقته المعروفة. قوله: «وقد اغتدي» أي أخرج وقت الغداة. والوكنات: جمع الوكنة: - بتثليث الواو - عش الطائر - والمنجرد: الفرس الماضي في السير، أو القصير الشعر. والأوابد: الوحوش. والهيكل: الفرس العظيم الضخم. وقوله: «قيد الأوابد» يريد أن هذا الفرس لسرعة عدوه، وشدة جريه، يدرك الوحوش ويلحقها، ولا يمكنها من الشراد والنفار، فكأنه يقيدها.

وقوله: ﴿أَصْبَغَ﴾ أبدل فيه السين صاداً لأجل الغين، كما قالوا: سالغ وصالغ.

● **المعنى:** ثم عاد سبحانه إلى الإخبار عن لقمان ووصيته لابنه وأنه قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ معناه: أن فعلة الإنسان من خير أو شر إن كانت مقدار حبة خردل في الوزن، ويجوز أن يكون الهاء في ﴿إِنَّهَآ﴾ ضمير القصة، كما في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. قال الزجاج: يروى أن ابن لقمان سأل لقمان فقال: أرأيت الحبة تكون في مَقْلِ البحر، أي: مغاص البحر، يقال: مَقل يمقُل إذا غاص، أيعلمها الله؟ فقال: إنها، أي إن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ أي: فتكن تلك الحبة في جبل، عن قتادة. والمعنى: في صخرة[1] عظيمة، لأن الحبة فيها أخفى وأبعد من الاستخراج ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر السماوات والأرض بعد ذكر الصخرة، وإن كان لا بد وأن تكون الصخرة في الأرض على وجه التأكيد، كما قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وقال السدي: هذه الصخرة ليست في السموات ولا في الأرض، هي تحت سبع أرضين، وهذا قول مرغوب عنه ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يحضرها الله يوم القيامة ويجازي عليها، أي: يأتي بجزاء ما وازنها من خير أو شر. وقيل معناه: يعلمها الله فيأتي بها إذا شاء، كذلك قليل العمل من خير أو شر يعلمه الله فيجازي عليه، فهو مثل قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. وروى العياشي بالإسناد عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اتقوا المحقَّرات من الذنوب فإن لها طالباً، لا يقولن أحدكم أذنب وأستغفر الله، إن الله تعالى يقول: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ﴿خَبِيرٌ﴾ بمستقرها، عن قتادة. وقيل اللطيف: العالم بالأمور الخفية، والخبير: العالم بالأشياء كلها.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ إنما صغر اسمه في هذه المواضيع للرقة والشفقة لا للتحقير ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدِّ الصلاة المفروضة في ميقاتها بشروطها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الطاعة ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل معصية وقبيح، سواء كان من القبائح العقلية أو الشرعية، فإن المعروف ما يدعو إليه العقل والشرع، والمنكر ما يزجر عنه العقل والشرع ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، عن علي عليه السلام. وقيل: ما أصابك من شدائد الدنيا ومكارهها، من الأمراض وغيرها، عن الجبائي ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من العقد الصحيح على فعل الحسن بدلًا من القبيح، والعزم: الإرادة المتقدمة للفعل بأكثر من وقت، وهو العقد على الأمر لتوطين النفس على فعله، والتلوُّن في الرأي يناقض العزم. وقيل معناه: إن ذلك من الأمور التي يجب الثبات والدوام عليها. وقيل: العزم: القوة، والحزم: الحذر، ومنه المثل: لا خير في عزم بغير حزم. وقيل: الحزم: التأهب للأمر، والعزم: النفاذ فيه. ومنه قيل في المثل: «روِّ بحزمٍ[2] فإذا استوضحت فاعزم». ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ولا تمل

---

(١) وفي المخطوطتين: «في حجرة» بدل في «صخرة».

(٢) أمر من روى في الأمر: نظر فيه وتفكر.

وجهك من الناس تكبراً، ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به، وهذا معنى قول ابن عباس وأبي عبد الله عليه السلام، يقال: أصاب البعير صَعرٌ، أي: داء يلوي منه عنقه، فكأن المعنى: لا تُلزم خدك للصعر، لأنه لا داء للإنسان أدوى من الكبر، قال:

وكنا إذا الجبار صعَّر خده أقمنا له من درئه فتقوَّما(١)

وقيل: هو أن يكون بينك وبين إنسان شيء، فإذا لقيته أعرضت عنه، عن مجاهد. وقيل: هو أن يسلم عليك فتلوي عنقك تكبراً، عن عكرمة ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطراً وخيلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: كل متكبر فخور على الناس ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: اجعل في مشيك قصداً مستوياً على وجه السكون والوقار، كقوله: و﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال قتادة معناه: تواضع في مشيك. وقال سعيد بن جبير: ولا تختل في مشيك. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: نقص من صوتك إذا دعوت وناجيت ربك، عن عطاء. وقيل: لا تجهر كل الجهر، واخفض صوتك ولا ترفعه مطاولًا به ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق، عن قتادة. يقال: وجه منكر، أي: قبيح. أمر لقمان ابنه بالاقتصاد في المشي والنطق. وروي عن زيد بن علي أنه قال: أراد صوت الحمير من الناس وهم الجهال، شبههم بالحمير كما شبههم بالأنعام في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هي العطسة المرتفعة القبيحة، والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً، إلا أن يكون داعياً أو يقرأ القرآن.

ثم ذكر سبحانه نعمه على خلقه ونبههم على معرفتها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات وغير ذلك مما تنتفعون به، وتتصرفون فيه بحسب ما تريدون ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أوسع عليكم، وأتم عليكم نعمه ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فالظاهرة: ما لا يمكنكم جحده، من خلقكم وإحيائكم، وإقداركم وخلق الشهوة فيكم، وغيرها من ضروب النعم. والباطنة: ما لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها. وقيل: الباطنة: مصالح الدين والدنيا، مما يعلمه الله وغاب عن العباد علمه، عن ابن عباس. وفي رواية الضحاك عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه فقال: «يا ابن عباس! أما ما ظهر فالإسلام، وما سوى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوىء عملك ولم يفضحك به، يا ابن عباس! إن الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهن للمؤمن ولم تكن له: صلاة المؤمن عليه من بعد انقطاع عمله، وجعلت له ثلث ماله أكفر به عنه خطاياه، والثالث: سترت مساوىء عمله ولم أفضحه بشيء منه، ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم». وقيل: الظاهرة: تخفيف الشرائع، والباطنة: الشفاعة، عن عطاء. وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة: نعم الجوارح، والباطنة: نعم القلب، عن الربيع.

---

(١) قائله: جرير. والدرء: الميل والعوج، يقول: إذا أمال متكبر خده أذللناه حتى يتقوم ميله. وفي اللسان: «من ميله» مكان «من درئه».

وقيل: الظاهرة: ظهور الإسلام، والنصر على الأعداء، والباطنة: الإمداد بالملائكة، عن مجاهد. وقيل: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة، عن الضحاك. وقيل: الظاهرة: القرآن، والباطنة: تأويله ومعانيه. وقال الباقر عليه السلام: النعمة الظاهرة: النبي صلى الله عليه وآله، وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجل، وتوحيده، وأما النعمة الباطنة: ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا. ولا تنافي بين هذه الأقوال، وكلها نعم الله تعالى، ويجوز حمل الآية على الجميع ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ أي: يخاصم ﴿فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما يقوله ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: ولا دلالة وحجة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ولا كتاب آية من عند الله ظاهر واضح، وقد مضى هذا مفسراً في سورة الحج.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عمن جادل في الله بغير علم، ولم يذكر النعمة، زاد عقيبه في ذمهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمد صلى الله عليه وآله من القرآن، وشرائع الإسلام ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ذمهم على التقليد، ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ إلى تقليد آبائهم، واتباع ما يدعوهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أدخل على واو العطف همزة الاستفهام على وجه الإنكار، وجواب لَو محذوف، تقديره: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير لاتبعوهم، والمعنى: أن الشيطان يدعوهم إلى تقليد آبائهم، وترك اتباع ما جاءت به الرسل، وذلك موجب لهم عذاب النار، فهو في الحقيقة يدعوهم إلى النار، ثم قال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يخلص دينه لله، ويقصد في أفعاله التقرب إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيها فيفعلها على موجب العلم، ومقتضى الشرع. وقيل: إن إسلام الوجه إلى الله تعالى هو الانقياد لله تعالى في أوامره ونواهيه، وذلك يتضمن العلم والعمل ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد تعلق بالعروة الوثيقة التي لا يخشى انفصامها، والوثقى تأنيث الأوثق ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: وعند الله ثواب ما صنع، عن مجاهد. والمعنى: وإلى الله ترجع أواخر الأمور على وجه لا يكون لأحد التصرف فيها بالأمر والنهي ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ من هؤلاء الناس ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: لا يغمك ذلك ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: نخبرهم بأعمالهم ونجازيهم بسوء أفعالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تضمره الصدور،

لا يخفى عليه شيء منه ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نعطيهم من متاع الدنيا ونعيمها، ما يتمتعون به مدة قليلة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: ثم نصيِّرهم مُكرَهين إلى عذاب يغلظ عليهم ويصعب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ في جواب ذلك ﴿اللَّهُ﴾ خلقهما ﴿قُلِ﴾ يا محمد، أو أيها السامع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هدايته لنا، وتوفيقه إيانا لمعرفته. وقيل معناه: اشكر الله على دين يقر لك خصمك بصحته لوضوح دلالته، عن الجبائي ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عليهم من الحجة.

●●●

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو ويعقوب: والبَحْرَ بالنصب، والباقون بالرفع، وقرأ جعفر بن محمد عليه السلام: ﴿والبحر مداده﴾ وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ وهي قراءة طلحة بن مصرف، وقراءة الحسن والأعرج: ﴿وَالْبَحْرُ يُمِدُّهُ﴾ بضم الياء.

● **الحجة:** قال أبو زيد: أمددت القوم بمال ورجال إمداداً، وقلَّ ماء ركيَّتنا فمَدَّتها ركية أخرى تمدُّها. قال أبو عبيدة: وهاهنا اختصار سبيله: لو كتبت كلمات الله بهذه الأقلام والبحر ما نفدت. قال أبو علي: والمراد بذلك والله أعلم: ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. قال قتادة: يقول لو كان شجر الأرض أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر مداداً، إذاً لانكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر قبل أن تنفد عجائب الله، وحكمته وخلقه وعلمه، فأما انتصاب البحر من قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ فلأنه معطوف على اسم (أنّ) وهو (ما في الأرض) ف ﴿ما﴾ اسم لأنَّ و﴿أَقْلَامٌ﴾ خبرها. والتقدير: لو أن شجر الأرض أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر، فإذا عطفت البحرَ على اسم أنَّ فنصبته كان خبره ﴿يَمُدُّهُ﴾ والراجع إلى البَحرَ الضمير المنصوب المتصل بـ ﴿يَمُدُّهُ﴾ ومن رفع استأنف كأنه قال: والبحر هذه حاله فيما قاله سيبويه.

وأقول: إذا عطفت البَحرَ على اسم أنَّ فنصبته، فالأولى أن يكون خبره محذوفاً، ويكون التقدير: ولو أن البحر مداد ويمده سبعة أبحر، يكون جملة منصوبة الموضع على الحال، وحذف الخبر الذي هو مداد لدلالة الكلام عليه، وإذا نصبت البحرُ أو رفعته، فالمعنى: لو كتب

ما في مقدور الله لنفد ذلك قبل نفاد المقدور، ونحو هذا من الجمل قد يحذف لدلالة الكلام عليه، كقوله: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ والمعنى: فذهب فألقى الكتاب فقرأته المرأة أو فقرىء عليها، فقالت: يا أيها الملأ. ومن قرأ: ﴿والبحر يمده﴾ فتقديره: وهناك بحر يمده من بعده سبعة أبحر. قال ابن جني: لا يجوز أن يكون ﴿والبحر﴾ معطوفاً على ﴿أَقْلَامٌ﴾ لأن البحر وما فيه من الماء ليس من حديث الشجر والأقلام، وإنما هو من حديث المداد، كما قرأ جعفر الصادق عليه السلام: ﴿مداده﴾.

فأما رفع ﴿البحر﴾ فإن شئت كان معطوفاً على موضع أن واسمها، كما عطف عليه في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ وقد مضى ذكر ذلك في موضعه. ومن قرأ: ﴿يُمِدُّهُ﴾ بضم الباء، فإنه تشبيه بإمداد الجيش، وليس يقوى أن يكون قراءة جعفر بن محمد عليه السلام ﴿وَالْبَحْرُ مِدَادُهُ﴾ أي: زائد فيه، لأن ماء البحر لا يعتد في الشجر والأقلام، لأنه ليس من جنسه، والمداد هناك هو هذا الذي يكتب به.

● **المعنى:** ثم أكد سبحانه ما تقدم من خلقه السموات والأرض بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له جميع ذلك خلقاً وملكاً، يتصرف فيه كما يريده، ليس لأحد الاعتراض عليه في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين وعن كل شيء ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد والتعظيم ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً، وكان البحر مداداً، ويمده سبعة أبحر مثله، أي: تزيده بمائها، فكتب بتلك الأقلام والبحور، لتكسرت تلك الأقلام، ونفذ ماء البحور، وما نفدت كلمات الله، وقد ذكرنا تفسير كلمات الله في سورة الكهف، والأولى أن يكون عبارة عن مقدوراته ومعلوماته، لأنها إذا كانت لا تتناهى، فكذلك الكلمات التي تقع عبارة عنها لا تتناهى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في اقتداره على جميع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل من ذلك ما يليق بحكمته.

ثم قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ يا معشر الخلائق ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: كخلق نفس واحدة، وبعض نفس واحدة في قدرته، فإنه لا يشق عليه ابتداء جميع الخلق، ولا إعادتهم بعد إفنائهم. قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا: إن الله خلقنا أطواراً: نطفة علقة مضغة لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟ فنزلت الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله القائلون في ذلك ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يضمرونه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: ينقص من الليل في النهار، ومن النهار في الليل، عن قتادة. وقيل معناه: أن كل واحد منهما يتعقب الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لأنهما يجريان على وتيرة واحدة لا يختلفان ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدره الله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي يجب توجيه العبادة إليه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: القادر القاهر، والآيتان مفسرتان في سورة الحج.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الأعرج: ﴿بنعماتِ الله﴾ ساكنة العين.

● **الحجة:** في جمع فعْلة ثلاث لغات: فعلات بسكون العين، وفعلات بفتحها، وفعلات بكسر الفاء والعين.

● **اللغة:** الظلل: جمع ظُلة، وهو ما أظلّك. والختر: أقبح الغدر، والختار: صاحب الختل، أو الختر. قال عمرو بن معدي كرب:

فـإنـك لـو رأيـت أبـا عـمـيْـرٍ   مـلأت يـديـك مـن غـدرٍ وخـتـر(١)

ويقال: جزيت عنك أجزي، أي: أغنيت عنك، وفيه لغة أخرى: أجزأت عنك، أُجزىء، بالهمز.

● **الإعراب:** ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ العامل في ﴿لمَّا﴾ معنى ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ وتقديره: اقتصدوا ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾: انتصب ﴿يَوْمًا﴾ بأنه مفعول به. ﴿لَّا يَجْزِى﴾ في موضع نصب بأنه صفة ﴿يوم﴾ والتقدير: لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا يكون مولود هو جاز عن والده شيئاً، انتصب ﴿شَيْـًٔا﴾ بأنه مفعول: جاز، ومفعول: يجزي محذوف، ويجوز أن يكون سد مسد مفعوليهما جميعاً.

● **المعنى:** ثم أكد سبحانه ما تقدم من الأدلة على وحدانيته، ونعمه على بريته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألم تعلم أيها الإنسان أن السفن تجري في البحر بنعمة الله عليكم ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعض أدلته الدالة على وحدانيته، ووجه الدلالة من ذلك: أن الله تعالى يُجري السفن بالرياح التي يرسلها، في الوجوه التي يريدون المسير فيها، ولو اجتمع جميع الخلق ليجروا الفلك في بعض الجهات المخالفة لجهة الرياح، لما قدروا عليه، وفي ذلك أعظم دلالة على أن المجري لها بالرياح، هو القادر الذي لا يعجزه شيء،

---

(١) ملأت يديك: كناية عن الكثرة، قيل: لأنهم كانوا يعدون الأشياء بأصابعهم، وإذا كان العدد كثيراً استوعب الأصابع.

فذلك بعض الأدلة الدالة عليه، فلذلك قال: من آياته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في تسخير الفلك وإجرائها في البحر، وإجراء الريح على وفقها ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على مشاق التكليف ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالى عليه، وإنما قال ذلك ليدل على أن الصبر على بلائه، والشكر لنعمائه أفضل الطاعات. قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وفي الحديث: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، وعلى هذا فكأنه سبحانه قال: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: إذا غشي أصحاب السفن الراكبي البحر ﴿مَّوْجٌ﴾ وهو هيجان البحر ﴿كَالظُّلَلِ﴾ في ارتفاعه وتغطية ما تحته، شبه الموج بالسحاب الذي يركب بعضه على بعض، عن قتادة. وقيل: يريد كالجبال، عن مقاتل ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إن خافوا الغرق والهلاك، فأخلصوا في الدعاء لله في هذه الحال ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ أي: خلصهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وسلمهم من هول البحر ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: عدل في الوفاء في البر، بما عاهد الله عليه في البحر، من التوحيد له. وقيل: إن هذا كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل، وهو إخلاصهم الدعاء في البحر. روى السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر، قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أخطل، وقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأما عكرمة فركب البحر، فأصابتهم ريح عاصفة، فقال أهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهداً، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم. وقيل: فمنهم مقتصد، معناه: على طريقة مستقيمة، وصلاح من الأمر، عن ابن زيد. وقيل: ثابت على إيمانه، عن الحسن. وقيل: موف بعهده في البر، عن ابن عباس. وقيل: مقتصد في قوله مضمر لكفره، عن مجاهد. ثم ذكر الذين تركوا التوحيد في البر، فقال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ بعهده، أي: غادر أسوأ الغدر وأقبحه ﴿كَفُورٍ﴾ لله في نعمه.

ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ يعني يوم القيامة لا يغني فيه أحد عن أحد، لا والد عن ولده ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ كل امرىء تهمه نفسه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا يغرنكم الإمهال عن الانتقام، والآمال والأموال عن الإسلام. ومعناه: لا تغتروا بطول السلامة، وكثرة النعمة، فإنهما عن قريب إلى زوال وانتقال ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان، عن مجاهد وقتادة والضحاك. وقيل: هو تمنيك المغفرة في عمل المعصية، عن سعيد بن جبير. وقيل: كل شيء غرك حتى تعصي الله وتترك ما أمرك الله به فهو غرور شيطاناً كان أو غيره، عن أبي عبيدة. وفي الحديث: الكيس

من دان نفسه وعمل لها بعد الموت، والفاجر من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله. وفي الشواذ قراءة سماك بن حرب ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بضم الغين، وعلى هذا فيكون المعنى: ولا يغرنكم غرور الدنيا بخُدعها الباطلة، أو غرور النفس بشهواتها الموبقة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: استأثر سبحانه به ولم يطلع عليه أحد من خلقه، فلا يعلم وقت قيام الساعة سواه ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فيما يشاء من زمان أو مكان، والصحيح أن معناه: ويعلم نزول الغيث في مكانه وزمانه. كما جاء في الحديث: إن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، وقرأ هذه الآية ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ويعلم ما في أرحام الحوامل، أذكر أم أنثى؟ أصحيح أم سقيم؟ واحد أو أكثر؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: ماذا تعمل في المستقبل. وقيل: ما يعلم بقاءه غداً فكيف يعلم تصرفه؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: في أي أرض يكون موته. وقيل: إنه إذا رفع خطوة لم يدر أنه يموت قبل أن يضع الخطوة أم لا، وإنما قال: بأي أرض، لأنه أراد بالأرض المكان، ولو قال: بأية أرض لجاز، وروي أن ذلك قراءة أبي. وقد روي عن أئمة الهدى عليهم السلام أن هذه الأشياء الخمسة، لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بهذه الأشياء ﴿خَبِيرٌ﴾ بها.

سُورَةِ السَّجْدَة

وسميت أيضاً: سجدة لقمان، لئلا تلتبس بحم السجدة، وهي مكية ما خلا ثلاث آيات، فإنها نزلت بالمدينة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ إلى تمام الآيات.

● **عدد آيها:** تسع وعشرون آية بصري، وثلاثون في الباقين.

● **اختلافها:** آيتان آلم كوفي جديد حجازي شامي.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فكأنما أحيا ليلة القدر. وروى ليث بن أبي الزبير عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ قال ليث: فذكرت ذلك لطاوس، فقال: فضلتا على كل سورة في القرآن، ومن قرأهما كتب له ستون حسنة، ومحي عنه ستون سيئة، ورفع له ستون درجة. وروى الحسين بن أبي العلا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة السجدة في كل ليلة جمعة، أعطاه الله كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما كان منه، وكان من رفقاء محمد ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه السورة التي قبلها بدلائل الربوبية، وافتتح هذه السورة أيضاً بها، فقال:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هذا تنزيل، ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبره، وعلى الوجه الأول يكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع نصب على الحال، أو في موضع رفع على أنه خبر بعد خبر. وقوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل الوجهين أيضاً. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم هاهنا استفهام مستأنف، والتقدير: بل أيقولون. وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يجوز أن يتعلق بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على تقدير: هو الذي حق من ربك، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال، أي: كائناً من ربك، والعامل فيه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وذو الحال الضمير المستكن فيه. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام يتعلق بما يتعلق به ﴿مِنَ﴾. قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ من الثانية زائدة، والتقدير: ما وليّ ثبت لكم و ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ في موضع نصب على الحال، مما يتعلق به اللام في ﴿لَكُم﴾.

● **المعنى:** ﴿الٓمٓ﴾ مفسر في أول البقرة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه الآيات تنزيل الكتاب الذي وعدتم به ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه أنه وحي ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى: أنه لا ريب فيه للمهتدين، وإن كان قد ارتاب فيه خلق من المبطلين لا يعتد بهم، لأنه ليس بموضع الشك. وقيل معناه: أنه زال الشك في أنه كلام رب العزة، لعجزهم عن الإتيان بمثله. وقيل: إن لفظه الخبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه. والريب: أقبح الشك ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل يقولون ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وليس الأمر على ما يقولون ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ نزل عليك ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ والحق هو كل شيء من اعتقده كان معتقده على ما هو به، مما يدعو العقل إلى استحقاق المدح عليه وتعظيمه، فالكتاب حق، لأن من اعتقد أنه من عند الله كان معتقده على ما هو به، والباطل نقيض الحق ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني قريشاً، إذ لم يأتهم نبي قبل نبينا ﷺ، وإن أتى غيرهم من قبائل العرب، مثل خالد بن سنان العبسي. وقيل: يعني أهل الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله، وما خلقهم له من العبادة، عن ابن عباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليهتدوا، ثم ذكر سبحانه الدلالة على وحدانيته، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فيما قدره ستة أيام، لأن قبل الشمس لم يكن ليل ولا نهار ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالقهر والاستعلاء، وهو مفسر في سورة الأعراف ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ليس لكم من دون عذابه ولي، أي: قريب ينفعكم ويرد عذابه عنكم، ولا شفيع يشفع لكم. وقيل من ولي أي: من ناصر ينصركم من دون الله ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون فيما قلناه وتعتبرون به، فتعلموا صحة ما بيناه لكم.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقهما وما بينهما في هذه المدة، يدبر الأمور كلها ويقدرها على حسب إرادته، فيما بين السماء والأرض، وينزله مع الملك إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الملك، أي: يصعد إلى المكان الذي أمره الله تعالى أن يصعد إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة مما يعده البشر، خمسمائة عام نزوله، وخمسمائة عام صعوده، وقوله: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يعني إلى الموضع الذي أمره بالعروج إليه، كقول إبراهيم: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى أرض الشام التي أمرني ربي بالذهاب إليها، وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني إلى المدينة، ولم يكن الله سبحانه بالشام، ولا بالمدينة، ومعناه: أنه ينزل الملك بالتدبير أو الوحي، ويصعد إلى السماء فيقطع في يوم واحد من أيام الدنيا مسافة ألف سنة مما تعدونه أنتم، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لابن آدم، وهذا معنى قول ابن عباس والحسن والضحاك وقتادة، وهو اختيار الجبائي. وقيل معناه: أنه يدبر الأمر سبحانه ويقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد، ثم يلقيه إلى ملائكته، فإذا مضى الألف سنة قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبداً ـ عن مجاهد. وقيل معناه: يدبر أمر الدنيا، فينزل القضاء والتدبير من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا، ثم يرجع الأمر ويعود التدبير إليه بعد انقضاء الدنيا وفنائها، حتى ينقطع أمر الأمراء وحكم الحكام، وينفرد الله بالتدبير في يوم كان مقداره ألف سنة، وهو يوم القيامة، فالمدة المذكورة مدة يوم القيامة، إلى أن يستقر الخلق في الدارين، عن ابن عباس أيضاً، فأما قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فإنه أراد سبحانه

على الكافر، جعل الله ذلك اليوم مقدار خمسين ألف سنة، فإن المقامات في يوم القيامة مختلفة. وقيل: إن المراد بالأول أن مسافة الصعود والنزول إلى السماء الدنيا في يوم واحد للملك مقدار مسيرة ألف سنة لغير الملك من بني آدم، وإلى السماء السابعة مقدار مسيرة خمسين ألف سنة. وقيل: إن الألف سنة للنزول والعروج، والخمسين ألف سنة لمدة القيامة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة ونافع وسهل: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام، والباقون: ﴿خَلْقَهُۥ﴾ بسكون اللام. وفي الشواذ قراءة الزهري: ﴿وَبَدَا خَلْقَ الإنسانِ﴾ بغير همز. وقرأ علي وابن عباس وأبان بن سعيد بن العاص والحسن بخلاف: ﴿أَءِذَا صَلِلْنَا﴾ بالصاد مكسورة اللام، وقرأ الحسن: ﴿صَلَلْنَا﴾ بالصاد أيضاً مفتوحة اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿خَلْقَهُۥ﴾ منتصب على أنه مصدر دلَّ عليه ما تقدم من قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فأما الضمير الذي أضيف ﴿خلق﴾ إليه فلا يخلو من أن يكون ضمير اسم الله تعالى، أو يكون كناية عن المفعول، فالذي يدل عليه نظائره أن الضمير لاسم الله تعالى، لأنه مصدر لم يسند الفعل المنتصب عنه إلى فاعل ظاهر، وما كان من هذا النحو أضيف المصدر فيه إلى الفاعل، نحو: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ و ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ و ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فكما أضيفت هذه المصادر إلى الفاعل فكذلك يكون ﴿خَلْقَهُۥ﴾ مضافاً إلى ضمير الفاعل، لأن قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يدل على خلق كل شيء.

فإن قلت: كيف يدل قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ على خلق كل شيء، وقد نجد أشياء حسنة مما لم يخلقها؟ قيل: هذا كما قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فأطلق اللفظ عاماً. وروي أن عكرمة سئل عن قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ فقال: إن إست القرد ليست بحسنة، ولكنه أبرم خلقها، أي أتقن. وما قلناه من أن انتصاب ﴿خَلْقَهُۥ﴾ من المصدر الذي دل عليه فعل متقدم مذهب سيبويه. ويجوز أن يكون ﴿خَلْقَهُۥ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ شيء﴾ فيصير التقدير: الذي أحسن خلق كل شيء.

ومن قال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ كان ﴿خَلَقَهُۥ﴾ وصفاً للنكرة المتقدمة، وموضع الجملة يحتمل وجهين: النصب على أن يكون صفة لـ ﴿كُلَّ﴾ والجر على أن يكون صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾ وترك الهمزة في بدأ محمول على البدل لا على التخفيف القياسي، ومثله بيت الكتاب:

راحت بمسلمة البغال عشيَّةً فارعي فزارة لا هَناك المرتعُ[١]

وتقول على البدل: أبديت، إذا أخبرت عن نفسك، وتقول على التخفيف: بدات، بالألف بلا همزة، وقد مرَّ القول في اختلافهم في قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وموضع ﴿إذا﴾ نصب بما دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأن هذا الكلام يدل على نعاد، والتقدير: نعاد إذا ضللنا في الأرض، قال أبو عبيدة: معناه: همدنا في الأرض، وقال غيره: صرنا تراباً فلم يتبين شيء من خلقنا. وقوله: ﴿صَلَلْنَا﴾ بالصاد، من قولهم: صلَّ اللحم، إذا أنتن يصِل ويصَل، والمعنى: إذا دفنا في الأرض وصَلت أجسامنا. وقيل: إن معناه من الصَّلة، وهي الأرض اليابسة، ومنه الصلصال.

● **المعنى**: ثم أكد سبحانه ما تقدم من دلائل وحدانيته، وأعلام ربوبيته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الذي يفعل ذلك ويقدر عليه، هو العالم بما يشاهد، وما لا يشاهد، وبما غاب عن الخلق وما حضر ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع في ملكه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأهل طاعته ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: أحكم كل شيء خلقه وأتقنه، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل معناه: علم كيف يخلق كل شيء قبل أن خلقه من غير أن يعلمه أحد، عن مقاتل والسدي. من قولهم: فلان يحسن كذا، أي: يعلمه. وقيل: الذي جعل كل شيء في خلقه حسناً، حتى جعل الكلب في خلقه حسناً، عن ابن عباس. والمعنى: أنه أحسن خلقه من جهة الحكمة، فكل شيء خلقه وأوجده، فيه وجه من وجوه الحكمة تحسنه، وفي هذا دلالة على أن الكفر والقبائح لا يجوز أن يكون من خلقه ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ أي: ابتدأ خلق آدم الذي هو أول البشر من طين، كان تراباً، ثم صار طيناً، ثم صلصالاً، ثم حيواناً ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي: نسل الإنسان الذي هو آدم يعني ولده ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ وهي الصفوة التي تنسل من غيرها، ويسمى ماء الرجل: سلالة لانسلاله من صلبه ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف، عن قتادة. وقيل: حقير مهان. أشار إلى أنه من شيء حقير لا قيمة له، وإنما يصير ذا قيمة بالعلم والعمل ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: جعله بشراً سوياً وعدله ورتب جوارحه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ أي: في ذلك المخلوق ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضاف الروح إلى نفسه إضافة اختصاص وملك على وجه التشريف. ثم قال سبحانه مخاطباً لذريته: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أيها الخلق ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتسمعوا المسموعات وتبصروا المبصرات ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: وجعل لكم القلوب لتعقلوا بها ﴿قليلًا مّا تشكرون﴾ أي: تشكرون نعم الله قليلًا من كثير، و﴿مّا﴾ مزيدة، ويجوز أن تكون ﴿مّا﴾ مصدرية، فيكون تقديرها: قليلًا شكركم لهذه النعم ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يعني منكري البعث ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غبنا عن الأرض وصرنا تراباً، وكل شيء غلب عليه غيره حتى يغيب فيه فقد ضل، قال الأخطل:

---

(١) البيت منسوب إلى الفرزدق، يهجو به عمر بن هبيرة الفزاري أي: المنسوب إلى فزارة، ويخاطبهم يقول: راحت البغال بمسلمة - وهو مسلمة بن عبد الملك على ما قيل - فصفى لك العيش يا فزارة. ثم يدعو عليهم ويقول: لا يكن المرعى لك هنيئاً.

فكنت القذى في موج أكدر مزبد قذف الأتيُ به فضلَّ ضلالا[1]

وقيل: إن معنى ضللنا هلكنا ـ عن قتادة ومجاهد ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: نبعث ونحيي، فهو استفهام معناه الإنكار، والمعنى: كيف نخلق جديداً ونعاد بعد أن هلكنا وتفرقت أجسامنا؟ ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ هُم﴾ أي: هؤلاء الكفار ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي ما وعد ربهم به من الثواب والعقاب ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون، فلهذا قالوا هذا القول.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾.

● **اللغة:** التوفي: أخذ الشيء على تمام، قال الراجز:

إن بني دارم ليسوا من أحد ولا توفتهم قريش في العدد

يقال: استوفى الدين إذا قبضه على كماله. والتوكيل: تفويض الأمر إلى غيره للقيام به. والنكس: قلبك الشيء على رأسه، ويقال في المرض: النكس بضم النون، وأما النكس بكسر النون، فهو السهم ينكس فيجعل أعلاه أسفله.

● **الإعراب:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يجوز أن يكون مفعول ﴿تَرَىٰ﴾ محذوفاً، فيكون تقديره: ولو ترى المجرمين إذ هم ناكسو رؤوسهم. ويجوز أن يكون المعنى: لو رأيت ببصرك، مثل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ فيكون ﴿تَرَىٰ﴾ عاملًا في ﴿إِذِ﴾ وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، تقديره: لو رأيت المجرمين على تلك الحالة رأيت ما تعتبر به غاية الاعتبار. ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي: فيقال لهم: ذوقوا العذاب بنسيانكم. و ﴿هَٰذَآ﴾ في موضع جر على أنه صفة لـ ﴿يَوْمِكُمْ﴾.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكلفين ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي: يقبض أرواحكم أجمعين. وقيل: يقبضكم واحداً واحداً حتى لا يبقى منكم أحداً ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكل بقبض أرواحكم عن ابن عباس قال: جعلت الدنيا بين يدي ملك الموت مثل جامٍ، يأخذ منها ما شاء إذا قضى عليه الموت من غير عناء، وخطوته ما بين المشرق

---

(1) القذى: ما يحمله السيل من تبن ونحوه. ومزبد أي: ذو زبد. والأتي: السيل، الجدول. قذف رجلًا بقلة عنائه في الحرب، وإنه كان في تلك الحرب منزلة القذى في الماء الكدر الذي يقذف به السيل، أو بعض الجداول، لا يرى له عين، ولا أثر.

والمغرب. وقيل: إن له أعواناً كثيرة من ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، عن قتادة والكلبي. فعلى هذا المراد بملك الموت الجنس، ويدل عليه قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وأما إضافة التوفي إلى نفسه في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فلأنه سبحانه خلق الموت ولا يقدر عليه أحد سواه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزاء ربكم من الثواب والعقاب تردون، وجعل ذلك رجوعاً إليه، تفخيماً للأمر وتعظيماً للحال. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمراض والأوجاع كلها بريد للموت، ورسل للموت، فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيها العبد! كم خبر بعد خبر، وكم رسول بعد رسول، وكم بريد بعد بريد، أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر، وأنا الرسول، أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه، قال: على من تصرخون، وعلى من تبكون، فوالله ما ظلمت له أجلًا، ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربه، فليبك الباكي على نفسه، فإن لي فيكم عوْدات وعوْدات حتى لا أُبقي منكم أحداً».

ثم أخبر سبحانه عن حالهم في القيامة وعند الحساب، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد أو أيها الإنسان ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة حين يكون المجرمون متطأطئي رؤوسهم ومطرقيها حياء وندماً وذلًا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند ما يتولى الله سبحانه حساب خلقه يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: أبصرنا الرشد، وسمعنا الحق. وقيل معناه: أبصرنا صدق وعدك، وسمعنا منك تصديق رسلك. وقيل معناه: إنا قد كنا بمنزلة العمي فأبصرنا، وبمنزلة الصم فسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ أي: فارددنا إلى دار التكليف ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الصالحات ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ اليوم لا نرتاب شيئاً من الحق والرسالة، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ بأن نفعل أمراً من الأمور يلجئهم إلى الإقرار بالتوحيد، ولكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف، لأن المقصود به استحقاق الثواب، والإلجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب. قال الجبائي: ويجوز أن يكون المراد به: ولو شئنا لأجبناهم إلى ما سألوا، من الرد إلى دار التكليف ليعملوا بالطاعات، ولكن حق القول مني أن أجازيهم بالعقاب، ولا أردهم. وقيل معناه: ولو شئنا لهديناهم إلى الجنة ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: الخبر والوعيد ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من كلا الصنفين بكفرهم بالله سبحانه، وجحدهم بوحدانيته، وكفرانهم نعمته، والقول من الله سبحانه بمنزلة القسم، فلذلك أتى بجواب القسم، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ثم حكى سبحانه ما يقال لهؤلاء الذين طلبوا الرجعة إلى دار التكليف إذا جُعلوا في العذاب بقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: بما فعلتم فعل من نسي لقاء جزاء هذا اليوم، فتركتم ما أمركم الله به، وعصيتموه، والنسيان: الترك، ومنه قول النابغة:

«سَفود شَربٍ نسوه عند مُفتأد»(١)

---

(١) هذا عجز بيت يصف فيه فرسه وقبل: «كأنه خارجاً من جنب صفحته» وهو من قصيدة قالها في مدح نعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما وشى له به المنخل اليشكري، من شأن امرأته المتجردة. واعتبر بعض العلماء هذه القصيدة من المعلقات. سفود: حديدة يشوى عليها اللحم. والشرب: القوم المجتمعون للشراب. والمفتأد: موضع الوقود. وقد مر في الجزء السادس أيضاً.

أي: تركوه فلم يستعملوه. قال المبرد: لأنه لو كان المراد النسيان الذي هو ضد الذكر لجاز أن يكونوا استعملوه ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ أي: فعلنا معكم فعل من نسيكم من ثوابه، أي: تركـكم من نعيمه جزاءً على تركـكم طاعتنا ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ الذي لا فناء له ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

ثم أخبر سبحانه عن حال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يصدق بالقرآن، وسائر حججنا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ تذكروا واتعظوا بمواعظها بأن ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي: ساجدين شكراً لله سبحانه على أن هداهم بمعرفته، وأنعم عليهم بفنون نعمته ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: نزهوه عما لا يليق به من الصفات، وعظموه وحمدوه ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادته ولا يستنكفون من طاعته، ولا يأنفون أن يعفروا وجوههم صاغرين له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة ويعقوب: ﴿**ما أخفي لهم**﴾ ساكنة الياء، والباقون: بفتحها. وروي في الشواذ عن النبي ﷺ وأبي هريرة وأبي الدرداء وابن مسعود: ﴿**قرات عين**﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: الذي يقوي بناء الفعل للمفعول به قوله: ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا﴾ فأبهم ذلك، كما أبهم قوله: ﴿أُخۡفِيَ لَهُم﴾ ولم يسند إلى فاعل بعينه، ولو كان ﴿أخفى﴾ لكان أعطاهم جنات المأوى، ويقوي قراءة حمزة أن ﴿أخفى﴾ مثل ﴿لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ وأما ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما أخفى﴾ فالأبين فيه أن يكون استفهاماً، وهو عندي قياس قول الخليل، فمن قال: ﴿أخفى﴾ كان ﴿ما﴾ عنده مرفوعاً بالابتداء، والذكر الذي في ﴿أخفى﴾ يعود إليه، والجملة التي هي ﴿ما أخفى﴾ في موضع نصب ويعلم هو الذي يتعدى إلى مفعولين، كما أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ كذلك. ومن قال: ﴿ما أخفى لهم﴾ فإن ﴿مَآ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أخفى﴾ والجملة في موضع نصب بـ ﴿يَعۡلَمُ﴾ كما كان في الأول كذلك، ومثله قوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ وما أشبه ذلك يحمل فيه العلم على التعدي إلى مفعولين، ومن بعده للاستفهام. وأما قوله: ﴿**قرات أعين**﴾ فإن القرة

مصدر، وكان القياس أن لا يجمع، لأن المصدر اسم الجنس، والأجناس أبعد شيء من الجمعية، لكن جعلت القرة نوعاً هاهنا فجمع، كما يقال: نحن في أشغال ولنا علوم.

● **اللغة:** التجافي: تعاطي الارتفاع عن الشيء، ومثله النُّمو، يقال: جفا عنه يجفو جفاء وتجافى عنه تجافياً إذا نبا عنه، قال الشاعر:

وصاحبي ذات هباب دمشق وابن مِلاط متجاف أرفق[1]

والمضجع: موضع الاضطجاع، وقال عبد الله بن رواحة يصف النبي ﷺ:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

● **الإعراب:** ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعول له، كما يقال: فعلت ذلك مخافة الشر. قال الزجاج: وحقيقته أنه في موضع المصدر، لأن ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ هنا يدل على أنهم يخافون عذابه، ويرجون رحمته، فهو في تأويل: يخافون خوفاً، ويطمعون طمعاً. وقوله: ﴿جَزَآءً﴾ منصوب أيضاً بأنه مفعول له ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ جواب الاستفهام، أي: لا يكون كذلك، والواو الثانية في ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ فاعل من وجه، مفعول من وجه، لأن المعنى لا يساوي هؤلاء أولئك، ولا أولئك هؤلاء، ولو قال: لا يستويان، لكان جائزاً، ولكنه جاء على معنى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، ويجوز أن يكون: لا يستوون للاثنين، لأن معنى الاثنين جماعة. ﴿نُزُلًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه ما يتعلق به اللام من ﴿فَلَهُمْ﴾، ﴿كُلَّمَآ﴾ ظرف زمان لـ ﴿أُعِيدُوا۟﴾.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه المؤمنين المذكورين في الآية المتقدمة، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل، وهم المتهجدون بالليل الذين يقومون عن فرشهم للصلاة، عن الحسن ومجاهد وعطاء، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام. وروى الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقد أصابنا الحر فتفرق القوم، فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله! أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم شهر رمضان»، قال: «وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير»، قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

وبالإسناد عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة الداء عن الجسد». وقيل: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة. قال أنس: نزلت فينا معاشر

---

(١) الهباب: النشاط. والدمشق: الناقة الخفيفة السريعة. والملاط: الجنب. وابن الملاط: عضد البعير لأنه يلي الجنب.

الأنصار، كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء الآخرة مع النبي ﷺ. وقيل: هم الذين يصلون ما بين المغرب والعشاء الآخرة، وهي صلاة الأوابين، عن قتادة. وقيل: هم الذين يصلون العشاء والفجر في جماعة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من عذاب الله ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمة الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله، وسبيل ثوابه. ووجه المدح في هذه الآية: أن هؤلاء المؤمنين يقطعهم اشتغالهم بالصلاة والدعاء عن طيب المضجع، لانقطاعهم إلى الله تعالى، فآمالهم مصروفة إليه، واتكالهم في كل الأمور عليه، ثم ذكر سبحانه جزاءهم فقال:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحد ما خبىء لهؤلاء الذين ذكروا بما تقرُّ به أعينهم. قال ابن عباس: هذا لا تفسير له، فالأمر أعظم وأجل مما يعرف تفسيره، وقد ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله يقول: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله[1] ما أطلعتكم عليه، اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ رواه البخاري ومسلم جميعاً. وقد قيل في فائدة الإخفاء وجوه:

أحدها: أن الشيء إذا عظم خطره، وجل قدره، لا تستدرك صفاته على كنهه إلا بشرح طويل، ومع ذلك فيكون إبهامه أبلغ.

وثانيها: أن قرة العيون غير متناهية، فلا يمكن إحاطة العلم بتفاصيلها.

وثالثها: أنه جعل ذلك في مقابلة صلاة الليل، وهي خفية، فكذلك ما بإزائها من جزائها. ويؤيد ذلك ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما من حسنة إلا ولها ثواب مبيَّن في القرآن، إلا صلاة الليل فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها، قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية، وقرة العين: رؤية ما تقر به العين، يقال: أقر الله عينك، أي: صادف فؤادك ما يرضيك، فتقر عينك حتى لا تطمح بالنظر إلى ما فوقه. وقيل: هي من القر، أي: البرد، لأن المستبشر الضاحك يخرج من شؤون عينيه دمع بارد، والمحزون المهموم يخرج من عينيه دمع حار، ومنه قولهم: سخنت عينه، وهو قرير العين، وسخين العين، وإنما أضاف القرة إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم، تنبيهاً على أنها غاية في الحسن والكمال، فتقر بها كل عين ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات في دار الدنيا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ هذا استفهام يراد به التقرير، أي: أيكون من هو مصدق بالله على الحقيقة عارف بالله وبأنبيائه، عامل بما أوجبه الله عليه وندبه إليه، مثل من هو فاسق، خارج عن طاعة الله، مرتكب لمعاصي الله، ثم قال: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ لأن منزلة المؤمن درجات الجنان، ومنزلة الفاسق دركات النيران، ثم فسر ذلك

---

(١) قال ابن الأثير، في حديث نعيم الجنة: «ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه»؛ بله من أسماء الأفعال بمعنى: دع واترك، والمعنى: دع ما اطلعتم عليه من نعيم الجنة، وعرفتموه من لذاتها. وثقل في اللسان عن ابن الأحمر أنه قال: بله بمعنى كيف، ومعناه: كيف ما اطلعتم عليه.

بقوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يأوون إليها ﴿نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: عطاء بما كانوا يعملون، عن الحسن. وقيل: ينزلهم الله فيها نزلًا، كما ينزل الضيف، يعني أنهم في حكم الأضياف ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ الذي يأوون إليه ﴿ٱلنَّارُ﴾ نعوذ بالله منها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ أي: كلما همُّوا بالخروج منها، لما يلحقهم من ألم العذاب ﴿أُعِيدُواْ﴾ أي: ردوا ﴿فِيهَا﴾ وقد مرَّ بيانه في سورة الحج ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: لا تصدقون به وتجحدونه، وفي هذا دلالة على أن المراد بالفاسق هنا الكافر المكذب. قال ابن أبي ليلى: نزل قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الآيات، في علي بن أبي طالب عليه السلام ورجل من قريش وقال غيره: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة، فالمؤمن: علي، والفاسق: الوليد، وذلك أنه قال لعلي عليه السلام: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، فقال علي عليه السلام: ليس كما تقول يا فاسق. قال قتادة: لا والله! ما استووا لا في الدنيا، ولا عند الموت، ولا في الآخرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي ورويس عن يعقوب: ﴿لِمَا صَبَرُواْ﴾ بكسر اللام، والباقون: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد وفتح اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿لَمَّا﴾ فإنه جعله للمجازاة، إلا أن الفعل المتقدم أغنى عن الجواب، كما أنك إذا قلت: أجيئك إذا جئت، تقديره: إن جئت أجئك، فاستغنيت عن الجواب بالفعل المتقدم على الشرط، فكذلك المعنى هنا: لما صبروا جعلناهم أئمة. ومن قال: ﴿لِما صبروا﴾ علق الجار بـ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ والتقدير: جعلنا منهم أئمة لصبرهم.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه في هذه الآية، فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أما العذاب الأكبر فهو عذاب جهنم في الآخرة، وأما العذاب الأدنى ففي الدنيا، واختلف فيه، فقيل: إنه المصائب والمحن في الأنفس والأموال، عن أُبَيّ بن كعب وابن عباس وأبي العالية والحسن. وقيل: هو القتل يوم بدر بالسيف، عن ابن مسعود وقتادة والسدي. وقيل: هو ما ابتلوا به من الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والكلاب، عن مقاتل. وقيل: هو الحدود، عن عكرمة وابن عباس. وقيل: هو عذاب القبر، عن مجاهد. وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام، والأكثر في الرواية عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام: أن

العذاب الأدنى الدابة والدجال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليرجعوا إلى الحق، ويتوبوا من الكفر. وقيل: ليرجع الآخرون عن أن يذنبوا مثل ذنوبهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: لا أحد أظلم لنفسه ممن نُبه على حجج الله التي توصله إلى معرفته ومعرفة ثوابه ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ جانباً ولم ينظر فيها ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يعصون الله تعالى بقطع طاعاته وتركها ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بأن نحل العقاب بهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: في شك من لقائه، أي: من لقائك موسى ليلة الإسراء بك إلى السماء، عن ابن عباس: وقد ورد في الحديث أنه قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلًا آدم طوالًا جعداً كأنه من رجال شنوءة[(١)]، ورأيت عيسى ابن مريم، رجلًا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس»، فعلى هذا فقد وَعد ﷺ أنه سيلقى موسى قبل أن يموت، وبه قال مجاهد والسدي. وقيل: فلا تكن في مرية من لقاء موسى إياك في الآخرة. وقيل معناه: فلا تكن يا محمد في مرية من لقاء موسى الكتاب، عن الزجاج. وقيل معناه: فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقي موسى الأذى، عن الحسن. فكأنه قال: فلا تك في مرية من أن تلقى كما لقي موسى ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وجعلنا موسى هادياً لهم، عن قتادة. وقيل: وجعلنا الكتاب هادياً لهم، عن الحسن ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: وجعلنا منهم رؤساء في الخير يُقتدى بهم، يهدون إلى أفعال الخير بإذن الله، عن قتادة. وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا فيهم، يدلون الناس على الطريق المستقيم بأمر الله ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ أي: لما صبروا وجعلوا أئمة ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لا يشكون فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يحكم بين المؤمن والكافر والفاسق ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التصديق برسل الله، والإيمان بالبعث والنشور، وغير ذلك من أعمالهم، وأمور دينهم.

النظم: وجه اتصال ذكر موسى عليه السلام بما قبله، أن المراد بالآية: كما آتيناك القرآن يا محمد فكذبوك، كذلك آتينا موسى التوراة فكذبوه، فهو تسلية للنبي ﷺ، ووعيد للمكذبين به.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) قبيلة من اليمن.

● **القراءة:** قرأ زيد: ﴿أولم نهد﴾ بالنون، والقراء كلهم على الياء، وقد ذكرناه في سورة الأعراف. وفي الشواذ قراءة ابن السميقع: ﴿يُمَشُّونَ﴾ بضم الياء وتشديد الشين، و ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بفتح الظاء.

● **الحجة:** قال ابن جني: دفع أبو حاتم فتح الظاء، واستدل على ذلك بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ وقوله: ﴿يمشّون﴾ للكثرة، وقال:

يُمَشّي بيننا حانوتُ كَرمٍ من الخُرسِ الصراصرة القِطاطِ(١)

● **اللغة:** يقال: هداه في الدين يهديه هُدى، وإلى طريق هداية، واهتدى: إذا قبل الهداية، والواجب من الهدى هو ما يؤدي إلى ما ليس للعبد عنه غنى في دينه، فاللطف على هذا هدى، والنظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى هدى. والسَّوق: الحث على السير، ساقه يسوقه. والجرز: الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها، واشتقاقه من قولهم: سيف جراز، أي قطّاع: لا يبقى شيئاً إلا قطعه، وناقة جرّاز: إذا كانت تأكل كل شيء فلا تبقي شيئاً إلا قطعته بفيها، ورجل جروز: أي أكول. قال الراجز:

خبٌّ جروزٌ وإذا جاع بكى(٢)

وفي الجُرز أربع لغات: بضم الجيم والراء، وبفتحهما، وبضم الجيم وإسكان الراء، وفتح الجيم وإسكان الراء.

● **الإعراب:** فاعل ﴿يَهْدِ﴾ مضمر، يدل عليه قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وتقديره: أولم يهد لهم إهلاكنا من أهلكناه من القرون الخالية. ولا يجوز أن يكون فاعله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ لأن ما قبل ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يعمل فيه، إلا حروف الإضافة، لأن ﴿كَمْ﴾ على تقدير الاستفهام الذي له صدر الكلام، فهو في محل النصب، لأن مفعول أهلكَ و ﴿يَمْشُونَ﴾ في محل النصب على الحال.

● **المعنى:** ثم نبه سبحانه خلقه على الاعتبار بمن تقدمهم من القرون، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أولم يبصرهم ويبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية جزاء على

(١) قائله المتنخل الهذلي، والبيت من قصيدة طويلة رواها في (ديوان الهذليين ج٢: ٢١) ونقله في (جمهرة أشعار العرب) أيضاً. وقد اختلفت روايتهم في هذا البيت، ففي بعضها «يمشي» بالياء، و«خمر» بدل «كرم». وفي بعضها «الخرص» بالصاد. ويختلف المعنى حسب هذا الاختلاف. قال صاحب اللسان في مادة «حنت»: و«خرس» يريد صاحب حانوت فاختصر الكلام. وقال غيره: كان الأصل «إلى حانوت» وهذا القائل يجعل الصراصرة فاعل «تمشي»، ومعناها نبط الشام. يعني: إنا كنا قاصدين حانوت الخمر، وتمشي بيننا نساء حسان الشعور من نبط الشّام. والخرس: الدنّ الذي فيه الخمر، وقال: أراد بالكرم: الخمرة مجازاً لكنَّ الظاهر أن قوله ساقط، والصحيح ما قاله صاحب اللسان وغيره: إن المراد يمشي بيننا صاحب حانوت خمر من الخرس السراسرة - بالسين - وهم خدم وعجم، لا يفصحون، فلذلك جعلهم خرساً.

(٢) الخب: الخداع.

كفرهم بالله، وارتكابهم لمعاصيه ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ ويرون آثارهم. وقيل معناه: إنَّا أهلكناهم بغتة، وهم مشاغيل بنفوسهم، يمشون في منازلهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾ أي: في إهلاكنا لهم دلالات واضحات على الحق ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي: أفلا يسمع هؤلاء الكفار ما يوعظون به من المواعظ، ثم نبههم سبحانه على وجه آخر، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: أولم يعلموا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ﴾ بالمطر والثلج. وقيل: بالأنهار والعيون ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ أي: اليابسة التي لا نبات فيها، وقيل: نسوق الماء بالسيول إليها، لأنها مواضع عالية، وهي قرى بين الشام واليمن، عن ابن عباس ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ﴾ أي: من ذلك الزرع ﴿أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ والمعنى: إنَّ هذه الأرض تنبت ما يأكله الناس والأنعام ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ نعم الله تعالى عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ قال الفراء: المراد به فتح مكة. وقال السدي: الفتح هو القضاء بعذابهم في الدنيا، وهو يوم بدر. وقال مجاهد: وهو الحكم بالثواب والعقاب يوم القيامة، وكانوا يسمعون المسلمين يستفتحون بالله عليهم، فقالوا لهم: متى هذا الفتح؟ أي: متى هذا الحكم فينا؟ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ﴾ يوم ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ بين سبحانه أن يوم الفتح يكون يوم القيامة، وذلك اليوم لا ينفع الكافرين إيمانهم ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخر عنهم العذاب، يعني الذين قتلوا يوم بدر لم ينفعهم إيمانهم بعد القتل ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يا محمد فإنه لا ينجع فيهم الدعاء والوعظ. وقيل: أعرض عن أذاهم، وانتظر حكم الله فيهم. قال ابن عباس: نسخت آية السيف ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ موعدي لك بالنصر على أعدائك ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، من موت أو قتل، فيستريحون منك. وقيل معناه: إنَّهُ سيأتيهم ما وعد الله فيهم، فكأنهم ينتظرون.

سُورَةُ الأَحْزَاب

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية بالإجماع.

● **فضلها:** أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه، أعطي الأمان من عذاب القبر». وروى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب، كان يوم القيامة في جوار محمد ﷺ، وآله وأزواجه.

● **تفسيرها:** أمره سبحانه في مختتم تلك السورة بالانتظار، ثم أمره هنا أن يكون في انتظاره متقياً، ونهاه عن طاعة الكفار، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا
جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم
بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ
ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ
أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: ﴿**بما يعملون خبيراً**﴾ بالياء، والباقون: بالتاء. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ مهموزة ممدوة مشبعة بعدها ياء، وفي المجادلة والطلاق مثله، وقرأ نافع ويعقوب: ﴿**اللاء**﴾ مهموزة ممدودة مختلسة لا ياء بعدها، والباقون: ﴿**اللاي**﴾ بغير همزة ولا مد حيث كانت. وقرأ عاصم: قرأ عاصم ﴿تُظاهرون﴾ بضمّ التّاء وتخفيف الظّاء. وقرأ بفتح التّاء وتخفيف الظاء أهل الكوفة غير عاصم. وقرأ ابن عامر ﴿تَظّاهرون﴾ بفتح التّاء وتشديد الظّاء. وقرأ الباقون ﴿تظهّرون﴾ بغير ألف وتشديد الهاء والظّاء. بضم التاء وتشديد الظاء، وقرأ الباقون: ﴿تظاهرون﴾ بغير ألف وتشديد الظاء والهاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿بما يعملون﴾ بالياء، فعلى: لا تطع الكافرين أنه بما يعملون، والتاء على المخاطبة، ويدخل فيه الغيب. و ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ أصله: فاعل مثل شائي، فالقياس أن يثبت الياء فيه، كما يثبت في الشائي والنائي، وقد حذفوا الياء في حروف، من ذلك قولهم: ما بالبيت به بالة، ومنه: جابة، وكذا إذا حذفت من ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ يصير ﴿**اللاء**﴾ فإن خففت الهمزة فالقياس أن تجعل بين بين، وقد حكى سيبويه حذف الياء من اللائي.

ومن قرأ: ﴿تظّهّرون﴾ فإنه تتظهرون، فأدغم التاء في الظاء، ومن قرأ: ﴿تظاهرون﴾ مضمومة التاء، فهو من ظاهر من امرأته، ويقوي ذلك قولهم في مصدره: الظهار، ومن قرأ: ﴿تظاهرون﴾ خفيفة الظاء فمعناه: تتظاهرون فحذف تاء تتفاعلون التي أدغمها غيره، وهو من قرأ: تظاهرون بتشديد الظاء مع الألف.

● **الحجة:** نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور السلمي، قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبيّ بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه، فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومنات وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: إئذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان، وأمر ﷺ فأخرجوا من المدينة، ونزلت الآية: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة: أبا سفيان، وأبا الأعور، وعكرمة، والمنافقين: ابن أبي، وابن سعد، وطعمة.

وقيل: نزلت في ناس من ثقيف، قدموا إلى رسول الله ﷺ، فطلبوا منه أن يمتعهم باللات والعزى سنة، قالوا: لتعلم قريش منزلتنا منك.

وقوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ نزلت في أبي معمر جميل بن معمر بن حبيب الفهري، وكان لبيباً حافظاً لما يسمع، وكان يقول: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد! فكانت قريش تسميه ذا القلبين، فلما كان يوم بدر وهزم المشركون، وفيهم أبو معمر، وتلقاه أبو سفيان بن حرب وهو آخذ بيده إحدى نعليه، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر، ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك؟ إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنهما في رجليَّ، فعرفوا يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد لما نسي نعله في يده.

● **المعنى:** خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: اثبت على تقوى الله، ودم عليه. وقيل معناه: اتق الله في إجابة المشركين إلى ما التمسوه. وقيل: إن بعض المسلمين همُّوا بقتل أولئك الذين قدموا المدينة بأمان، فقال: اتق الله في نقض العهد ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مر بيانه. وقيل: إنه عام وهو الوجه. والكافر هو الذي يظهر الكفر ويبطنه، والمنافق هو الذي يظهر الإيمان، ويبطن الكفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون قبل كونه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يخلقه. ولما نهاه عن متابعة الكفار وأهل النفاق، أمره باتباع أوامره ونواهيه على الإطلاق، فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن والشرائع، فبلغه واعمل به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوض أمورك إلى الله حتى لا تخاف غيره، ولا ترجو إلا خيره ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: قائماً بتدبيرك، حافظاً لك، ودافعاً عنك ﴿مَّا جَعَلَ

ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ فإن أمر الرجل الواحد لا ينتظم ومعه قلبان، فكيف تنتظم أمور العالم وله إلهان معبودان؟

وقيل: إنه نزل في أبي معمر، على ما مر بيانه، عن مجاهد وقتادة. وإحدى الروايتين عن ابن عباس.

وقيل: إن المنافقين كانوا يقولون: إن لمحمد قلبين، ينسبونه إلى الدهاء، فأكذبهم الله تعالى بذلك، عن ابن عباس.

وقيل: إن رجلًا كان يقول: إن لي نفسين: نفساً تأمرني، ونفساً تنهاني، فنزل ذلك فيه، عن الحسن.

وقيل: هو رد على المنافقين. والمعنى: ليس لأحد قلبان، يؤمن بأحدهما، ويكفر بالآخر، وإنما هو قلب واحد، فإما أن يؤمن وإما أن يكفر، عن أبي مسلم.

وقيل: إنه يتصل بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ والتقدير: أنه كما لم يجعل لرجل قلبين في جوفه، لم يجعل ابن الإنسان ابناً لغيره.

وقيل: بل يتصل بما قبله، والمعنى: أنه لا يمكن الجمع بين اتباعين متضادين اتباع الوحي والقرآن، واتباع أهل الكفر والطغيان، فكنى عن ذلك بذكر القلبين، لأن الاتباع يصدر عن الاعتقاد، والاعتقاد من أفعال القلوب، فكما لا يجتمع قلبان في جوف واحد، لا يجتمع اعتقادان متضادان في قلب واحد.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، يحب بهذا قوماً، ويحب بهذا أعداءهم.

واختلف العلماء في أنه هل يجوز أن يكون لإنسان واحد قلبان؟

فمنع بعضهم من ذلك، وقال: إن ذلك يؤدي إلى ألا ينفصل إنسان من إنسانين، لأنه يصح أن يريد بأحد قلبيه ما يكرهه بالقلب الآخر، فيصير كشخصين.

وجوز بعضهم ذلك، وقال: كما أن الإنسان الواحد يجوز أن يكون له قلب كثير الأجزاء، ويمتنع أن يريد ببعض الأجزاء ما يكرهه البعض الآخر، لأن الإرادة والكراهة وإن وُجدتا في جزئين من القلب، فالحالتان الصادرتان عنهما يرجعان إلى الجملة، وهي جملة واحدة، فاستحال اجتماع معنيين ضدين في حي واحد.

ويجوز أن يكون معنيان مختلفان أو مثلان في جزئين من القلب، ويوجبان الصفتين للحي الواحد، فكذلك القياس إذا كان المعنيان في قلبين، إذا كان ما يوجد فيهما يرجع إلى حي واحد، إلا أن السمع ورد بالمنع من ذلك.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ يقال: ظاهر من امرأته، وتظاهر، وتظهر،

وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي، وكانت العرب تطلق نساءها في الجاهلية بهذا اللفظ، فلما جاء الإسلام نُهوا عنه، وأوجبت الكفارة على من يظاهر من امرأته، وسنذكره في سورة المجادلة. والمعنى: أن الله تعالى أعلمنا أن الزوجة لا تصير أماً، فقال: وما جعل نساءكم اللائي تقولون: هن علينا كظهر أمهاتنا، أمهاتكم، لأن أمهاتكم على الحقيقة هن اللائي ولدنكم وأرضعنكم ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الأدعياء جمع الدَّعي: وهو الذي يتبناه الإنسان. بين سبحانه أنه ليس بابن على الحقيقة، ونزلت في زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، من بني عبدِوُدٍ، تبناه النبي ﷺ قبل الوحي، وكان قد وقع عليه السبي، فاشتراه رسول الله ﷺ بسوق عكاظ، فلما نبىء رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم، فقدم أبوه حارثة مكة، وأتى أبا طالب، وقال: سل ابن أخيك، فإما أن يبيعه، وإما أن يعتقه، فلما قال ذلك أبو طالب لرسول الله، قال: هو حر فليذهب حيث شاء، فأبى زيد أن يفارق رسول الله ﷺ، فقال حارثة: يا معشر قريش! اشهدوا أنه ليس ابني، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا أنه ابني، يعني زيداً، فكان يدعى زيداً بن محمد، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، فكانت تُحبّ زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهى الناس عنها، فقال الله سبحانه: ما جعل الله من تدعونه ولداً، وهو ثابت النسب من غيركم، ولداً لكم. ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي إن قولكم: الدعيُّ ابن الرجل شيء تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ الذي يلزم اعتقاده، وله حقيقة، وهو أن الزوجة لا تصير بالظهار أُمًّا، والدَّعيُّ لا يصير بالتبني ابناً ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: يرشد إلى طريق الحق ويدل عليه.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذي ولدوهم، وانسبوهم إليهم، أو إلى من ولدوا على فراشهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل عند الله قولًا وحكماً. وروى سالم عن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيداً بن محمد، حتى نزل في القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أورده البخاري في الصحيح ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ أي: لم تعرفوهم بأعيانهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: فهم إخوانكم في الملة، فقولوا: يا أخي ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: بنو أعمامكم. قال الزجاج: ويجوز أن يكون المراد: أولياءكم في الدين في وجوب النصرة. وقيل معناه: معتقوكم ومحرروكم، إذا أعتقتموهم من رق فلكم ولاؤهم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: ليس عليكم حرج في نسبته إلى المتبني إذا ظننتم أنه أبوه، ولم تعلموا أنه ليس بابن له، فلا يؤاخذكم الله به ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن الإثم والجناح فيما تعمدت قلوبكم، يعني: في الذي تعمدته قلوبكم، وقصدتموه من دعائهم إلى غير آبائهم، فإنكم تؤاخذون به. وقيل: ما أخطأتم قبل النهي، وما تعمدتموه بعد النهي، عن مجاهد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف من قولكم ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم. وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الانتساب إلى غير الأب، وقد وردت السنة بتغليظ الأمر فيه. قال عليه الصلاة والسلام: «من انتسب إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله».

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٦ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، وابن عامر، وأبو بكر، وقتيبة: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بألف في الوصل والوقف، وقرأ أهل البصرة، وحمزة بغير ألف في الوصل والوقف، والباقون: بالألف في الوقف، وبغير ألف في الوصل.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه قول من أثبت في الوصل أنها في المصحف كذلك، وهو رأس آية، ورؤوس الآيات تشبه بالقوافي من حيث كانت مقاطع، فلما شبه ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ بالقوافي من حذف الياء منهن، كما حذف في نحو قوله:

من حذر الموت أن يأتين
وإذا ما انتسبت له أنكرن[(١)]

كذلك يشبه هذا في إثبات الألف بالقوافي، فأما من طرح الألف في الوصل، فإنه ذهب إلى أنَّ ذلك في القوافي، وليس رؤوس الآي بقواف، فيحذف في الوصل كما يحذف غيرها مما يثبت في الوقت، نحو التشديد الذي يلحق الحرف الموقوف عليه، وهذا إذا أثبت في الخط، فينبغي أن لا يحذف كما لا يحذف هاء الوقف من ﴿حِسَابِيَهۡ﴾ و ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ وأن يجري مجرى الموقوف عليه، ولا يوصل.

● **الإعراب:** ﴿أَن تَفۡعَلُوٓاْ﴾ موصول وصلة، في موضع رفع بالابتداء، إلا أنه استثناء منقطع، وخبره محذوف، تقديره: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز. ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾ العامل في الظرف هنا محذوف، تقديره: واذكروا نعمة الله عليكم كائنة وقت مجيء جنوده. ﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾ بدلًا من إذ الأولى. ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ﴾ كذلك.

● **الحجة:** قال الكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الثاني منهما دون أهله، فمكثوا بذلك ما شاء الله حتى نزلت ﴿وَأُوْلُواْ

(١) والأصل: يأتيني، وأنكرني.

﴿ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة، وورث الأدنى فالأدنى من القرابات. وقال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث الأعرابي المسلم من المهاجرين شيئاً، فنزلت هذه الآية، فصار المواريث بالقرابات.

● **المعنى:** ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أولى بهم منهم بأنفسهم، وقيل في معناه أقوال:

أحدها: أنه أحق بتدبيرهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمهم على أنفسهم، خلاف ما يحكم به لوجوب طاعته، التي هي مقرونة بطاعة الله تعالى، عن ابن زيد.

وثانيها: أنه أولى بهم في الدعوة، فإذا دعاهم النبي ﷺ إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعته أولى بهم من طاعة أنفسهم، عن ابن عباس وعطاء. وهذا قريب من الأول.

وثالثها: أن حكمه أنفذ عليهم من حكم بعضهم على بعض، كقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فإذا كان هو أحق بهم، وهو لا يرث أمته بما له من الحق، فكيف يرث من توجبون حقه بالتبني.

وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك، وأمر الناس بالخروج، قال قوم: نستأذن آباءنا وأمهاتنا، فنزلت هذه الآية. وروي عن أبي وابن مسعود وابن عباس: أنهم كانوا يقرؤون: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو أب لهم وكذلك هو في مصحف أبي، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. قال مجاهد: وكل نبي أب لأمته، ولذلك صار المؤمنون أخوة، لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين، وواحدة الأنفس نفس، وهي خاصة الحيوان الحساسة الدراكة، التي هي أنفس ما فيه، ويحتمل أن يكون اشتقاقه من التنفس الذي هو التروح، ويحتمل أن يكون من النفاسة، لأنه أجل ما فيه وأكرمه.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ المعنى: إنهنّ للمؤمنين كالأمهات في الحرمة، وتحريم النكاح، ولسن أمهات لهم على الحقيقة، إذ لو كن كذلك لكانت بناته أخوات المؤمنين على الحقيقة، فكان لا يحل للمؤمن التزوج بهن، فثبت أن المراد به يعود إلى حرمة العقد عليهن لا غير، لأنه لم يثبت شيء من أحكام الأمومة بين المؤمنين وبينهن سوى هذه الواحدة، ألا ترى أنه لا يحل للمؤمنين رؤيتهن، ولا يرثن المؤمنين، ولا يرثونهن، ولهذا قال الشافعي: وأزواجه أمهاتهم. في معنى دون معنى، وهو أنهن محرمات على التأبيد، وما كن محارم في الخلوة والمسافرة، وهذا معنى ما رواه مسروق عن عائشة: أن امرأة قالت لها: يا أمّه! فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم. فعلى هذا لا يجوز أن يقال لإخوانهن وأخواتهن: أخوال المؤمنين وخالات المؤمنين. قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر ولم يقل هي خالة المؤمنين.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهو مفسر في آخر الأنفال، وأولو الأرحام: هم ذوو الأنساب.

لما ذكر سبحانه أن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، عقبه بهذا، وبين أنه لا توارث إلا

بالولادة والرحم، والمعنى: إنَّ ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من المؤمنين، أي: من الأنصار والمهاجرين، أي: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقيل معناه: من المؤمنين والمتواخين والمهاجرين، فصارت هذه الآية ناسخة للتوارث بالهجرة والمؤاخاة في الدين، دالة على أن الميراث بالقرابة، فمن كان أقرب في قرباه فهو أحق بالميراث من الأبعد ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ هذا استثناء منقطع، ومعناه: لكن إن فعلتم إلى أوليائكم المؤمنين، وخلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه، فهو حسن. قال السدي: عنى بذلك وصية الرجل لإخوانه في الدين. وقال غيره: لما نسخ التوارث بالمؤاخاة والهجرة أباح الوصية، فيوصي لمن يتولاه بما أحب من الثلث، فمعنى المعروف هنا: الوصية.

وحكي عن محمد بن الحنفية وعكرمة وقتادة أن معناه: الوصية لذوي القرابات من المشركين، وقيل: إن هذا لا يصح، لأنه تعالى نهى عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ وقد أجاز كثير من الفقهاء الوصية للقرابة الكافرة. وقال أصحابنا: إنها جائزة للوالدين والولد، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نسخ الميراث بالهجرة، ورده إلى أولي الأرحام من القرابات ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المفوظ. وقيل: في القرآن. وقيل: في التوراة ﴿مَسۡطُورٗا﴾ أي: مكتوباً، و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: ما ذكرناه.

والآخر: أن يكون التقدير: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين أولى بالميراث.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي: واذكر يا محمد حين أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً بأن يصدق بعضهم بعضاً، ويتبع بعضهم بعضاً، عن قتادة. وقيل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحوا لقومهم، عن مقاتل ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد، وإنما قدمه لفضله وشرفه ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ خص هؤلاء بالذكر لأنهم أصحاب الشرائع ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ أي: عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا من أعباء الرسالة، وتبليغ الشرائع. وقيل: على أن يعلنوا أن محمداً رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أنه لا نبي بعده، وإنما أعاد ذكر الميثاق على وجه التغليظ، وذكره في أول الآية مطلقاً، وفي آخرها مقيداً بزيادة صفة. ثم بين سبحانه الفائدة في أخذ الميثاق، فقال: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ قيل معناه: إنما فعل ذلك ليسأل الأنبياء المرسلين: ما الذي جاءت به أممكم؟، عن مجاهد. وقيل: ليسأل الصادقين في توحيد الله وعدله، والشرائع عن صدقهم، أي: عما كانوا يقولونه فيه تعالى، فيقال لهم: هل ظلم الله تعالى أحداً؟ هل جازى كل إنسان بفعله؟ هل عذب بغير ذنب؟ ونحو ذلك، فيقولون: نعم عدل في حكمه، وجازى كلَّا بفعله. وقيل معناه: ليسأل الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم. وقيل: ليسأل الصادقين: ماذا قصدتم بصدقكم وجه الله أو غيره، ويكون فيه تهديد للكاذب. قال الصادق عليه السلام: إذا سأل عن صدقه، على أي وجه قاله، فيجازى بحسبه، فكيف يكون حال الكاذب؟ ثم قال سبحانه: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: مؤلماً. ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ

﴿ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ذكرهم سبحانه عظيم نعمته عليهم، في دفع الأحزاب عنهم ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ أيام الخندق ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ وهي الصبا أرسلت عليهم حتى أكفأت قدورهم، ونزعت فساطيطهم ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ من الملائكة. وقيل: إن الملائكة لم يقاتلوا يومئذ، ولكن كانوا يشجعون المؤمنين، ويجبنون الكافرين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ من قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى المؤمنين، ومن قرأ بالياء أراد أن الله عالم بما يعمله الكفار. ثم قال: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾ أي: واذكروا حين جاءكم جنود المشركين ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي: من فوق الوادي قبل المشرق، قريظة والنضير وغطفان ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: من قبل المغرب من ناحية مكة، أبو سفيان في قريش ومن تبعه ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: مالت عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب. وقيل معناه: عدلت الأبصار عن مقرها من الدهش والحيرة، كما يكون الجبان فلا يعلم ما يبصر ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ والحنجرة جوف الحلقوم، أي: شخصت القلوب من مكانها، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت، عن قتادة. وقال أبو سعيد الخدري: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، قال: فقلناها، فضرب وجوه أعداء الله بالريح فهزموا: قال الفراء: المعنى في قوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ أنهم جبنوا وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن ينتفخ سُحره، والسُّحر الرئة، فإذا انتفخت الرئة رفعت القلوب إلى الحنجرة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: اختلفت الظنون، فظن بعضكم بالله النصر، وبعضكم أيس وقنط. وقيل: تظنون ظنوناً مختلفة، فظن المنافقون أنه يستأصل محمد، وظن المؤمنون أنه ينصر، عن الحسن. وقيل: إن من كان ضعيف القلب والإيمان ظن ما ظنه المنافقون إلا أنه لم يرد ذلك. وقيل: اختلاف ظنونهم أن بعضهم ظن أن الكفار تغلبهم، فظن بعضهم أنهم يستولون على المدينة، وظن بعضهم أن الجاهلية تعود كما كانت، وظن بعضهم أن ما وعد الله ورسوله من نصرة الدين وأهله غرور، فأقسام الظنون كثيرة خصوصاً ظن الجبناء.

النظم: اتصل قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ فإنه سبحانه لما بين أن التبني عليه لا يجوز، بين عقيبه أنه مع ذلك أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من حيث أنه ولّاه الله أمرهم، فيلزمهم طاعته والانقياد له، وأصل الولاية لله تعالى، كما قال: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ فلا حظ فيها لأحد إلا من ولاه سبحانه، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ يوم الغدير في قوله: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟»، فلما قالوا: بلى، قال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، والمولى بمعنى الأولى، بدلالة قوله: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: أولى بكم، وقول لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها[1]

(١) البيت من المعلّقات. والفرج: ما بين قوائم الدواب فيما بين اليدين: فرج. وما بين الرجلين: فرج، يصف بقرة وحشية سمعت صوتاً. يقول: فغدت البقرة وهي تحسب أنّ كل فرجٍ من فرجيها أولى بالمخافة منه، ولم تقف على أنّ صاحب الصوت خلفها، أم أمامها.

أي: أولى بالمخافة. ثم عاد سبحانه إلى الكلام في تأكيد نبوة نبينا ﷺ بذكر ما أخذ على النبيين من الميثاق في هذا الباب، وعقب ذلك ببيان آياته ومعجزاته يوم الأحزاب، وذكر ما أنعم عليه وعلى المؤمنين من النصر، مع ما أعده لهم من الثواب.

قصة غزوة الخندق: ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا: كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب، في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود! إنكم أهل الكتاب الأول، فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فسر قريشاً ما قالوا، ونشطوا لما دعوهم إليه، فأجمعوا لذلك واستعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ﷺ، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة، والحرث بن عوف بن بني مرة، ومسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من أشجع، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل طليحة في من اتبعه من بني أسد، وهما حليفان: أسد وغطفان، وكتب قريش إلى رجال من بني سليم، فأقبل أبو الأعور السلمي في من اتبعه من بني سليم مدداً لقريش، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر، قال: يا رسول الله! إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه.

فما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق: ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلًا قوياً، فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت، قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان! ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة، فإما أن نعدل عنها فإن المعدَل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه. فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو مضروب عليه قبة، فقال: يا رسول الله! خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة، فكسرت حديدنا،

وشقت علينا، حتى ما يحك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، وأخذ المعول[١] وضرب به ضربة، فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها[٢]، يعني لابتي المدينة، حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى. فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي أرى؟ فقال: أما الأولى: فإن الله عز وجل فتح علي بها اليمن، وأما الثانية: فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة: فإن الله فتح علي بها المشرق. فاستبشر المسلمون بذلك، وقالوا: الحمد لله، موعد صادق.

قال: وطلعت الأحزاب، فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله. وقال المنافقون: ألا تعجبون؟ يحدثكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة[٣] ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا.

ومما ظهر فيه أيضاً من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال: حدثني أيمن المخزومي، قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كُدْية[٤]، وهي الجبل، فقلنا: يا رسول الله! إن كُدْية عرضت فيه، فقال رسول الله ﷺ: رشوا عليها ماء، ثم قام فأتاها وبطنه معصوب بحجر من الجوع، فأخذ المعول أو المسحاة فسمَّى ثلاثاً، ثم ضرب فعادت كثيباً أهيل[٥]، فقلت له: إئذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل، فقلت للمرأة: هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق[٦]، فطحنت الشعير وعجنته، وذبحت العناق وسلختها، وخليت بين المرأة وبين ذلك، ثم أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة، ثم قلت: إئذن لي يا رسول الله ففعل، فأتيت المرأة، فإذا العجين واللحم قد أمكنا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنَّ عندنا طعيّماً لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك، فقال: وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق، فقال للمسلمين جميعاً: قوموا إلى جابر، فقاموا، فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق على صاع شعير وعناق، فدخلت على المرأة وقلت: قد افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين، فقالت: هل كان سألك: كم طعامك؟ قلت: نعم، فقالت: الله

---

(١) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر.

(٢) اللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها. والمدينة المنوّرة ما بين حرتين عظيمتين.

(٣) قال الحموي: الحيرة. مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له (النجف).

(٤) هذه هو الظاهر الموافق لسيرة ابن هشام ج٢: ٢١٧، والبخاري ج٥ - ٩٠، وغيره. لكن في الأصل «كذانة» قال ابن الأثير في حديث الخندق: فعرضت فيه كدية فأخذ المسحاة. . . (اه) والكدية: قطعة غليظة صلبة لا يعمل فيها الفأس.

(٥) أي: رملًا سائلًا.

(٦) العناق: الأنثى من أولاد المعز قبل استكمال الحول.

ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشفت عني غماً شديداً، فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم، فجعل رسول الله ﷺ يثرُد ويفرق اللحم، ثم يجُمُّ هذا، ويجمُّ[١] هذا، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ: كلي وأهدي، فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع. أورده البخاري في الصحيح.

وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، وقد وارى التراب بياض بطنه، وهو يقول:

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الأولى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا»[٢] يرفع بها صوته. رواه البخاري أيضاً في الصحيح عن أبي الوليد عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء.

قالوا: ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف والغابة[٣]، في عشرة آلاف من أحابيشهم[٤]، ومَن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[٥] في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام[٦].

وخرج عدو الله حُيَيّ بن أخطب النضيري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب بني قريظة، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه: يا كعب، افتح لي، فقال: ويحك يا حُيي، إنك رجل مشؤوم، إني قد عاهدت محمداً ﷺ، ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، قال: ويحك! افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: إن أغلقت دوني إلا على حشيشة تكره أن آكل منها معك فأحفظ الرجل[٧]. ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر، وببحر طام[٨]، جئتك بقريش على قادتها وسادتها،

---

(١) كذا في النسخ. ولم أظفر له على معنى يناسب المقام والسياق في اللغة جم الإناة: ملأه. وفي (صحيح البخاري ج٥: ٩٠) ما نصه) «ويخمر (أي يغطي) التنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه»... (اه).

(٢) قائلها: عبد الله بن رواحة، ارتجز بها رسول الله ﷺ.

(٣) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. والغابة أيضاً: بينها وبين جبل سلع ثمانية أميال، قاله الحموي في المعجم.

(٤) الأحابيش: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.

(٥) سلع: جبل المدينة.

(٦) الآطام: الأبنية المرتفعة كالحصون.

(٧) أحفظه: بمعنى أغضبه.

(٨) طم الماء: كثر.

وبغطفان على سادتها وقادتها، قد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه! فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر، بجهام[١] قد هراق ماؤه يرعد ويبرق، وليس فيه شيء، فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة والغارب[٢]، حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب عهده، وبرىء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس أحد بني عبد الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوَّات بن جبير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لنا لحناً نعرفه، ولا تفتوا أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. وخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم، قالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وقال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: عضل والقارة[٣] لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله خُبَيْب بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين! وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وظهر النفاق من بعض المنافقين، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة، لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبل، إلا أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبدُود، أخو بني عامر بن لُؤَي، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتى مرُّوا بمنازل بن كنانة، فقالوا: تهيأوا للحرب يا بني كنانة، فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا تعنق[٤] بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق، فقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيولهم فاقتحموا، فجالت بهم في السبخة، بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر من المسلمين، حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا، وأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو بن عبدود فارس قريش، وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث، وأثخنته الجراح ولم يشهد أحداً، فلما كان يوم الخندق خرج

---

(١) الجهام: السحاب.

(٢) أي: يدور من وراء خديعته.

(٣) قال الجوهري: عضل قبيلة، وهو عضل بن الهون بن خزيمة أخو الديش، ويقال لهما القارة. أي: غدروا كغدر عضل والقارة وقصة غدرهما بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله معهم خبيب في الموضع الذي يقال له الرجيع معروف.

(٤) من العنق: وهو ضرب من السير.

معلماً ليرى مشهده، وكان يعد بألف فارس، وكان يسمى: فارس يليَل، لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا بيليل، وهو واد قريب من بدر، عرضت لهم بنو بكر في عدد، فقال لأصحابه: امضوا فمضوا، فقام في وجوه بني بكر، حتى منعهم من أن يصلوا إليه، فعرف بذلك، وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد، وكان أول من طفره عمرو وأصحابه، فقيل في ذلك:

عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المذاد وكان فارس يليل

وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبدود كان ينادي: من يبارز؟ فقام علي عليه السلام وهو مقنع في الحديد، فقال: أنا له يا نبي الله، فقال: إنه عمرو، اجلس، ونادى عمرو: ألا رجل! وهو يؤنبهم(١) ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ فقام علي عليه السلام فقال: أنا له يا رسول الله، ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بُححت(٢) من النداء بجمعكم: هل من مبارز؟
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجا عة في الفتى خير الغرائز

فقام عليٌ فقال: يا رسول الله! أنا، فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمراً.

فاستأذن رسول الله، فأذن له رسول الله. وفيما رواه لنا السيد أبو محمد الحسيني القايني عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني، بالإسناد عن عمرو بن ثابت، عن أبيه عن جده عن حذيفة قال: فألبسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم درعه ذات الفضول وأعطاه سيفه ذا الفقار، وعممه عمامة السحاب على رأسه تسعة أكوار، ثم قال له: تقدم، فقال لما ولّى: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه، قال ابن إسحاق: فمشى إليه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيـ ـم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز(٣)

قال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي، قال: ابن عبد مناف، فقال: أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك مَن هو أسنُّ منك، فإني أكره أن أهرق دمك، فقال علي عليه السلام: لكني والله ما أكره أن أهرق دمك، فغضب

(١) أنّبه: لامه.
(٢) البحاح: غلظ في الصوت، وخشونة.
(٣) ضربة: نجلاء: واسعة. والهزاهز بمعنى الحروب.

ونزل وسل سيفه، كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً، فاستقبله علي بدرقته[١]، فضربه عمرو بالدَّرقة فقدَّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه عليٌّ على حبل العاتق فسقط، وفي رواية حذيفة: وتسيف على رجليه بالسيف من أسفل، فوقع على قفاه، وثارت بينهما عجاجة، فسُمع عليٌّ يكبر، فقال رسول الله ﷺ: قتله، والذي نفسي بيده، فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا علي يمسح سيفه بدرع عمرو، فكبر عمر بن الخطاب، وقال: يا رسول الله، قتله فحزَّ عليٌّ[٢] رأسه، وأقبل نحو رسول الله ووجهه يتهلل، فقال عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها، فقال: ضربته فاتقاني بسوأته فاستحييت ابن عمي أن أستلبه، قال حذيفة: فقال النبي ﷺ: أبشر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم، وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو.

وعن الحاكم أبي القاسم أيضاً بالإسناد عن سفيان الثوري، عن زبيد الثاني، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود قال: كان يقرأ: وكفى الله المؤمنين القتالى بعلي، وخرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق، وتبادر المسلمون، فوجدوا نوفل بن عبد العزى جوف الخندق، فجعلوا يرمونه بالحجارة، فقال لهم: قتلة أجمل من هذه، ينزل بعضكم أقاتله، فقتله الزبير بن العوام، وذكر ابن إسحاق: أن علياً عليه السلام طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه، فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال النبي ﷺ: هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى، وذكر علي عليه السلام أبياتاً منها:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت رب محمد بصواب
فضربته وتركته متجدِّلاً ... كالجذع بين دكادكٍ ورواب[٣]
وعففت عن أثوابهِ، ولو أنَّني ... كنتُ المُقطَّرَ بَزَّني أثوابي[٤]

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصري قال: إن علياً عليه السلام لما قتل عمرو بن عبدود حمل رأسه فألقاه بين يدي رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأس علي عليه السلام، وروي عن أبي بكر بن عياش أنه قال: ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أعز منها، يعني ضربة عمرو بن عبدود، وضرب علي ضربة ما كان في الإسلام ضربة أشأم منها، يعني ضربة ابن ملجم، عليه لعائن الله.

قال ابن إسحاق: ورمى حيان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم، وقال: خذها وأنا ابن العرفة، فقطع أَكحله، فقال سعد: عرف الله وجهك في النار، اللهم إن كنت أبقيت من

(١) الدرقة: الترس من الحديد.
(٢) حز الشيء: قطعه.
(٣) دكادك: جمع دكدك، الرمل اللين. ورواب: جمع رابية: ما ارتفع من الأرض.
(٤) المقطر: الملقى على أحد قطريه أي: جنبيه. وبزه: سلبه.

حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك، وكذبوه، وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

قال: وجاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي، فمرني بأمرك، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل(١) عنا ما استطعت، فإنما الحرب خدعة.

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، فقال لهم: إني لكم صديق، والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد ﷺ بمنزلة واحدة، إن البلد بلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم تستوثقون به، ألا يبرحوا حتى يناجزوا محمداً، فقالوا له: قد أشرت برأي.

ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش! إنكم قد عرفتم ودي إياكم، وفراقي محمداً ودينه، وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا عليّ، فقالوا: نفعل، ما أنت عندنا بمتهم، فقال: تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه: إنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهناً من أشرافهم، وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك، فقال: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفراً من رجالكم فلا تعطوهم رجلًا واحداً، واحذروا، ثم جاء غطفان وقال: يا معشر غطفان! إني رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقريش، فلما أصبح أبو سفيان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة، بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش، أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود! إن الكراع والخف(٢) قد هلكا وإنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه: إن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمداً، فقال أبو سفيان: والله قد حذرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إنا لا نعطيكم رجلًا واحداً، فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا، وإن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم، فبعثوا إليهم: إنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهناً، وخذل الله بينهم، وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، حتى انصرفوا راجعين.

قال محمد بن كعب: قال حذيفة بن اليمان: والله! لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلى الله، وقام رسول الله ﷺ فصلى ما شاء الله من الليل، ثم

---

(١) أمر من خذله: حمله على الفشل وترك القتال.

(٢) يريد بالكراع: الخيل وبالخف: الإبل.

قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم، يجعله الله رفيقي في الجنة، قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بداً من إجابته. قلت: لبيك، قال: اذهب فجئني بخبر القوم، ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع، قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده يفعل بهم ما يفعل، ما يستمسك لهم بناء، ولا تثبت لهم نار، ولا تطمئن لهم قدر، فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثم قال: يا معشر قريش! لينظر أحدكم من جليسه، قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان(١)، ثم عاد أبو سفيان براحلته، فقال: يا معشر قريش! والله ما أنتم بدار مقام، هلك الخف والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة، وهذا الريح لا يستمسك لنا معها شيء، ثم عجل فركب راحلته، وإنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها، قال: قلت في نفسي: لو رميت عدو الله فقتلته، كنت قد صنعت شيئاً، فوترت قوسي، ثم وضعت السهم في كبد القوس، وأنا أريد أن أرميه فأقتله، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن شيئاً حتى ترجع»، قال: فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي، فلما سمع حسي فرج بين رجليه، فدخلت تحته، وأرسل عليَّ طائفة من مرطه(٢)، فركع وسجد، ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته.

وروى الحافظ بالإسناد عن عبد الله بن أبي أوفى وقال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللهم أنت منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وزلزلهم».

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

وعن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، فكان كما قال ﷺ، فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ

---

(١) وفي المنقول عن (شرح المواهب): «فضربت بيدي على الذي عن يميني، فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال معاوية بن أبي سفيان. ثم ضربت بيدي على الذي عن شمالي، فقلت: من أنت قال: عمرو بن العاص».

(٢) المرط - بالكسر -: الكساء.

ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ
ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا
أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ
ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ
فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ
ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ
أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا
قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ بضم الميم، والباقون: بفتحها. وقرأ أهل الحجاز: ﴿لَأَتَوۡهَا﴾ بغير مد، والباقون: ﴿لَآتَوۡهَا﴾ بالمد. وقرأ يعقوب: ﴿يَسَّاءَلُونَ﴾ بالتشديد والمد، والباقون: ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ بالتخفيف. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وابن يعمر وقتادة: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوِرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوِرَةٍ﴾ بكسر الواو في الموضعين. وقراءة الحسن: ﴿ثُمَّ سُيِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ مرفوعة السين، ولا يجعل فيها ياء ولا يمدها. وقراءة ابن عباس: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ بُدًّى فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: المقام يحتمل أمرين:

أحدهما: لا موضع إقامة لكم، وهذا أشبه، لأنه في معنى: ﴿لَا مُقَامَ﴾ بفتح الميم، أي: ليس لكم موضع تقومون فيه.

والآخر: لا إقامة لكم. ومن قصر ﴿لَأَتَوۡهَا﴾ فلأنك تقول: أتيت الشيء إذا فعلته، تقول: أتيت الخير وتركت الشر. ومعنى: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأَتَوۡهَا﴾ سئلوا فعل الفتنة لفعلوها. ومن قرأ ﴿لآتوها﴾ فالمعنى: لأعطوها، أي: لم يمتنعوا فيها، والمعنى لو قيل لهم: كونوا على المسلمين ومع المشركين لفعلوا ذلك. ومن قرأ: ﴿يَسَّاءَلُونَ﴾ فإنه يتساءلون أي: يسأل بعضهم بعضاً، فأدغم التاء في السين. ومن قرأ: ﴿عَوِرَةٌ﴾ بكسر الواو فإنه شاذ من طريق الاستعمال، وذلك لتحرك الواو بعد الفتحة، والقياس أن تقول: عارة، كما قالوا: رجل مالٌ وامرأة مالة، وكبش صاف ونعجة صافة، ومثل عورة في صحة الواو، قولهم: رجل عَوِز لا مال له، وقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني   شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ(١)

---

(١) من أبيات اعتبرها بعض من المعلقات. والحانوت: بيت الخمار. والشاوي: الذي يشوي اللحم. والمشل: المستحث، والجيد السوق، وقيل: الذي يشل اللحم في السفود. والشلول: مثل المشل. وشلشل: الخفيف في العمل والخدمة، وشول: الذي يشول بالشيء الذي يشتريه صاحبه أي: يرفعه. وقال في (اللسان) محكياً عن بعض: إن الألفاظ متقاربة أريد بذكرها المبالغة.

وقوله: ﴿سولِوا﴾ من قولهم: سال يسال، كخاف يخاف، فالعين على هذه اللغة واو، وحكى أبو زيد قولهم: هما يتساولان، كما يقال: يتقاومان، والأقيس على هذا أن يقال: سألوا كعيدوا، وقيل: واللغة الأخرى إشمام الضمة، نحو: سئلوا، واللغة الثالثة: سُولوا، على إخلاص ضمة فُعِل، إلا أنه أردأ اللغات. قال الشاعر:

وقُــــوِل لا أهــــلٌ لــــه ولا مــــال[1]

أي: وقيل. وقال آخر:

نــوط إلــى صــلب شــديــد الــحــل

أي: نيط. وقوله: ﴿بُدَىَ﴾ جمع باد، فهو مثل غاز وغزًىً.

● **اللغة:** يقال: هُنَا للقريب من المكان، و ﴿هُنَالِكَ﴾ للبعيد، وهناك للمتوسط بين القريب والبعيد، وسبيله سبيل ذا، وذلك، وذاك. والزلزال: الاضطراب العظيم. والزلزلة: اضطراب الأرض. وقيل: إنه مضاعف زلَّ وزلزله غيره. والشدة: قوة تدرك بالحاسة، لأن القوة التي هي القدرة لا تدرك بالحاسة، وإنما تعلم بالدلالة، فلذلك يوصف تعالى بأنه قوي، ولا يوصف بأنه شديد. والغرور: إيهام المحبوب بالمكروه. والغرور: الشيطان. قال الحرث بن خلزة:

لــم يــغــرُوكــم غــروراً ولــكــن يــرفــع الآل جــمــعــهــم والــضــحــاء[2]

ويثرب: اسم أرض المدينة، قال أبو عبيدة: إن مدينة الرسول في ناحية من يثرب. وقيل: يثرب هي المدينة نفسها، وذكر المرتضى علم الهدى قدس الله روحه: إن من أسماء المدينة يثرب، وطيبة، وطابة، والدار، والمسكينة، وجائزة، والمحبورة، والمحبة، والمحبوبة، والعذراء، والمرحومة، والقاصمة، ويندد، فذلك ثلاثة عشر اسماً. والعورة: كل شيء يتخوف منه في ثغر، أو حرب، ومكان معور ودار معورة: إذا لم تكن حريزة. القطر: الناحية والجانب، وجمعه الأقطار، يقال: طعنه فقطَّره، إذا ألقاه على أحد قطريه، أي: أحد شقيه. والتعويق: التثبيت، والعوق الصرف، ورجل عوق وعوقة: يعوق الناس عن الخير. والبأس: الحرب، وأصله الشدة. والأشحة: جمع شحيح. والشح: البخل مع حرص. يقال: شح يشح، بضم الشين وفتحها. والسلق: أصله الضرب، وسلق، أي: صاح، ومنه خطيب مسلق ومصلق فصيح، وسلقته بالكلام: أسمعته المكروه، وفي الحديث: ليس منا من سلق أو حلق أو رفع صوته عند المصيبة. وقيل: هو أن تصك وجهها، ومعنى حلق: أي: يحلق رأسه وشعره عند المصيبة. والحديد ضد الكليل، والجمع حِداد. والأحزاب: الجماعات، واحدها حزب. وتحزبوا: أي: تجمعوا من مواضع. والبادي: الذي ينزل البادية، ومنه الحديث: من بدا جفا، أي: من نزل البادية كان فيه جفوة الأعراب. والبداوة: الخروج إلى البادية ـ بفتح الباء وكسرها ـ قال القطامي:

---

(١) هذا عجز بيت وقبله «وابتدأت غضبي وأم الرحال».

(٢) الآل: السراب والضحاء: ارتفاع النهار الأعلى.

ومـن تـكـن الـحـضـارة أعـجـبـتـه فـأي أنـاس بـاديـة تـرانـا[١]

● **الإعراب:** الضمير في ﴿دُخِلَتۡ﴾ عائد إلى البيوت ﴿إِلَّا يَسِيرٗا﴾ تقديره: إلا تلبساً يسيراً، أو زماناً يسيراً، فهو صفة ظرف زمان محذوف ﴿وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ لم يعمل إذاً، لوقوعه بين الواو والفعل، وقد أعملت بعد إن في قول الشاعر:

لا تـتـركـنـي فـيـهـم شـطـيـرا إنـي إذاً أهـلـك أو أطـيـرا[٢]

و ﴿لَا يَأۡتُونَ﴾ جملة معطوفة على صلة الموصول، أي: الذين يعوقون ولا يأتون. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تقديره: إلا زماناً قليلاً، وإن شئت: إلا إتياناً قليلاً. ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوب على الحال في الموضعين. وقيل: هو نصب على الذم. ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي: تدور أعينهم دوراناً مثل دوران أعين الذي يغشى عليه من الموت، فالكاف صفة مصدر محذوف، وقد حذف بعد الكاف المضاف والمضاف إليه.

﴿هَلُمَّ﴾ معناه: أقبل وتعال، وأهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث: هلم بلفظ الواحد، وإنما هي لَمَّ ضمت إليها ها التي للتنبيه، ثم حذفت الألف منها، إذ صار شيئاً واحداً، كقولهم: ويْلَمِّه، وأصله: ويل لأمه، فلما جعلوهما شيئاً واحداً حذفوا وغيروا. وأما بنو تميم فيصرفونه تصريف الفعل، يقولون: هلم يا رجل، وهلما، وهلموا، وهلمي يا امرأة، وهلما، هلممن يا نساء، إلا أنهم يفتحون آخر الواحد البتة.

● **المعنى:** لما وصف سبحانه شدة الأمر يوم الخندق قال: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: اختُبِروا وامتحنوا، ليظهر لك حسن إيمانهم، وصبرهم على ما أمرهم الله به، من جهاد أعدائه، فظهر من كان ثابتاً قوياً في الإيمان، ومن كان ضعيفاً فيه ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ أي: حركوا بالخوف تحريكاً شديداً، وأزعجوا إزعاجاً عظيماً، وذلك أن الخائف يكون قلقاً مضطرباً، لا يستقر على مكانه. قال الجبائي: منهم من اضطرب خوفاً على نفسه من القتل، ومنهم من اضطرب عليه دينه ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي شك، عن الحسن. وقيل: ضعف في الإيمان ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ قال ابن عباس: إن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء، هذا والله الغرور.

﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، عن السدي. وقيل: هم بنو سالم من المنافقين، عن مقاتل. وقيل: إن القائل لذلك أوس بن قبطي ومن وافقه على رأيه، عن يزيد بن رومان ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ أي: لا إقامة لكم هاهنا، أو لا مكان لكم تقومون فيه للقتال ـ إذا فتح الميم ـ فارجعوا إلى منازلكم بالمدينة، وأرادوا الهرب من عسكر رسول الله ﷺ ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ في الرجوع إلى المدينة، وهم بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ ليست بحريزة، مكشوفة ليست بحصينة، عن ابن عباس ومجاهد.

---

(١) الحضارة: الإقامة في الحضر.

(٢) الشطير: الغريب والبعيد. وأطير: متكلم من طار بمعنى تفرق وانتشر.

وقيل معناه: بيوتنا خالية من الرجال، نخشى عليها السراق، عن الحسن. وقيل: قالوا بيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلينا، عن قتادة. فكذبهم الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي رفيعة السمك، حصينة، عن الصادق عليه السلام، ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي: ما يريدون ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ وهرباً من القتال، ونصرة المؤمنين.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي: ولو دخلت البيوت أو دخلت المدينة ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: ولو دخل هؤلاء الذين يريدون القتال، وهم الأحزاب، على الذين يقولون إن بيوتنا، وهم المنافقون ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: من نواحي المدينة، أو البيوت ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أي: ثم دعوا هؤلاء إلى الشرك لأشركوا، فالمراد بالفتنة الشرك، عن ابن عباس ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلا قليلًا، عن قتادة. وقيل معناه: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطائهم الكفر إلا قليلًا حتى يعاجلهم الله بالعذاب، عن الحسن والفراء.

ثم ذكرهم الله سبحانه عهدهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالثبات في المواطن فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أي: بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحلفوا له أنهم ينصرونه، ويدفعون عنه كما يدفعون عن نفوسهم، ولا يرجعون عن مقاتلة العدو، ولا ينهزمون. قال مقاتل: يريد ليلة العقبة ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ يسألون عنهم في الآخرة، وإنما جاء بلفظ الماضي تأكيداً.

ثم قال سبحانه: ﴿قُل﴾ يا محمد للذين استأذنوك في الرجوع، واعتلوا بأن بيوتهم يخاف عليها ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ إن كان حضرت آجالكم، فإنه لا بد من واحد منهما، وإن هربتم فالهرب لا يزيد في آجالكم ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: وإن لم تحضر آجالكم، وسلمتم من الموت أو القتل في هذه الوقعة، لم تمتعوا في الدنيا إلا أياماً قلائل.

وإنما فرق بين الموت والقتل، لأن القتل غير الموت، فإن الموت ضد الحياة عند من أثبته معنى، وانتفاء الحياة عند من لم يثبته معنى، والقتل هو نقض البنية الحيوانية، فالقتل يقدر عليه غير الله تعالى، والموت لا يقدر عليه غيره.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يدفع عنكم قضاء الله، ويمنعكم من الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: عذاباً وعقوبة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: نصراً وعزاً، فإن أحداً لا يقدر على ذلك ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويدفع عنهم. ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ وهم الذين يعوقون غيرهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويثبطونهم ويشغلونهم لينصرفوا عنه، وذلك بأنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم[1] أبو سفيان، وهؤلاء الأحزاب ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني اليهود قالوا لإخوانهم المنافقين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: تعالوا وأقبلوا إلينا ودعوا محمداً. وقيل: القائلون هم المنافقون، قالوا لإخوانهم من ضعفة المسلمين: لا تحاربوا وخلوا محمداً، فإنا نخاف

---

(١) التهمه: ابتلعه بمرة.

عليكم الهلاك ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: ولا يحضرون القتال في سبيل الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يخرجون رياء وسمعة، قدر ما يوهمون أنهم معكم، يعلم الله سبحانه أحوالهم، لا يخفى عليه شيء منها، عن السدي. وقيل معناه: ولا يحضرون القتال إلا كارهين، تكون قلوبهم مع المشركين، عن قتادة.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا يأتون الناس أشحة عليكم، أي: بخلاء بالقتال معكم. وقيل: بخلاء بالنفقة في سبيل الله والنصرة، عن قتادة ومجاهد. ومعناه: لا ينصرونكم، ثم أخبر عن جبنهم فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ﴾ أي: كعين الذي يغشى ﴿عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو الذي قرب من حال الموت، وغشيته أسبابه، فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم وتحار أعينهم من شدة خوفهم، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾والفزع وجاء الأمن والغنيمة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: آذوكم بالكلام، وخاصموكم بألسنة سليطة ذربة، عن الفراء. وقيل معناه: بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطونا أعطونا، فلستم بأحق بها منها، عن قتادة. قال: فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم، وهو قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: بخلاء بالغنيمة يشاحون المؤمنين عند القسمة. وقيل معناه: بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير، عن الجبائي ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يعني من تقدم وصفهم ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ كما آمن غيرهم، وإلا لما فعلوا ذلك ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لأنها لم تقع على الوجوه التي يستحق عليها الثواب، إذ لم يقصدوا بها وجه الله تعالى، وفي هذا دلالة على صحة مذهبنا في الإحباط[1]، لأن المنافقين ليس لهم ثواب فيحبط، فليس إلا أن جهادهم الذي لم يقارنه إيمان، لم يستحقوا عليه ثواباً ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط، أو كان نفاقهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: هيناً. ثم وصف سبحانه هؤلاء المنافقين فقال: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: يظنون أن الجماعات من قريش وغطفان وأسد واليهود الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ لم ينصرفوا، وقد انصرفوا، وإنما ظنوا ذلك لجبنهم وفرط حبهم قهر المسلمين ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن يرجع الأحزاب إليهم ثانية للقتال ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: يود هؤلاء المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب، يسألون عن أخباركم، ولا يكونوا معكم حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كان هؤلاء المنافقون معكم وفيكم، لم يقاتلوا معكم إلا قدراً يسيراً ليوهموا أنهم في جملتهم، لا لينصروكم ويجاهدوا معكم. وقيل معناه: قتالًا قليلًا رياء وسمعة من غير احتساب، ولو كان لله تعالى لم يكن قليلًا، عن الجبائي ومقاتل.

---

(١) وهو القول بأن كلًا من الإيمان والكفر يتحقق بتحقق شروط المقارنة، وليس شيء عن استحقاق الثواب والعقاب مشروطاً بشرط متأخر، بل إن تحقق الإيمان تحقق استحقاق الثواب، وكذا في الكفر، فإنْ كفر بعد الإيمان، كان كفره اللاحق كاشفاً عن أنه لم يكن مؤمناً سابقاً، ولم يكن مستحقاً للثواب عليه وإطلاق المؤمن عليه بحسب اللفظ الظاهرة، وهذا مذهب جمع من الإمامية، رضوان الله عليهم، في الإحباط. وإن شئت مزيد تحقيق في الباب فراجع كتاب (بحار الأنوار ج١٥ ص١٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الألف حيث كان في جميع القرآن. والباقون: بكسر الألف، وهما لغتان، ومعناهما: قدوة.

● **اللغة:** النحب: النذر، قال بشر بن أبي حازم.

وإنــي والــهــجــاء لآل لامٍ   كــذات الــنــحــب تــوفــي بــالــنــذور

والنحب: الموت. قال ذو الرمة:

عــشــيــة مــر الــحــارثــيــون بــعــدمــا   قضى نحبه في ملتقى الخيل هوبر

وهوبر اسم رجل، والنحب: الخطر. قال جرير:

بـطـخـفـة جـالـدنـا الـمـلـوك وخـيـلـنـا   عَـشِـيَّـةَ بـسـطـامٍ جـريـن عـلـى نـحـبِ(١)

أي: على خطر، والنحب: المد في السير يوماً وليلة.

● **المعنى:** ثم حث سبحانه على الجهاد والصبر عليه، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ معاشر المكلفين ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة، يقال: لي في فلان أسوة، أي: لي به اقتداء، والأسوة من الاتساء، كما أن القدوة من الاقتداء، اسم وضع موضع المصدر، والمعنى: كان لكم برسول الله اقتداء، لو اقتديتم به في نصرته والصبر معه في مواطن القتال، كما فعل هو يوم أحد، إذ انكسرت رباعيته وشج حاجبه، وقتل عمه، فواساكم مع ذلك بنفسه، فهلا فعلتم مثل ما فعله هو؟ وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ وهو تخصيص بعد العموم للمؤمنين، يعني أن الأسوة برسول الله إنما تكون ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: يرجو ما عند الله من الثواب والنعيم ـ عن ابن عباس. وقيل معناه: يخشى الله، ويخشى البعث الذي فيه جزاء الأعمال، وهو قوله: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾، عن مقاتل ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ذكراً كثيراً، وذلك أن ذاكر الله متبع لأوامره، بخلاف الغافل عن ذكره.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الأحزاب، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ أي: ولما عاين

(١) طخفة: اسم موضع. والمجالدة: المضاربة.

المصدقون بالله ورسوله الجماعة التي تحزبت على قتال النبي ﷺ مع كثرتهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ اختلف في معناه على قولين:

أحدهما: أن النبي ﷺ كان قد أخبرهم أنه يتظاهر عليهم الأحزاب، ويقاتلونهم، ووعدهم الظفر بهم، فلما رأوهم تبين لهم مصداق قوله، وكان ذلك معجزاً له ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ مشاهدة عدوهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقاً بالله ورسوله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره، عن الجبائي.

والآخر: أن الله تعالى وعدهم في سورة البقرة بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ما سيكون من الشدة التي تلحقهم من عدوهم، فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا هذه المقالة، علماً منهم أنه لا يصيبهم إلا ما أصاب الأنبياء، والمؤمنين قبلهم، وزادهم كثرة المشركين تصديقاً ويقيناً وثباتاً في الحرب، عن قتادة وغيره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: بايعوا ألا يفروا، فصدقوا في لقائهم العدو ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: مات أو قتل في سبيل الله، فأدرك ما تمنى، فذلك قضاء النحب. وقيل: قضى نحبه معناه: فرغ من عمله، ورجع إلى ربه، يعني من استشهد يوم أحد، عن محمد بن إسحاق. وقيل معناه: قضى أجله على الوفاء والصدق، عن الحسن. وقال ابن قتيبة: أصل النحب النذر، وكان قوماً نذروا إن يلقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه إذا قتل. وروي عن أنس بن مالك أن عمه غاب عن قتال بدر، فقال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله مع المشركين، لئن أراني الله قتالًا للمشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد دون أحد، فقال: أنا معك، قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، فوجد فيه بضع وثمانون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح ورمية بسهم، كنا نقول فيه وفي أصحابه: نزلت ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ رواه البخاري في الصحيح، عن محمد بن سعيد الخزاعي، عن عبد الأعلى، عن حميد بن أنس.

وقال ابن إسحاق: فمنهم من قضى نحبه، من استشهد يوم بدر وأحد، ومنهم من ينتظر ما وعد الله من نصرة أو شهادة على ما مضى عليه أصحابه ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ أي: ما غيروا العهد الذي عاهدوا ربهم، كما غير المنافقون. قال ابن عباس: من قضى نحبه حمزة بن عبد المطلب، ومن قتل معه، وأنس بن النصر وأصحابه. وقال الكلبي: ما بدلوا العهد بالصبر ولا نكثوه بالفرار، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد، عن عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن علي عليه السلام قال: فينا نزلت ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فأنا والله المنتظر وما بدلت تبديلًا.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: صدق المؤمنون في عهودهم، ليجزيهم الله بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بنقض العهد ﴿إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، ويكون معناه: أنه سبحانه إن شاء قبل توبتهم وأسقط عقابهم، وإن شاء لم يقبل توبتهم وعذبهم، فإن إسقاط العذاب على

المذهب الصحيح بالتوبة تفضل من الله تعالى لا يجب عقلاً، إنما علمنا ذلك بالسمع، والإجماع على أن الله سبحانه يفعل ذلك، فالآية قاضية بما يقتضيه العقل من الحكم، ويؤكد ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لأن المدح إنما يحصل إذا رحم سبحانه من يستحق العقاب، ويغفر ما جاز له المؤاخذة به، ولا مدح في مغفرة ورحمة من يجب عليه غفرانه ورحمته. وقيل معناه: ويعذب المنافقين بعذاب عاجل في الدنيا إن شاء أو يتوبوا، عن الجبائي.

ثم عاد سبحانه إلى تعداد نعمه فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الأحزاب أبا سفيان وجنوده، وغطفان ومن معهم من قبائل العرب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: بغمهم الذي جاءوا به، وحنقهم لم يشفوا بنيل ما أرادوا، و ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أملوه، وأرادوه من الظفر بالنبي والمؤمنين، وإنما سماه خيراً لأن ذلك كان خيراً عندهم. وقيل: أراد بالخير المال، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: مباشرة القتال بما أنزل الله على المشركين، من الريح الشديدة الباردة التي أزعجتهم عن أماكنهم، وبما أرسل من الملائكة، وبما قذف في قلوبهم من الرعب. وقيل: بعلي بن أبي طالب عليه السلام، وقتله عمرو بن عبدود، وكان ذلك سبب هزيمة القوم، عن عبد الله بن مسعود، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ أي: قادراً على ما يشاء ﴿عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه شيء من الأشياء. وقيل: قوياً في ملكه وسلطانه، عزيزاً في قهره وانتقامه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

● **اللغة:** المظاهرة: المعاونة، وهي زيادة القوة بأن يكون المعاون ظهيراً لصاحبه في الدفع عنه، والظهير: المعين. والصياصي: الحصون التي يمتنع بها، واحدتها: صيصية، يقال: جذ الله صيصية فلان أي: حصنه الذي يمتنع به، وكل ما امتنع به فهو صيصية، ومنه يقال لقرون البقر والظباء: صياصي، ويقال أيضاً لشوكة الديك، وشوكة الحايك: صيصية. قال:

كوقعِ الصَّياصي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ[(١)]

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما فعل باليهود من بني قريظة، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا المشركين من الأحزاب، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله، ألا ينصروا عليه عدواً من أهل الكتاب، يعني من اليهود، واتفق المفسرون على أنهم بنو قريظة، إلا

(١) هذا عجز بيت لدريد بن صمة في قصيدة له يقولها في رثاء أخيه وصدره: «نظرت إليه، والرماح تنوشه» وفي (اللسان): «فجئت إليه والرماح. . .» وتنوشه: أي تتناوله من قريب. شبه وقوع الرماح على أخيه بوقوع شوك النساج في نسيجه.

الحسن فإنه قال: هم بنو النضير، والأول أصح وأليق بسياق الآيات، لأن بني النضير لم يكن لهم في قتال أهل الأحزاب شيء، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: ألقى في قلوبهم الخوف من النبي ﷺ وأصحابه المؤمنين ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم، يعني الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني الذراري والنساء ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ أي: وأعطاكم أرضهم ﴿وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي: وأورثكم أرضاً لم تطئوها بأقدامكم بعد، وسيفتحها الله عليكم، وهي خيبر فتحها الله عليهم بعد بني قريظة - عن ابن زيد، ويزيد بن رومان، ومقاتل. وقيل: هي مكة، عن قتادة. وقيل: هي الروم وفارس، عن الحسن. وقيل: هي كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، عن عكرمة. وقيل: هي ما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، عن أبي مسلم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ظاهر المعنى.

القصة: روى الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مالك، عن أبيه قال: لما انصرف النبي ﷺ مع المسلمين عن الخندق، ووضع عنه اللأمة[1] واغتسل واستحم، تبدى له جبريل عليه السلام، فقال: عذيرَكَ مِن محارِب[2]، ألا أراك قد وضعتَ عنك اللأمة وما وضعناها بعد، فوثب رسول الله ﷺ فزعاً، فعزم على الناس ألا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة، فلبس الناس السلاح، فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس، واختصم الناس، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ عزم علينا ألا نصلّي حتى نأتي قريظة، فإنما نحن في عزمة رسول الله، فليس علينا إثم، وصلى طائفة من الناس احتساباً، وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس، فصلوها حتى جاءوا بني قريظة احتساباً، فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين.

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب عليه السلام على المقدم، ودفع إليه اللواء، وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل، وخرج رسول الله ﷺ على آثارهم، فمرَّ على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله ﷺ، فزعموا أنه قال: مر بكم الفارس آنفاً، فقالوا: مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك بدحية، ولكنه جبرائيل عليه السلام أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم، ويقذف في قلوبهم الرعب.

قالوا: وسار علي عليه السلام حتى إذا دنا من الحصن، سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله! لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: أظنك سمعت لي منهم أذى، فقال: نعم يا رسول الله، فقال: لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: يا إخوة القردة والخنازير! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولًا، وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

---

(١) اللامة: الدرع. وقيل: السلاح.

(٢) عذيرك: من فلان أي: هات من يعذرك فيه، فعيل بمعنى فاعل.

وكان حُيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: ما هن؟ قال: نبايع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم على هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد رجالًا مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلًا يهمنا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلًا يهمنا، وإن نظهر لنجدن النساء والأبناء، فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير في العيش بعدهم.

قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا فعلّنا نصيب منهم غرة، فقالوا: نفسد سبتنا، ونحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا، فأصابهم ما قد علمت من المسخ، فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

قال الزهري: وقال رسول الله ﷺ حين سألوه أن يحكم فيهم رجلًا: اختاروا من شئتم من أصحابي، فاختاروا سعد بن معاذ، فرضي بذلك رسول الله ﷺ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم فجعل في قبته، وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء به، فحكم فيهم بأن يقتل مقاتليهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم، وتغنم أموالهم، وإنَّ عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال للأنصار: إنكم ذوو عقار وليس للمهاجرين عقار، فكبر رسول الله وقال لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل. وفي بعض الروايات: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا.

فقتل رسول الله ﷺ مقاتليهم، وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل، وقيل: قتل منهم أربع مائة وخمسين رجلًا، وسبي سبعمائة وخمسين.

وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالًا: يا كعب! ما ترى يصنع بنا؟ فقال كعب: أوَفي كلِّ موطن تقولون، ألا ترون أن الداعي لا ينزع؟ ومن يذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. وأتى بحيى بن أخطب عدو الله ـ عليه حلة فاختية، قد شقها عليه من كل ناحية، كموضع الأنملة لئلا يسلبها ـ مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما بصر برسول الله ﷺ فقال: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك، ولكنه: من يَخذُل اللَّهُ يُخذَل. ثم قال: أيها الناس! إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره ملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضرب عنقه، ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين، وبعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري، فابتاع بهم خيلًا وسلاحاً، قالوا: فلما انقضى شأن بني قريظة، انفجر جرح سعد بن معاذ، فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد.

وروي عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبرائيل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات، فتحت له أبواب السماء، وتحرك له العرش، فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿**نضعف**﴾ بالنون والتشديد ﴿**العذاب**﴾ بالنصب. وقرأ أبو جعفر وأهل البصرة: يُضَعَّفُ بالياء والتشديد العذاب بالرفع. والباقون: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ بالياء والألف وفتح العين. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾، ﴿**وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُؤْتِهَا**﴾ الجميع بالياء. وقرأ روح وزيد: ﴿مَن تَأْتِ﴾، ﴿**وَمَن تَقْنُتْ**﴾، ﴿وَتَعْمَلْ﴾ كلها بالتاء ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ بالنون والباقون: ﴿مَن يَأْتِ﴾، ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ بالياء ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ بالنون.

● **الحجة:** قال أبو علي: ضاعف وضَعَّف بمعنى، فمن لم يسم الفاعل أسند الفعل إلى ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ ومن قرأ بكسر العين: فالفعل مسند إلى ضمير اسم الله تعالى، ومعنى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أنها لِما تشاهدُ من الزواجر الرادعة عن مواقعة الذنوب، ينبغي أن يمتنع منها أكثر مما يمتنع من لا يشاهد ذلك، وقال: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ فعاد الضمير إلى معنى ﴿مَن﴾ دون لفظه، ولو عاد على لفظه لذكَّره.

ومن قرأ: ﴿يَقْنُتْ﴾ بالياء فلأن الفعل مسند إلى ضمير ﴿مَن﴾ ولم يتبين فاعل الفعل بعد، فلما ذكر ما دل على أن الفعل لمؤنث حمل على المعنى فأنث، وكذلك قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن قرأ كل ذلك بالياء، فإنه حمل على اللفظ دون المعنى، ومن قرأ: ﴿مَن تَأْتِ﴾ بالتاء حمل على المعنى، فكأنه قال: أية امرأة منكن أتت بفاحشة، أو تأت بفاحشة، ومثله في الكلام كثير للبيان، كقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وقول الفرزدق:

تعشَّ فإنْ عاهدْتني لا تخونني نكنْ مثل منْ يا ذئب يصطحبان[1]

---

(١) تعش: أمر من تعشى: أكل العشاء. وفي رواية سيبويه في (الكتاب ج١ ص٤٠٤): «تعال» مكان «تعشَّ» وهذا البيت من أبيات قالها في وصف ذئب أتاه ليلًا في بعض أسفاره لما رأى ناره، ثم رمى إليه، وكان يخاطبه ويقول له: فإن عاهدتني لا تؤذيني نكن كالرجلين المصطحبين أي: كالصاحبين بأن لا تؤذيني ولا أؤذيك.

أي: مثل الذين يصطحبان، قال ابن جني: أن تكون ﴿مَن﴾ هنا على الصلة، أولى من أن تكون على الصفة.

● **اللغة:** الضعف: مثل الشيء الذي يضم إليه، يقال: ضاعفته أي: زدت عليه مثله، ومنه الضَّعف، وهو نقصان القوة بأن يذهب أحد ضعفيها، فهو ذهاب ضعف القوة.

● **الحجة:** قال المفسرون: إن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه لغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهراً، فنزلت آية التخيير وهو قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وكنَّ يومئذ تسعاً: عائشة، وحفظة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، فهؤلاء من قريش، وصفية بنت حُيي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

وروى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما، فقال لها: هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلًا؟ قالت: نعم، فأرسل إلى عمر، فلما أن دخل عليهما قال لها: تكلمي، فقالت: يا رسول الله، تكلم ولا تقل إلا حقاً، فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثم رفع يده فوجأ وجهها، فقال له النبي ﷺ: كُفَّ، فقال عمر: يا عدوة الله! النبي لا يقول إلّا حقاً، والذي بعثه بالحق، لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي، فقام النبي ﷺ فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه، يتغدى ويتعشى فيها، فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

● **المعنى:** ثم عاد سبحانه إلى ذكر نساء النبي ﷺ فقال مخاطباً لنبيه ﷺ، آمراً له أن يخير أزواجه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: سعة العيش في الدنيا، وكثرة المال ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطكن متعة الطلاق، وقد مرَّ بيانها في سورة البقرة. وقيل: أمتعكن بتوفير المهر ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ والسراح الجميل: الطلاق من غير خصومة ولا مشاجرة بين الزوجين ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: وإن أردتن طاعة الله وطاعة رسوله، والصبر على ضيق العيش والجنة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ﴾ أي: العارفات المريدات، الإحسان المطيعات له ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

واختلف في هذا التخيير فقيل: إنه خيَّرهن بين الدنيا والآخرة، فإنْ هنَّ اخترن الدنيا ومحبتها استأنف حينئذ طلاقهن، بقوله: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ عن الحسن. وقيل: خيرهن بين الطلاق والمقام معه، عن مجاهد والشعبي وجماعة من المفسرين، واختلف العلماء في حكم التخيير على أقوال:

أحدها: أن الرجل إذا خير امرأته، فاختارت زوجها فلا شيء، وإن اختارت نفسها تقع تطليقة واحدة، وهو قول عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه.

وثانيها: أنه إذا اختارت نفسها تقع ثلاث تطليقات، وإن اختارت زوجها تقع واحدة، وهو قول زيد بن ثابت، وإليه ذهب مالك.

وثالثها: أنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً، وإلا فلا، وهو مذهب الشافعي.

ورابعها: أنه لا يقع بالتخيير طلاق، وإنما كان ذلك للنبي ﷺ خاصة، ولو اخترن أنفسهن لمّا خيّرهن لبِنَّ منه، فأما غيره فلا يجوز له ذلك، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

ثم خاطب سبحانه نساء النبي ﷺ فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمعصية ظاهرة ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ في الآخرة ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مثلي ما يكون على غيرهن، وذلك لأن نعم الله سبحانه عليهن أكثر لمكان النبي ﷺ منهن، ولنزول الوحي في بيوتهن، فإذا كانت النعمة عليهن أعظم وأوفر، كانت المعصية منهن أفحش، والعقوبة بها أعظم وأكثر، وقال أبو عبيدة: الضعفان أن يجعل الواحد ثلاثة، فيكون عليهن ثلاثة حدود، لأن ضعف الواحد مثله، وضعفي الشيء مثلاه. وقال غيره: المراد بالضعف المثل، فالمعنى أنها يزاد في عذابها ضعف، كما زيد في ثوابها ضعف، في قوله: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: كان عذابها على الله هيناً، عن مقاتل.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ومن يطع الله ورسوله، والقنوت: الطاعة. وقيل معناه: من يواظب منكن على الطاعة لله ولرسوله، ومنه القنوت في الصلاة، وهو المداومة على الدعاء المعروف ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيما بينها وبين ربها ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: نؤتها ثوابها مثلي ثواب غيرها، وروى أبو حمزة الثمالي عن زيد بن علي عليه السلام أنه قال: إني لأرجو للمحسن منا أجرين، وأخاف على المسيء منا أن يضاعف له العذاب ضعفين، كما وعد أزواج النبي ﷺ. وروى محمد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم، قال: فغضب وقال: نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي ﷺ، من أن نكون كما تقول، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب، ثم قرأ الآيتين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: عظيم القدر، رفيع الخطر. وقيل: إن الرزق الكريم ما سلم من كل آفة. وقيل: هو الثواب الذي لا يحسن الابتداء بمثله.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وعاصم: ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف. وقرأ الباقون وهبيرة عن حفص عن عاصم: ﴿وَقِرْنَ﴾ بكسر القاف. وفي الشواذ قراءة الأعرج وأبان بن عثمان: ﴿فَيَطْمِعَ الَّذِي﴾ بكسر العين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله: ﴿وقِرن﴾ لا يخلو: إما أن يكون من القرار أو الوقار، فإن كان من الوقار، فهو مثل عِدن وكِلن، مما يحذف فيها الفاء، وهي واو فيبقى من الكلمة عِلن، وإن كان من القرار، فيكون الأمر اقررن، فيبدل من العين الياء كراهة التضعيف، كما أبدل في قيراط ودينار، فيصير لها حركة الحرف المبدل منه، ثم تلقى الحركة على الفاء، فتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها، فتقول: قرن، لأن حركة الراء كانت كسرة في تقرُّ، ألا ترى أن القاف متحرك بها.

وأما من فتح فقال: ﴿وَقَرنَ﴾ فمن لم يجز قررت بالمكان أقر، وإنما يقول: قررتُ أقرُّ، فإن فتح الفاء عنده لا يجوز، ومن أجاز ذلك جاز على قوله ﴿قَرنَ﴾ كما جاز ﴿قِرْنَ﴾ وهي لغة حكاها الكسائي. وقال أبو عثمان: يقال: قرتُ به عيناً أقرُّ، ولا يقال: قررتُ في هذا المعنى، وقررتُ في المكان فأنا أقر فيه، يقال: قررْتُ في هذا المعنى.

ومن قرأ: ﴿فَيَطْمِعَ الَّذِي﴾ بالكسر، فهو معطوف على ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: فلا يطمع الذي في قلبه مرض، فكلاهما منهي عنه، إلا أن النصب أقوى، لأنه يكون بمعنى أن طمعه مسبب عن خضوعهن بالقول، وإذا كان عطفاً كان نهياً لهن وله، وليس فيه دليل على أن الطمع واقع من أجلهن.

● **اللغة:** التبرج: إظهار المرأة محاسنها، مأخوذ من البَرج وهو السعة في العين، وطعنة برجاء: واسعة، وفي أسنانه برجٌ إذا تفرق ما بينها.

● **الإعراب:** قوله: ﴿لِيُذْهِبَ﴾ اللام يتعلق بمحذوف، تقديره: وإرادته ليذهب، ويجوز أن يتعلق بيريد ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منصوب على المدح، تقديره: أعني أهل البيت، ويجوز أن يكون منادى مضافاً، ويجوز في العربية جر اللام، ورفعها، فالجر على أن يكون بدلاً من كُم والرفع على المدح.

● **المعنى:** ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النسوان بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء، لأن أحداً للنفي العام، وقال ابن عباس معناه: ليس قدركن عندي كقدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم عليّ فأنا بكن أرحم، وثوابكن أعظم لمكانكن من رسول الله ﷺ ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله شرط عليهن التقوى، ليبين سبحانه أن فضيلتهن بالتقوى، لا باتصالهن بالنبي ﷺ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا ترققن القول، ولا تُلِنَّ الكلام للرجال، ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة تؤدي إلى طمعهم، فتكن كما

تفعل المرأة التي تظهر الرغبة في الرجال ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: نفاق وفجور، عن قتادة. وقيل: من في قلبه شهوة للزنا، عن عكرمة. وقيل: إن المرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة، لأن ذلك أبعد من الطمع في الريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: مستقيماً جميلًا، بريئاً من التهمة، بعيداً من الريبة، موافقاً للدين والإسلام.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرهن بالاستقرار في بيوتهن، والمعنى: اثبتن في منازلكن والزمنها، وإن كان من وقر يقر فمعناه: كن أهل وقار وسكينة، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا تخرجن على عادة النساء اللاتي في الجاهلية، ولا تظهرن زينتكن كما كن يظهرن ذلك، وقيل: التبرج: التبختر والتكبر في المشي، عن قتادة ومجاهد. وقيل: هو أن تُلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فتواري قلائدها، وقرطيها فيبدو ذلك منها، عن مقاتل. والمراد بالجاهلية الأولى: ما كان قبل الإسلام، عن قتادة. وقيل: ما كان بين آدم عليه السلام، ونوح عليه السلام ثمان مائة سنة، عن الحكم. وقيل: ما بين عيسى ومحمد، عن الشعبي. قال: وهذا لا يقتضي أن يكون بعدها جاهلية في الإسلام، لأن الأول اسم للسابق تأخر عنه غيره أو لم يتأخر. وقيل: إن معنى ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنهم كانوا يجوّزون أن تجمع امرأة واحدة زوجاً وخلًا، فتجعل لزوجها نصفها الأسفل، ولخلها نصفها الأعلى، يقبلها ويعانقها.

ثم قال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدينها في أوقاتها بشرائطها ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكن ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما يأمرانكن به وينهانكن عنه، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال ابن عباس: الرجس عمل الشيطان، وما ليس لله فيه رضى، و﴿ٱلْبَيْتِ﴾ التعريف فيه للعهد، والمراد به بيت النبوة والرسالة، والعرب تسمي ما يلتجأ إليه بيتاً ولهذا سموا الأنساب بيوتاً، وقالوا بيوتات العرب، يريدون النسب. قال:

ألا يا بيت بالعلياء بيت ... ولولا حبُّ أهلك ما أتيت[(١)]
ألا يا بيت أهلك أوعدوني ... كأني كل ذنبهم جنيت

يريد: بيت النسب، وبيت النبوة والرسالة، كبيت النسب. قال الفرزدق:

بيتٌ زرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشل[(٢)]
لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم ... أبداً إذا عُدَّ الفعال الأكمل

وقيل: البيت: بيت الحرام، وأهله هم المتقون على الإطلاق، لقوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وقيل: البيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهله من مكّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، ولم

(١) العلياء: رأس الجبل. المكان العالي.
(٢) الإحتباء: هو أن يجمع بين ظهره وساقيه بثوب ونحوه.

يخرجه ولم يسد بابه، وقد اتفقت الأمة بأجمعها على أن المراد بأهل البيت في الآية، أهل بيت نبينا ﷺ، ثم اختلفوا.

فقال عكرمة: أراد أزواج النبي، لأن أول الآية متوجه إليهن.

وقال أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وعائشة وأم سلمة: إن الآية مختصة برسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. ذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدثني شهر بن حوشب عن أم سلمة، قالت: جاءت فاطمة عليها السلام إلى النبي ﷺ تحمل حريرة لها، فقال ادعي زوجك وابنيك، فجاءت بهم فطعموا، ثم ألقى عليهم كساءً له خيبرياً، فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»، فقلت: يا رسول الله، وأنا معهم، قال: أنت إلى خير. وروى الثعلبي في تفسيره أيضاً بالإسناد عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة عليها السلام ببرمة[1] فيها حريرة، فقال لها: ادعي زوجك وابنيك، فذكرت الحديث نحو ذلك، ثم قالت: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ الآية، قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي وحامتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، فأدخلت رأسي البيت، وقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خير، إنك إلى خير.

وبإسناده قال مجمع: دخلت مع أمي على عائشة، فسألتها أمي: أرأيت خروجك يوم الجمل؟ قالت: إنه كان قدراً من الله، فسألتها عن علي عليه السلام، فقالت: تسأليني عن أحب الناس كان إلى رسول الله ﷺ، وزوج أحب الناس كان إلى رسول الله ﷺ، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام، وجمع رسول الله ﷺ بثوب عليهم، ثم قال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي وحامتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»، قالت: فقلت: يا رسول الله، أنا من أهلك؟ قال: تنحّي فإنك إلى خير.

وبإسناده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في خمسة، فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة عليهم السلام.

وأخبرنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: حدثونا عن أبي بكر السبيعي قال: حدثنا أبو عروة الحراني قال: حدثنا ابن مصغي قال: حدثنا عبد الرحيم بن واقد عن أيوب بن سيار عن محمد بن المنكدر عن جابر قالت: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، وليست في البيت إلا فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وعليّ عليه السلام ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فقال النبي ﷺ: اللهم هؤلاء أهلي.

وحدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم بإسناده عن زاذان، عن الحسن بن علي عليه السلام قال: لما نزلت آية التطهير جمعنا رسول الله ﷺ وإياه في كساء لأم سلمة خيبري، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي.

---

(١) البرمة: القدر من الحجر.

والروايات في هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، لو قصدنا إلى إيرادها لطال الكتاب، وفيما أوردناه كفاية.

واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة عليهم السلام بأن قالوا: إن لفظة «إنما» محققة لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإن قول القائل: إنما لك عندي درهم، وإنما في الدار زيد، يقتضي أنه ليس عنده سوى الدرهم، وليس في الدار سوى زيد، وإذا تقرر هذا، فلا تخلو الإرادة في الآية أن تكون هي الإرادة المحضة، أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأول، لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت، دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضي المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة، ولا مدح في الإرادة المجردة. فثبت الوجه الثاني، وفي ثبوته ثبوت عصمة المعنيّين بالآية من جميع القبائح، وقد علمنا أن من عدا من ذكرناه من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم.

ومتى قيل: إن صدر الآية وما بعدها في الأزواج، فالقول فيه: إنَّ هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء في كلامهم، فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره، ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء، وكذلك كلام العرب وأشعارهم.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الأزواج فقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ معناه: واشكرن الله تعالى إذ صيركن في بيوت يتلى فيها القرآن والسنة، عن قتادة. وقيل: اذكرن أي: احفظن ذلك. وليكن منكن على بالٍ أبداً، لتعملن بموجبه، وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار ومذاكرتهن بهما، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن يشاركهن فيه، لأن بناء الشريعة على القرآن والسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه. وقيل: لطيفاً في تدبير خلقه، وإيصال المنافع إليهم، خبيراً بما يكون منهم، ومصالحهم ومفاسدهم، فيأمرهم بفعل ما فيه صلاحهم، واجتناب ما فيه فسادهم.

قال مقاتل بن حيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة، مع زوجها جعفر بن أبي طالب عليه السلام، دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار، فقال صلى الله عليه وآله: ومم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: المخلصين الطاعة لله والمخلصات، من قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً. وقيل معناه: إن الداخلين في الإسلام من الرجال والنساء. وقيل: يعني المستسلمين لأوامر الله والمنقادين له من الرجال والنساء ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: والمصدقين بالتوحيد والمصدقات، والإسلام والإيمان واحد عند أكثر المفسرين، وإنما كرر لاختلاف اللفظين. وقيل: إنهما مختلفان، فالإسلام الإقرار باللسان، والإيمان التصديق بالقلب، ويعضده قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ وقيل: الإسلام هو اسم الدين، والإيمان التصديق به. قال البلخي: فسر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلم والمؤمن بقوله: «المسلم من

سلم المسلمون من لسانه ويده ؛ والمؤمن من أمن جاره بوائقه[١] وما آمن بي من بات شبعان وجاره طاو»[٢]. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ يعني الدائمين على الأعمال الصالحات والدائمات. وقيل: يعني الداعين والداعيات ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وفيما ساءهم وسرهم ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعة الله، وعلى ما ابتلاهم الله به ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي: المتواضعين الخاضعين لله تعالى ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ وقيل معناه: والخائفين والخائفات ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: المخرجين الصدقات والزكوات ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ﴾ لله تعالى بنية صادقة ﴿وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ من الزنا وارتكاب الفجور ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ فروجهن، فحذف لدلالة الكلام عليه ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ الله كثيراً، وحذف أيضاً للدلالة عليه ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات والخصال ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة.

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضآ وصليا، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام، كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وهشام: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياء، والباقون: بالتاء. وقرأ عاصم وحده: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ بفتح التاء، والباقون: بكسرها.

● **الحجة:** قال أبو علي: التذكير والتأنيث حسنان، وهذه الآية تدل على أن ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي، وليست بموصولة، ومن كسر التاء

(١) أي: غوائله وشروره، واحدها بائقة وهي الداهية.
(٢) طوى يطوي: بمعنى جاع، فهو طاو أي: خالي البطن، جائع.

من ﴿وَخَاتَمَ﴾ فإنه ختمهم فهو خاتمهم، ومن فتح التاء فمعناه: آخر النبيين لا نبي بعده. قال الحسن: خاتم الذي ختم به. قال المبرد: خاتم فعل ماض على فاعل، وهو في معنى: ختَم النبيين، ونصب النبيين على هذا الوجه بأنه مفعول به، وفي حرف عبد الله: ولكن نبياً وختم النبيين.

● **اللغة:** قال الزجاج: الخيرة: التخيير. وقال علي بن عيسى: الخيرة: إرادة اختيار الشيء على غيره. والوطر: الأرب والحاجة وقضاء الشهوة، قال:

وكيف ثوائي في المدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر[1]

قال الخليل: الوطر: كل حاجة يكون لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قد قضى وطره وإربه.

● **الإعراب:** ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، تقديره: سن الله له سنة. و﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ يجوز أن يكون رفعاً على المدح، تقديره: هم الذين يبلغون رسالات الله، ويجوز أن يكون نصباً على أعني الذين ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ تقديره: ولكن كان رسول الله، وكان خاتم النبيين، ولو قرىء ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالرفع لجاز، أي: ولكن هو رسول الله وخاتم النبيين.

● **الحجة:** نزلت في زينب بنت جحش الأسدية، وكانت بنت أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، فخطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة، ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد أبت وأنكرت، وقالت: أنا ابنة عمتك فلم أكن لأفعل، وكذلك قال أخوها عبد الله بن جحش، فنزل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية يعني عبد الله بن جحش وأخته زينب، فلما نزلت الآية قالت: رضيت يا رسول الله، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً، فدخل بها وساق إليها رسول الله ﷺ عشرة دنانير وستين درهماً مهراً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقالت زينب: خطبني عدة من قريش، فبعثتُ أختي حمنة بنت جحش إلى رسول الله ﷺ أستشيره فأشار بزيد، فغضبت أختي، وقالت: تزوج بنت عمتك مولاك، ثم أعلمتني فغضبت أشد من غضبها، فنزلت الآية. فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، وقلت: زوجني ممن شئت، فزوجني من زيد.

وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت، وزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها، وقالوا إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوجنا عبده، فنزلت الآية، عن ابن زيد.

وذكر علي بن إبراهيم في تفسيره: أن رسول الله ﷺ كان شديد الحب لزيد، وكان إذا

(١) ثوى ثواءً بالمكان وفيه: أقام.

أبطأ عليه زيد أتى منزله فيسأل عنه، فأبطأ عليه يوماً، فأتى رسول الله ﷺ منزله، فإذا زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهر لها(١)، قال: فدفع رسول الله ﷺ الباب، فلما نظر إليها قال: سبحان الله خالق النور، تبارك الله أحسن الخالقين، ورجع فجاء زيد وأخبرته زينب بما كان، فقال لها: لعلك وقعت في قلب رسول الله ﷺ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك رسول الله ﷺ، فقالت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني، فجاء زيد إلى رسول الله ﷺ تمام القصة، فنزلت الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر نساء النبي ﷺ، عقَّبه سبحانه بذكر زيد وزوجته، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: إذا أوجب الله ورسوله ﴿أَمْرًا﴾ وألزماه وحكما به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ على اختيار الله تعالى، والمعنى: أن كل شيء أمر الله تعالى به، أو حكم به، فليس لأحد مخالفته، وترك ما أمر به إلى غيره ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يختاران له ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: ذهب عن الحق ذهاباً ظاهراً. ثم خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي: واذكر يا محمد حين تقول ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالهداية إلى الإيمان ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق. وقيل: أنعم الله عليه بمحبة رسوله، وأنعم الرسول عليه بالتبني، عن السدي والثوري، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زوجك زينب تقول: احبسها ولا تطلقها، وهذا الكلام يقتضي مشاجرة جرت بينهما حتى وعظه الرسول وقال له: أمسكها ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في مفارقتها ومضارتها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ والذي أخفاه في نفسه هو أنه إن طلقها زيد تزوجها، وخشي لائمة الناس أن يقولوا أمره بطلاقها ثم تزوجها.

وقيل: إن الذي أخفاه في نفسه، هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال له: أريد أن أطلق زينب، قال له: أمسك عليك زوجك، فقال سبحانه لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ روي ذلك عن علي بن الحسين عليه السلام، وهذا التأويل مطابق لتلاوة الآية، وذلك أنه سبحانه أعلم أنه يبدي ما أخفاه ولم يظهر غير التزويج، فقال: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره محبتها، أو إرادة طلاقها، لأظهر الله تعالى ذلك مع وعده بأنه يبديه، فدل ذلك على أنه إنما عوتب على قوله ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع علمه بأنها ستكون زوجته، وكتمانه ما أعلمه الله به حيث استحيا أن يقول لزيد: إن التي تحتك ستكون امرأتي.

قال البلخي: ويجوز أن يكون أيضاً على ما يقولونه: إن النبي استحسنها فتمنى أن يفارقها زيد فيتزوجها وكتم ذلك، لأن هذا التمني قد طبع عليه البشر. ولا حرج على أحد في أن يتمنى شيئاً استحسنه.

وقيل: إنه إنما أضمر أن يتزوجها إن طلقها زيد، من حيث إنها كانت ابنة عمته، فأراد

(١) الفهر: الحجر قدر ما يدق به الجوز، أو يملأ الكف.

ضمها إلى نفسه لئلا يصيبها ضيعة، كما يفعل الرجل بأقاربه، عن الجبائي قال: فأخبر الله سبحانه الناس بما كان يضمره من إيثار ضمها إلى نفسه، ليكون ظاهره مطابقاً لباطنه، ولهذا المعنى قال ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة، وقد جاءه عثمان بعبد الله بن سعد بن أبي سرح يستأمنه منه، وكان ﷺ قبل ذلك قد أهدر دمه وأمر بقتله، فلما رأى عثمان استحيا من رده، وسكت طويلًا ليقتله بعض المؤمنين، ثم آمنه بعد تردد المسألة من عثمان، وقال: أما كان منكم رجل رشيد يقوم إلى هذا فيقتله؟ فقال له عباد بن بشر: يا رسول الله! إن عيني ما زالت في عينك انتظار أن تومىء إليّ فأقتله، فقال: إن الأنبياء لا تكون لهم خائنة أعين، فلم يستحب الإشارة إلى قتل كافر وإن كان مباحاً.

وقيل: كان النبي ﷺ يريد أن يتزوج بها إذا فارقها، ولكنه عزم أن لا يتزوجها مخافة أن يطعنوا عليه، فأنزل الله هذه الآية، كيلا يمتنع عن فعل المباح خشية الناس، ولم يرد بقوله ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ خشية التقوى، لأنه ﷺ كان يتقي الله حق تقاته، ويخشاه فيما يجب أن يخشى فيه، ولكنه أراد خشية الاستحياء، لأن الحياء كان غالباً على شيمته الكريمة ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾.

وقيل: إن زينب كانت شريفة، فزوجها رسول الله ﷺ من زيد مولاه، ولحقها بذلك بعض العار، فأراد ﷺ أن يزيدها شرفاً بأن يتزوجها، لأنه كان السبب في تزويجها من زيد، فعزم أن يتزوج بها إذا فارقها.

وقيل: إن العرب كانوا ينزلون الأدعياء منزلة الأبناء في الحكم، فأراد ﷺ أن يبطل ذلك بالكلية، وينسخ سنة الجاهلية، فكان يخفي في نفسه تزويجها لهذا الغرض، كيلا يقول الناس إنه تزوج بامرأة ابنه، ويقرفونه بما هو منزه عنه، ولهذا قال: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾، عن أبي مسلم. ويشهد لهذا التأويل قوله فيما بعد: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ ومعناه: فلما قضى زيد حاجته من نكاحها، فطلقها وانقضت عدتها، ولم يكن في قلبه ميل إليها، ولا وحشة من فراقها، فإن معنى القضاء هو الفراغ من الشيء على التمام ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ أي: أذنّا لك في تزويجها، وإنما فعلنا ذلك توسعة على المؤمنين حتى لا يكون عليهم إثم في أن يتزوجوا أزواج أدعيائهم، الذين تبنوهم إذا قضى الأدعياء منهن حاجتهم وفارقوهم، فبين سبحانه أن الغرض في ذلك أن لا يجري المتبني في تحريم امرأته إذا طلقها على المتبني مجرى الابن من النسب، والرضاع، في تحريم امرأته إذا طلقها على الأب ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي: كائناً لا محالة، وفي الحديث: أن زينب كانت تفتخر على سائر نساء النبي، وتقول: زوجني الله من النبي، وأنتن إنما زوجكن أولياؤكن.

وروى ثابت عن أنس بن مالك قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها عليّ، قال زيد: فانطلقت فقلت: يا زينب! أبشري قد أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، لقوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾.

وفي رواية أخرى، قال زيد: فانطلقت، فإذا هي تخمر عجينها، فلما رأيتها عظمت في نفسي، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري وقلت: يا زينب، أبشري! إن رسول الله يخطبك، ففرحت بذلك، وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها، وما أوْلم على امرأة من نسائه ما أوْلم عليها، ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار.

وعن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلُّ بهن: جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لي جبرائيل عليه السلام.

ثم قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: ما كان على النبي من إثم وضيق، فيما أحل الله له من التزويج بامرأة الإبن المتبني. وقيل: فيما فرض وأوجب عليه من التزويج بها، ليبطل حكم الجاهلية في الأدعياء ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: كسنة الله في الأنبياء الماضين، وطريقته وشريعته فيهم، في زوال الحرج عنهم، وعن أممهم بما أحل سبحانه لهم من ملاذهم. وقيل: في كثرة الأزواج، كما فعله داود وسليمان عليهما السلام، وكان لداود مائة امرأة، ولسليمان ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سرية. وقيل: أشار بالسنة إلى أن النكاح من سنة الأنبياء، كما قال: «النكاح من سنتي، فمن رغب عنه فقد رغب عن سنتي» ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: كان ما ينزله الله على أنبيائه من الأمر الذي يريده قضاء مقضياً. وقيل معناه: جارياً على مقدار لا يكون فيه تفاوت من جهة الحكمة. وقيل: إن القدر المقدر، هو ما كان على مقدار ما تقدم، من غير زيادة ولا نقصان، وعليه قول الشاعر:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر ... في الصحف الأُلى التي كان سطر

ثم وصف سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يؤدونها إلى من بعثوا إليهم ولا يكتمونها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: ويخافون الله مع ذلك، في ترك ما أوجبه عليهم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ولا يخافون من سوى الله، فيما يتعق بالأداء والتبليغ، وفي هذا دلالة على أن الأنبياء لا يجوز عليهم التقية في تبليغ الرسالة. ومتى قيل: فكيف ما قال لنبينا ﷺ ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾؟ فالقول: إنَّه لم يكن ذلك فيما يتعلق بالتبليغ، وإنما خشي المقالة القبيحة فيه، والعاقل كما يتحرز عن المضار، يتحرز من إساءة الظنون به، والقول السيء فيه، ولا يتعلق شيء من ذلك بالتكليف ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً مجازياً عليها.

ولما تزوج زينب بنت جحش قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه، فقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الذين لم يلدهم، وفي هذا بيان أنه ليس بأب لزيد، فتحرم عليه زوجته، فإن تحريم زوجة الابن معلق بثبوت النسب، فمن لا نسب له لا حرمة لامرأته، ولهذا أشار إليهم فقال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وقد ولد له ﷺ أولاد ذكور: إبراهيم والقاسم والطيب

والمطهر، فكان أباهم، وقد صحَّ أنه قال للحسن: «إن ابني هذا سيد»، وقال أيضاً للحسن والحسين: «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»، وقال ﷺ: «إن كل بني بنت ينتسبون إلى أبيهم، إلا أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم». وقيل: أراد بقوله: ﴿رِّجَالِكُمْ﴾ البالغين من رجال ذلك الوقت، ولم يكن أحد من أبنائه رجلًا في ذلك الوقت ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ أي: ولكن كان رسول الله، لا يترك ما أباحه الله تعالى بقول الجهال. وقيل: إن الوجه في اتصاله بما قبله، أنه أراد سبحانه ليس يلزم طاعته وتعظيمه، لمكان النسب بينه وبينكم، ولمكان الأبوة، بل إنما يجب ذلك عليكم لمكان النبوة ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: وآخر النبيين، ختمت النبوة به، فشريعته باقية إلى يوم الدين، وهذا فضيلة له صلوات الله عليه وآله، اختص بها من بين سائر المرسلين.
فإن قيل: إن اليهود يدعون في موسى مثل ذلك، فالجواب: أن بعض اليهود يدَّعون أن شريعته لا تنسخ، وهم مع ذلك يجوزون أن يكون بعده أنبياء، ونحن إذا أثبتنا نبوة نبينا ﷺ بالمعجزات القاهرة، وجب نسخ شريعته بذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه شيء من مصالح العباد. وصحَّ الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي في الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً، فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخل فيها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء». وأورده البخاري ومسلم في صحيحيهما.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من عجز عن الليل أن يكابده، وجبن عن العدو أن يجاهده، وبخل بالمال أن ينفقه، فليكثر ذكر الله عز وجل»، ثم اختلف في معنى الذكر الكثير.

فقيل: هو ألا ينساه أبداً، عن مجاهد. وقيل: هو أن يذكره سبحانه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى، وينزهه عما لا يليق به. وقيل: هو أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر على كل حال، عن مقاتل. وقد ورد عن أئمتنا عليهم السلام أنهم قالوا: من قالها ثلاثين مرة فقد ذكر الله ذكراً كثيراً. وعن زرارة وحمران ابني أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من سبح

تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فقد ذكر الله ذكراً كثيراً. وروى الواحدي بإسناده عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: جاء جبرائيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد! قل: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم»، فإن من قالها كتب الله له بها ست خصال: كتب من الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار، وكان له غرساً في الجنة، وتحاتت[1] عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة، وينظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذِّبه.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: ونزهوه سبحانه عن جميع ما لا يليق به، بالغداة والعشي، والأصيل: العشي. وقيل: يعني به صلاة الصبح، وصلاة العصر، عن قتادة. وصلاة الصبح، وصلاة العشاء الآخرة، خصهما بالذكر لأن لهما مزية على غيرهما، من حيث أن ملائكة الليل والنهار يجتمعون فيهما. وقال الكلبي: أما بكرة فصلاة الفجر، وأما أصيلًا فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، وسمى الصلاة تسبيحاً، لما فيها من التسبيح والتنزيه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ الصلاة من الله تعالى المغفرة والرحمة، عن سعيد بن جبير والحسن. وقيل: الثناء، عن أبي العالية. وقيل: هي الكرامة، عن سفيان. وأما صلاة الملائكة فهي دعاؤهم، عن ابن عباس وأبي العالية. وقيل: طلبهم إنزال الرحمة من الله تعالى ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الجهل بالله سبحانه إلى معرفته، فشبه الجهل بالظلمات، وشبه المعرفة بالنور، لأن هذا يقود إلى الجنة، وذلك يقود إلى النار. وقيل: من الضلالة إلى الهدى، بألطافه وهدايته. وقيل: من ظلمات النار، إلى نور الجنة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ خص المؤمنين بالرحمة دون غيرهم، لأنه سبحانه جعل الإيمان بمنزلة العلة في إيجاب الرحمة والنعمة العظيمة التي هي الثواب ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي: يحيي بعضهم بعضاً يوم يلقون ثواب الله، بأن يقولوا: السلامة لكم من جميع الآفات، ولقاء الله سبحانه معناه لقاء ثوابه، كما سبق القول فيه. وروي عن البراء بن عازب أنه قال: يوم يلقون ملك الموت، لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه، فعلى هذا يكون المعنى: تحية المؤمنين من ملك الموت يوم يلقونه، أن يسلم عليهم، وملك الموت مذكور في الملائكة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلًا.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أمتك فيما يفعلونه، من طاعة أو معصية، وإيمان أو كفر لتشهد لهم وعليهم يوم القيامة، ونجازيهم بحسبه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: ومبشراً لمن أطاعني وأطاعك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاني وعصاك بالنار ﴿وَدَاعِيًا﴾ أي: وبعثناك داعياً إلى الله، والإقرار بوحدانيته، وامتثال أوامره ونواهيه ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه وأمره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يهتدى بك في الدين، كما يهتدى بالسراج، والمنير الذي يصدر النور من جهته، إما بفعله، وإما لأنه سبب له، فالقمر منير، والسراج منير بهذا المعنى، والله منير

(١) تحات الورق من الشجر: تناثر وتساقط.

السموات والأرض. وقيل: عني بالسراج المنير القرآن. والتقدير: وبعثناك ذا سراج منير، فحذف المضاف، عن الزجاج ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ زيادة على ما يستحقونه من الثواب ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هو مفسر في أول السورة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: وأعرض عن أذاهم، فإني سأكفيك أمرهم إذا توكلت عليّ وعملت بطاعتي، فإن جميعهم في سلطاني بمنزلة ما هو في قبضة عبدي. وقيل معناه: كف عن أذاهم وقتالهم، وذلك قبل أن يؤمر بالقتال، عن الكلبي ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأسند أمرك إلى الله ينصرك عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كافياً ومتكفلاً بما يسند إليه.

● **النظم:** إنما اتصلت الآية بما تقدمها من قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإنه منَّ عليهم به، ثم أمرهم بأن يشكروه على ذلك. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ يتصل بما قبله من الأمر بالذكر. والتقدير: أن الله عز اسمه مع غناه عنكم يذكركم، فأنتم أولى بأن تذكروه وتقبلوا عليه مع احتياجكم إليه. وقيل: إنه سبحانه عدد نعمه على المؤمنين، وعدد من جملتها صلاته عليهم، ثم بين إرساله النبي إليهم مع جلالة قدره وعلو أمره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي بن كعب والحسن والثقفي: و﴿**أن وهبت**﴾ بفتح الألف.

● **الحجة:** قال ابن جني تقديره: لأن وهبت نفسها، أي: إنها تحل له من أجل أن وهبت نفسها له، وليس يعني بذلك امرأة بعينها قد كانت وهبت نفسها له، وإنما محصوله أنه إن وهبت امرأة نفسها للنبي حلت له من أجل هبتها إياه. فالحل إنما هو مسبب عن الهبة متى كانت، ويؤكد ذلك القراءة بالكسر فصح به الشرط.

● **الإعراب:** العامل في الظرف من قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ ما يتعلق به ﴿لَكُمْ﴾ والتقدير: إذا نكحتم المؤمنات، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن، لم يثبت لكم عليهن عدة ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال من الضمير المحذوف في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: ما ملكته. ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ جزاء الشرط محذوف، تقديره: إن

وهبت نفسها للنبي أحللناها له، وجزاء الشرط الذي هو ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ الشرط والجزاء المتقدم، تقديره: إن أراد النبي أن يستنكحها، إن وهبت نفسها له أحللناها له، و ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ في موضع نصب بأنه مفعول ﴿أَرَادَ﴾. ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ نصب على الحال، والهاء فيه للمبالغة.

● **المعنى**: ثم عاد سبحانه إلى ذكر النساء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تدخلوا بهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: تستوفونها بالعدد، وتحصون عليها بالإقراء وبالأشهر، أسقط الله سبحانه العدة عن المطلقة قبل المسيس لبراءة رحمها، فإن شاءت تزوجت من يومها ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمى لها صداقاً، فإذا فرض لها صداقاً فلها نصفه، ولا تستحق المتعة، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، فالآية محمولة عندنا على التي لم يسم لها مهراً، فيجب لها المتعة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: طلقوهن طلاقاً للسنة، من غير ظلم عليهن، عن الجبائي. وقيل: سرحوهن عن البيت فإنه ليس عليها عدة فلا يلزمها المقام في منزل الزوج، سراحاً جميلاً بغير جفوة ولا أذية. وقيل: السراح الجميل هو رفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة. عن حبيب بن أبي ثابت قال: كنت قاعداً عند علي بن الحسين عليه السلام، فجاءه رجل فقال: إني قلت يوم أتزوج فلانة فهي طالق، فقال: اذهب فتزوجها فإن الله تعالى بدأ بالنكاح قبل الطلاق، وقرأ هذه الآية.

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطيت مهورهن، والإيتاء قد يكون بالأداء وقد يكون بالالتزام ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: وأحللنا لك ما ملكت يمينك من الإماء ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنائم والأنفال، فكانت من الغنائم مارية القبطية أم ابنه إبراهيم، ومن الأنفال صفية وجويرية أعتقهما وتزوجهما ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ أي: وأحللنا لك بنات عمك ﴿وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ يعني نساء قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ يعني نساء بني زهرة ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إلى المدينة، وهذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مصدقة بتوحيد الله تعالى، وهبت نفسها منك بغير صداق، وغير المؤمنة إن وهبت نفسها منك لا تحلّ لك ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: آثر النبي صلى الله عليه وآله نكاحها ورغب فيها ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: خالصة لك دون غيرك، قال ابن عباس: يقول: لا يحل هذا لغيرك وهو لك حلال، وهذا من خصائصه في النكاح، فكان ينعقد النكاح له بلفظ الهبة، ولا ينعقد ذلك لأحد غيره.

واختلف في أنه هل كانت عند النبي صلى الله عليه وآله امرأة وهبت نفسها له أم لا؟ فقيل: إنه لم يكن عنده امرأة وهبت نفسها له، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: بل كانت عنده ميمونة بنت الحارث بلا مهر قد وهبت نفسها للنبي في رواية أخرى، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار، عن الشعبي. وقيل: هي امرأة من بني أسد يقال لها: أم

شريك بنت جابر، عن علي بن الحسين عليه السلام والضحاك ومقاتل. وقيل: هي خولة بنت حكيم، عن عروة بن الزبير. وقيل: إنها لما وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر؟ فنزلت الآية. فقالت عائشة ما أرى الله تعالى إلا يسارع في هواك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وإنك إن أطعت الله سارع في هواك، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ معناه: قد علمنا ما أخذنا على المؤمنين في أزواجهم من المهر، والحصر بعدد محصور، ووضعناه عنك تخفيفاً عنك ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: وما أخذنا عليهم في ملك اليمين، ألا يقع لهم الملك إلا بوجوه معلومة، من الشراء، والهبة، والإرث، والسبي، وأبحنا لك غير ذلك، وهو الصفي الذي تصطفيه لنفسك من السبي، وإنما خصّصناك على علم منا بالمصلحة فيه من غير محاباة ولا جزاف. ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: ليرتفع عنك الحرج، وهو الضيق والإثم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم أو رحيماً بك في رفع الحرج عنك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر إلا الأعشى وعباس وأهل المدينة: ﴿تُرْجِى﴾ بغير همز، والباقون بالهمز. وقرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿لا تحل﴾ بالتاء، والباقون بالياء. وسهل أبو حاتم يجيز فيهما.

● **الحجة:** قال أبو علي: جاء في هذا الحرف الهمز وغيره، وكذلك: أرجئه وأرجه،

فالقراءة بكل واحد من الأمرين حسنة. والتاء والياء في ﴿**لا تحل**﴾ حسنان، لأن النساء تأنيثه غير حقيقي، إنما هو تأنيث الجمع، فالتأنيث حسن، والتذكير كذلك.

● **اللغة:** الإرجاء: هو التأخير، ويكون من تبعيد وقت الشيء عن وقت غيره، ومنه الإرجاء في فساق أهل الصلاة، وهو تأخير حكمهم بالعقاب إلى الله تعالى. والإيواء: ضم القادر غيره من الأحياء، الذين هم من جنس ما يعقل إلى ناحيته. يقال: آويت الإنسان، آويه إيواء، وأوى هو يأوي أوياً: إذا انضم إلى مأواه. ويقال: أنى الطعام يأني إنىً مقصوراً، إذا بلغ حالة النضج وأدرك وقته، وإذا فتح مد فقيل: أناءَ، قال الحطيئة:

وآنيت العشاء إلى سهيلٍ أو الشّعرى فطال بي الأناء[1]

والاستئناس: ضد الاستيحاش، والأنس ضد الوحشة.

● **الإعراب:** ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ﴾ تقديره: من أن تقر، أو إلى أن تقر أعينهن ﴿كُلُّهُنَّۚ﴾ تأكيد للضمير، وهو النون في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ ولو نصب، جاز على تأكيد قوله: هُنَّ في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾. ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ منصوب على الحال ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ معطوف عليه، فهو حال معطوف على حال قبله، وتقديره: لا تدخلوا مستأنسين لحديث.

● **الحجة:** نزلت الآية الأولى حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي ﷺ، وطلب بعضهن زيادة النفقة، فهجرهن شهراً، حتى نزلت آية التخيير، فأمره الله تعالى أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة، وأن يخلي سبيل من اختار الدنيا، ويمسك من اختار الله ورسوله، على أنهن أمهات المؤمنين ولا ينكحن أبداً، وعلى أنه يؤوي من يشاء منهن، ويرجي من يشاء منهن، ويرضين به، قسم لهن أو لم يقسم، أو قسم لبعضهن ولم يقسم لبعضهن، أو فضل بعضهن على بعض في النفقة والقسمة والعشرة، أو سوى بينهن، والأمر في ذلك إليه، يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه ﷺ، فرضين بذلك كله، واخترنه على هذا الشرط، فكان ﷺ يسوي بينهن مع هذا، إلا امرأة منهن أراد طلاقها، وهي سودة بنت زمعة، فرضيت بترك القسم، وجعلت يومها لعائشة، عن ابن زيد وغيره.

وقيل: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن، فقلن: يا نبي الله! اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعنا على حالنا، فنزلت الآية، وكان ممن أرجى منهن سودة، وصفية، وجويرية، وميمونة، وأم حبيبة، فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء.

وكان ممن آوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، وكان يقسم بينهن على السواء، لا يفضل بعضهم على بعض، عن ابن رزين.

ونزلت آية الحجاب لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وأولم عليها، قال أنس: أولم عليها بتمر، وسويق، وذبح شاة، وبعثت إليه أمي أم سليم، بحيس[2] في تور من

---

(١) آنيت الشيء: أخرته.

(٢) الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط، فيعجن، ويدلك شديداً، حتى يمتزج، ثم يندر نواه. والتور: إناء صغير.

حجارة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فدعوتهم فجعل القوم يجيئون، ويأكلون ويخرجون، ثم يجيء القوم فيأكلون ويخرجون، قلت: يا نبي الله! قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا طعامهم، وخرج القوم وبقي ثلاثة نفر يتحدثون في البيت، فأطالوا المكث، فقام ﷺ وقمت معه لكي يخرجوا، فمشى حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية.

وروي مثل ذلك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: وكان رسول الله ﷺ يريد أن يخلو له المنزل، لأنه كان حديث عهد بعرس، وكان محباً لزينب، وكان يكره أذى المؤمنين.

وقيل: كان رسول الله ﷺ يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، وكانت معهم، فكره ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب، عن مجاهد.

ونزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، في رجل من الصحابة قال: لئن قبض رسول الله ﷺ لأنكحنَّ عائشة بنت أبي بكر، عن ابن عباس. قال مقاتل: وهو طلحة بن عبيد الله. وقيل: إن رجلين قالا: أينكح محمد نساءنا ولا ننكح نساءه؟ والله لئن مات لنكحنا نساءه! وكان أحدهما يريد عائشة، والآخر يريد أم سلمة، عن أبي حمزة الثمالي.

● **المعنى**: ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ يخيره في نسائه، فقال: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: تؤخر وتبعد من تشاء من أزواجك، وتضم إليك من تشاء منهن، واختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إنَّ المراد تقدم من تشاء من نسائك في الإيواء إليك، وهو الدعاء إلى الفراش، وتؤخر من تشاء في ذلك، وتدخل من تشاء منهن في القسم، ولا تدخل من تشاء، عن قتادة قال: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين أزواجه، وأباح الله له ترك ذلك.

وثانيها: إنَّ المراد: تعزل من تشاء منهن بغير طلاق، وترد إليك من تشاء منهن بعد عزلك إياها، بلا تجديد عقد، عن مجاهد والجبائي وأبي مسلم.

وثالثها: أن المراد تطلق من تشاء منهن، وتمسك من تشاء، عن ابن عباس.

ورابعها: أن المراد تترك نكاح من تشاء من نساء أمتك، وتنكح منهن من تشاء، عن الحسن قال: وكان ﷺ إذا خطب امرأة، لم يكن لغيره أن يخطبها، حتى يتزوجها أو يتركها.

وخامسها: تقبل من تشاء من المؤمنات اللائي يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك، وتترك من تشاء منهن، فلا تقبلها، عن زيد بن أسلم والطبري. قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: من أرجى لم ينكح، ومن أوى فقد نكح.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن ذلك، وتضمها إليك فلا سبيل عليك بلوم، ولا عتب، ولا إثم عليك في ابتغائها، أباح الله سبحانه له ترك القسم في النساء، حتى يؤخر من يشاء عن وقت نوبتها، ويطأ من يشاء

في غير وقت نوبتها، وله أن يعزل من يشاء، وله أن يرد المعزولة إن شاء، فضله الله تعالى بذلك على جميع الخلق.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ معناه: أنهن إذا علمن أن له ردهن إلى فراشه بعدما اعتزلهن، قرَّت أعينهن ولم يحزن، ويرضين بما يفعله النبي ﷺ من التسوية والتفضيل، لأنهن يعلمن أنهن لم يطلقن، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل معناه: ذلك أطيب لنفوسهن وأقل لحزنهن، إذا علمن أن لك الرخصة بذلك من الله تعالى، ويرضين بما يفعله النبي ﷺ من التسوية والتفضيل، عن قتادة. وقرة العين: عبارة عن السرور. وقيل: ذلك المعرفة منهن بأنك إذا عزلت واحدة كان لك أن تؤويها بعد ذلك أدنى بسرورهن، وقرة أعينهن، عن الجبائي. وقيل معناه: نزول الرخصة من الله تعالى أقر لأعينهن، وأدنى إلى رضاهن بذلك، ليعلمهن بما لهن في ذلك من الثواب في طاعة الله تعالى، ولو كان ذلك من قِبلك لحزنَّ وحملن ذلك على ميلك إلى بعضهن ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الرضا والسخط، والميل إلى بعض النساء دون بعض ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمصالح عباده ﴿حَلِيمًا﴾ في ترك معاجلتهم بالعقوبة.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد النساء اللواتي أحللناها لك في قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية. وهن ستة أجناس: النساء اللاتي آتاهن أجورهن، أي: أعطاهن مهورهن، وبنات عمه، وبنات عماته، وبنات خاله، وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ومن وهبت نفسها له، يجمع ما شاء من العدد، ولا يحل له غيرهن من النساء، عن أبي بن كعب وعكرمة والضحاك. وقيل: يريد المحرمات في سورة النساء، عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل معناه: لا تحل لك اليهوديات، ولا النصرانيات ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ ولا أن تبدل الكتابيات بالمسلمات، لأنه لا ينبغي أن يكن أمهات المؤمنين ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الكتابيات، فأحل له أن يتسراهن، عن مجاهد وسعيد بن جبير. وقيل معناه: لا يحل لك النساء من بعد نسائك اللاتي خيرتهن فاخترن الله ورسوله، وهنَّ التسع، صرت مقصوراً عليهن، وممنوعاً من غيرهن، ومن أن تستبدل بهن غيرهن ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: وقع في قلبك حسنهن، مكافأة لهن على اختيارهن الله ورسوله، عن الحسن والشعبي. وقيل: إن التي أعجبه حسنها أسماء بنت عميس، بعد فصل جعفر بن أبي طالب عنها. وقيل: إنه منع من طلاق من اختارته من نسائه، كما أمر بطلاق من لم تختره. فأما تحريم النكاح عليه فلا، عن الضحاك. وقيل أيضاً: إن هذه الآية منسوخة وأبيح له بعدها تزويج ما شاء، فروي عن عائشة أنها قالت: ما فارق رسول الله ﷺ الدنيا حتى حلل له ما أراد من النساء. وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فقيل أيضاً في معناه: أن العرب كانت تتبادل بأزواجهم، فيعطي أحدهم زوجته رجلاً، فيأخذ بها زوجة منه بدلاً عنها، فنهي عن ذلك. وقيل في قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يعني إن أعجبك حسن ما حرم عليك من جملتهن ولم يحللن لك، وهو المروي عن أبي عبد الله ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الكتابيات. فأحلَّ له أنْ يتسراهنَّ، عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وقيل: معناه لا يحلُّ لك النساء من بعد نسائك اللآتي خيرتهن فاخترن الله ورسوله، وهنَّ

التسع. صرت مقصورًا عليهن، وممنوعًا من غيرهنّ، ومن أنْ تستبدل بهن غيرهن. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي: عالماً حافظاً، عن الحسن وقتادة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ نهاهم سبحانه عن دخول دار النبي ﷺ بغير إذن، وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: في الدخول، يعني: إلا أن يدعوكم إلى طعام فادخلوا غير ناظرين إناه، أي: غير منتظرين إدراك الطعام فيطول مقامكم في منزله. والمعنى: لا تدخلوها بغير إذن. وقيل: نضج الطعام، انتظاراً لنضجه، فيطول لبثكم ومقامكم ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ أي: فإذا أكلتم الطعام فتفرقوا واخرجوا ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولا تدخلوا فتقعدوا بعد الأكل متحدثين، يحدث بعضكم بعضاً ليؤنسه، ثم بين المعنى في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أي: طول مقامكم في منزل النبي ﷺ يؤذيه، لضيق منزله، فيمنعه الحياء أن يأمركم بالخروج من المنزل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يترك إبانة الحق، فيأمركم بتعظيم رسوله، وترك دخول بيته من غير إذن، والامتناع عما يؤدي إلى أذاه وكراهيته. قالت عائشة: يحسب الثقلاء أن الله سبحانه لم يحتملهم، فقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ وقال بعض العلماء: هذا أدب أدَّب الله به الثقلاء.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يعني فإذا سألتم أزواج النبي ﷺ شيئاً تحتاجون إليه فاسألوهن من وراء الستر. قال مقاتل: أمر الله المؤمنين ألا يكلموا نساء النبي ﷺ إلا من وراء حجاب. وروى مجاهد عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حَيساً في قعب(١)، فمر بنا عمر، فدعاه فأكل، فأصابت أصبعه إصبعي، فقال: حس(٢)، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الريبة، ومن خواطر الشيطان التي تدعو إلى ميل الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس لكم إيذاء رسول الله ﷺ بمخالفة ما أمر به في نسائه، ولا في شيء من الأشياء ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: من بعد وفاته. المعنى: ولا يحل لكم أن تتزوَّجوا واحدة من نسائه بعد مماته، كما لا يحل لكم أن تؤذوه في حال حياته. وقيل: من بعده، أي: من بعد فراقه في حياته، كما قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: إيذاء الرسول بما ذكرنا كان ذنباً عظيم الموقع عند الله تعالى.

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تظهروا شيئاً أو تضمروه، مما نهيتم عنه من تزويجهن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ من الظواهر والسرائر، وهذا تهديد. وروي عن حذيفة أنه قال لامرأته: إن تريدي أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها، فلذلك حرم الله تعالى على أزواج النبي ﷺ أن يتزوجن بعده، وروي عن النبي: سئل عن

---

(١) مرّ معنى الحيس قريباً. والقعب: القدح الضخم الغليظ.
(٢) حَسّ: كلمة يقولها الإنسان عند التوجع مما أذاه مثل «أوّه».

المرأة تكون لها زوجان فتموت، فتدخل الجنة، فلأيهما تكون؟ قال: لأحسنهما خلقاً كان معها في الدنيا، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أن يروهن ولا يحتجبن عنهم ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قيل يريد نساء المؤمنين، لا نساء اليهود ولا نساء النصارى، فيصفن نساء رسول الله لأزواجهن إن رأينهن، عن ابن عباس. وقيل: يريد جميع النساء ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعني العبيد والإماء ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي: اتركن معاصيه. وقيل: اتقين عقاب الله من دخول الأجانب عليكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: حفيظاً لا يغيب عنه شيء. قال الشعبي وعكرمة: وإنما لم يذكر العم والخال لئلا ينعتاهن لأبنائهما.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن: ﴿فصلوا عليه﴾.

● **الحجة:** إنما جاز دخول الفاء، لما في الكلام من معنى الشرط، وذلك أن الصلاة إنما وجبت عليه منا، لأن الله قد صلى عليه وملائكته، فجرى مجرى قول القائل: قد أعطيتك فخذ، أي: إنما وجب عليك الأخذ من أجل العطية.

● **اللغة:** الجلباب: خمار المرأة الذي يغطي رأسها ووجهها، إذا خرجت لحاجة. والإرجاف: إشاعة الباطل للاغتمام به، وأصله الاضطراب، ومنه يقال للبحر: رجّاف لاضطرابه، فإرجاف الناس بالشيء اضطرابهم بالخوض فيه، ومنه «ترجف الراجفة». والإغراء: الدعاء إلى تناول الشيء بالتحريض عليه. يقال: أغراه بالشيء إغراء، فغري به، أي أولع به.

● **الإعراب:** ﴿يُدْنِينَ﴾ في موضع جزم بأنه جواب شرط مقدر، وتقديره: قل لأزواجك: أدنين عليكن من جلابيبكن، فإنك إن تقل ذلك يدنين ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الذم ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ شرط وجزاء، وأين ظرف لـ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ ومعمول له، وإنما جاز ذلك لأن

الجازم في الأصل إن المحذوفة، فصار أينما يتضمنها فيغني عنها ويقوم مقامها، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿أُخِذُوٓاْ﴾ لأنه جواب الشرط، ولا يعمل الجواب فيما قبل الشرط.

● **المعنى**: لما صدَّر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر تعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ معناه: إن الله يصلي على النبي ﷺ ويثني عليه بالثناء الجميل، ويبجله بأعظم التبجيل، وملائكته يصلون عليه، [يثنون عليه][1] بأحسن الثناء، ويدعون له بأزكى الدعاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ قال أبو حمزة الثمالي: حدثني السدي وحميد بن سعد الأنصاري، ويزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجزة قال: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، عن عبد الله بن مسعود قال: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، قالوا: فعلمنا، قال: قولوا: اللهم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك إمام الدين، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد. حدث عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقلت: كيف صلاة الله على رسوله؟ فقال: يا أبا محمد، تزكيته له في السموات العلى، فقلت: قد عرفت صلواتنا عليه، فكيف التسليم؟ فقال: هو التسليم له في الأمور، فعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ انقادوا لأوامره، وابذلوا الجهد في طاعته، وفي جميع ما يأمركم به. وقيل معناه: سلموا عليه بالدعاء، أي قولوا: السلام عليك يا رسول الله. الحديث.

وحدث عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: دخلت على النبي ﷺ فلم أره أشد استبشاراً منه يومئذ، ولا أطيب نفساً، قلت: يا رسول الله ما رأيتك قط أطيب نفساً، ولا أشد استبشاراً منك اليوم، فقال: وما يمنعني؟ وقد خرج آنفاً جبرائيل من عندي قال: قال الله تعالى: من صلى عليك صلاة صليت بها عليه عشر صلوات، ومحوت عنه عشر سيئات، وكتبت له عشر حسنات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قيل: هم المنافقون والكافرون، والذين وصفوا الله بما لا يليق به، وكذبوا رسله وكذبوا عليه، فعلى هذا يكون معنى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ يخالفون أمره، ويصفونه بما هو منزه عنه، ويشبهونه بغيره، فإن الله عز اسمه لا يلحقه أذى، ولكن لما كانت مخالفة الأمر فيما بيننا تسمى إيذاء خوطبنا بما نتعارفه. وقيل: يؤذون الله يلحدون في أسمائه

(١) ما بين المعقفتين غير موجود في المخطوطتين.

وصفاته. وقيل معناه: يؤذون رسول الله، فقدم ذكر الله على وجه التعظيم، إذ جعل أذى رسوله أذى له تشريفاً له وتكريماً، فكأنه يقول: لو جاز أن يناله أذى من شيء لكان ينالني من هذا، واتصاله بما قبله أنه كأنه يقول: صلوا عليه ولا تؤذوه، فإن من آذاه فهو كافر، ثم أوعد عليه بقوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: يبعدهم الله من رحمته، ويحل بهم وبال نقمته، بحرمان زيادات الهدى في الدنيا، والخلود في النار في الآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: مذلًا لهم.

حدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ قال: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي دارم الحافظ قال: حدثنا علي بن أحمد العجلي قال: حدثنا عباد بن يعقوب قال: حدثنا أرطاة بن حبيب قال: حدثنا أبو خالد الواسطي وهو آخذ بشعره قال: حدثني زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وهو آخذ بشعره قال: حدثني علي بن الحسين وهو آخذ بشعره قال: حدثني الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وهو آخذ بشعره قال: حدثني علي بن أبي طالب وهو آخذ بشعره قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وهو آخذ بشعره فقال: من آذى شعرة منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: يؤذونهم من غير أن يعملوا ما يوجب أذاهم ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ أي: فقد فعلوا ما هو أعظم الإثم مع البهتان، وهو الكذب على الغير يواجهه به، فجعل إيذاء المؤمنين والمؤمنات مثل البهتان. وقيل: يعني بذلك أذية اللسان، فيتحقق فيها البهتان ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ومعصية ظاهرة. قال قتادة والحسن: إياكم وأذى المؤمنين، فإن الله تعالى يغضب له. وقيل: نزلت في قوم من الزناة، كانوا يمشون في الطرقات ليلًا، فإذا رأوا امرأة غمزوها، وكانوا يطلبون الإماء، عن الضحاك والسدي والكلبي.

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي: قل لهؤلاء: فليسترن موضع الجيب بالجلباب، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة عن الحسن. وقيل: الجلباب مقنعة المرأة، أي: يغطين جباههن ورؤوسهن إذا خرجن لحاجة، بخلاف الإماء اللاتي يخرجن مكشفات الرؤوس والجباه، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: أراد بالجلابيب الثياب والقميص والخمار وما تستتر به المرأة، عن الجبائي وأبي مسلم ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: ذلك أقرب إلى أن يعرفن بزيهن أنهن حرائر ولسن بإماء، فلا يؤذيهن أهل الريبة، فإنهم كانوا يمازحون الإماء، وربما كان يتجاوز المنافقون إلى ممازحة الحرائر، فإذا قيل لهم في ذلك، قالوا: حسبناهن إماء، فقطع الله عذرهم. وقيل معناه: ذلك أقرب إلى أن يعرفن بالستر والصلاح فلا يتعرض لهن، لأن الفاسق إذا عرف امرأة بالستر والصلاح لم يتعرض لها، عن الجبائي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: ستاراً لذنوب عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم.

ثم أوعد سبحانه هؤلاء الفساق، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي: لئن لم يمتنع المنافقون ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: فجور، وضعف في الإيمان، وهم الذين لا دين لهم، عما ذكرناه من مراودة النساء وإيذائهن ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وهم المنافقون أيضاً، الذين

كانوا يرجفون في المدينة بالأخبار الكاذبة المضعفة لقلوب المسلمين، بأن يقولوا: اجتمع المشركون في موضع كذا، قاصدين لحرب المسلمين، ونحو ذلك، ويقولوا لسرايا المسلمين إنهم قُتلوا وهُزموا، وفي الكلام حذف، وتقديره: لئن لم ينته هؤلاء عن أذى المسلمين، وعن الإرجاف بما يشغل قلوبهم ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنَّك عليهم يا محمد، عن ابن عباس. والمعنى: أمرناك بقتلهم حتى تقتلهم، وتخلي عنهم المدينة، وقد حصل الإغراء بهم بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، عن أبي مسلم. وقيل: لم يحصل الإغراء بهم، لأنهم انتهوا، عن الجبائي. قال: ولو حصل الإغراء لقتلوا وشردوا وأخرجوا عن المدينة ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ثم لا يساكنونك في المدينة إلا يسيراً، وهو ما بين الأمر بالقتل وما بين قتلهم ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ أي: مطرودين منفيين عن المدينة، مبعدين عن الرحمة. وقيل: ملعونين على ألسنة المؤمنين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ أي: أينما وجدوا وظفر بهم أخذوا وقتلوا أبلغ القتل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ والسنة الطريقة في تدبير الحكم، وسنة رسول الله ﷺ طريقته التي أجراها بأمر الله تعالى، فأضيفت إليه، ولا يقال سنته إذا فعلها مرة أو مرتين، لأن السنة الطريقة الجارية. والمعنى: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء، ويرجفون بهم، أن يقتلوا حيثما ثقفوا، عن الزجاج ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تحويلًا وتغييراً، أي: لا يتهيأ لأحد تغييرها ولا قلبها من جهتها، لأنه سبحانه القادر الذي لا يتهيأ لأحد منعه مما أراد فعله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر ويعقوب وسهل: ﴿ساداتنا﴾ بالألف وكسر التاء، والباقون: ﴿سَادَتَنَا﴾ بغير ألف. وقرأ عاصم: ﴿كبيراً﴾ بالباء، والباقون ﴿كَثِيرًا﴾ بالثاء. وفي الشواذ قراءة عيسى بن عمر: ﴿يَوْمَ تُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ﴾ وقراءة ابن مسعود والأعمش: ﴿وكان عبداً لله وجيهاً﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي سادة فعَلة مثل كتَبة وفجَرة، قال:

سليل قرومٍ سادةٍ مثلُ ذادةٍ   يَبُذُّون أهل الجمعِ يومَ المُحَصَّبِ[1]

---

(١) القروم هنا: بمعنى السادات. وبذّ القوم: سبقهم وغلبهم أي: يسبقون أهل (عرفات)، و(منى). وأراد بيوم المحصَّب: يوم رمي الجمار في (منى).

ووجه الجمع بالألف والتاء أنهم قد قالوا: الطرقات والمعنات، في المعن جمع معين، قال الأعشى:

جُنـدُكَ الـتـالـد الـطَّـريـف مـن الـسّـا ... داتِ أهـلُ الـقِـبـابِ والآكـال(١)

قال أبو الحسن: هي غريبة والكبر مثل العظم و الكثرة أشبه بالموضع، لأنهم يلعنون مرة بعد مرة، وقد جاء ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ فالكثرة أشبه بالمرار المتكررة من الكبر. وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ تقديره: يوم تقلب السعير وجوههم، نسب الفعل إلى النار، لما كان التقليب فيها، كما قال: ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لوقوع المكر فيهما، وعليه قول رؤبة «فنام ليلي وتجلّى همّي»(٢) وقوله: ﴿عبداً لله وجيهاً﴾ لا يفهم منه وجاهته عند الله، فقراءة الناس المشهورة أقوى منه، لإسناده وجاهته إلى الله سبحانه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا محمد ﴿النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني القيامة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ لا يعلمها غيره ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يا محمد أي: أي شيء يعلمك من أمر الساعة؟ ومتى يكون قيامها؟ أي: أنت لا تعرفه، ثم قال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: قريباً مجيئها، ويجوز أن يكون أمره أن يجيب كل من يسأله عن الساعة بهذا، فيقول: لعل ما تستبطئه قريب، وما تنكره كائن، ويجوز أن يكون تسلية له ﷺ، أي: فاعلم أنه قريب فلا يضيقن صدرك باستهزائهم بإخفائها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تستعر وتلتهب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولياً ينصرهم، ونصيراً يدفع عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ والتقليب: تصريف الشيء في الجهات، ومعناه: تقلب وجوه هؤلاء السائلين عن الساعة، وأشباههم من الكفار، فتسود وتصفر وتصير كالحة بعد أن لم تكن. وقيل معناه: تنقل وجوههم من جهة إلى جهة في النار، فيكون أبلغ فيما يصل إليها من العذاب ﴿يَقُولُونَ﴾ متمنين متأسفين ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾ فيما أمرنا به، ونهانا عنه ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ فيما دعانا إليه ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا﴾ فيما فعلنا ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ والسيد: المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم، وهو الجمع الأكثر. قال مقاتل: هم المطعمون في غزوة بدر(٣). وقال طاوس: هم العلماء، والوجه: أن المراد جميع قادة الكفر وأئمة الضلال ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي: أضلنا هؤلاء عن سبيل الحق وطريق الرشاء ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ بضلالهم في نفوسهم، وإضلالهم إيانا، أي: عذبهم مثلي ما تعذب غيرهم ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ مرة بعد أخرى، وزدهم غضباً إلى غضبك، وسخطاً إلى سخطك.

---

(١) التالد: القديم. والطريف: الحديث والقباب جمع القبة. وآكال الجند: أطماعهم. وفي بعض النسخ «جدك» بدل «جندك».

(٢) هذا عجز بيت وصدره: «كنت ذا همّ وراعي نجم» وراع النجوم: راقبها وانتظر مغيبها.

(٣) وهم على ما ذكره المؤرخون إثنا عشر نفراً من كبراء قريش: عباس بن عبد المطلب، وعتبة وشيبة إبنا ربيعة. وأُبي بن خلف، وحكيم حزام، ونصر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل وأبو البختري إبنا هشام، وحارث بن عامر بن نوفل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، فكل يوم كان كفيل إطعام جيش المشركين واحد منهم.

ثم خاطب سبحانه المظهرين للإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ أي: لا تؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى، فإن حق النبي ﷺ أن يعظم ويبجل، لا أن يؤذى، واختلفوا فيما أوذي به موسى على أقوال:

أحدهما: أن موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته. فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرفوا أنه قد مات، وبرأه الله من ذلك، عن علي عليه السلام وابن عباس واختاره الجبائي.

وثانيها: أن موسى كان حيياً ستيراً، يغتسل وحده، فقالوا: ما يستتر منا إلا لعيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، فمر الحجر بثوبه، فطلبه موسى، فرآه بنو إسرائيل عرياناً كأحسن الرجال خلقاً، فبرأه الله مما قالوا، رواه أبو هريرة مرفوعاً. وقال قوم: إن ذلك لا يجوز لأن فيه إشهار النبي، وإبداء سوأته على رؤوس الأشهاد، وذلك ينفر عنه.

وثالثها: أن قارون استأجر مومسة[1]، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ، فعصمه الله تعالى من ذلك، على ما مر ذكره، عن أبي العالية.

ورابعها: أنهم آذوه من حيث أنهم نسبوه إلى السحر، والجنون، والكذب، بعدما رأوا الآيات، عن أبي مسلم ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عظيم القدر، رفيع المنزلة، يقال: وجه وجاهة فهو وجيه، إذا كان ذا جاه وقدر. قال ابن عباس: كان عند الله خطيراً لا يسأله شيئاً إلا أعطاه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

● **المعنى**: ثم أمر الله سبحانه أهل الإيمان والتوحيد بالتقوى، والقول السديد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا عقاب الله، باجتناب معاصيه، وفعل واجباته ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: صواباً بريئاً من الفساد، خالصاً من شائبة الكذب واللغو، موافق الظاهر للباطن، وقال الحسن وعكرمة: صادقاً: يعني كلمة التوحيد، لا إله إلا الله. وقال مقاتل: هذا

(١) امرأة مومسة أي: فاجرة.

يتصل بالنهي عن الإيذاء، أي: قولوا قولًا صواباً، ولا تنسبوا رسول الله ﷺ إلى ما لا يحمل ولا يليق به ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ معناه: إن فعلتم ذلك يصلح لكم أعمالكم بأن يلطف لكم فيها، حتى تستقيموا على الطريقة المستقيمة السليمة من الفساد، ويوفقكم لما فيه الصلاح والرشاد. وقيل معناه: يزكي أعمالكم ويتقبل حسناتكم ، عن ابن عباس ومقاتل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ باستقامتكم في الأقوال والأفعال ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد أفلح إفلاحاً عظيماً. وقيل: فقد ظفر برضوان الله وكرامته ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ اختلف في معنى الأمانة. فقيل: هي ما أمر الله به من طاعته، ونهى عنه من معصيته، عن أبي العالية. وقيل: هي الأحكام والفرائض التي أوجبها الله تعالى على العباد، عن ابن عباس ومجاهد، وهذان القولان متقاربان. وقيل: في أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فأولها ائتمان آدم ابنه قابيل على أهله وولده، حين أراد التوجه إلى مكة عن أمر ربه، فخان قابيل إذ قتل هابيل، عن السدي والضحاك. واختلف في معنى عرض الأمانة على هذه الأشياء، وقيل فيه أقوال:

أحدها: أن المراد العرض على أهلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وعرضها عليهم هو تعريفه إياهم أن في تضييع الأمانة الإثم العظيم، وكذلك في ترك أوامر الله تعالى وأحكامه، فبين سبحانه جرأة الإنسان على المعاصي، وإشفاق الملائكة من ذلك، فيكون المعنى: عرضنا الأمانة على أهل السماوات والأرض والجبال من الملائكة والجن والإنس ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: فأبى أهلهن أن يحملوا تركها وعقابها والمأثم فيها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: وأشفق أهلهن من حملها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه بارتكاب المعاصي ﴿جَهُولًا﴾ بموضع الأمانة في استحقاق العقاب على الخيانة فيها، عن أبي علي الجبائي، وقال: إذا لم يصح حمله على نفس السماوات والأرض والجبال، فلا بد أن يكون المراد به أهلها، لأنه يجب أن يكون المراد به المكلفين دون غيرهم، لأن ذلك لا يصح إلا فيهم، ولا بد من أن يكون المراد بحمل الأمانة تضييعها، لأن نفس الأمانة قد حملتها الملائكة وقامت بها، قال الزجاج: كل من خان الأمانة فقد حملها، ومن لم يحمل الأمانة فقد أداها، وكذلك كل من أثم فقد احتمل الإثم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ فقد أعلم الله سبحانه أن من باء بالإثم يسمى حاملًا للإثم، وهو قول الحسن، لأنه قال: الكافر والمنافق حملا الأمانة، أي: خانا ولم يطيعا، وأنشد بعضهم في حمل الأمانة بمعنى الخيانة، قول الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع[١]

وأقول: إن الظاهر لا يدل على ذلك، لأنه يجوز أن يكون المراد بالحمل هنا قبول الأمانة، لأن الشاعر جعله في مقابلة الأداء، فكأنه قال: إذا كنت لا تزال تقبل أمانة، وتؤدي أخرى، شغلت نفسك بقبول الودائع وأدائها فأثقلتك.

---

(١) فمعنى قوله: «وتحمل أُخرى» أي: تخونها ولا تؤديها. يدل على ذلك قوله: «أفرحتك الودائع» أي: أثقلتك الأمانات التي تخونها، ولا تؤديها. وهذا أحد المعنيين في البيت، والمعنى الآخر ما ذكره المصنف (ره).

وثانيها: أن معنى عرضنا: عارضنا وقابلنا، فإن عرض الشيء على الشيء ومعارضته به سواء، والأمانة ما عهد الله سبحانه إلى عباده من أمره ونهيه، وأنزل فيه الكتب وأرسل الرسل، وأخذ عليه الميثاق. والمعنى: أن هذه الأمانة في جلالة موقعها، وعظم شأنها لو قيست بالسماوات والأرض والجبال، وعورضت بها، لكانت هذه الأمانة أرجح وأثقل وزناً، ومعنى قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ ضعفن عن حملها كذلك، وأشفقن منها، لأن الشفقة ضعف القلب، ولذلك صار كناية عن الخوف الذي يضعف عنده القلب، ثم قال: إن هذه الأمانة التي من صفتها أنها أعظم من هذه الأشياء العظيمة تقلدها الإنسان فلم يحفظها، بل حملها وضيعها لظلمه على نفسه، ولجهله بمبلغ الثواب والعقاب، عن أبي مسلم.

وثالثها: أنه على وجه التقدير إلا أنه أجرى عليه لفظ الواقع، لأن الواقع أبلغ من المقدر، معناه: لو كانت السماوات والأرض والجبال عاقلة، ثم عرضت عليها الأمانة، وهي وظائف الدين أصولًا وفروعاً، وما ذكرناه من الأقاويل فيها. بما فيها من الوعد والوعيد عرض تخيير، لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها وشدتها وقوتها، ولامتنعت من حملها خوفاً من القصور عن أداء حقها، ثم حملها الإنسان مع ضعف جسمه، ولم يخف الوعيد لظلمه وجهله، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس: أنها عرضت على نفس السماوات والأرض فامتنعت من حملها.

ورابعها: أن معنى العرض والإباء ليس هو ما يفهم بظاهر الكلام، بل المراد تعظيم شأن الأمانة، لا مخاطبة الجماد، والعرب تقول: سألت الربع، وخاطبت الدار، فامتنعت عن الجواب، وإنما هو إخبار عن الحال، عبر عنه بذكر الجواب والسؤال، وتقول: أتى فلان بكذب لا تحمله الجبال، وقال سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وخطاب من لا يفهم لا يصح، وقال الشاعر:

فأجهشت للبوباة حين رأيته ... وكبّر للرحمن حين رآني[1]
فَقُلتُ لهُ: أينَ الذينَ عَهِدْتُهُم ... بجَنبِكَ في خَفْضٍ وطيبِ زَمانِ[2]
فقال: مضوا واستودعوني بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وقال آخر:

فقال لي البحر إذ جئته ... وكيف يجيب ضرير ضريرا

فالأمانة على هذا ما أودع الله السموات والأرض والجبال من الدلائل على وحدانيته وربوبيته فأظهرتها، والإنسان الكافر كتمها، وجحدها، لظلمه وجهله، وبالله التوفيق.

ولم يرد بقوله: ﴿الْإِنسَانُ﴾ جميع الناس، بل هو مثل قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾،

---

(١) نسب الأبيات في الأغاني إلى مجنون قوله: «فأجهشت للبوباة» كذا في النسخ. وأجهشت أي: فرغت، والبوباة: الفلاة. وعقبة كؤود بطريق اليمن. لكن في أمالي الشريف (ره) ج٢ ص٣١٠، ومعجم البلدان ج٢: ٥٥، والأغاني ج١: ١٧٩ «للتوباذ» وقال في المعجم: إنه جبل في نجد. ويحتمل التصحيف.

(٢) وفي بعض النسخ: «طول زمان».

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والأنبياء والأولياء والمؤمنون عن عموم هذه الآية خارجون، ولا يجوز أن يكون الإنسان محمولاً على آدم عليه السلام لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ وكيف يكون من اصطفاه الله من بين خلقه موصوفاً بالظلم والجهل؟

ثم بين سبحانه الغرض الصحيح والحكمة البالغة في عرضه هذه الأمانة فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يعني بتضييع الأمانة. قال الحسن: هما اللذان حملاهما ظلماً وجهلاً ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بحفظهم الأمانة ووفائهم، وهذا هو الغرض بالتكليف عند من عرف المكلف والمكلف، فالمعنى: إنا عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهم الله، ويظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: ستاراً لذنوب المؤمنين ﴿رَّحِيمًۢا﴾ بهم.

سُورَةُ سَبَأ

مكية

● **عدد آيها:** خمس وخمسون آية شامي، أربع في الباقين.

● **اختلافها:** آية عن يمين وشمال.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقاً، ومصافحاً». وروى ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ الحمدين جميعاً سبأ وفاطر في ليلة، لم يزل ليلته في حفظ الله تعالى وكلائه، فإن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه، وأعطي من خير الدنيا، وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه، ولم يبلغ مناه.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الأحزاب ببيان الغرض في التكليف، وأنه سبحانه يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، افتتح هذه السورة بالحمد له على نعمته، وكمال قدرته. فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ
أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والشام: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿علام الغيب﴾ بالجر واللام قبل الألف، والباقون: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بالجر. وقرأ ابن كثير وحفص ويعقوب: ﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ هنا وفي الجاثية أيضاً بالرفع، والباقون: بالجر.

● **الحجة:** قال أبو علي: الجر على قوله: الحمدُ لله عالم الغيب وقال غيره: ﴿عالم الغيب﴾ بالجر صفة لقوله: ﴿وَرَبِّى﴾ أو بدل منه، فأما الرفع فيجوز أن يكون خبر مبتدأ

محذوف، تقديره: هو عالم الغيب، وأن يكون ابتداء، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وعلام أبلغ من عالم. والرجز: العذاب بدلالة قوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فإذا كان العذاب يوصف بأليم كما أنه نفس العذاب، جاز أن يوصف به، والجر في ﴿أَلِيمٌ﴾ أبين، لأنه إذا كان عذاب من عذاب أليم، كان العذاب الأول أليماً، وإذا جرى الأليم على العذاب، كان المعنى عذاب أليم من عذاب، والأول أكثر فائدة.

● **اللغة:** الحمد: هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم، ونقيضه: الذم، وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير، ثم ينقسم، فمنه ما هو أعلى، ومنه ما هو أدنى، والأعلى ما يقع على وجه العبادة ولا يستحقها إلا الله تعالى، لأن إحسان الله عز اسمه لا يوازيه إحسان أحد من المخلوقين، ويستحق الحمد على الإحسان والإنعام، فلا يستحق أحد من المخلوقين مثل ما يستحقه سبحانه. والولوج: الدخول. والعروج: الصعود. والمعارج: الدرج من هذا. وعزب عنه يعزَب ويعزِب إذا بَعُد. وفي الحديث: من قرأ القرآن في أربعين ليلة فقد عزب، أي: بعد عهده، بما ابتدأ منه وأبطأ في تلاوته.

● **الإعراب:** ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتعلق بقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾.

● **المعنى:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معناه: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو تعريف لوجوب الشكر على نعم الله سبحانه، وتعظيم لكيفية الشكر ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الذي يملك التصرف في جميع ما في السموات، وجميع ما في الأرض، ليس لأحد الاعتراض عليه، ولا منعه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: هو المستحق للحمد على أفعاله الحسنى في الدارين، لكونه منعماً فيهما، والآخرة وإن كانت ليست بدار تكليف، فلا يسقط فيها الحمد والاعتراف بنعم الله تعالى، بل العباد ملجأون إلى ذلك، لمعرفتهم الضروريَّة بنعم الله عليهم، من الثواب والعوض وضروب التفضل، ومن حمد أهل الجنة قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ وقيل: إنما يحمده أهل الجنة لا على جهة التعبد، لكن على جهة السرور والتلذذ بالحمد، ولا يكون بالحمد عليهم فيه تعب ولا مشقة. وقيل: يحمده أهل الجنة على نعمه وفضله، ويحمده أهل النار على عدله ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله، لأنها كلها واقعة على وجه الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ بجميع المعلومات.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها، من مطر أو كنز أو ميت ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع أو نبات أو جواهر أو حيوان ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر أو رزق أو ملك ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ أي: يصعد ﴿فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد، فهو يجري جميع ذلك على تقدير تقتضيه الحكمة، وتدبير توجبه المصلحة ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، مع علمه بما يعملون من المعاصي، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويمهلهم للتوبة ﴿الْغَفُورُ﴾ أي: الساتر عليهم ذنوبهم في الدنيا، المتجاوز عنها في العقبى، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني منكري البعث والنشور ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ أي: وحق الله ربي الذي خلقني وأوجدني ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ القيامة ﴿عَالِمِ

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ يعلم كل شيء يغيب عن العباد علمه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يفوته ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، وقد مضى هذا مفسراً في سورة يونس، كذب الله سبحانه في هذه الآية الكفار الجاحدة للبعث، وبين أن القيامة آتية كائنة لا محالة، وأمر رسوله ﷺ بأن يحلف على ذلك تأكيداً له، ثم مدح نفسه بأنه يعلم ما غاب عن العباد علمه، مما هو كائن أو سيكون، ولم يوجد بعد.

ثم قال: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إنما أثبت ذلك في الكتاب المبين، ليكافئهم بما يستحقونه من الثواب على صالح أعمالهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم وسترها ولهم مع ذلك ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: هنيء لا تنغيص فيه ولا تكدير. وقيل: هو الجنة، عن قتادة ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: والذين عملوا بجهدهم وجدهم في إبطال حججنا، وفي تزهيد الناس عن قبولها، مقدرين إعجاز ربهم وظانين أنهم يفوتونه. وقيل: معاجزين مسابقين، ومعجزين مثبطين. وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الحج ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي سيء العذاب، عن قتادة ﴿أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم.

النظم: وجه اتصال قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بما قبله، أنه سبحانه لما حكى عن المشركين ما يضاد الإقرار له بالربوبية، والاعتراف بالنعمة، من إنكار القيامة ذكر بعده أن من يعلم أفعال العباد، وما يستحقونه من الجزاء، لو لم يجعل داراً أخرى يجازي فيها المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وينتصف للمظلوم من الظالم، كان ذلك خروجاً عن موجب الحكمة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿**إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط**﴾ بالياء في الجميع، والباقون: كل ذلك بالنون. وأدغم الكسائي وحده الفاء في الباء في ﴿**يخسف بهم**﴾.

● **الحجة**: قال أبو علي: حجة النون قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ فالنون أشبه بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾ وحجة الياء قوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فحمل على اسم الله تعالى. قال: وإدغام الفاء في الباء لا يجوز، لأن الفاء من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العليا، وانحدر الصوت به إلى الفم

حتى اتصل بمخرج الثاء، حتى جاء مثل: الجدث، والجدف، والمغاثير، والمغافير، فتعاقبا للمقاربة بينهما، فلما اتصلت بمخرج الثاء صارت بمنزلة حرف من تلك الحروف، فلم يجز إدغامها في الباء، لأنه إذا اتصل بما ذكرنا صار كحرف من ذلك الموضع، فكما أن ذلك الحرف الذي اتصل بالفاء لا يدغم في الباء، كذلك الفاء لا يدغم في الباء، وكذلك لا يجوز أن يدغم الفاء في الباء، لزيادة صوتها المتصل بحرف من حروف الفم.

● **الإعراب:** ﴿وَيَرَى﴾ يحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على ليجزي، ويحتمل أن يكون مرفوعاً على الاستئناف، و ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول يرى، و﴿هُوَ﴾ فصل و ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول ثان ليرى.

وقوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قال الزجاج: إذا في موضع نصب بمزقتم، ولا يجوز أن يعمل فيها ﴿جَدِيدٍ﴾ لأن ما بعد أَنَّ لا يعمل فيما قبلها، والتأويل: هل ندلكم على رجل يقول لكم إذا مزقتم تبعثون، ويكون إذا بمنزلة إن الجزاء، يعمل فيها الذي يليها، قال قيس بن الخطيم:

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خِطانا إلى أعدائِنا فَنُضارِبِ[1]

والمعنى: يكن وصلها، والدليل عليه جزم فنضارب، ويجوز أن يكون العامل في إذا مضمراً يدل عليه ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويكون المعنى: هل ندلكم على رجل يقول لكم إذا مزقتم بعثتم. قال أبو علي: إن جعل موضع إذا نصباً بمزقتم، لزم أن يحكم على موضعه بالجزم، لأن إذا هذه لا يجوز أن ينتصب به حتى يقدر جزم الفعل الذي هو الشرط بها، والجزم بها لا يسوغ أن يحمل عليه الكتاب، لأن ذلك إنما يكون في ضرورة الشعر، فإن حمل موضع إذا على أنه نصب، والفعل غير مقدر في موضعه الجزم لم يجز، لأنه إذا لم يجاز بها أضيفت إلى الفعل، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا فيما قبله، وموضع الفعل الواقع بعد إذا خفض، فلما لم يجز زيداً غلام ضارب عندك. تريد: غلام ضارب زيداً عندك، فكذلك لا يجوز أن يكون موضع إذا نصباً بمزقتم. فالتقدير: ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق بعثتم، أو نشرتم، أو ما أشبه ذلك من الأفعال التي يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ دالّاً عليه، ومفسراً له.

وإن قدر هذا الفعل قبل إذا، كان سائغاً، فيكون التقدير: ينبئكم فيقول لكم تبعثون إذا مزقتم كل ممزق، ويكون جواب إذا على هذا التقدير مضمراً، كأنه تبعثون إذا مزقتم كل ممزق بعثتم، فيستغني إذاً عن إظهار الجواب، إذا تقدمها ما يدل عليه، نحو أنت ظالم إن فعلت، وكذلك يحذف الشرط لدلالة الجزاء عليه، إذا وقع بعد كلام غير واجب، نحو الأمر والاستفهام وما أشبه ذلك، فافهم ذلك، فإنه فصل جليل الموقع في النحو استخرجته من كلام أبي علي. ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ أصله أافترى دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فأسقطتها.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه المؤمنين، واعترافهم بما جحده من تقدم ذكرهم من الكافرين

---

(١) يعني: إنْ قصرت أسيافنا نتدارك قصرها بخطواتنا إلى الأعداء.

فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ويعلم الذين أعطوا المعرفة بوحدانية الله تعالى، وهم أصحاب محمد ﷺ، عن قتادة. وقيل: هم المؤمنون من أهل الكتاب، عن الضحاك. وقيل: هم كل من أوتي العلم بالدين، وهذا أولى لعمومه ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يعلمونه الحق، لأنهم يتدبرونه ويتفكرون فيه، فيعلمون بالنظر والاستدلال أنه ليس من قبل البشر، فهؤلاء لطف الله سبحانه لهم بما أداهم إلى العلم، فكأنه سبحانه قد آتاهم العلم. وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ أي: ويعلمون أنه يهدي إلى القرآن ويرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: دين القادر الذي لا يغالب، المحمود على جميع أفعاله وهو الله تعالى. وفي هذه الآية دلالة على فضيلة العلم، وشرف العلماء، وعظم أقدارهم.

ثم عاد سبحانه إلى الحكاية عن الكفار فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بعضهم لبعض، أو القادة للأتباع على وجه الاستبعاد والتعجب ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يزعم أنكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً، وهو قوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرقتم كل تفريق، وقطعتم كل تقطيع، وأكلتكم الأرض والسباع والطيور، والجديد المستأنف المعاد، والمعنى: أنكم يجدد خلقكم، بأن تنشروا وتبعثوا ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه: هل كذب على الله متعمداً حين زعم أنا نبعث بعد الموت؟ وهو استفهام تعجب وإنكار ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون، فهو يتكلم بما لا يعلم. ثم رد سبحانه عليهم قولهم، فقال: ﴿بَلِ﴾ ليس الأمر على ما قالوا، من الافتراء والجنون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يصدقون بالبعث، والجزاء، والثواب، والعقاب ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في الآخرة ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

ثم وعظهم سبحانه ليعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أفلم ينظر هؤلاء الكفار ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كيف أحاطت بهم، وذلك أن الإنسان حيث ما نظر رأى السماء والأرض، قدامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، فلا يقدر على الخروج منها. وقيل معناه: أفلم يتدبروا ويتفكروا في السماء والأرض، فيستدلوا بذلك على قدرة الله تعالى، ثم ذكر سبحانه قدرته على إهلاكهم فقال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفنا بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطعة من السماء تغطيهم وتهلكهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ معناه: إن فيما ترون من السماء والأرض لدلالة على قدرة الله على البعث، وعلى ما يشاء من الخسف بهم ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أناب إلى الله، ورجع إلى طاعته، أفلا يرتدع هؤلاء عن التكذيب بآيات الله، والإنكار لقدرته على البعث.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وعبيد بن عمير والأعرج: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع. وقرأ سائر القراء: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب. وقرأ أبو بكر: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحُ﴾ بالرفع، والباقون: بالنصب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿**كالجوابي**﴾ بالياء في الوصل، إلا ابن كثير وقف بياء وأبو عمرو بغير ياء، والباقون: بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن فليح وزيد عن يعقوب: ﴿**منساته**﴾ بغير همز، وقرأ ابن عامر: ﴿مِنسَأْتَهُۥ﴾ بهمزة ساكنة، والباقون: بهمزة مفتوحة. وقرأ يعقوب ﴿تُبُيِّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بضم التاء والباء وكسر الياء، والباقون: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ بفتح الجميع، وفي الشواذ قراءة ابن عباس والضحاك: ﴿**تبينت الإنس**﴾ وهو قراءة علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام.

● **الحجة:** قال الزجاج: أما الرفع في ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكون نسقاً على الياء في ﴿أَوِّبِى﴾ المعنى: يا جبال رجّعي التسبيح أنت معه والطير.

والآخر: أن يكون معطوفاً على لفظ جبال التقدير: يا جبال والطير.

وأما النصب ففيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون عطفاً على ﴿فَضْلًا﴾ أي: آتينا داود منا فضلًا والطير، بمعنى وسخرنا له الطير، حكى ذلك أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء.

والثاني: أن يكون نصباً على النداء، ويكون معطوفاً على محل جبال، كأنه قال: أدعو الجبال والطير.

والثالث: أن يكون منصوباً على معنى مع، والمعنى: أوبي معه، ومع الطير.

قال أبو علي: من قرأ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب، حمله على التسخير في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ ويقوي ذلك قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ ووجه الرفع أن الريح إذا سخرت لسليمان، جاز أن يقال له: الريح على معنى له تسخير الريح، فالرفع على هذا يؤول إلى معنى النصب، لأن المصدر المقدر في تقدير الإضافة إلى المفعول به.

قال: والقياس في ﴿الجوابي﴾ أن يثبت الياء مع الألف واللام، وإنما وقف أبو عمرو بغير ياء لأنه فاصلة، أي: مشبه بها من حيث تم الكلام، ومن حذف الياء في الوصل والوقف فلأن هذا النحو قد يحذف كثيراً.

والقياس في همزة منسأته إذا خففت الهمزة منها أن تجعل بين بين، إلا أنهم خففوا همزتها على غير القياس، قال الشاعر أنشده أبو الحسن:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من هَرَمٍ فقد تباعَدَ عنكَ اللَّهوُ والغَزَلُ(١)

وأما قوله: ﴿تبينت الإنس﴾ فمعناه: تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب، وهكذا هو في مصحف عبد الله، ويؤول إلى هذا المعنى قراءة يعقوب: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾.

● **اللغة:** التأويب: الترجيع بالتسبيح، قال سلامة بن جندل:

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ويومُ سيرٍ إلى الأعداءِ تأويبِ(٢)

أي رجوع بعد رجوع. والسابغ: التام من اللباس. وسرد الحديد نظمه، قال الشاعر:

على ابن أبي العاصي دِلاصٌ حصينةٌ أجاد المُسَدّي سَردَها وأَذالَها(٣)

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مَسرودَتان قضاهُما داوُدُ أو صَنعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ(٤)

وهو مأخوذ من سرد الكلام يسرد سرداً، إذا تابع بين بعض حروفه وبعض، قال المبرد: لا يسمى محراباً إلا ما يرتقي إليه بدرج، قال عدي بن زيد:

كدُمى العاجِ في المحاريبِ أو كالبيـ ـضِ في الرَّوض زَهْرُهُ مُستَنيرُ(٥)

وقال وضاح اليمن:

رَبَّةَ محرابٍ إذا جئتُها لم ألقَها أو أرتقي سُلَّما

---

(١) دبَّ الشيخ: مشى مشياً رويداً. والمنسأة: العصا.

(٢) وقيل هذا البيت قوله:

« إن الشباب الذي مجد عواقبه فيه تلذُّ ولا لذات للشيب»

فسَّر الشاعر العواقب بقوله: «يومان» والأندية بمعنى الأفنية، وأراد بها أماكن اللهو التي يصرف فيها الشبان شبابهم. و«تأويب»: صفة سير.

(٣) قائله: كثير من قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن مروان. وابن أبي العاصي هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي. ودلاص: وصف للدرع اللينة. والحصينة: المحكمة المتدانية الحلق يكون صاحبها في حصنٍ مما يصيبه. وسدى الدرع: نسجها. وأذال الدرع: أطال ذيلها.

(٤) من قصيدة قالها في رثاء ابنه وقد مر البيت في ج٢.

(٥) دمى العاج: الأصنام.

والتماثيل صور الأشياء، واحدها تمثال، وأصلها من المثول، وهو القيام، كأنه نصب قائماً، ومنه الحديث: من سره أن يمثل له الناس فليتبوأ مقعده من النار. والجوابي جمع جابية، وهي الحوض العظيم، يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تَـروحُ عـلى آلِ الـمُـحَـلَّقِ جَـفْـنَـةٌ ... كـجابـيَـةَ الـشَّـيـخِ الـعِـراقـيِّ تَـفْـهَـقُ(١)

والمنسأة: العصا الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه، مفعلة من نسأت الناقة والبعير إذا زجرته.

● **الإعراب:** ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أن هاهنا في تأويل التفسير والقول، وهي تدعى المفسرة بمعنى أي، كأنه قيل: وألنّا له الحديد، أي: اعمل سابغات. والتقدير لنا له: اعمل، ويكون في معنى لأن يعمل، وإنما تصل أن هذه بلفظ الأمر، ومثله في الكلام: أرسل إليه أن قم إلى فلان ﴿وَقَدِّرْ﴾ مفعوله محذوف، أي: قدر الحلق والمسامير. وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ في موضع نصب على الحال، والتقدير: غدوها مسيرة شهر، ورواحها كذلك، فحذف المضاف، والعامل في الحال معنى التسخير في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾. ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ في موضع نصب على تقدير: وسخرنا من الجن من يعمل شكراً، يجوز أن يكون مفعول ﴿اعْمَلُوا﴾ على تقدير: اشكروا شكراً، كما تقول: أحمد الله شكراً. فيكون مفعولاً مطلقاً وهو المصدر، ويجوز أن يكون مفعولاً له، ومفعول اعمل محذوف وتقديره: اعملوا الطاعة شكراً. وقوله: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أن هذه مخففة من الثقيلة، على تقدير: أنهم لو كانوا يعلمون الغيب.

قال أبو علي: والتقدير: فلما خر تبين أمر الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب، فحذف المضاف، فإن ﴿لَّوْ كَانُوا﴾ بدل من الجنّ. ولفظ تبين هنا لازم غير متعد، مثله في قوله: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى: فلما خر انكشف للإنس أمر الجن من جهلهم بالغيب، وذلك لأن الجن ما ادعوا علم الغيب، وإنما اعتقد الإنس فيهم أنهم يعلمون الغيب، فأبطل الله عقيدتهم فيهم بموت سليمان.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر عباد الله المنيبين إليه، وصله سبحانه بذكر داود وسليمان، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ معناه: ولقد أعطينا داود من عندنا نعمة وإحساناً، أي: فضلناه على غيره بما أعطيناه من النبوة والكتاب وفصل الخطاب والمعجزات، ثم فصل سبحانه ما أعطاه فقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أي: قلنا للجبال: يا جبال سبحي معه إذا سبح، عن

---

(١) الجفنة: القصعة الكبيرة. و«تفهق»: من الفهق بمعنى الإتساع والإمتلاء. قال ابن منظور: خصّ العراقي لجهله بالمياه لأنه حضري، فإذا وجدها ملأ جابيته واعدها، ولم يدر متى يجد الماء. وأما البدوي فهو عالم بالمياه، فهو لا يبالي أنْ يعدها. وقال بعض: لكثرة الماء في العراق فحياضهم واسعة، ويروى «كجابية السيح» وهو الماء الجاري.

ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد، قالوا: أمر الله الجبال أن تسبح معه إذا سبح، فسبحت معه، وتأويله عند أهل اللغة رجعي معه التسبيح، من آب يؤوب، ويجوز أن يكون سبحانه فعل في الجبال ما يأتي به منها التسبيح معجزاً له، وأما الطير فيجوز أن يسبح ويحصل له من التمييز ما يتأتى منه ذلك، بأن يزيد الله في فطنته فيفهم ذلك.

وقيل معناه: سيري معه، فكانت الجبال والطير تسير معه أينما سار، وكان ذلك معجزاً له، عن الجبائي. والتأويب: السير بالنهار. وقيل معناه: ارجعي إلى مراد داود فيما يريده، من حفر بئر واستنباط عين واستخراج معدن ووضع طريق.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ فصار في يده كالشمع، يعمل به ما شاء من غير أن يدخله النار، ولا أن يضربه بالمطرقة، عن قتادة ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي قلنا له: اعمل من الحديد دروعاً تامات، وإنما ألان الله تعالى الحديد لداود لأنه أحب أن يأكل من كسب يده، فألان الحديد له، وعلمه صنعة الدرع، وكان أول من اتخذها، وكان يبيعها ويأكل من ثمنها، ويطعم عياله ويتصدق منه.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: نعم العبد أنت إلا أنت تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً، فاستغنى عن بيت المال ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: عدل عن نسج الدروع، ومنه قيل لصانعها: سراد وزراد، والمعنى: لا تجعل المسامير دقاقاً فتفلق، ولا غلاظاً فتكسر الحلق، وقيل: السرد المسامير التي في خلق الدروع ـ عن قتادة. وحكى أن لقمان حضر داود عند أول درع عملها، فجعل يتفكر فيها ولا يدري ما يريد، ولم يسأله حتى فرغ منها، ثم قام فلبسها، وقال: نعم جُنة الحرب هذه، فقال لقمان عند ذلك: الصمت حكمة وقليل فاعله. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي وقلنا: اعمل أنت وأهلك الصالحات، وهي الطاعات شكراً لله سبحانه على عظيم نعمه ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بما تفعلونه، لا يخفى عليَّ شيء من أعمالكم.

ثم ذكر سبحانه سليمان وما آتاه من الفضل والكرامة فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: مسير غدو تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر، ومسير رواح تلك الريح مسيرة شهر، والمعنى: أنها كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للراكب. قال قتادة: كان يغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، ويروح مسيرة شهر إلى آخر النهار. وقال الحسن: كان يغدو من دمشق، فيقيل بإصطخر من أرض أصفهان، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر، تحمله الريح مع جنوده، أعطاه الله الريح بدلًا من الصافنات الجياد ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: أذبنا له عين النحاس، وأظهرناها له، قالوا: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن، جعلها الله له كالماء وإنما يعمل الناس بما أعطى سليمان منه.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ المعنى: وسخرنا له من الجن من يعمل له بحضرته وأمام عينه ما يأمرهم به من الأعمال، كما يعمل الآدمي بين يدي الآدمي، بأمر ربه

تعالى، وكان يكلفهم الأعمال الشاقة مثل عمل الطين وغيره. وقال ابن عباس: سخرهم الله لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به، وفي هذا دلالة على أنه قد كان من الجن من هو غير مسخر له.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ المعنى: ومن يعدل من هؤلاء الجن الذين سخرناهم لسليمان عما أمرناهم به، من طاعة سليمان نذقه من عذاب السعير، أي: عذاب النّار في الآخرة، عن أكثر المفسرين. وفي هذا دلالة على أنهم قد كانوا مكلفين. وقيل معناه: نذيقه العذاب في الدنيا، وإن الله سبحانه وكل بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ وهي بيوت الشريعة، وقيل: هي القصور والمساجد يتعبد فيها، عن قتادة والجبائي.

قال: وكان مما عملوه بيت المقدس، وقد كان الله عز وجل سلط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد، فأمرهم داود أن يغتسلوا، ويبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين، ويتضرعوا إلى الله لعله يرحمهم، وذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد، وارتفع داود فوق الصخرة فخر ساجداً يبتهل إلى الله سبحانه، وسجدوا معه فلم يرفعوا رؤوسهم حتى كشف الله عنهم الطاعون، فلما أن شفع الله داود في بني إسرائيل، جمعهم داود بعد ثلاث وقال لهم: إن الله تعالى قد منَّ عليكم ورحمكم، فجددوا له شكراً بأن تتخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً، ففعلوا وأخذوا في بناء بيت المقدس، وكان داود ينقل الحجارة لهم على عاتقه، وكذلك خيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة، ولداود يومئذ سبع وعشرون ومائة سنة، فأوحى الله إلى داود أن تمام بنائه يكون على يدي ابنه سليمان، فلما صار داود ابن أربعين ومائة سنة توفاه الله، واستخلف سليمان، فأحب إتمام بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين، وقسم عليهم الأعمال يخص كل طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها(١) الأبيض الصافي من معادنه، وأمر ببناء المدينة من الرخام والصفاح(٢)، وجعلها اثني عشر ربضاً(٣)، وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط، ولما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، فوجه الشياطين فرقاً، فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها، وفرقة يقلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتون بالمسك والعنبر وسائر الطيب، وفرقة يأتون بالدر من البحار، فأوتي من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله تعالى، ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الأحجار حتى صيروها ألواحاً، ومعالجة تلك الجواهر واللآلىء.

قال: وبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمده بأساطين المها

(١) المها جمع المهاة: البلور.
(٢) الصفاح: الحجارة العريضة الرقيقة.
(٣) الربض: سور المدينة. الناحية: كل ما يؤوى إليه، ويستراح لديه، من مال وبيت ونحوه.

الصافي، وسقفه بألواح الجواهر، وفضض سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل، فأعلمهم أنه بناه لله تعالى، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً، فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان، حتى غزا بخت نصر بني إسرائيل فخرب المدينة وهدمها، ونقض المسجد وأخذ ما في سقوفه وحيطانه، من الذهب والفضة والدر واليواقيت والجواهر، فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق.

قال سعيد بن المسيب: لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس، تغلقت أبوابه فعالجها سليمان، فلم تنفتح حتى قال في دعائه: بصلوات أبي داود إلا فتحت الأبواب ففتحت، ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا ويعبد الله فيها.

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ يعني صوراً من نحاس وشبه[1] وزجاج ورخام، كانت الجن تعملها. ثم اختلفوا فقال بعضهم: كانت صوراً للحيوانات. وقال آخرون: كانوا يعملون صور السباع والبهائم على كرسيه، ليكون أهيب له، فذكروا أنهم صوروا أسدين أسفل كرسيه، ونسرين فوق عمودي كرسيه، فكان إذا أراد أن يصعد الكرسي بسط الأسدان ذراعيهما، وإذا علا على الكرسي نشر النسران أجنحتهما فظللاه من الشمس، ويقال: أن ذلك كان مما لا يعرفه أحد من الناس، فلما حاول بختنصر صعود الكرسي بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل، لم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدَّها، فوقع مغشياً عليه، فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسي. قال الحسن: ولم تكن يومئذ التصاوير محرمة، وهي محظورة في شريعة نبينا ﷺ، فإنه قال: «لعن الله المصورين» ويجوز أن يكره ذلك في زمن دون زمن، وقد بين الله سبحانه أن المسيح كان يصور بأمر الله من الطين كهيئة الطير. وقال ابن عباس: كانوا يعملون صور الأنبياء والعباد في المساجد ليقتدى بهم. وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: والله ما هي تماثيل النساء والرجال، ولكنه الشجر وما أشبهه.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: صحاف كالحياض التي يجبى فيها الماء، أي يجمع، وكان سليمان عليه السلام يصلح طعام جيشه في مثل هذه الجفان، فإنه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم. وقيل: إنه كان يجمع على كل جفنة ألف رجل يأكلون بين يديه ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ أي: ثابتات لا يزلن عن أمكنتهن لعظمهن، عن قتادة، وكانت باليمن. وقيل: كانت عظيمة كالجبال يحملونها مع أنفسهم، وكان سليمان يطعم جنده. ثم نادى سبحانه آل داود وأمرهم بالشكر على ما أنعم به عليهم من هذه النعمة العجيبة، لأن نعمته على سليمان نعمة عليهم، فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ أي قلنا لهم: يا آل داود، اعملوا بطاعة الله شكراً له على ما آتاكم من النعم، عن مجاهد. وفي هذا دلالة على وجوب شكر النعمة، وأن الشكر

(١) الشبه: النحاس الأصفر.

طاعة المنعم وتعظيمه، وفيه إشارة أيضاً إلى أن لقرابة أنبياء الله تعالى أثراً في القرب إلى رضى الله، حين خص آل داود بالأمر ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ والفرق بين الشكور والشاكر: أن الشكور: من تكرر منه الشكر، والشاكر: من وقع منه الشكر. قال ابن عباس: أراد به المؤمن الموحد، وفي هذا دلالة على أن المؤمن الشاكر يقل في كل عصر.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فلما حكمنا على سليمان بالموت. وقيل معناه: أوجبنا على سليمان الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: ما دل الجن على موته إلا الأرضة، ولم يعلموا موته حتى أكلت عصاه فسقط، فعلموا أنه ميت. وقيل: إن سليمان كان يعتكف في مسجد بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل وأكثر، يدخل فيه طعامه وشرابه ويتعبد فيه، فلما كان في المرة التي مات فيها لم يكن يصبح يوماً إلا وتنبت شجرة، كان يسألها سليمان فتخبره عن اسمها ونفعها وضرها، فرأى يوماً نبتاً، فقال ما اسمك؟ قال: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ قال: للخراب، فعلم أنه سيموت، فقال: اللهم عمِّ على الجن موتي ليعلم الإنس أنهم لا يعلمون الغيب، وكان قد بقي من بنائه سنة، وقال لأهله: لا تخبروا الجن بموتي حتى يفرغوا من بنائه، ودخل محرابه وقام متكئاً على عصاه، فمات وبقي قائماً سنة وتم البناء، ثم سلط الله على منسأته الأرضة حتى أكلتها، فخر ميتاً فعرف الجن موته، وكانوا يحسبونه حياً لما كانوا يشاهدون من طول قيامه قبل ذلك. وقيل: إن في إماتته قائماً وبقائه كذلك أغراضاً، منها: إتمام البناء، ومنها: أن يعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، وأنهم في ادعاء ذلك كاذبون، ومنها: أن يعلم أن من حضر أجله فلا يتأخر، إذ لم يؤخر سليمان مع جلالته، وروي أنه أطلعه الله سبحانه على حضور وفاته، فاغتسل، وتحنط، وتكفن، والجن في عملهم.

وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن سليمان أمر الشياطين فعملوا له قبة من قوارير، فبينا هو قائم متكىء على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف يعملون، وهم ينظرون إليه ولا يصلون إليه، إذا رجل معه في القبة فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أقبل الرِّشى ولا أهاب الملوك، فقبضه وهو قائم متكىء على عصاه في القبة، قال: فمكثوا سنة يعملون له، حتى بعث الله الأرضة فأكلت منسأته. وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فكان آصف يدبِّر أمره حتى دبت الأرضة.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط سليمان ميتاً ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: ظهرت الجن، فانكشف للناس ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ معناه: في الأعمال الشاقة، وإنما سماها عذاباً للمشاق التي فيها، لا أنه كان عذاباً، فليس ذلك إلا أن يكون عبادة له، أو بمنزلة ما يعوضون عليه، أي: ما عملوا مسخرين لسليمان وهو ميت، وهم يظنون أنه حي. وقيل إن المعنى: تبينت عامة الجن وضعفتهم أن رؤساءهم لا يعلمون الغيب، لأنهم كانوا يوهمونهم أنهم يعلمون الغيب. وقيل معناه: تبينت الإنس أن الجن كانوا لا يعلمون الغيب، فإنهم كانوا يوهمون الإنس أنا نعلم الغيب، وإنما قال: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ كما يقول: من يناظر غيره ويلزمه الحجة، هل تبين لك أنك على باطل؟ وعلى هذا تدل قراءة من قرأ: ﴿تبينت الإنس﴾ قد مضى بيانه.

وذكر أهل التاريخ أن عمر سليمان كان ثلاثاً وخمسين سنة، مدة ملكه منها أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه، والله أعلم.

وأما الوجه في عمل الجن تلك الأعمال العظيمة، فهو أن الله تعالى زاد في أجسامهم وقوتهم، وغيّر خلقهم عن خلق الجن الذين لا يرون للطافتهم، ورقة أجسامهم، على سبيل الإعجاز الدال على نبوة سليمان، فكانوا بمنزلة الأسراء في يده، وكانوا تتهيأ لهم الأعمال التي كان يكلفها إياهم، ثم لما مات عليه السلام جعل الله خلقهم على ما كانوا عليه، فلا يتهيأ لهم في هذا الزمان شيء من ذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ على التوحيد بفتح الكاف، حمزة وحفص، وبكسر الكاف: الكسائي وخلف. والباقون: ﴿مساكنهم﴾ على الجمع. وقرأ: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ مضاف غير منون أهل البصرة، وقرأ الباقون غير مضاف بالتنوين. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ويعقوب: ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ بالنصب، وأدغم الكسائي اللام من ﴿هَلْ﴾ في النون، وغيره لم يدغم، والباقون: ﴿يجازي﴾ بالياء وفتح الزاي، و ﴿الْكَفُورَ﴾ بالرفع. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وهشام: ﴿بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بالتشديد على لفظ الأمر. وقرأ يعقوب وسهل: ﴿رَبُّنَا﴾ بالضم ﴿بَاعَدَ﴾ بالألف وفتح الباء والعين والدال مخففة، وهو قراءة محمد بن علي الباقر عليه السلام، وابن عباس. وقرأ الباقون: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب ﴿بَاعِدْ﴾ بالألف على الدعاء. وفي الشواذ قراءة ابن يعمر ومحمد بن السميقع ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب ﴿بعد﴾ بفتح الباء والدال وضم العين ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿مساكنهم﴾ أتى باللفظ وفقاً للمعنى، لأن لكل ساكن مسكناً، ومن قرأ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ فيشبه أن يكون جعل المسكن مصدراً، وحذف المضاف. والتقدير: في مواضع سكناهم، فلما جعل المسكن كالسكنى والسكون أفرد كما يفرد المصدر،

وهذا أشبه من أن تحمله على نحو: كلوا في بعض بطنكم[١]، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في موضع قعود، ألا ترى أن لكل واحد من المتقين موضع قعود، والأشبه في الكاف الفتح، لأن اسم المكان والمصدر من باب يَفعُلُ على المفعل، وقد يشذ على القياس نحو هذا، كما جاء المسجد، وسيبويه يحمله على اسم البيت، وكذلك المطلع، إلا أن أبا الحسن يقول: إن المسكن إذا كسرته لغة كثيرة، وهي لغة الناس اليوم، والفتح لغة أهل الحجاز.

فأما الإضافة في ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ فإن أبا عبيدة قال: الخمط: كل شجرة مرة ذات شوكة، والأكل: الجنى، فعلى هذا التفسير تحسن الإضافة، وذلك أن الأكل إذا كان الجنى، فإن جنى كل شجرة منه، وغير الإضافة ليس في حسن الإضافة، لأن الخمط إنما هو اسم شجرة، وليس بوصف، فإذا لم يكن وصفاً لم يجر على ما قبله كما يجري الوصف على الموصوف، والبدل ليس بالسهل أيضاً، لأنه ليس هو هو ولا بعضه، لأن الجنى من الشجر وليس الشجر من الجنى، فيكون إجراؤه عليه على وجه عطف البيان، كأنه بين أن الجنى لهذا الشجر، ومنه قال أبو الحسن: الأحسن في كلام العرب أن يضيفوا ما كان من نحو هذا، مثل: دار آجر، وثوب خز، قال: فأكلٌ خمطٌ قراءة كثيرة، وليست بجيدة في العربية.

وحجة من قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ﴾ بالنون قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ ومن قرأ: ﴿يجازي﴾ على بناء الفعل للمفعول، فإن المجازي أيضاً هو الله تعالى، وإنما خص الكفور بالجزاء، لأن المؤمن قد يكفر عن سيئاته، قال سبحانه: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وليس كذلك الكافر فإنه يجازى بكل سوء يعمله.

وأما إدغام الكسائي اللام في النون فجائز، حكاه سيبويه، والبيان أحسن. وأما قوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فذكر سيبويه أن فاعل وفعل يجيئان بمعنى، كقولهم: ضاعف وضعَّف، وقارب وقرَّب، واللفظان جميعاً على معنى الطلب والدعاء. قال ابن جني: ﴿بَيْنَ﴾ منصوب نصب المفعول به، أي: بعد وباعد مسافة أسفارنا، وليس نصبه على الظرف، يدلك على ذلك قراءة من قرأ: ﴿بعد بينُ أسفارنا﴾ كما تقول: بُعد مدى أسفارنا، فرفعه دليل كونه اسماً، وعليه قوله:

كَـأَنَّ رِمَـاحَـهُـم أشـطَـانُ بِـئـرٍ بَـعـيـدٌ بَـيـنَ جَـالَـيـهـا جَـرُورِ[٢]

أي بعيد مدى جاليها، أو مسافة جاليها.

---

(١) هذا جزء بيت وتمامه.

«كـلوا فـي بـعـض بـطـنـكـم تـعـفـوا فـإنَّ زمـانـكـم زمـن خـمـيـص»

قوله: «تعفوا» أي: تعفوا عن السؤال. وزمن خميص: ذو مجاعة.

(٢) الأشطان جمع الشطن: الحبل الطويل يستقى به. والجال: جدار البئر. وبئر جرور: بعيدة القعر.

● **اللغة:** العرم: المُسَنَّاة التي تحبس الماء، واحدها عرمة، أخذ من عرامة الماء، وهي ذهابه كل مذهب، قال الأعشى:

فَــفــي ذاك لِلمُــؤْتَــســي أُســوَةٌ ومَــأرِبُ قَــفَّــى عَــلَيــهِ الــعَــرِمْ(١)
رُخــامٌ بَــنَــتْــهُ لَهُ حِــمــيَــر إذا جــاء مــاؤُهُــمُ لَم يَــرِمْ(٢)

وقيل: العرم: اسم واد كان يجتمع فيه سيول من أودية شتى. وقيل: العرم هنا اسم الجرذ الذي نقب السكر(٣) عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد. وقيل: العرم: المطر الشديد.

● **الإعراب:** ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿جَنَّتَانِ﴾ رفع على أنه بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما الآية؟ فقال: الآية جنتان. و ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ صفة لجنتان، وعلى هذا تقف على قوله: ﴿ءَايَةٌ﴾ وتبتدىء بقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي يقال: كلوا من رزق ربكم منهما، فحذف العائد من الصفة إلى الموصوف، كما حذف القول ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ تقديره: هذه بلدة طيبة، والله رب غفور.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن قصة سبأ، بما دل على حسن عاقبة الشكور، وسوء عاقبة الكفور، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ وهو أبو عرب اليمن كلها، وقد تسمى به القبيلة، وفي الحديث عن فروة بن مسيك أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبأ، أرجل هو أو امرأة؟ فقال: «هو رجل من العرب، ولد عشرة تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فالأزد، وكندة، ومذحج، والأشعرون، وأنمار، وحمير. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم، وبجيلة. وأما الذين تشاءموا: فعاملة، وجذام، ولخم، وغسان». فالمراد بسبأ هاهنا: القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: في بلدهم ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: حجة على وحدانية الله عز اسمه، وكمال قدرته، وعلامة على سبوغ نعمه، ثم فسر سبحانه الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: بستانان عن يمين من أتاهما وشماله. وقيل: عن يمين البلد وشماله. وقيل: إنه لم يرد جنتين اثنتين، والمراد كانت ديارهم على وتيرة واحدة، إذ كانت البساتين عن يمينهم وشمالهم متصلة بعضها ببعض، وكان من كثرة النعم أن المرأة كانت تمشي والمكتل على رأسها، فيمتلىء بالفواكه من غير أن تمس يدها شيئاً. وقيل: الآية المذكورة هي أنه لم يكن في قريتهم بعوضة، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية، وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل، ودواب، ماتت، عن ابن زيد. وقيل: إن المراد بالآية خروج الأزهار والثمار من الأشجار على اختلاف ألوانها وطعومها. وقيل: إنما كانت ثلاث عشرة قرية، في كل قرية نبي يدعوهم إلى الله سبحانه، يقول لهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا مما رزقكم الله في هذه الجنان، واشكروا له يزيدكم من نعمه، واستغفروه يغفر لكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾

---

(١) مأرب: موضع. وقفى عليه العرم أي: ذهب به السيل.
(٢) الرخام: حجر أبيض سهل رخو، ولم يرم أي لم يزل عن مكانه.
(٣) الجرذ كصرد: ضرب من الفأر. والسكر: اسم من سكر النهر أي: سده.

أي: هذه بلدة مخصبة نزهة أرضها عذبة تخرج النبات، وليست بسبخة، وليس فيها شيء من الهوام المؤذية. قيل: أراد به صحة هوائها وعذوبة مائها وسلامة تربتها، وأنه ليس فيها حر يؤذي في القيظ، ولا برد يؤذي في الشتاء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للذنوب.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الحق ولم يشكروا الله سبحانه، ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله من أنبيائه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدوا ما بين الجبلين، فإذا احتاجوا إلى الماء نقبوا السد بقدر الحاجة، فكانوا يسقون زروعهم وبساتينهم، فلما كذبوا رسلهم وتركوا أمر الله بعث الله جرذاً نقبت ذلك الردم، وفاض الماء عليهم فأغرقهم، عن وهب. وقد مر تفسير العرم. وقال ابن الأعرابي: العرم: السيل الذي لا يطاق ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين فيهما أنواع الفواكه والخيرات ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أخراوين، سماها جنتين لازدواج الكلام، كما قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾. ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ أي: صاحبتي أكل، وهو اسم لثمر كل شجر، وثمر الخمط البرير. قال ابن عباس والخمط: هو الأراك. وقيل: هو شجر الغضا. وقيل: هو كل شجر له شوك. والأثل: الطرفاء، عن ابن عباس. وقيل: ضرب من الخشب، عن قتادة. وقيل: هو السمر ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ يعني أن الأثل والخمط كانا أكثر فيهما من السدر وهو النبق. قال قتادة: كان شجرهم خير شجر، فصيره الله شر شجر بسوء أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما فعلنا بهم ﴿جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بهذا الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ الذي يكفر نعم الله.

وقد استدل الخوارج بهذا على أن مرتكب الكبيرة كافر، وهذا الاستدلال غير سديد، من حيث أنَّه سبحانه إنما بين بذلك أنه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الذي هو الاستئصال إلا الكافر، ويجوز أن يعذب الفاسق بغير ذلك العذاب. وقيل إن معناه: هل نجازي بجميع سيئاته إلا الكافر، لأن المؤمن قد يكفِّر عنه بعض سيئاته. وقيل: إن المجازاة من التجازي وهو التقاضي، أي لا يقتضي ولا يرتجع ما أعطي إلا الكافر، وأنهم لما كفروا النعمة اقتضوا ما أعطوا، أي: ارتجع منهم، عن أبي مسلم.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: وقد كان من قصتهم أنا جعلنا بينهم وبين قرى الشام التي باركنا فيها بالماء والشجر قرى متواصلة، وكان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد من وادي سبأ إلى الشام، ومعنى الـ﴿ظَاهِرَةً﴾ أن الثانية كانت ترى من الأولى لقربها منها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السير من القرية إلى القرية مقداراً واحداً نصف يوم، وقلنا لهم ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أي: في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: ليلًا شئتم المسير أو نهاراً ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع والعطش والتعب ومن السباع وكل المخاوف، وفي هذا إشارة إلى تكامل نعمه عليهم في السفر، كما أنه كذلك في الحضر، ثم أخبر سبحانه أنهم بطروا وبغوا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي: اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز، لنركب إليها الرواحل ونقطع المنازل، وهذا كما

قالت بنو إسرائيل لما ملوا النعمة: أخرج إلينا مما تنبت الأرض من بقلها بدلاً من المن والسلوى ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بارتكاب المعاصي والكفر ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم، ويضربون بهم المثل، فيقولون: «تفرقوا أيادي سبأ»، إذا تشتتوا أعظم التشتت ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي: فرقناهم في كل وجه من البلاد كل تفريق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: دلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على الشدائد ﴿شَكُورٖ﴾ على النعماء. وقيل: لكل صبار عن المعاصي شكور للنعم بالطاعات.

القصة: عن الكلبي عن أبي صالح قال: ألقت طريفة الكاهنة، إلى عمرو بن عامر، الذي يقال له: مزيقياء بن ماء السماء، وكانت قد رأت في كهانتها أن سد مأرب سيخرب، وأنه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أمواله، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة، فأقاموا بها وما حولها، فأصابتهم الحمى، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم. فقالت لهم: قد أصابني الذي تشكون، وهو مفرق بيننا، قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا هم بعيد، وجمل شديد، ومزاد جديد، فليلحق بقصر عمان المشيد، وكانت أزد عمان. ثم قالت: من كان منكم ذا جلد وقسر، وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر، وكانت خزاعة. ثم قالت: من كان منكم يريد الراسيات في الواحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، وكانت الأوس والخزرج. ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير، والملك والتأمير، وملابس التاج والحرير، فليلحق ببصرى وغوير، وهما من أرض الشام، وكان الذين سكنوها آل جفنة بن غسان. ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق، وكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش، ومن كان بالحيرة وآل محرق.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ
وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ
مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن
ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ
مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا
تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ أهل الكوفة: ﴿صدق﴾ بتشديد الدال، والباقون: بتخفيفها. وقرأ يعقوب وسهل: ﴿صدق﴾ بالتشديد ﴿إبليس﴾ بالنصب ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالرفع. وقرأ أبو عمر وأهل الكوفة غير

عاصم إلا الأعشى والبرجمي: ﴿أذن﴾ بضم الهمزة، والباقون: بفتحها. وقرأ ابن عامر ويعقوب: ﴿فزع﴾ بفتح الفاء والزاي، والباقون: بضم الفاء وكسر الزاي. وفي الشواذ قراءة الحسن بخلاف وقتادة: ﴿فزع﴾ بفتح الفاء والزاي والعين والتشديد. وعن الحسن أيضاً: ﴿فُزِع﴾ بضم الفاء وكسر الزاي والتشديد. وعنه وعن قتادة ﴿فُزِع﴾ بضم الفاء وكسر الزاي والتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: معنى التخفيف في ﴿صدق﴾ أنه صدق ظنه بهم من متابعتهم إياه إذا أغواهم، وذلك نحو قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا ظنه، لأنه لم يقل ذلك عن يقين، فظنه على هذا ينتصب انتصاب المفعول به، ويجوز أن ينتصب انتصاب الظرف، أي في ظنه، وقد يقال: أصاب الظن، وأخطأ الظن، وقال الشاعر:

إن يك ظني صادقاً، وهو صادق، بشملة يحبسهم بها محبساً وعْراً(١)

فعدّاه إلى المفعول به. ومن قرأ بالتشديد نصب الظن على أنه مفعول به. ومن قرأ ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ﴾ بالنصب ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالرفع، فالمعنى أن إبليس كان سولت له نفسه شيئاً فصدقه ظنه. ومن قرأ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فالمعنى: لمن أذن الله له أن يشفع. ومن قرأ ﴿أُذِنَ لَهُۥ﴾ فبني الفعل للمفعول به، فهو يريد هذا المعنى أيضاً. كما أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وفُزع، وهل نُجازي إلا الكفور، وهل يُجازَى إلا الكفور، واحد في المعنى وإن اختلفت الألفاظ.

● **اللغة:** يقال: صدَّقت زيداً وصدَقته، وكذَّبته وكذَبته. وينشد الأعشى:

وصدَقتُهُ وكذَبتُهُ والمرء ينفعه كذابُه

قال أبو عبيدة: فزِّع عن قلوبهم نُفس عنها، يقال: فُزِع وفُزِّع إذا أزيل الفزَعُ عنها.

● **الإعراب:** لنعلم: قال الزجاج معناه: ما امتحناهم في إبليس إلا لنعلم ذلك علم وقوعه منهم، وهو الذي يجازون عليه. ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الأجود أن يكون جملة مستأنفة، ويجوز أن يكون حالًا، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ تقديره: وإنا لعلى هدى أو في ضلال مبين، وإنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى أهل سبأ. وقيل: إلى الناس كلهم إلا من أطاع الله، عن مجاهد. والمعنى: أن إبليس كان قال: لأغوينَّهم، ولأضلَّنهم، وما كان ذلك عن علم وتحقيق، وإنما قاله ظناً، فلما تابعه أهل الزيغ والشرك صدَّق ظنه وحققه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من هنا للتبيين، يعني المؤمنين كلهم، عن ابن عباس. أي: علموا قبح متابعته فلم يتبعوه، واتبعوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ولم يكن لإبليس عليهم من سلطنة ولا ولاية يتمكن بها من إجبارهم على الغي والضلال، وإنما كان يمكنه الوسوسة فقط، كما قال: ﴿وَمَا

(١) البيت منسوب إلى مكبرة بنت بردام شملة تقول: «إن يك ظني بشملة صادقاً يحبسهم أي: القوم الذي قتلوا أباه بتلك المعركة، محبساً صعباً يدركه فيه ثأر أبيه».

كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ المعنى: إنّا لم نمكنه من إغوائهم ووسوستهم، إلا لنميز بين من يقبل منه ومن يمتنع ويأبى متابعته، فنعذب من تابعه، ونثيب من خالفه، فعبر عن التمييز بين الفريقين بالعلم، وهذا التمييز متجدد، لأنه لا يكون إلا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك، وأما العلم فخلاف ذلك، فإنه سبحانه كان عالماً بأحوالهم، وبما يكون منهم فيما لم يزل. وقيل معناه: لنعلم طاعاتهم موجودة أو معاصيهم إن عصوا، فنجازيهم بحسبها، لأنه سبحانه لا يجازي أحداً على ما يعلم من حاله إلا بعد أن يقع ذلك منه. وقيل معناه: لنعامله معاملة من كأنه لا يعلم، وإنما يعمل ليعلم من يصدق بالآخرة ويعترف بها ممن يرتاب فيها، أي: وشك ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم آلهة وأنهم شركاء لله تعالى، وأنهم شفعاؤكم، وأنها تستحق الإلهية، هل يستجيبون لكم إلى ما تسألونهم؟ وهذا نوع توبيخ، لا أمر ليعلموا أن أوثانهم لا تنفعهم ولا تضرهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يملكون زنة ذرة من خير وشر، ونفع وضر فيهما ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: وليس لهم في خلق السّماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ ونصيب ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس لله سبحانه منهم معاون على خلق السماوات والأرض، ولا على شيء من الأشياء ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ المعنى: أنه لا تنفع الشفاعة عند الله تعالى إلا لمن رضيه الله وارتضاه وأذن له في الشفاعة، مثل الملائكة، والأنبياء، والأولياء. ويجوز أن يكون المعنى: إلا لمن أذن الله في أن يشفع له، فيكون مثل قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وإنما قال سبحانه ذلك، لأن الكفار كانوا يقولون: نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فحكم الله تعالى ببطلان اعتقاداتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوبهم، وفُزِّع: كشف الله الفزع عن قلوبهم.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فقيل: يعود إلى المشركين الذين تقدم ذكرهم، فيكون المعنى: حتى إذا أخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع، ليسمعوا كلام الملائكة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قالت الملائكة لهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ﴾ أي: قال هؤلاء المشركون مجيبين لهم: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي قالوا: الحق، فيعترفون أن ما جاء به الرسل كان حقاً، عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقيل: إن الضمير يعود إلى الملائكة، ثم اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد، ولهم زجل وصوت عظيم، فتحسب الملائكة أنها الساعة فيخرون سجداً ويفزعون، فإذا علموا أنه ليس ذلك قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق.

وثانيها: أن الفترة لما كانت بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وبعث الله محمداً ﷺ،

أنزل الله سبحانه جبرائيل بالوحي، فلما نزل ظنت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة. فصعقوا لذلك، فجعل جبرائيل يمر بكل سماء ويكشف عنهم الفزع، فرفعوا رؤوسهم وقال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، يعني الوحي، عن مقاتل والكلبي.

وثالثها: أن الله تعالى إذا أوحى إلى بعض ملائكته، لحق الملائكة غشي عند سماع الوحي، ويصعقون ويخرون سجداً للآية العظيمة، فإذا فزع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحي إليه، ماذا قال ربك؟ أو يسأل بعضهم بعضاً، فيعلمون أن الأمر في غيرهم، عن ابن مسعود، واختاره الجبائي.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ أي: السيد القادر المطاع. وقيل: العلي في صفاته ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في قدرته ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهم لا يمكنهم أن يقولوا: ترزقنا آلهتنا التي نعبدها ثم عند ذلك ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي يرزقكم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنما قال ذلك على وجه الإنصاف في الحجاج دون الشك، كما يقول القائل لغيره: أحدنا كاذب، وإن كان هو عالماً بالكاذب. وعلى هذا يقول أبو الأسود الدُؤلي يمدح أهل البيت عليهم السلام:

يقولُ الأرذلونَ بنو قُشيرٍ ... طَوالَ الدهرِ لا تَنسى عَليّا(١)
بَنو عَمِّ النَّبي وأقربوهُ ... أحبُّ الناسِ كُلِّهمُ إليّا
فإن يَكُ حُبُّهُمْ رُشداً أُصِبْهُ ... ولَستُ بِمُخطِئٍ إن كانَ غَيّا

لم يقل هذا لكونه شاكاً في محبتهم، وقد أيقن أن محبتهم رشد وهدى. وقيل: إنه جمع بين الخبرين، وفوض التمييز إلى العقول، فكأنه قال: أنا على هدى وأنتم على ضلال، كقول امرىء القيس:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رَطباً وَيابِساً ... لَدى وَكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي(٢)

فجمع بين القلوب الرطبة واليابسة، وجمع بين العناب والحشف البالي. وقيل: إنما قاله على وجه الاستعطاف والمداراة، ليسمع الكلام، وهذا من أحسن ما ينسب به المحق نفسه إلى الهدى وخصمه إلى الضلال، لأنه كلام من لا يكاشف خصمه بالتضليل، بل ينسبه إليه على أحسن وجه، ويحثه على النظر، ولا يجب النظر إلا بعد التردد ﴿قُل﴾ يا محمد إذا لم ينقادوا للحجة ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ أيها الكفار ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي: اقترفنا من المعاصي ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن

---

(١) بنو قشير: قبيلة من القيس، كان ينزل أبو الأسود فيهم، وكانوا يخالفونه في المذهب، لأن أبا الأسود كان شيعياً، فكانوا يؤذونه. وأنشأ هذه الأبيات في قصة ذكرها الشريف المرتضى (ره) في(الأمالي راجع ج١ ص٢٩٢ - ٢٩٣) وذكره في (الأغاني ج١١: ١١٣) مع اختلاف في ترتيب الأبيات، وبعض ألفاظها.

(٢) البيت من قصيدة يصف فيها العقاب بكثرة الإصطياد. والوكر: عش الطائر. والضمير في (وكرها) للعقاب، وهو طائر معروف بأنه لا يأكل قلوب الطيور. والعناب: معروف. والحشف: أردأ أقسام التمر. والبالي: الفاسد والمندرس.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: تعملونه أنتم، بل كل إنسان يسأل عما يعمله، ويجازى على فعله دون فعل غيره، وفي هذا دلالة على أن أحداً لا يجوز أن يؤخذ بذنب غيره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ﴾ العائد من الصلة إلى الموصول محذوف، والتقدير: ألحقتموهم به، و ﴿شُرَكَاءَ﴾ حال من هم المحذوف، و ﴿كَافَّةً﴾ حال من الكاف في ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: ما أرسلناك إلا تكفهم وتردعهم. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة، وكافة كالعافية والعاقبة وما أشبه ذلك. ﴿بَشِيرًا﴾ حال بعد حال ﴿وَنَذِيرًا﴾ معطوف عليه.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه أن يحاكمهم إلى الله لإعراضهم عن الحجة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي: يحكم ﴿بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: الحاكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالحكم لا يخفى عليه شيء منه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ إنما ذكر هذا سبحانه على وجه التعظيم والتعجيب، أي: أروني الذين زعمتم أنهم شركاء لله تعبدونهم معه، وهذا كالتوبيخ لهم فيما اعتقدوه من الإشراك مع الله، كما يقول القائل لمن أفسد عملاً: أرني ما عملته، توبيخاً له بما أفسده، فإنهم سيفتضحون بذلك إذا أشاروا إلى الأصنام. ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كما تزعمون. وقيل معناه: ارتدعوا عن هذا المقال وتنبهوا من الغي والضلال ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله فكيف يكون له شريك.

ثم بيّن سبحانه نبوة نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد بالرسالة التي حملناكها ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عامة للناس كلهم العرب والعجم وسائر الأمم، عن الجبائي وغيره، ويؤيده الحديث المروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أعطيت خمساً - ولا أقول فخراً - بُعثتُ إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجدا، وأحل لي المغنم ولا يحل لأحد قبلي، ونصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي يوم القيامة. وقيل معناه: جامعاً للناس بالإنذار والدعوة. وقيل: كافّاً للناس، أي: مانعاً لهم عما هم عليه من الكفر والمعاصي، بالأمر والنهي، والوعيد والإنذار، والهاء للمبالغة، عن أبي مسلم ﴿بَشِيرًا﴾ لهم بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ رسالتك لإعراضهم عن النظر

في معجزتك. وقيل: لا يعلمون ما لهم في الآخرة في اتباعك من الثواب والنعيم، وما عليهم في مخالفتك من العذاب الأليم.

ثم حكى سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولونه يا معشر المؤمنين. ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإجابتهم فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: ميقات يوم ينزل بكم ما وعدتم به، وهو يوم القيامة. وقيل: يوم وفاتهم وقبض أرواحهم، عن أبي مسلم ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا تتأخرون عن ذلك اليوم ولا تتقدمون عليه بأن يزاد في آجالكم أو ينقص منها.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فيه وجهان:

أحدها: أن يكون ﴿مَكْرُ﴾ مبتدأ وخبره محذوفاً، أي: مكركم في الليل والنهار صدنا عن ذلك حين أمرتمونا أن نكفر بالله.

والآخر: أن يكون فاعل فعل محذوف، تقديره: بل صدَّنا مكركم في الليل والنهار، والعرب تضيف الأحداث إلى الزمان على سبيل الاتساع، فتقول: صيام النهار، وقيام الليل، والمعنى: أن الصيام في النهار، والقيام في الليل. قال الشاعر:

لقد لُمتِنا يا أمَّ غيلان في السُّرى ونمتِ وما ليلُ المطيِّ بنائمِ(١)

فوصف الليل بالنوم، وهذا على حد قولك: نهارك صائم وليلك قائم.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حالهم في القيامة، فقال حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

---

(١) قائله: جرير. والبيت مذكور في (جامع الشواهد)، وقد مر في هذا المجلد أيضاً.

وهم اليهود. وقيل: هم مشركو العرب، وهو الأصح ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا نصدق بأنه من الله تعالى، ولا بالذي بين يديه من أمر الآخرة. وقيل: يعنون به التوراة والإنجيل، وذلك أنه لما قال مؤمنو أهل الكتاب إن صفة محمد ﷺ في كتابنا، وهو نبي مبعوث، كفر المشركون بكتابهم، ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون للحساب يوم القيامة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يرد بعضهم إلى بعض القول في الجدال ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم الأشراف والقادة ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بتوحيد الله، أي: أنتم منعتمونا من الإيمان، والمعنى: لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لآمنا بالله في الدنيا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع على طريق الإنكار ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: لم نصدكم نحن عن قبول الهدى ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي: بل أنتم كفرتم، ولم نحملكم على الكفر قهراً، فكل واحد من الفريقين ورَّك الذنب[1] على صاحبه واتهمه، ولم يضف واحد منهم الذنب إلى الله تعالى. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يعني الأتباع للمتبوعين ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم في الليل والنهار صدَّنا عن قبول الهدى ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: حين أمرتمونا أن نجحد وحدانية الله تعالى، ودعوتمونا إلى أن نجعل له شركاء في العبادة ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ فيه وجهان:

أحدها: أن معناه: أظهروا الندامة.

والآخر: أن المعنى: أخفوها. وقد فسر الإسرار في بيت امرىء القيس:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراصاً لو يسرُّون مقتلي[2]

على الوجهين. فمن قال بالأول، قال معناه: أظهر المتبوعون الندامة على الإضلال، وأظهر الأتباع الندامة على الضلال. وقيل معناه: أقبل بعضهم على بعض يلومه ويظهر ندمه. ومن قال بالثاني، قال معناه: أخفوا الندامة في أنفسهم خوف الفضيحة. وقيل معناه: أن الرؤساء أخفوا الندامة عن الأتباع ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين رأوا نزول العذاب بهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال ابن عباس: غلوا بها في النيران ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها على قدر استحقاقهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: من نبي مخوف بالله تعالى ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: جبابرتها وأغنياؤها المتنعمون فيها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وفي هذا بيان للنبي ﷺ أن أهل قريته جروا على منهاج الأولين، وإشارة إلى أنه كان أتباع الأنبياء فيما مضى الفقراء وأوساط الناس دون الأغنياء.

---

(١) ورَّك الذنب عليه: حمله.

(٢) البيت من المعلقات. وأحراس: جمع حارس. يقول: تجاوزت في ذهابي إلى المحبوبة أهوالاً كثيرة، قوماً يحرسونها وقوماً حراصاً على قتلي، لو قدروا عليه في خفية، لأنهم لا يجرؤون على قتلي جهاراً، أو حراصاً على قتلي لو أمكنهم قتالي ظاهراً، لأن الإسرار من الأضداد.

ثم بين سبحانه علة كفرهم بأن قال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: افتخروا بأموالهم وأولادهم ظناً بأن الله سبحانه إنما خوّلهم المال والولد كرامة لهم عنده، فقالوا: إذا رزقنا وحرمتم فنحن أكرم منكم وأفضل عند الله تعالى، فلا يعذبنا على كفرنا بكم. وذلك قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ولم يعلموا أن الأموال والأولاد عطاء من الله تعالى يستحق به الشكر عليهم، وليس ذلك للإكرام والتفضل.

●●●

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: ﴿في الغرفة﴾ والباقون: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ على الجمع. وقرأ يعقوب: ﴿جَزَاءً﴾ بالنصب ﴿الضِّعْفُ﴾ بالرفع.

● **الحجة:** حجة من قرأ: ﴿الغرفة﴾ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ وفي الجنة غرفات وغرف، غير أن العرب قد تجتزىء بالواحد عن الجمع إذا كان اسم الجنس، قالوا: أهلك الناس الدينار والدرهم. ومن قرأ: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءً الضِّعْفُ﴾ فالتقدير: فأولئك لهم الضعف جزاء، في حال المجازاة، فهو مصدر وضع موضع الحال، أي: مجزيين جزاء، ويجوز أن يكون مفعولاً له، وأما إضافة جزاء إلى الضعف في القراءة المشهورة، فهو على إضافته إلى المفعول.

● **الإعراب:** ﴿زُلْفَىٰ﴾ في موضع نصب على المصدر، تقديره: تقربكم قربة وتقريباً. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ الموصول والصلة في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ ويجوز أن يكون نصباً على الاستثناء.

● **المعنى:** لما حكى الله سبحانه عن الكفار أنهم قالوا: ما نحن بمعذبين لأن الله تعالى أغنانا في الدنيا، فلا يعذبنا في الآخرة، قال راداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي خلقني ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على ما يعلمه من مصلحته ومصلحة غيره ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق أيضاً على حسب المصلحة، فبسط الرزق هو الزيادة فيه على قدر الكفاية، والقدر: تضييقه على قدر الكفاية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك بجهلهم بالله وبحكمته، فيظنون أن كثرة مال الإنسان يدل على كرامته عند الله تعالى، ثم صرح بهذا المعنى فقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: ليس أموالكم التي خولتموها ﴿وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ التي رزقتموها ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: قربى، عن

مجاهد. قال الأخفش: أراد بالتي تقربكم عندنا تقريباً، فزلفى اسم المصدر. وقال الفراء: التي يجوز أن يقع على الأموال والأولاد، وجاء الخبر بلفظ الواحد وإن دخل فيه الأخرى ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ معناه: لكن من آمن بالله وعرفه، وصدق نبيه ﷺ، وأطاعه فيما أمر به، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: يضاعف الله حسناتهم، فيجزي بالحسنة الواحدة عشراً، إلى ما زاد. والضعف اسم جنس يدل على الكثير والقليل. ويجوز أن يكون الأموال والأولاد تقرب إلى الله تعالى زلفى بأن يكسب المؤمن المال مستعيناً به على القيام بحق التكليف، ويستولد الولد كذلك، فيقر بأنه عند الله زلفى، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلًا، ولا يكون بمعنى لكن. وقيل: إن جزاء الضعف أن يعطيهم في الآخرة مثل ما كان لهم في الدنيا من النعيم، والضعف: المثل، عن أبي مسلم ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: في غرف الجنة، وهي البيوت فوق الأبنية ﴿ءَامِنُونَ﴾ فيها لا يخافون شيئاً مما يخاف مثله في دار الدنيا من الموت، والغير، والآفات، والأحزان ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يجتهدون في إبطال آياتنا وتكذيبها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لأنبيائنا، ومعاجزين: مثبطين غيرهم عن أفعال البر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ مر تفسيره، وإنما كرره سبحانه لاختلاف الفائدة، فالأول توبيخ للكافرين وهم المخاطبون به، والثاني وعظ للمؤمنين، فكأنه قال: ليس إغناء الكفار وإعطاؤهم بدلالة على كرامتهم وسعادتهم، بل يزيدهم ذلك عقوبة، وإغناء المؤمنين يجوز أن يكون زيادة في سعادتهم، بأن ينفقوها في سبيل الله، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: وما أخرجتم من أموالكم في وجوه البر، فإنه سبحانه يعطيكم خلفه وعوضه، إما في الدنيا بزيادة النعمة، وإما في الآخرة بثواب الجنة. يقال: أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه يعطى لمنافع عباده، لا لدفع ضرر أو جر نفع، لاستحالة المنافع والمضار عليه. وقال الكلبي: ما تصدقتم به في خير فهو يخلفه، إما أن يجعله لكم في الدنيا، أو يدخره لكم في الآخرة.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل لي: «أنفق أنفق عليك». وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ينادي مناد كل ليلة: لدوا للموت، وينادي مناد: ابنوا للخراب، وينادي مناد: اللهم هب للمنفق خلفاً، وينادي مناد: اللهم هب للممسك تلفاً، وينادي مناد: ليت الناس لم يخلقوا، وينادي مناد: ليتهم إذ خلقوا فكروا فيما له خلقوا.

وعن جابر عن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة، وما وَقى به الرجل عرضه فهو صدقة، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا ما كان من نفقة في بنيان، أو معصية».

وعن أبي أمامة قال: إنكم تؤولون هذه الآية في غير تأويلها، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والسرف في المال والنفقة، وعليكم بالاقتصاد، فما افتقر قوم قط اقتصدوا».

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني يوم القيامة يجمع العابدين لغير الله،

والمعبودين من الملائكة للحساب ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ أي: كانوا يعبدونكم ويقصدونكم بالعبادة، وعلى هذا وجه التقرير والاستشهاد للملائكة على اعتقادات الكفار حتى تتبرأ الملائكة منهم ومن عبادتهم، كما قال سبحانه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

النظم: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنهم لما قالوا نحن أكثر أموالًا وأولاداً، بين أن دعواهم مردودة، وأنهم معذبون محجوجون.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

● **الإعراب**: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصب على الحال. و ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ فاعل ﴿يَعْبُدُ﴾ واسم ﴿كَانَ﴾ محذوف يفسره ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ والتقدير: عما كان آباؤكم يعبدون. ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾ يجوز أن يكون في محل جر صفة لـ ﴿كُتُبٍ﴾ ويجوز أن يكون في محل نصب على موضع الجار والمجرور، لأن المعنى: وما آتيناهم كتباً مُدرَّسة. و ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ كيف خبر كان، و ﴿نَكِيرِ﴾ اسمه، والنكير مصدر مثل عذير في قوله:

عذير الحيِّ من عَدوا ن كانوا حيَّة الأرض[1]

● **المعنى**: ﴿قَالُواْ﴾ أي: قالت الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن أن نعبد سواك، ونتخذ معبوداً غيرك ﴿أَنتَ﴾ يا الله ﴿وَلِيُّنَا﴾ أي: ناصرنا، وأولى بنا ﴿مِن دُونِهِم﴾ أي: دون هؤلاء الكفار، ودون كل أحد، وما كنا نرضى بعبادتهم إيانا، مع علمنا بأنك ربنا وربهم ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ بطاعتهم إياهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة. وقيل: المراد بالجن إبليس وذريته وأعوانه ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون بالشياطين مطيعون لهم. ثم يقول الله

(١) قائله: ذو الأصبع العداوني، واسمه حرثان. قوله: «عذير الحي» أي: هات من يعذرهم. وفي هذا البيت وما بعد قصة لعبد الملك بن مروان مع جمع من قبيلة عدوان ذكرها في (الأمالي) الشريف المرتضى (قده) فراجع إن شئت (ج١: ٢٤٩ - ٢٥٠).

سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني يوم الآخرة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: نفعاً بالشفاعة، ولا ضراً بالتعذيب ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بأن عبدوا غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: لا تعترفون بها، وتجحدونها.

ثم عاد سبحانه إلى الحكاية عن حال الكفار في الدنيا فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: تقرأ عليهم حججنا ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات من القرآن الذي أنزلناه على نبينا ﴿قَالُوا﴾ عند ذلك ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ أي: يمنعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فزعوا إلى تقليد الآباء لما أعوزتهم الحجة ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿مُّفْتَرًى﴾ قد تخرصه وافتراه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: للقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ليس هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر ثم أخبر سبحانه أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: وما أعطينا مشركي قريش كتاباً قط يدرسونه، فيعلمون بدرسه أن ما جئت به حق أو باطل، وإنما يكذبونك بهواهم من غير حجة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: رسول أمرهم بتكذيبك، وأخبرهم ببطلان قولك، يعني أنهم لا يرجعون في تكذيبك إلا إلى الجهل والعناد واتباع الهوى. ثم أخبر سبحانه عن عاقبة من كذب الرسل قبلهم تخويفاً لهم فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بمن بعث إليهم من الرسل وما آتاهم الله من الكتب ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: وما بلغ قومك يا محمد معشار ما أعطينا من قبلهم من القوة، وكثرة المال، وطول العمر، فأهلكهم الله، عن ابن عباس وقتادة ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقوبتي وتغييري حالهم. وقيل معناه: انظر في آثارهم كيف كان إنكاري عليهم بالهلاك، عن ابن مسلم. والمراد: إنا كما أهلكنا أولئك حين كذبوا رسلنا، فليحذر هؤلاء مثل ما نزل بهم من الهلاك والاستئصال.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿أَن تَقُومُوا﴾ في موضع جر على البدل من واحدة، ويجوز أن يكون في موضع نصب بحذف حرف الجر وإفضاء الفعل إليه، والتقدير: أعظكم بطاعة الله لأن تقوموا، أو أعظكم بأن تقوموا. ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ نصب على الحال. و﴿مَا سَأَلْتُكُم﴾، ﴿مَا﴾ شرطية، وهي في محل النصب بأنها مفعول ثان لسألت، ويجوز أن تكون موصولة، فيكون التقدير: ما سألتكموه، فيكون مع الصلة في موضع رفع بالابتداء. ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من

الضمير المستكن في ﴿يَقْذِفُ﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو علام الغيوب، ولو نصب على أنه نعت لـ ﴿رَبِّي﴾ لكان جائزاً، لكن الرفع أجود، لأنه جاء بعد تمام الكلام.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه النبي ﷺ، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: آمركم وأوصيكم بخصلة واحدة. وقيل: بكلمة واحدة وهي كلمة التوحيد. وقيل: بطاعة الله، عن مجاهد. ومن قال بالأول قال: إنه فسر الواحدة بما بعده. فقال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين، وواحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ معناه: أن يقوم الرجل منكم وحده أو مع غيره، ثم تتساءلون: هل جربنا على محمد كذباً؟ أو هل رأينا به جنة؟ ففي ذلك دلالة على بطلان ما ذكرتم فيه، وليس معنى القيام هنا القيام على الأرجل، وإنما المراد به القصد للإصلاح والإقبال عليه مناظراً مع غيره، ومتفكراً في نفسه، لأن الحق إنما يتبين للإنسان بهما، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ و ﴿مَا﴾ للنفي، قال قتادة: أي ليس بمحمد ﷺ جنون، وإن جعلت تمام الكلام آخر الآية، فالمعنى: ثم تتفكروا أي شيء بصاحبكم من الجنون؟ أي: هل رأيتم من منشئه إلى مبعثه وصمة تنافي النبوة من كذب أو ضعف في العقل أو اختلاف في القول والفعل فيدل ذلك على الجنون؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ أي: مخوف من معاصي الله ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني عذاب القيامة.

ثم قال للنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ يعني: لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من عرض الدنيا فتتهموني، فما طلبته منكم من أجر على أداء الرسالة وبيان الشريعة فهو لكم، وهذا كما يقول الرجل لمن لا يقبل نصحه: ما أعطيتني من أجر فخذه، وما لي في هذا فقد وهبته لك، يريد ليس لي فيه شيء، ومنه: النصح مجان. وقال الماوردي معناه: أن أجر ما دعوتكم إليه من إجابتي وذخره هو لكم دوني، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: ليس ثواب عملي إلا على الله فهو يثيبني عليه، ولا يضيعه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عليم به لم يغب عنه شيء، فيعلم ما يلحقني من أذاكم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ ويلقيه إلى أنبيائه، عن قتادة ومقاتل. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ علم جميع الخفيات وما غاب عن خلقه في الأرضين والسّماوات.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو أمر الله تعالى بالإسلام والتوحيد. وقيل: هو الجهاد بالسيف، عن ابن مسعود ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبق منه إبداء ولا إعادة ولا إقبال ولا إدبار، لأن الحق إذا جاء لا يبقى للباطل بقية. وقيل: إن الباطل إبليس لا يبدىء الخلق ولا يعيدهم، عن قتادة. وقيل معناه: ما يبدىء الباطل لأهله خيراً في الدنيا، ولا يعيد خيراً في الآخرة، عن الحسن. وقال الزجاج: ويجوز أن يكون ما استفهاماً في موضع نصب، على معنى: وأي شيء يبدىء الباطل؟ وأي شيء يعيده؟ قال ابن مسعود: دخل رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾

عن الحق كما تدعون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ﴾ أي: فإنما يرجع وبال ضلالي عليَّ لأني مأخوذ به دون غيري ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ أي: بفضل ربي حيث أوحى إلي، فله المنة بذلك على دون خلقه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لأقوالنا ﴿قَرِيبٌ﴾ منا، فلا يخفى عليه المحق والمبطل.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير عاصم: ﴿التَّناؤش﴾ بالمد والهمز، والباقون: بغير مد ولا همز.

● **الحجة:** التناوش: التناول، من قولهم: نُشت أنوش. قال الشاعر:

فهي تَنوشُ الحَوضَ نَوشاً مِن عَلا ... نَوشاً بهِ تَقطَعُ أجوازَ الفَلا[(١)]

فمن لم يهمز جعله تفاعلًا منه، ومن همز احتمل أمرين:

أحدهما: أنه أبدل من الواو الهمز لانضمامها مثل أُقتت، وأدؤر، ونحو ذلك.

والآخر: يكون من النأش وهو الطلب، قال رؤبة:

أقحَمَني جَارُ أَبي الخاموشِ ... إليكَ نَأشَ القِدرِ المَنؤوشِ[(٢)]

والنأش: الحركة في الإبطاء، قال الشاعر:

تَمَنَّى نَئيشاً أن يكونَ أطاعَني ... وقد حَدَثَتْ بَعدَ الأُمورِ أُمورُ[(٣)]

أي تمنى مدة مديدة، فنصب نئيشاً على الظرف.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: عند البعث ﴿فَلَا

---

(١) قائله: عيلان بن حريث. والضمير في قوله «فهي» للإبل. وقوله «من علا» أي: من فوق يريد: إنها عالية الأجسام، طوال الأعناق، والأجواز: جمع جوز وهو الوسط أي: تتناول ماء الحوض من فوق، وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشرب فلوات، فلا يحتاج إلى ماء آخر.

(٢) قال ابن منظور: أبو الخاموش رجل معروف. يقال: وأقحمني أي: أدخلني، وكأن الشاعر يذم أبا الخاموش حيث أن جاره في الإحتياج والفقر أدخل الشاعر إلى من يخاطبه لأجل طلب الطعام (عن هامش بعض المخطوطة).

(٣) قائله: نهشل بن حرى. قال ابن منظور: أي تمنى بعد الفوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يستدرك بها ما فات. أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة.

فَوْتَ﴾ أي: فلا يفوتني منهم أحد، ولا ينجو مني ظالم ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني القبور، وحيث كانوا فهم من الله قريب، لا يفوتونه، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، يدل الكلام عليه، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً. وقيل: إذ فزعوا في الدنيا حين رأوا بأس الله عند معاينة الملائكة لقبض أرواحهم، عن قتادة. وقيل: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم فلم يستطيعوا فراراً من العذاب ولا رجوعاً إلى التوبة، عن الضحاك والسدي. وقال أبو حمزة الثمالي: سمعت علي بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن بن علي عليه السلام يقولان: هو جيش البيداء، يؤخذون من تحت أقدامهم. قال: وحدثني عمرو بن مرة، وحمران بن أعين، أنهما سمعا مهاجراً المكي يقول: سمعت أم سلمة تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث الله إليه جيشاً حتى إذا كانوا بالبيداء، بيداء المدينة خسف بهم.

وروي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب، قال: فبينا هم كذلك يخرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فور ذلك، حتى ينزل دمشق، فيبعث جيشين جيشاً إلى المشرق، وآخر إلى المدينة، حتى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة - يعني بغداد - فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف، ويفضحون أكثر من مائة امرأة، ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام، فيخرج راية هدى من الكوفة، فيلحق ذلك الجيش فيقتلونهم، لا يفلت منهم مخبر، ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم، ويحل الجيش الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام بلياليها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبيداء، بعث الله جبرائيل، فيقول: يا جبرائيل، اذهب فأبدهم، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم عندها، ولا يفلت منهم إلا رجلان من جهينة، فلذلك جاء القول:

وعند جهينة الخبر اليقين[1]

فذلك قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ إلى آخره، أورده الثعلبي في تفسيره. وروى أصحابنا في أحاديث المهدي، عن أبي عبد الله عليه السلام، وأبي جعفر عليه السلام مثله.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: ويقولون في ذلك الوقت، وهو يوم القيامة، أو عند رؤية البأس، أو عند الخسف، في حديث السفياني ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: ومن أين لهم الانتفاع بهذا الإيمان الذي ألجئوا إليه، بين سبحانه أنهم لا ينالون به نفعاً، كما لا ينال أحد التناوش ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وقيل معناه: أنهم طلبوا الرّد إلى الدنيا. فالمراد أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، ولم يرد بعد المكان، وإنما أراد بُعد انتفاعهم بذلك، وبُعدهم عن الصواب ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ المعنى: وكيف تقبل توبتهم أو يردون إلى الدنيا، وقد كفروا بالله من قبل ذلك ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ويزحمون بالظن، فيقولون: لا جنة ولا نار ولا بعث،

---

(١) ويروى: «عند جفينة» بالجيم. وروي «حفينة» بالحاء المهملة أيضاً. وهذا من الأمثال، وتفصيل الكلام في المثل وتحقيقه مذكور في (لسان العرب) مادة «جفن»، و«جهن» فراجع.

وهذا أبعد ما يكون من الظن، عن قتادة. وقيل معناه: يرمون محمداً ﷺ بالظنون من غير يقين، وذلك قولهم: هو ساحر، وهو شاعر، وهو مجنون، وجعله قذفاً لخروجه في غير حق. وقيل معناه: ويبعدون أمر الآخرة، فيقولون لأتباعهم: هيهات هيهات لما توعدون، وذلك كالشيء يرى في موضع بعيد المرمى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وفرق بينهم وبين مشتهياتهم بالموت الذي حل بهم، كما حل بأمثالهم، عن أبي مسلم. وقيل: مشتهاهم هو التوبة والإيمان، أو الرد إلى الدنيا، وقد منعوا منه. وقيل: هو نعيم الجنة، عن الجبائي. وقيل معناه: منعوا من كل مشتهى، فيلحق الله تعالى فيه النفار فلا يدركون شيئاً إلا ويتألمون به ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأمثالهم من الكفار. وقيل معناه: بموافقيهم وأهل دينهم، من الأمم الماضية، حين لم تقبل منهم التوبة وقت رؤية البأس والعذاب. قال الضحاك: المراد بذلك أصحاب الفيل، حين أرادوا خراب الكعبة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث والنشور. وقيل: في شك من وقوع العذاب بهم ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مشكك. كما قالوا: عجب عجيب.

سُورَةُ فَاطِر

مكية، قال الحسن: إلا آيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الآية. ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

● **عدد آيها:** ست وأربعون آية شامي، والمدني الأخير وخمس في الباقين.

● **اختلافها:** سبع آيات: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بصري شامي ﴿جديد﴾ ﴿والبصير﴾ ﴿والنُّورُ﴾ ثلاثين غير البصري من في القبور غير شامي ﴿أَن تَزُولَا﴾ بصري ﴿تَبْدِيلًا﴾ بصري شامي والمدني الأخير.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنة أن أدخل من أي الأبواب شئت.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بالرد على أهل الشرك والشك والعنود، افتتح هذه السورة بذكر كمال قدرته ووحدانيته ودلائل التوحيد، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ
وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ
فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ (٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم وأبو جعفر: ﴿**غير الله**﴾ بالجر. والباقون: بالرفع.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿**غير الله**﴾ بالجر جعله صفة على اللفظ، والخبر ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن قرأ: ﴿**غير الله**﴾ بالرفع احتمل وجوهاً:

أحدها: أن يكون خبر المبتدأ.

والآخر: أن يكون صفة على الموضع، والخبر مضمر، تقديره: هل خالق غير الله في الوجود أو العالم.

والثالث: أن يكون غير استثناء، والخبر مضمر، كأنه قال: هل من خالق إلا الله، ويدل على جواز الاستثناء قوله: ما من إله إلا الله.

● **اللغة:** الفطر: الشق عن الشيء بإظهاره للحس، وفاطر السموات: خالقها.

● **الإعراب:** ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفة لأجنحة معدولة عن اثنين اثنين؛ وثلاثة ثلاثة؛ وأربعة أربعة و﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾ «ما» شرطية في محل النصب لكونها مفعول يفتح.

● **المعنى:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما مبتدئاً على غير مثال سبق، حمد سبحانه نفسه ليعلمنا كيف نحمده، وليبين لنا أن الحمد كله له ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى الأنبياء بالرسالات والوحي ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ تقدم تفسيرها، وإنما جعلهم أولى أجنحة ليتمكنوا بها من العروج إلى السماء، ومن النزول إلى الأرض، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنه ممن له أربعة أجنحة، عن قتادة. قال: ويزيد فيها ما يشاء، وهو قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ جبرائيل ليلة المعراج وله ستمائة جناح، وهو اختيار الزجاج والفراء. وقيل: أراد بقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ حسن الصوت، عن الزهري وابن جريج. وقيل: هو الملاحة في العينين، عن قتادة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ لا شيء إلا وهو قادر عليه بعينه، أو قادر على مثله.

ثم بين سبحانه إنعامه على خلقه فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما يأتيهم به من مطر، أو عافية، أو أي نعمة شاء، فإن أحداً لا يقدر على إمساكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من ذلك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فإن أحداً لا يقدر على إرساله. وقيل معناه: ما يرسل الله من رسول إلى عباده، في وقت دون وقت، فلا مانع له، لأن إرسال الرسول رحمة من الله، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةٗ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وما يمسكه في زمان الفترة أو عمن يقترحه من الكفار فلا مرسل له، عن الحسن. واللفظ محتمل للجميع ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يعجز ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، إن أنعم وإن أمسك، لأنه يفعل ما تقتضيه الحكمة.

ثم خاطب المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الظاهرة والباطنة، التي من جملتها أنه خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهّاكم(١)، وخلق لكم أنواع الملاذ والمنافع ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا استفهام تقرير لهم، ومعناه النفي ليقروا بأنه لا خالق إلا الله يرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، وهل يجوز إطلاق لفظ الخالق على غير الله سبحانه؟ فيه وجهان:

أحدهما: أنه لا تطلق هذه اللفظة على أحد سواه، وإنما يوصف به غيره على جهة التقييد، وإن جاز إطلاق لفظ الصانع والفاعل ونحوهما على غيره.

---

(١) شهّاه: حمله على الشهوة.

والآخر: أن المعنى: لا خالق يرزق ويخلق الرزق إلا الله تعالى. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يستحق العبادة سواه سبحانه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال. وقيل معناه: أنى يعدل بكم عن هذه الأدلة التي أقمتها لكم على التوحيد مع وضوحها.

ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ عن تكذيب قومه إياه، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي من كذَّب رسله، وينصر من كُذِّب من رسله. ثم خاطب الخلق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ من البعث والنشور، والجنة والنار، والجزاء والحساب ﴿حَقٌّ﴾ صدق كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فتغترون بملاذها ونعيمها، ولا يخدعنكم حب الرياسة وطول البقاء، فإن ذلك عن قليل نافد بائد، ويبقى الوبال والوزر ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الذي عادته أن يغرَّ غيره، والدنيا وزينتها بهذه الصفة، لأن الخلق يغترون بها. وقيل: إن الغرور الشيطان الذي هو إبليس، عن الحسن ومجاهد.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿فلاَ تُذهِب﴾ بضم التاء ﴿نفسك﴾ بالنصب، والباقون: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ والوجه فيهما ظاهر.

● **الإعراب:** ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مصدر فعل محذوف، تقديره: فلا تذهب نفسك تتحسَّر عليهم حسرات، و ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه ما يتعلق به اللام من ﴿فَلِلَّهِ﴾. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿هُوَ﴾ فصل بين المبتدأ وخبره.

● **المعنى:** ثم إنه سبحانه حذرهم الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يدعوكم إلى ما فيه الهلاك والخسر، ويصرفكم عن أفعال الخير والبر، ويدعوكم إلى الشر ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فعادوه ولا تتبعوه، بأن تعملوا على وفق مراده، وتذعنوا لانقياده ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي: أتباعه وأولياءه وأصحابه ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: النار المسعرة، والمعنى: أنه لا سلطان له على المؤمنين، ولكنه يدعو أتباعه إلى ما يستحقون به النار. ثم بيَّن سبحانه حال من أجابه وحال من

خالفه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاء على كفرهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ثواب عظيم. ثم قال سبحانه مقرراً لهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يعني الكفار، زينت لهم نفوسهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة، أو زينه الشيطان لهم بأن أمالهم إلى الشبه المضلة، وترك النظر في الأدلة، وأغواهم حتى تشاغلوا بما فيه عاجل اللّذة، وترك الكلفة، وخبر قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ محذوف، أي: أهو كمن علم الحسن والقبيح، وعمل بما علم ولم يزين له سوء عمله. وقيل تقديره: كمن هداه الله. وقيل: كمن زين له صالح عمله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مر بيانه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تهلك نفسك يا محمد عليهم حسرة، ولا يغمك حالهم، إذ كفروا واستحقوا العقاب، وهو مثل قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ والحسرة: شدة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر أدلة التوحيد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: تهيجه وتزعجه من حيث هو ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: فسقنا السحاب ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: قحط وجدب لم يمطر فيمطر على ذلك البلد ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك المطر والماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بأن أنبتنا فيها الزرع والكلأ بعد أن لم يكن ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كما فعل هذا بهذه الأرض الجدبة من إحيائها بالزرع والنبات، ينشر الخلائق بعد موتهم وبحشرهم للجزاء، من الثواب والعقاب.
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ اختلف في معناه، فقيل المعنى: من كان يريد علم العزة وهي القدرة على القهر والغلبة لمن هي فإنها لله جميعاً، عن الفراء. وقيل معناه: من أراد العزة فليتعزز بطاعة الله، فإن الله تعالى يعزه، عن قتادة. يعني أن قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ معناه: الدعاء إلى طاعة من له العزة، كما يقال: من أراد المال فالمال لفلان، أي: فليطلبه من عنده، يدل على صحة هذا ما رواه أنس عن النبي ﷺ أنه قال: إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والكلم جمع الكلمة، يقال: هذا كلم وهذه كلم، فيذكر ويؤنث، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء، يجوز فيه التذكير والتأنيث، ومعنى الصعود ها هنا القبول من صاحبه، والإثابة عليه، وكل ما يتقبله الله سبحانه من الطاعات يوصف بالرفع والصعود، لأن الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويرفعونها إلى حيث شاء الله تعالى، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ وقيل معنى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ إلى سمائه وإلى حيث لا يملك الحكم سواه، فجعل صعوده إلى سمائه صعوداً إليه تعالى، كما يقال: ارتفع أمرهم إلى السلطان، والكلم الطيب: الكلمات الحسنة من التعظيم والتقديس، وأحسن الكلم: لا إله إلا الله. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله، فالهاء من ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يعود إلى الكلم، وهو معنى قول الحسن.

والثاني: على القلب من الأول، أي: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، والمعنى: أن العمل الصالح لا ينفع إلا إذا صدر عن التوحيد عن ابن عباس.

والثالث: أن المعنى: العمل الصالح يرفعه الله لصاحبه، أي يقبله، عن قتادة. وعلى هذا فيكون ابتداء إخبار لا يتعلق بما قبله.

ثم ذكر سبحانه من لا يوحد الله سبحانه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يعملون السيئات، عن الكلبي. وقيل: يمكرون: أي يشركون بالله. وقيل: يعني الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، عن أبي العالية. وهو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة. ثم أخبر سبحانه أن مكرهم يبطل، فقال: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويهلك، ولا يكون شيئاً، ولا ينفذ فيما أرادوه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

● **القراءة**: قرأ روح وزيد عن يعقوب: ﴿ولا يَنقص﴾ بفتح الياء، وهو قراءة الحسن وابن سيرين. والباقون: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ على البناء للمفعول به. وقرأ قتيبة عن الكسائي: ﴿**والذين يدعون**﴾ بالياء. والباقون: بالتاء. وفي الشواذ قراءة عيسى الثقفي: ﴿**سيْغ شرابه**﴾.

● **الحجة**: من قرأ: ﴿يَنقص﴾ فالتقدير: ولا ينقص الله من عمره، والقراءة المشهورة: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ وهي أوفق لما تقدمه من قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ وكذلك قراءة ﴿تَدْعُونَ﴾ على الخطاب أوفق بما تقدم من الكلام وما تأخر. و ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء على الغيبة. ومن قرأ: ﴿**سيْغ شرابه**﴾ فإنه على التخفيف من «سيِّغ» بالتشديد على فيْعِل، وأصله سيوغ، مثل هيْن وهيِّن وميْت وميِّت.

● **اللغة**: النطفة: الماء القليل والماء الكثير، وهو من الأضداد، ومنه قول أمير المؤمنين عليه السلام لما قيل له: إن الخوارج عبروا جسر النهر، وإن مصارعهم دون النطفة. والعمر:

للبقاء، وأصله طول المدة، وقولهم: لعمر الله، بالفتح لا غير. والقطمير: لفافة النواة، وقيل: الحبة في بطن النواة. والجديد: القريب العهد بانقطاع العمل عنه، وأصله من القطع.

● **الإعراب:** ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ تقديره: لا ينقص من عمره شيء، فمفعول ما لم يسمَّ فاعله محذوف، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ الجار والمجرور في موضع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: إلا هو كائن في كتاب. ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يجوز أن يكون جملة منصوبة الموضع على الحال من ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ويجوز أن يكون صفة لحلية، أي: حلية ملبوسة، واللام من قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ يتعلق بمواخر، لأن المعنى: أن الفلك يشق الماء للابتغاء من فضل الله، وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ في موضع الحال من الضمير المحذوف من قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ والتقدير: والذين تدعونهم كائنين من دونه.

● **المعنى:** ثم نسق سبحانه على ما تقدم من دلائل التوحيد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بأن خلق أباكم آدم منه، فإن الشيء يضاف إلى أصله. وقيل: أراد به آدم عليه السلام نفسه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ماء الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذكوراً وإناثاً. وقيل: ضروباً وأصنافاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: وما تحمل من الإناث حاملة ولدها في بطنها إلا بعلم الله تعالى، والمعنى: إلا وهو عالم بذلك ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ معناه: وما يمد في عمر معمر، أي: ولا يطول عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عمر ذلك المعمر بانقضاء الأوقات عليه، عن أبي مالك. يعني: ولا يذهب بعض عمره بمضي الليل والنهار. وقيل معناه: ولا ينقص من عمر غير ذلك المعمر، عن الحسن والضحاك وابن زيد. وقيل: هو ما يعلمه الله تعالى أن فلاناً لو أطاع لبقي إلى وقت كذا، وإذا عصى نقص عمره فلا يبقى، فالنقصان على ثلاثة أوجه: إما أن يكون من عمر المعمر، أو من عمر معمر آخر، أو يكون بشرط ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: إلا وذلك مثبت في الكتاب، وهو الكتاب المحفوظ أثبته الله تعالى قبل كونه قال سعيد بن جبير: مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا سنة، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهب ثلاثة أيام، حتى يأتي على آخر عمره ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: إن تعمير من يعمر، ونقصان من ينقصه، وإثبات ذلك في الكتاب سهل على الله تعالى غير متعذر.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ يعني العذب والمالح، ثم ذكرهما فقال: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: طيب بارد ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: جائز في الحلق هنيء ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، عن ابن عباس. وما بعد هذا مفسر في سورة النحل إلى آخر الآية. ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يدخل أحدهما في الآخر بالزيادة والنقصان ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: يجريهما كما يريد ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لوقت معلوم، وقد مضى تفسيره ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: مدبر هذه الأمور، وهو الله خالقكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: تدعونهم آلهة من الأصنام والأوثان، وتوجهون عبادتكم إليهم ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: قشر نواة ـ عن ابن عباس. أي: لا يقدرون من ذلك على قليل ولا كثير ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ لكشف ضر ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾ لأنها جماد لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ بأن يخلق الله

لها سمعاً ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ أي: يتبرؤون من عبادتكم، ينطقهم الله يوم القيامة لتوبيخ عابديها، فيقولون: لم عبدتمونا وما دعوناكم إلى ذلك؟ قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد به الملائكة وعيسى، ويكون معنى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أنهم بحيث لا يسمعونه، أو أنهم مشتغلون عنهم لا يلتفتون إليهم. ويجوز أن يكون المراد به الأصنام، ويكون ما يظهر من بطلان ما ظنوه كفراً بشركهم، وجحوداً له، كما أن ما يحصل في الجماد من الدلالة على الله تسبيح منهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: لا يخبرك بما فيه الصلاح والفساد، والمنافع والمضار مثل الله سبحانه العليم بالأشياء كلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتكم لا يحتاج إلى شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على جميع أفعاله، فلا يفعل إلا ما يستحق به حمداً، ثم أخبر عن كمال قدرته فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ويفنكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنع، بل هو عليه هين يسير.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

● **اللغة:** الحرور: السموم، وهي الريح الحارة. قال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون بالليل والنهار. والاستواء: حصول أحد الشيئين على مقدار الآخر، ومنه الاستواء في العود والطريق، خلاف الإعوجاج، لممره على مقدار وضع له من غير انعدال. والإسماع: إيجاد المسموع بحيث يدركه السامع.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن عدله في حكمه، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ أي: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى، أي: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وإنما يؤاخذ كل بما يقترفه من الآثام ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: وإن تدع نفس مثقلة بالآثام غيرها إلى أن يتحمل عنها شيئاً من إثمها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ أي: لا يحمل غيرُها شيئاً من ذلك الحمل ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾ أي: ولو كان المدعو إلى التحمل ذا قرابة منها، وأقرب الناس إليها ما حمل عنها شيئاً،

فكل نفس بما كسبت رهينة. قال ابن عباس: يقول الأب والأم: يا بني احمل عني، فيقول: حسبي ما علي: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم غائبون عن أحكام الآخرة وأهوالها، وهذا كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ والمعنى: أن إنذارك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار. وقيل: الذين يخشون ربهم في خلواتهم وغيبتهم عن الخلق ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أداموها، وقاموا بشرائطها، وإنما عطف الماضي على المستقبل إشعاراً باختلاف المعنى، لأن الخشية لازمة في كل وقت، والصلاة لها أوقات مخصوصة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات. وقيل: تطهر من الآثام ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن جزاء ذلك يصل إليه دون غيره ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع الخلق كلهم إلى حيث لا يملك الحكم إلا الله سبحانه، فيجازي كلاً على قدر عمله ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: لا يتساوى الأعمى عن طريق الحق، والذي اهتدى إليه قط. وقيل: المشرك والمؤمن ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ أي: ظلمات الشرك والضلال ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: نور الإيمان والهداية. وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ وما بعده من زيادة. لا قولان:

أحدهما: أنها زائدة مؤكدة للنفي.

والثاني: أنها نافية لاستواء كل واحد منهما لصاحبه على التفصيل.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ يعني الجنة والنار، عن الكلبي. وقيل: يعني ظل الليل والسموم بالنهار ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ يعني المؤمنين والكافرين. وقيل: يعني العلماء والجهّال. وقال بعضهم: أراد نفس الأعمى والبصير، والظل والحرور، والظلمات والنور، على طريق ضرب المثل، أي: كما لا تستوي هذه الأشياء، ولا تتماثل، ولا تتشاكل، فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة غيره، ولا يستوي المؤمن والكافر، والحق والباطل، والعالم والجاهل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ينفع بالإسماع من يشاء أن يلطف له ويوفقه، ولم يرد به نفي حقيقة السماع لأنهم كانوا يسمعون آيات الله ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: إنك لا تقدر على أن تنفع الكفار بإسماعك إياهم، إذ لم يقبلوا كما لا تسمع من في القبور من الأموات ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا مخوف لهم بالله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالدين الصحيح ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: وما من أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: مضى فيها مخوف يخوفهم وينذرهم، فأنت مثلهم نذير لمن جحد، بشير لمن وحد. قال الجبائي: وفي هذا دلالة على أنه لا أحد من المكلفين إلا وقد بعث إليه الرسول، وأنه سبحانه أقام الحجة على جميع الأمم. ثم قال تعالى تسلية لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ولم يصدقوك ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار أنبياء أرسلهم الله إليهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الباهرات، والحجج الواضحات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: وبالكتب ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البين، وإنما كرر ذكر الكتاب، وعطفه على الزبر، لاختلاف الصفتين، فإن الزبور أثبت في الكتاب من الكتاب، لأنه يكون منقراً منقشاً فيه كالنقر في الحجر. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

أي: فلما كذبوا رسلهم، ولم يعترفوا بنبوتهم، أخذتهم بالعذاب وأهلكتهم، ودمرت عليهم، فكيف كان تعييري وإنكاري عليهم، وإنزالي العقاب بهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

● **اللغة:** واحد الجُدَد جُدة، وأما الجُدُد فجمع جديد. قال المبرد: الجدد: الطرائق والخطوط، قال امرؤ القيس:

كـأن سـراتـه وجُـدة مـتـنـه كـنـائـن يـجـري بـيـنـهـن دلـيـص(١)

يعني: الخطة السوداء في ظهر حمار الوحش، وكل طريقة جدة، وجادة، وقال الفراء: هي الطرائق تكون في الجبال كالعروق، بيض وسود وحمر. والغربيب: الشديد السواد، الذي يشبه لون الغراب.

● **الإعراب:** ﴿مُّخْتَلِفًا﴾ صفة لـ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ و ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾ مرفوع بأنه فاعله. ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ما هو مختلف ألوانه، فالهاء في ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ عائد إلى هو، ويجوز أن يكون الهاء عائداً إلى موصوف لمختلف، تقديره: جنس مختلف ألوانه، وهو الأصح. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يجوز أن يكون نصبهما على الحال على تقدير: أنفقوا مسرين ومعلنين، ويجوز أن يكون على صفة مصدر أنفق تقديره: أنفقوا إنفاقاً مسراً ومعلناً. و﴿يَرْجُونَ﴾ في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أخبر عن نفسه بنون الكبرياء والعظمة ﴿بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ جمع ثمرة، وهي ما تجتنى من الشجر ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ وطعومها وروائحها، إقتصر على ذكر الألوان لأنها أظهر، ولدلالة الكلام على الطعوم والروائح ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ومما خلقنا من الجبال جدد ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ أي: طرق بيض وطرق حمر ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: ومن الجبال غرابيب سود على لون واحد لا خطط فيها. قال الفراء: وهذا

(١) سراة الفرس: أعلى متنه. والكنائن: جمع الكنانة: جعبة السهام. والدليص: ذهب له بريق.

على التقديم والتأخير، تقديره: وسود غرابيب، لأنه يقال: أسود غربيب، وأسود حالك. وأقول: ينبغي أن يكون سود عطف بيان يبين غرابيب به، والأجود أن يكون تأكيداً، إذ الغرابيب لا تكون إلا سوداً، فيكون كقولك: رأيت زيداً زيداً، وهذا أولى من أن يحمل على التقديم والتأخير ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أيضاً ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ التي تدب على وجه الأرض ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ كالإبل والغنم والبقر خلق ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال، وتم الكلام.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: ليس يخاف الله حق خوفه، ولا يحذر معاصيه خوفاً من نقمته إلا العلماء الذين يعرفونه حق معرفته. وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم. وعن ابن عباس قال: يريد: إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني. وفي الحديث: أعلمكم بالله أخوفكم لله. قال مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يعجب بعلمه، وإنما خص سبحانه العلماء بالخشية لأن العالم أحذر لعقاب الله من الجاهل، حيث يختص بمعرفة التوحيد والعدل، ويصدق بالبعث والحساب، والجنة والنار.

ومتى قيل: فقد نرى من العلماء من لا يخاف الله ويرتكب المعاصي؟.

فالجواب: أنه لا بد من أن يخافه مع العلم به، وإن كان ربما يؤثر المعصية عند غلبة الشهوة لعاجل اللذة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿غَفُورٌ﴾ لزلات أوليائه.

ثم وصف سبحانه العلماء، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يقرؤون القرآن في الصلاة وغيرها، أثنى سبحانه عليهم بقراءة القرآن. قال مطرف بن عبد اللّه الشخير: هذه آية القراء. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: ملكناهم التصرف فيه ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في حال سرهم وفي حال علانيتهم. وعن عبد اللّه بن عبيد بن عمير الليثي قال: قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، مالي لا أحب الموت؟ قال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: فقدمه، قال: لا أستطيع، قال: فإن قلب الرجل مع ماله، إن قدمه أحب أن يلحق به، وإن أخره أحب أن يتأخر معه. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي: راجين بذلك تجارة لن تكسد، ولن تفسد، ولن تهلك. ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: قصدوا بأعمالهم الصالحة وفعلوها لأن يوفيهم الله أجورهم بالثواب، ويزيدهم على قدر استحقاقهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لحسناتهم، عن الزجاج. وقال الفراء: خبر إنَّ قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ وروي ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في قوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليه معروفاً في الدنيا. وعن الضحاك قال: يفسح لهم في قبورهم. وقيل: معنى شكور: أنه يقبل اليسير، ويثيب عليه الكثير. تقول العرب: اشكر من بروقة، وتزعم أنها شجرة عارية من الورق، تغيم السماء فوقها فتخضرُّ، وتورق من غير مطر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بضم الياء، على ما لم يسم فاعله، ليشاكل قوله: ﴿يحلون﴾ والباقون: بفتح الياء، لأنهم إذا أدخلوا فقد دخلوا، وقد ذكرنا اختلافهم في ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ في سورة الحج.

● **اللغة:** المقامة: الإقامة، وموضع الإقامة، وإذا فتحت الميم كان بمعنى القيام، وموضع القيام، قال الشاعر:

يومان: يومُ مَقاماتٍ وأنديةٍ ... ويومُ سَيرٍ إلى الأعداءِ تأويبِ(١)

والنصب: التعب، وفيه لغتان: النُصْب والنَّصَب لغتان كالرُشد والرَشد والحزن والحَزن. واللغوب: الإعياء من التعب.

● **الإعراب:** ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب المحذوف من الصلة. والتقدير: والذي أوحيناه إليك كائناً من الكتاب. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضع نصب على الحال، وكذلك ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ ﴿مِنْ﴾، يتعلق بـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾. ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿أَسَاوِرَ﴾ أي: أساور كائنة من ذهب. والمعنى: ذهبية ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد وأنزلناه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الصحيح الذي لا يشوبه فساد، والصدق الذي لا يمازجه كذب، والعقل يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما قبله من الكتب، لأنه جاء موافقاً لما بشرت به تلك الكتب من حاله وحال من أتى به ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ أي: عالم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأحوالهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن. وقيل: هو التوراة، عن أبي مسلم. وقيل: أراد الكتب لأن الكتاب يطلق ويراد به الجنس، عن الجبائي. والصحيح الأول، لأن ظاهر لفظ الكتاب لا يطلق إلا على القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: اخترناهم، ومعنى الإرث: انتهاء الحكم إليهم ومصيره لهم، كما قال: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي

(١) مر البيت في هذا الجزء.

أُورِثْتُمُوهَا﴾ وقيل معناه: أورثناهم الإيمان بالكتب السالفة، إذ الميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم، والأول أصح.

واختلف في الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده في الآية:

فقيل: هم الأنبياء اختارهم الله برسالته وكتبه، عن الجبائي:

وقيل: هم المصطفون الداخلون في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ يريد بني إسرائيل، عن أبي مسلم. قال: لأن الأنبياء لا يرثون الكتب، بل يورث علمهم.

وقيل: هم أمة محمد ﷺ أورثهم الله كل كتاب أنزله، عن ابن عباس.

وقيل: هم علماء أمة محمد ﷺ لما ورد في الحديث: العلماء ورثة الأنبياء.

والمروي عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: «هي لنا خاصة، وإيانا عنى»، وهذا أقرب الأقوال، لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الأنبياء، إذ هم المتعبدون بحفظ القرآن، وبيان حقائقه، والعارفون بجلائله ودقائقه.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ اختلف في أن الضمير في منهم إلى من يعود على قولين:

أحدهما: أنه يعود إلى العباد، وتقدير الكلام: فمن العبيد ظالم، وروي نحو ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة، واختاره المرتضى قدس الله روحه من أصحابنا. قال: والوجه فيه أنه لما علق توريث الكتاب بمن اصطفاه من عباده، بين عقيبه أنه إنما علق وراثة الكتاب ببعض العباد دون بعض، لأن فيهم من هو ظالم لنفسه، ومن هو مقتصد، ومن هو سابق بالخيرات.

والقول الثاني: أن الضمير يعود إلى المصطفين من العباد، عن أكثر المفسرين. ثم اختلف في أحوال الفرق الثلاث على قولين:

أحدهما: أن جميعهم ناج، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في الآية: أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

وعن عائشة أنها قالت: كلهم في الجنة، أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم، وأما الظالم فمثلي ومثلكم. وروي عنها أيضاً أنها قالت: السابق الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصد الذي أسلم بعد الهجرة، والظالم نحن.

وروي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له.
وقيل: إن الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه، والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه، والسابق

الذي باطنه خير من ظاهره. وقيل: منهم ظالم لنفسه بالصغائر، ومنهم مقتصد بالطاعات في الدرجة الوسطى، ومنهم سابق بالخيرات في الدرجة العليا عن جعفر بن حرب.

وروى أصحابنا عن ميسر بن عبد العزيز عن الصادق عليه السلام أنه قال: الظالم لنفسه منا من لا يعرف حق الإمام، والمقتصد منا العارف بحق الإمام، والسابق بالخيرات هو الإمام، وهؤلاء كلهم مغفور لهم.

وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أما الظالم لنفسه منا فمن عمل عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأما المقتصد فهو المتعبد المجتهد، وأما السابق بالخيرات فعليٌّ والحسن والحسين عليهم السلام، ومن قُتل من آل محمد صلى الله عليه وآله شهيداً.

والقول الآخر: أن الفرقة الظالمة لنفسها غير ناجية. قال قتادة: الظالم لنفسه أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات هم السابقون المقربون من الناس كلهم، كما قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ وقال عكرمة عن ابن عباس: إن الظالم هو المنافق، والمقتصد والسابق من جميع الناس. وقال الحسن: السابقون هم الصحابة، والمقتصدون هم التابعون، والظالمون هم المنافقون[١].

فإن قيل: لم قدم الظالم وأخر السابق، وإنما يقدم الأفضل؟.

فالجواب: أنهم يقدمون الأدنى في الذكر على الأفضل، قال سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ وقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

وقيل: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من رحمته، وأخر السابق لئلا يعجب بعلمه.

وقيل: إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال الناس ثلاث: معصية وغفلة، ثم التوبة، ثم القربة، فإذا عصى فهو ظالم، وإذا تاب فهو مقتصد، وإذا صحت توبته وكثرت مجاهدته اتصل بالله وصار من جملة السابقين.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره وتوفيقه ولطفه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ معناه: أن إيراث الكتاب واصطفاء الله إياهم هو الفضل العظيم من الله عليهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ هذا تفسير للفضل، كأنه قيل: ما ذلك الفضل؟ فقال: هو جنات، أي: جزاء جنات أو دخول جنات، ويجوز أن يكون بدلاً من الفضل، كأنه قال: ذلك دخول جنات ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة وهي جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ومن قرأ ولؤلؤاً فالمعنى: ويحلون فيها لؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وهو الإبريسم المحض، وإذا قلنا: إن المراد به الفريق الثالث، فالظالم إنما يدخلها بفضل الله تعالى أو بالشفاعة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أخبر سبحانه عن حالهم أنهم إذا دخلوا الجنة

---

(١) وحكي عن بعض أهل العرفان أن الظالم: الذي يجزع عند البلاء والمقتصد: الذي يصبر على البلاء، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء.

يقولون: الحمد لله، اعترافاً منهم بنعمته، لا على وجه التكليف، وشكراً له على أن أذهب الغم الذي كانوا عليه في دار الدنيا عنهم. وقيل: يعنون الحزن الذي أصابهم قبل دخول الجنة، لأنهم كانوا يخافون دخول النار إذ كانوا مستحقين لذلك، فإذا تفضل الله عليهم بإسقاط عقابهم وأدخلهم الجنة حمدوه على ذلك وشكروه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لذنوب عباده وقبيح أفعالهم ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل اليسير من محاسن أعمالهم. وقيل: إن شكره سبحانه هو مكافأته لهم على الشكر له، والقيام بطاعته، وإن كان حقيقة الشكر لا يجوز عليه سبحانه من حيث كان اعترافاً بالنعمة، ولا يصح أن يكون سبحانه مُنعماً عليه ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: أنزلنا دار الخلود، يقيمون فيها أبداً، لا يموتون ولا يتحولون عنها ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: ذلك بتفضله وكرمه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبنا في الجنة عناء ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: ولا يصيبنا فيها إعياء ومتعبة في طلب المعاش وغيره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمر وخلف وحده: ﴿يُجزى كل كفور﴾ على ما لم يسم فاعله، والباقون: ﴿نَجْزِي﴾ بالنون ﴿كُلَّ﴾ بالنصب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص وخلف: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالتوحيد، والباقون: ﴿بينات﴾ بالجمع.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿نَجْزِي﴾ بالنون، فإنه على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه، ومن قرأ على بناء الفعل للمفعول به فحجته أن ما قبله ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾. والوجه في قراءة ﴿بَيِّنَتٍ﴾ على الإفراد أنه يجعل ما في الكتاب أو ما يأتي به النبي ﷺ بينة، كما قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومن قرأ بالجمع فإن لكل نبي بينة، فإذا جمعوا جمعت البينة بجمعهم، على أن في الكتاب ضروباً من البينة فجمع لذلك.

● **اللغة:** الاصطراخ: الصياح والنداء بالاستغاثة، افتعال من الصراخ، قلبت التاء طاء لأجل الصاد الساكنة قبلها، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين، يوافق الصاد في الاستعلاء والإنطباق، ويوافق التاء في المخرج. والمقت: البغض، مقته يمقُته وهو ممقوتٌ ومَقيتٌ.

● **الإعراب:** ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ جواب النفي و ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ منصوب بإضمار «أن» وعلامة النصب سقوط النون. ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الموصول والصلة في محل النصب على أنه ظرف زمان، لأن المعنى: أولم نعمركم زماناً طويلًا يتذكر فيه من تذكر؟ والهاء فيه يعود إلى «ما» وقلما يجيء «ما» في معنى الظرف وهو اسم وإنما يجيء حرفاً مصدرياً.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه ذكر ما أعده لأهل الجنة من أنواع الثواب، عقبه بذكر ما أعده للكفار من أليم العقاب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بوحدانية الله، وجحدوا نبوة نبيه ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ جزاء على كفرهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي: ولا يسهل عليهم عذاب النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل هذا العذاب ونظيره ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ جاحد، كثير الكفران مكذب لأنبياء الله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يتصايحون بالاستغاثة يقولون ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من عذاب النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: نؤمن بدل الكفر، ونطع بدل المعصية، والمعنى: ردنا إلى الدنيا لنعمل بالطاعات التي تأمرنا بها ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من المعاصي، فوبخهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: ألم نعطكم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكر ويعتبر وينظر في أمور دينه، وعواقب حاله مَن يريد أن يتفكر ويتذكر. واختلف في هذا المقدار.

فقيل: هو ستون سنة، وهو المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وهو إحدى الروايتين، عن ابن عباس.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً مرفوعاً أنه قال: من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه.

وقيل: هو أربعون سنة، عن ابن عباس ومسروق.

وقيل: هو توبيخ لابن ثماني عشرة سنة، عن وهب وقتادة. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي: المخوف من عذاب الله، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن ابن زيد والجبائي وجماعة. وقيل: النذير: القرآن، عن زيد بن علي. وقيل: النذير: الشيب، عن عكرمة وسفيان بن عيينة، ومنه قيل:

رأيتُ الشيبَ من نُذرِ المنايا ... لِصاحِبِهِ وحَسبُكَ مِن نَذيرِ
وقائِلَةٍ تَبَيَّض والغواني ... نَوافِرُ عن مُعايَنَةِ القَتيرِ[1]

---

(١) الغواني جمع الغانية: الجارية الحسناء، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة، والقتير: الشيب.

فَقُلتُ لها: المَشيبُ نَذيرُ عُمري ولستُ مُسَوِّداً وَجهَ النذيرِ

وقال عدي بن زيد:

وابيضاض السواد من نذر المو ت، وهل بعده يجيء نذير؟

وقيل: النذير: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمال العقل ﴿فَذُوقُواْ﴾ أي: فذوقوا العذاب وحسرة الندم ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما يغيب عن الخلائق علمه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: فلا تضمروا في أنفسكم ما يكرهه سبحانه، فإنه عالم به ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: جعلكم معاشر الكفار أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، عن قتادة. وقيل: جعلكم خلائف القرون الماضية، بأن أحدثكم بعدهم، وأورثكم ما كان لهم ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ أي: فعليه ضرر كفره وعقاب كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾ أي: أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ أي: خسراناً وهلاكاً.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه: أخبروني أيها المشركون عن الأوثان الذين أشركتموهم مع الله في العبادة، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أي: بأي شيء أوجبتم شركاء مع الله تعالى في العبادة؟ أبشيء خلقوه من الأرض؟ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: شركة في خلقها؟ ثم ترك هذا النظم فقال: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً يصدق دعواهم فيما هم عليه من الشرك ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ أي: فهم على دلالات واضحات ﴿مِّنۡهُۚ﴾ أي: من ذلك الكتاب، أراد: فإن جميع ذلك محال، لا يمكنهم إقامة حجة ولا شبهة على شيء منه. وقيل: أم آتيناهم كتاباً بأن الله لا يعذبهم على كفرهم فهم واثقون به ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ معناه: ليس شيء من ذلك، لكن ليس يعد بعض الظالمين بعضاً إلا غروراً لا حقيقة له، يغرونهم، يقال: غره يغره غروراً، إذا أطمعه فيما لا يطمع فيه.

النظم: اتصال قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية بما قبله، أن المعنى: يعلم الله أنه لو ردكم إلى الدنيا لعدتم إلى كفركم، فاتصل بقوله: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ واتصل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بما قبله على معنى أنه كما أورثكم الكتاب أورثكم الأرض، لتشكروه على نعمه، وتعتبروا بمن سلف من الأمم.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا

سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة وحده: ﴿ومكر ٱلسيء﴾، بسكون الهمزة، والباقون بالجر.

● **الحجة:** قال الزجاج: تسكين هذه الهمزة لحن عند البصريين، وإنما يجوز في الشعر في الاضطرار، أنشدوا:

إذا اعوججن قلت: صاحبْ، قوِّمِ(١)

والأصل: يا صاحب قوم، لكنه حذف مضطراً، وأنشد:

فاليوم أشرب غير مستحقبٍ إثماً من الله ولا واغلِ(٢)

وأنشد أبو العباس المبرد(٣):

إذا اعوججن قلت صاح قوِّمِ(٤)

وقال أبو علي في إسكان الهمزة: أجراها في الوصل مجراها في الوقف، فهو مثل قوله:

ببازل وجناءَ أو عيهلِّ(٥)

وقوله:

مثل الحريق وافق القصَبّا(٦)

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه: «بالدو أمثال السفين العوم» يعني: إذا عدلت الإبل عن الطريق قلت لصاحبي: قومها على الطريق، لا تتركها تعدل عنه، والدوّ: الفلاة الواسعة. والعوْم: السباحة. شبه دخول الإبل في المفازة بدخول السفن في الماء.

(٢) قائله امرؤ القيس. والمستحقب: المكتسب للإثم الحامل له. والواغل: الذي يحضر شراب القوم من غير أن يدعى إليه، وحكى عن شرح الديوان: أنه كان حلف لا يشرب خمراً، ولا يأكل لحماً، ولا يغسل رأساً، حتى يدرك بثأر أبيه، فلما أخذه شرب الخمر، قال البيت.

(٣) يعني أن المبرد ينكر ما رويناه ويروى هكذا. و«صاح»: مرخم «صاحب».

(٤) [«واليوم فاشرب» وهذا جيد].

(٥) قائله منظور بن مريد. والبازل: البعير إذا استكمل السنة الثامنة. وفطر نابه. والوجناء من النوق: التامة الخلق، الضخمة الشديدة. والعيهل: الشديدة. والشاهد في تشديد اللام عن (عيهل) للضرورة.

(٦) قائله: رؤبة، وبعده: «والتين والحلفاء فالتهبا» والحلفاء: نبت.

● **الإعراب:** ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾ مفعول له، أي: كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا و ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ مفعول له أيضاً و ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ معطوف عليه، ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير: استكبروا استكباراً في الأرض، وأن يكون حالاً أيضاً، أي: مستكبرين في الأرض، وأن يكون بدلاً من ﴿نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيء النذير إلا استكباراً في الأرض ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ فاعل ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ ومن مزيدة و ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ في محل نصب لأنه مفعول ﴿تَرَكَ﴾ و﴿مِن﴾ مزيدة أيضاً.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن عظم قدرته وسعة مملكته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ معناه: أنه يمسك السموات من غير علاقة فوقها ولا عماد تحتها، ويمسك الأرض كذلك ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾ أي: لئلا تزولا ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ﴾ أي: وإن قدر أن تزولا عن مراكزهما ما أمسكهما أحد ولا يقدر على إمساكهما أحد ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ أي: من بعد الله تعالى. وقيل: من بعد زوالهما ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ أي: قادراً لا يعاجل بالعقوبة من استحقها ﴿غَفُورٗا﴾ أي: ستاراً للذنوب كثير الغفران، ثم حكى عن الكفار فقال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ يعني: كفار مكة حلفوا بالله قبل أن يأتيهم محمد ﷺ بأيمان غليظة غاية وسعهم وطاقتهم ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: رسول مخوف من جهة الله تعالى ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ﴾ إلى قبول قوله وأتباعه ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ الماضية، يعني: اليهود والنصارى والصابئين ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن الهدى، وهرباً من الحق، والمعنى: أنهم ازدادوا عند مجيئه نفوراً. ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ أي تكبراً وتجبراً، وعتواً على الله، وأنفة من أن يكونوا تبعاً لغيرهم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ أي: وقصد الضرر بالمؤمنين، والمكر السيىء: كل مكر أصله الكذب والخديعة، وكان تأسيسه كل فساد، لأن من المكر ما هو حسن، وهو مكر المؤمنين بالكافرين إذا حاربوهم من الوجه الذي يحسن أن يمكروا بهم، فالمراد به هٰهنا المكر برسول الله ﷺ وبأهل دينه، وأضيف المصدر إلى صفة المصدر، فالتقدير: ومكروا المكر السيىء بدلالة قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ والمعنى: لا ينزل جزاء المكر السيىء إلا بمن فعله ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أي فهل ينتظرون إلا عادة الله تعالى في الأمم الماضية، أن يهلكهم إذا كذبوا رسله، وينزل بهم العذاب، ويحل عليهم النقمة جزاء على كفرهم وتكذيبهم، فإن كانوا ينتظرون ذلك ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ أي: لا يغير الله عادته من عقوبة من كفر نعمته وجحد ربوبيته ولا يبدلها ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ فالتبديل: تصيير الشيء مكان غيره.

والتحويل: تصيير الشيء في غير المكان الذي كان فيه، والتغيير: تصيير الشيء على خلاف ما كان: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أولم يسر هؤلاء الكفار الذين أنكروا إهلاك الله الأمم الماضية في الأرض ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كيف أهلك الله المكذبين من قبلهم مثل قوم لوط وعاد وثمود فيعتبروا بهم ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ وكان أولئك ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من هؤلاء ﴿قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: لم يكن الله يفوته شيء ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بجميع الأشياء ﴿قَدِيرٗا﴾ على ما لا نهاية له. ثم من سبحانه على خلقه

بتأخيره العقاب عنهم، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الشرك والتكذيب لعجل لهم العقوبة، وهو قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والضمير عائد إلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام على ذلك، والعلم الحاصل به ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ والآية مفسرة في سورة النحل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي: هو بصير بمكانهم فيؤاخذهم حيث كانوا. وقيل: بصيراً بأعمالهم فيجازيهم عليها.

سُورَةُ يس

مكية عند الجميع، قال ابن عباس: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية نزلت بالمدينة.

- **عدد آيها:** ثلاث وثمانون آية كوفي. اثنتان في الباقين.
- **اختلافها:** آية واحدة ﴿يسٓ﴾ كوفي.
- **فضلها:** أبي بن كعب قال: من قرأ سورة يس يريد بها وجه الله عز وجل غفر الله له، وأعطيَ من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتي عشرة مرة، وأيما مريض قرئت عنده سورة يس، نزل عليه بعدد كل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً، ويستغفرون له، ويشهدون قبضه، ويتبعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون دفنه، وأيما مريض قرأها وهو في سكرات الموت، أو قرئت عنده، جاءه رضوان خازن الجنة، بشربة من شراب الجنة، فسقاه إياها وهو على فراشه، فيشرب فيموت ريان، ويبعث ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء، حتى يدخل الجنة وهو ريان.

أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال: سورة يس تدعى في التوراة المُعمة، قيل: وما المعمة؟ قال: تعم صاحبها خير الدنيا والآخرة، وتكابد عنه بلوى الدنيا، وتدفع عنه أهاويل الآخرة، وتدعى: المدافعة القاضية، تدفع عن صاحبها كل شر، وتقضي له كل حاجة، ومن قرأها عدلت له عشرين حجة، ومن سمعها عدلت له ألف دينار في سبيل الله، ومن كتبها ثم شربها، أدخلت جوفه ألف دواء، وألف نور، وألف يقين، وألف بركة، وألف رحمة، ونزعت عنه كل داء وعلة.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس.

وعنه عن النبي ﷺ قال: من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذٍ، وكان له بعدد من فيها حسنات.

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، فمن قرأ يس في نهاره قبل أن يمسي، كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي، ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم، ومن كل آفة، وإن مات في نومه أدخله الله الجنة، وحضر غسله ثلاثون ألف ملك، كلهم يستغفرون له، ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له، فإذا أدخل لحده كانوا في جوف قبره، يعبدون الله وثواب عبادتهم له، وفسح له في قبره مد بصره، وأمن من ضغطة القبر، ولم يزل له في قبره نور ساطع إلى عنان السماء، إلى أن يخرجه الله من قبره، فإذا أخرجه لم تزل ملائكة الله معه يشيعونه، ويحدثونه، ويضحكون في وجهه، ويبشرونه بكل خير حتى يجوزوا به الصراط، والميزان، ويوقفوه من الله موقفاً لا يكون عند الله خلق أقرب منه، إلا ملائكة الله المقربون، وأنبياؤه المرسلون، وهو مع

النبيين واقف بين يدي الله، لا يحزن مع من يحزن، ولا يهتم مع من يهتم، ولا يجزع مع من يجزع، ثم يقول له الرب تعالى: اشفع عبدي أشفعك في جميع ما تشفع، وسلني عبدي أعطك جميع ما تسأل، فيسأل فيعطي، ويشفع فيشفع، ولا يحاسب فيمن يحاسب، ولا يذل مع من يذل، ولا يبكت بخطيئة، ولا بشيء من سوء عمله، ويعطى كتاباً منشوراً، فيقول الناس بأجمعهم: سبحان الله، ما كان لهذا العبد خطيئة واحدة، ويكون من رفقاء محمد ﷺ.

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن لرسول الله ﷺ إثني عشر اسماً، خمسة منها في القرآن: محمد، وأحمد، وعبد الله، ويس، ونون.

● **تفسيرها:** لما ذكر سبحانه في آخر السورة أنهم أقسموا بالله ليؤمنن إن جاءهم نذير، افتتح هذه السورة بأنهم لم يؤمنوا وقد جاءهم النذير، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم إلا حماداً ويحيى عن أبي بكر ﴿يسٓ﴾ بالإمالة، والباقون: بالتفخيم. وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وحمزة، وابن كثير برواية القواس، والبزي ونافع برواية إسماعيل، وورش بخلاف بإظهار النون من ﴿يسٓ﴾ عن الواو، وكذلك نون والقلم. وقرأ ابن عامر والكسائي وخلف بإخفاء النون فيهما، وقرأ قالون عن نافع بإظهار النون من نون وإخفائها من ﴿يسٓ﴾ وأما عاصم فإنه يظهر النون منهما في رواية حفص، ورواية البرجمي عن أبي بكر ومحمد بن غالب عن الأعمش عن أبي بكر، ويظهر النون من ﴿يسٓ﴾ ويخفيها من نون، في رواية العليمي عن حماد، وأما يعقوب فإنه يظهر النونين في رواية روح وزيد، ويخفيها في رواية رويس. وقرأ أهل الحجاز والبصرة وأبو بكر: ﴿**تنزيل**﴾ بالرفع، والباقون: بالنصب. وفي الشواذ قراءة الثقفي ﴿يسٓ﴾ بفتح النون، وقراءة أبي السماك ﴿يسٓ﴾ بكسر النون، وقراءة الكلبي ﴿يسٓ﴾ بالرفع. وقراءة ابن عباس وعكرمة وابن يعمر والنخعي وعمر بن عبد العزيز ﴿**فأعشيناهم**﴾ بالعين. وقراءة ابن محيصن والزهري ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة واحدة.

● **الحجة:** قال أبو علي: مما يحسن إمالة الفتح من ﴿يسٓ﴾ نحو الكسرة أنهم قالوا: يا زيد في النداء، فأمالوا الفتحة نحو الكسرة، والألف نحو الياء، وإن كان قولهم: يا، حرفاً على

حرفين، والحروف التي على حرفين لا يمال منها شيء، نحو: لا، وما، فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء، فإن يميلوا الاسم الذي هو «يا» من ياسين أجدر، ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها.

وأما من بين النون من ﴿يسٓ﴾ فإنما جاز ذلك، وإن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم ولا تبين، لأن هذه الحروف مبنية على الوقف، ومما يدل على ذلك استجازتهم فيها الجمع بين ساكنين، كما يجتمعان في الكلم التي يوقف عليها، ولولا ذلك لم يجز الجمع بينهما.

وأما من لم يبين فلأنه وإن كان في تقدير الوقف، لم يقطع فيه همزة الوصل، وذلك قوله: ﴿الم الله﴾ ألا ترى أنه حُذف همزة الوصل، ولم يثبت كما لم يثبت مع غيرها من الكلام الذي يوصل.

ومن رفع ﴿تَنزِيلَ﴾ فعلى تقدير: هو تنزيل العزيز الرحيم، أو تنزيل العزيز الرحيم هذا، والنصب على: نزل تنزيل العزيز الرحيم.

وأما من قال ﴿يسٓ﴾ بالنصب أو الجر فكلاهما لالتقاء الساكنين، ومن رفع فعلى ما روي عن الكلبي أنه قال: هي بلغة طي: يا إنسان. قال ابن جني: ويحتمل عندي أن يكون اكتفى من جميع الاسم بالسين، فيما فيه حرف نداء، كقولك: يا رجل، ونظير حذف بعض الاسم قول النبي ﷺ: «كفى بالسيف شا»، أي: شاهداً، فحذف العين واللام، فكذلك حذف من إنسان الفاء والعين، وجعل ما بقي منه اسماً قائماً برأسه، وهو السين، فقيل: ياسين، وهو شبيه بقول الشاعر:

قلنا لها قفي لنا قالت قافْ[1]

أي: وقفت.

ومن قرأ ﴿فأعشيناهم﴾ بالعين، فإنه منقول من عشي يعشى إذا ضعف بصره، وأعشيته أنا. وأما ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالغين المعجمة، فعلى حذف المضاف، أي: فأغشينا أبصارهم، أي: جعلنا عليها غشاوة، والغشاوة على العين، كالغشي على القلب، فيلتقي معنى القراءتين.

وأما من قرأ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة واحدة، فإنه حذف الهمزة التي للاستفهام تخفيفاً وهو يريدها، كما قال الكميت:

طَربتُ وما شَوقاً إلى البِيضِ أطربُ ... ولا لَعباً منّي، وذو الشَّيبِ يَلعَبُ[2]

والمعنى: أوَ ذو الشيب يلعب؟ تناكراً لذلك، وكبيت الكتاب:

لَعمرُكَ ما أدري وإن كُنتُ دارياً ... شُعَيثُ بنُ سَهمٍ أم شُعَيثُ بنُ مِنقَرِ[3]

---

(١) وبعده: «لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف».

(٢) البيض جمع البيضاء: المرأة الحسناء. يعني ليس هذا الطرب والشوق من المحبة إلى النساء.

(٣) الشعر في (جامع الشواهد). وفي بعض النسخ «شعيب» بالباء الموحدة، وهو تصحيف قاله في (شرح الأشموني ج٤: ٤٥٥).

● **اللغة:** المقمح: الغاض بصره بعد رفع رأسه. وقيل: هو المقنع، وهو الذي يحدب ذقنه حتى يصير في صدره ثم يرفع، وقيل للكانونين: شهرا إقماح، لأن الإبل إذا أوردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده. ويقال: قمح البعير، إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء، وبعير قامح، وإبل قماح، وأقمحتها أنا، قال الشاعر يصف سفينة ركبها:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

● **الإعراب:** ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ يتعلق بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تقديره: أرسلوا على صراط. ويجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع خبر إن، فيكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال، فكأنه قال: أرسلوا مستقيماً طريقهم ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الأجود أن يكون ﴿مَّآ﴾ نافية، وتكون الجملة في موضع نصب، لأنها صفة ﴿قَوْمًا﴾ ويجوز أن يكون ﴿مَّآ﴾ حرفاً موصولاً مصدرياً على تقدير: لتنذر قوماً أنذر آباؤهم.

● **الحجة:** قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ في أبي جهل، كان حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى، سقط الحجر من يده، فقال رجل من بني مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر، فأغشى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، ما صنعت؟ فقال: ما رأيته، ولقد سمعت صوته، وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني. وروى أبو حمزة الثمالي عن عمار بن عاصم عن شقيق بن سلمة عن عبد اللّه بن مسعود، أن قريشاً اجتمعوا بباب النبي ﷺ فخرج إليهم فطرح التراب على رؤوسهم وهم لا يبصرونه. قال عبد اللّه: هم الذين سحبوا[1] في القليب، قليب بدر. وروى أبو حمزة عن مجاهد عن ابن عباس أن قريشاً اجتمعت فقالت: لئن دخل محمد لنقومنّ إليه قيام رجل واحد، فدخل النبي ﷺ فجعل الله من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، فلم يبصروه، فصلى النبي ﷺ ثم أتاهم، فجعل ينثر على رؤوسهم التراب وهم لا يرونه، فلما خلى عنهم رأوا التراب، وقالوا: هذا ما سحركم ابن أبي كبشة.

● **المعنى:** ﴿يسٓ﴾ قد مضى الكلام في الحروف المعجمة عند مفتتح السور في أول البقرة، واختلاف الأقوال فيها. وقيل أيضاً: يس معناه: يا إنسان، عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وقيل معناه: يا رجل، عن الحسن وأبي العالية. وقيل معناه: يا محمد، عن سعيد بن جبير ومحمد بن الحنفية. وقيل معناه: يا سيد الأولين والآخرين. وقيل: هو اسم النبي ﷺ، عن علي بن أبي طالب وأبي جعفر عليه السلام. وقد ذكرنا الرواية فيه قبل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أقسم سبحانه بالقرآن المحكم من الباطل. وقيل: سماه حكيماً لما فيه من الحكمة، فكأنه المظهر للحكمة الناطق بها ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ممن أرسله الله تعالى بالنبوة والرسالة

---

(١) سحبه - كمنعه -: جره على وجه الأرض فانسحب.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يؤدّي بسالكه إلى الحق، أو إلى الجنة. وقيل معناه: على شريعة واضحة وحجة لائحة ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بخلقه ولذلك أرسله. ثم بين سبحانه الغرض في بعثته، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ أي: لتخوف به من معاصي الله قوماً لم ينذر آباؤهم قبلهم، لأنهم كانوا في زمان الفترة بين عيسى ومحمد عليه السلام، عن قتادة. وقيل: لم يأتهم نذير من أنفسهم وقومهم، وإن جاءهم من غيرهم، عن الحسن. وقيل معناه: لم يأتهم من أنذرهم بالكتاب حسب ما آتيت، وهذا على قول من قال: كان في العرب قبل نبينا ﷺ من هو نبي كخالد بن سنان، وقس بن ساعدة، وغيرهما: وقيل معناه: لتنذر قوماً كما أنذر آباؤهم، عن عكرمة ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ عما تضمنه القرآن، وعما أنذر الله به من نزول العذاب والغفلة، مثل السهو، وهو ذهاب المعنى عن النفس.

ثم أقسم سبحانه مرة أخرى، فقال: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ أي: وجب الوعيد واستحقاق العقاب عليهم ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ويموتون على كفرهم، وقد سبق ذلك في علم الله تعالى. وقيل تقديره: لقد سبق القول على أكثرهم أنهم لا يؤمنون فهم لا يؤمنون، وذلك أنه سبحانه أخبر ملائكته أنهم لا يؤمنون فحق قوله عليهم ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ يعني أيديهم، كني عنها وإن لم يذكرها، لأن الأعناق والأغلال تدلان عليها، وذلك أن الغل إنما يجمع اليد إلى الذقن والعنق، ولا يجمع الغل العنق إلى الذقن. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنهما قرآ: (إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً) وقرأ بعضهم: (في أيديهم) والمعنى في الجميع واحد، لأن الغل لا يكون في العنق دون اليد، ولا في اليد دون العنق، ومثل هذا قول الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي لا يأتليني

ذكر الخير وحده، ثم قال: أيهما يليني، لأنه قد علم أن الخير والشر معرضان للإنسان، فلم يدر أيلقاه هذا أم ذلك. ومثله في التنزيل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ ولم يقل: والبرد، لأن ما يقي من الحر يقي من البرد. واختلف في معنى الآية على وجوه:

أحدها: أنه سبحانه إنما ذكره ضرباً للمثل، وتقديره: مثل هؤلاء المشركين في إعراضهم عما تدعوهم إليه كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه، لا يمكنه أن يبسطهما إلى خير، ورجل طامح برأسه لا يبصر موطىء قدميه، عن الحسن والجبائي. قال: ونظيره قول الأفوه الأودي:

كيف الرشاد؟ وقد صرنا إلى أمم ... لهم عن الرشد أغلال وأقياد

ونحوه كثير في كلام العرب.

وثانيها: أن المعنى: كأن هذا القرآن أغلال في أعناقهم، يمنعهم عن الخضوع لاستماعه وتدبره، لثقله عليهم، وذلك أنهم لما استكبروا عنه، وأنفوا من أتباعه، وكان المستكبر رافعاً رأسه، لاوياً عنقه، شامخاً بأنفه، لا ينظر إلى الأرض، صاروا كأنما غلت أيديهم إلى أعناقهم،

وإنما أضاف ذلك إلى نفسه، لأن عند تلاوته القرآن عليهم ودعوته إياهم صاروا بهذه الصفة، فهو مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ عن أبي مسلم.

وثالثها: أن المعنيّ بذلك ناس من قريش همُّوا بقتل النبي ﷺ، فجعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه يداً، عن ابن عباس والسدي.

ورابعها: أن المراد به وصف حالهم يوم القيامة، فهو مثل قوله: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ وإنما ذكره بلفظ الماضي للتحقيق.

وقوله: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ أراد أن أيديهم لما غلت إلى أعناقهم، ورفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً، فهم مرفوعو الرأس برفع الأغلال إياها، عن الأزهري. ويدل على هذا المعنى قول قتادة: مقمحون مغلولون: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ هذا على أحد الوجهين تشبيه لهم بمن هذه صفته في إعراضهم عن الإيمان وقبول الحق، وذلك عبارة عن خذلان الله إياهم لما كفروا، فكأنه قال: وتركناهم مخذولين، فصار ذلك من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، وإذا قلنا: أنه وصف حالهم في الآخرة، فالكلام على حقيقته، ويكون عبارة عن ضيق المكان في النار، بحيث لا يجدون متقدَّما ولا متأخراً، إذ سد عليهم جوانبهم. وإذا حملناه على صفة القوم الذين هموا بقتل النبي ﷺ، فالمراد: جعلنا بين أيدي أولئك الكفار منعاً، ومن خلفهم منعاً، حتى لم يبصروا النبي ﷺ، وقوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: أغشينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبي ﷺ فقد روي أن أبا جهل همّ بقتله ﷺ، فكان إذا خرج بالليل لا يراه، ويحول الله بينه وبينه. وقيل: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ فأعميناهم فهم لايبصرون الهدى. وقيل: فأغشيناهم العذاب فهم لا يبصرون النار. وقيل معناه: أنهم لما انصرفوا عن الإيمان والقرآن لزمهم ذلك، حتى لم يكادوا يتخلصون منه بوجه، كالمغلول والمسدود عليه طرقه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا مفسر في سورة البقرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ

أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو بكر: ﴿فَعَزَزْنَا﴾ بالتخفيف، والباقون: بتشديد الزاي. وقرأ أبو عمرو وقالون عن نافع وزيد عن يعقوب: ﴿إن ذكرتم﴾ بهمزة واحدة غير ممدود، وقرأ ابن كثير ويعقوب ونافع: ﴿أن ذكرتم﴾ بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ أبو جعفر: ﴿أَين﴾ بهمزة واحدة مطولة والثانية ملينة مفتوحة ﴿ذكرتم﴾ مخففة، والباقون: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال بعضهم: ﴿فَعَزَزْنَا﴾ قوينا وكثرنا، وأما عزَزنا فغلبنا، من قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ وقوله: ﴿أئن ذكَّرتُم﴾ فإنما هي «إن» الجزاء دخلت عليها ألف الاستفهام، والمعنى: أئِنْ ذُكرتم تشاءمتم، فحذف الجواب، لأن ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وأصل ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تفعَّلنا، من الطائر عند العرب الذي به يتشاءمون ويتيمنون. ومن قرأ: ﴿أَأَن ذكرتم﴾ بفتح أن فالمعنى: ألأن ذكرتم تشاءمتم، وأما تخفيف الهمزة وتحقيقها فقد تقدم ذكرهما في مواضع.

● **الإعراب:** ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر، يفسره هذا الظاهر الذي هو ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ والتقدير: أحصينا كل شيء أحصيناه ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بدلًا من مثلًا، ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوف، تقديره: قصة أصحاب القرية كائنة إذ جاءها المرسلون و﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ بدلًا من الأول.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عن أولئك الكفار أنهم لا يؤمنون، وأنهم سواء عليهم الإنذار وترك الإنذار، عقبه بذكر حال من ينتفع بالإنذار، فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ والمعنى: إنما ينتفع بإنذارك وتخويفك من اتبع القرآن، لأن نفس الإنذار قد حصل للجميع ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في حال غيبته عن الناس بخلاف المنافق. وقيل معناه: وخشي الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي: فبشر يا محمد من هذه صفته ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ من الله لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: ثواب خالص من الشوائب. ثم أخبر سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في القيامة للجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ من طاعتهم ومعاصيهم في دار الدنيا، عن مجاهد وقتادة. وقيل: نكتب ما قدموه من عمل ليس له أثر ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: ما يكون له أثر، عن الجبائي. وقيل: يعني بآثارهم أعمالهم التي صارت سنة بعدهم يقتدى فيها بهم، حسنة كانت أم قبيحة. وقيل معناه: ونكتب خطاهم إلى المسجد، وسبب ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة، فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، والصلاة معه، فنزلت الآية. وفي الحديث عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم». رواه البخاري ومسلم في الصحيح. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وأحصينا وعددنا كل شيء من الحوادث في كتاب ظاهر، وهو اللوح المحفوظ، والوجه في إحصاء ذلك فيه اعتبار الملائكة

به، إذ قابلوا به ما يحدث من الأمور، ويكون فيه دلالة على معلومات الله سبحانه على التفضل. وقيل: أراد به صحائف الأعمال، وسمي ذلك مبيناً لأنه لا يَدرُس أثره، عن الحسن.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد ﴿مَثَلًا﴾ أي: مثل لهم مثالًا، وهو من قولهم: هؤلاء أضراب، أي: أمثال. وقيل معناه: واذكر لهم مثلًا ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ وهذه القرية أنطاكية في قول المفسرين ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: حين بعث الله إليهم المرسلين ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ أي: رسولين من رسلنا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فكذبوا الرسولين. قال ابن عباس: ضربوهما وسجنوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فقويناهما وشددنا ظهورهما برسول ثالث، مأخوذ من العزة وهي القوة والمنعة، ومنه قولهم: من عزيز، أي: من غلب سلب. قال شعبة: كان اسم الرسولين شمعون ويوحنا، واسم الثالث بولس. وقال ابن عباس وكعب: صادق وصدوق، والثالث سلوم. وقيل: إنهم رسل عيسى وهم الحواريون، عن وهب وكعب قالا: وإنما أضافهم تعالى إلى نفسه لأن عيسى عليه السلام أرسلهم بأمره: ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قالوا لهم يا أهل القرية إن الله أرسلنا إليكم ﴿قَالُوا﴾ يعني أهل القرية ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فلا تصلحون للرسالة كما لا نصلح نحن لها ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ تدعوننا إليه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم إلا كاذبون فيما تزعمون، اعتقدوا أن من كان مثلهم في البشرية لا يصلح أن يكون رسولًا، وذهب عليهم أن الله عز اسمه يختار من يشاء لرسالته، وأنه علم من حال هؤلاء صلاحهم للرسالة وتحمل أعبائها ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإنما قالوا ذلك بعد ما قامت الحجة بظهور المعجزة فلم يقبلوها، ووجه الاحتجاج بهذا القول أنهم ألزموهم بذلك النظر في معجزاتهم، ليعلموا أنهم صادقون على الله، ففي ذلك تحذير شديد ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: وليس يلزمنا إلا أداء الرسالة والتبليغ الظاهر. وقيل معناه: وليس علينا أن نحملكم على الإيمان، فإنا لا نقدر عليه ﴿قَالُوا﴾ أي: قال هؤلاء الكفار في جواب الرسل حين عجزوا عن إيراد شبهة، وعدلوا عن النظر في المعجزة: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عما تدعونه من الرسالة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة، عن قتادة. وقيل معناه: لنشتمنكم، عن مجاهد ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا﴾ يعني الرسل ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: الشؤم كله معكم بإقامتكم على الكفر بالله تعالى، فأما الدعاء إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى ففيه غاية البركة والخير واليمن ولا شؤم فيه. وقيل معنى طائركم: حظكم ونصيبكم من الخير والشر، عن أبي عبيدة والمبرد ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: إن ذكرتم قلتم هذا القول. وقيل معناه: إن ذكرناكم هددتمونا، وهو مثل الأول. وقيل معناه: إن تدبرتم عرفتم صحة ما قلناه لكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ معناه: ليس فينا ما يوجب التشاؤم بنا، ولكنكم متجاوزون عن الحد في التكذيب للرسل والمعصية. والإسراف: الإفساد ومجاوزة الحد، والسرف: الفساد، قال طرفة:

إنَّ امرأً سَرِفُ الفُؤادَ، يَرى عَسَلًا بِماءِ سَحابَةٍ شَتمي[1]

---

(١) أي: يرى شتمي حلواً عذباً.

أي: فاسد القلب ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وكان اسمه حبيب النَّجار، عن ابن عباس وجماعة من المفسرين، وكان قد آمن بالرسل عند ورودهم القرية، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرسل وهموا بقتلهم جاء يعدو ويشتد ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلهم الله إليكم، وأقروا برسالتهم، قالوا: وإنما علم هو بنبوتهم لأنهم لما دعوه قال: أتأخذون على ذلك أجراً؟ قالوا: لا. وقيل: إنه كان به زمانة أو جذام فأبرأوه فآمن بهم، عن ابن عباس.

● **القصة:** قالوا: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب صاحب يس، فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نحن نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله. فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين، قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يعبد الأصنام، فأُنهيَ الخبر إليه فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، فقال الملك: ولنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك، قال: قوما حتى أنظر في أمركما، فأخذهما الناس في السوق وضربوهما. قال وهب بن منبه: بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية، فأتياها ولم يصلا إلى ملكها، وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة.

فلما كُذب الرسولان وضُربا بعث عيسى: شمعون الصفا، رأس الحواريين على إثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه ورضي عشرته، وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك، بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ها هنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء لا شريك له، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين، وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين، فوضعتا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولإلٓهك شرفاً، فقال الملك: ليس لي عنك سر، إن إلهنا الذي نعبده لا يضر ولا ينفع، ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام، لم ندفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً، فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سراً، فقام الميت، وقال لهم:

إني قدمت منذ سبعة أيام، وأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله، فتعجب الملك، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك، دعاه إلى الله، فآمن وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون.

وقد روي مثل ذلك العياشي بإسناده، عن الثمالي وغيره، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام، إلا أن في بعض الروايات: بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية، ثم بعث الثالث، وفي بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما، ثم بعث وصيه شمعون ليخلصهما، وأن الميت الذي أحياه الله تعالى بدعائهما كان ابن الملك، وأنه قد خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه، فقال له: يا بني، ما حالك؟ قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني، قال: يا بني، فتعرفهما إذا رأيتهما، قال: نعم، فأخرج الناس إلى الصحراء، فكان يمر عليه رجل بعد رجل، فمر أحدهما بعد جمع كثير، فقال: هذا أحدهما، ثم مر الآخر فعرفهما، وأشار بيده إليهما فآمن الملك وأهل مملكته[1]. وقال ابن إسحاق: بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ
ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ
عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى
وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ
مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿إِلَّا صَيْحَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ بالرفع، والباقون بالنصب. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود وعبد الرحمن بن الأسود: ﴿إلا زقية﴾ وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: ﴿يَٰحَسْرَهْ عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ ساكنة الهاء، وقراءة علي بن الحسين عليه السلام وأبي بن كعب وابن عباس والضحاك ومجاهد: ﴿يا حسرة العباد﴾ مضافاً.

● **الحجة:** قال ابن جني: الرفع ضعيف لتأنيث الفعل، فلا يقوى أن تقول: ما قامت إلا هند، والمختار: ما قام إلا هند، وذلك أن الكلام محمول على معناه أي: ما قام أحد إلا هند،

---

(١) والأظهر الأوفق بسياق الآيات هو القول الأول، وأنهم ما آمنوا بأجمعهم، بل في بعض التفاسير أنَّ الغلبة للكفار والمكذّبين، وهم الذين قتلوا حبيب النجار صاحب يسّ.

ثم إنه لما كان محصول الكلام قد كانت هناك صيحة واحدة جيء بالتأنيث حملاً للظاهر عليه، ومثله قراءة الحسن: ﴿فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم﴾ بالتاء في ﴿ترى﴾ وعليه قول ذي الرمة:

طَوى النَحزُ والأجرازُ ما في غُروضِها فَما بَقِيَتْ إلّا الصُدورُ الجَراشِعُ(١)

وأما الزقية فمن زقا الطائر يزقو ويزقي زُقاء وزقواً إذا صاح، وهي الزقية والزقوة، وكأنه إنما استعمل ها هنا صياح الديك ونحوه، تنبيهاً على أن البعث بما فيه من عظيم القدرة في استثارة الموتى من القبور سهل على الله تعالى كزقية زقاها طائر. فهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

وأما من قرأ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ بسكون الهاء، فيمكن أن يكون حسرة غير معلقة بـ﴿عَلَى﴾ فيحسن الوقف عليها، ثم يعلق على بمضمر يدل عليه قوله: حسرة فكأنه قال: أتحسر على العباد، ومثل ذلك كثير في التنزيل، وإذا كان حسرة معلقة بعلى أو موصوفة، فلا يحسن الوقف عليها دونه، وعلى هذا فيمكن أن يكون ذلك لتقوية المعنى في النفس، وذلك أنه موضع تنبيه وتذكير فطال الوقف على الهاء، كما يفعله المستعظم للأمر المتعجب منه، الدال على أنه قد بهره وملك عليه لفظه وخاطره، ثم قال من بعد ﴿عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾.

وأما من قرأ: ﴿يا حسرة العباد﴾ مضافاً، فإن فيه وجهين:

أحدهما: أن يكون العباد فاعلين في المعنى، كقوله: يا قيام زيد، والمعنى: كان العباد إذا شاهدوا العذاب تحسروا.

والآخر: أن العباد مفعولون في المعنى، وتدل عليه القراءة الظاهرة ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يتحسر عليهم من يعنيه أمرهم، وهذا واضح.

وفتح أبو عمرو الياء من قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾ لئلا يكون الابتداء بـ ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾. وقرأ في النمل: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ بسكون الياء.

● **المعنى**: ثم ذكر سبحانه تمام الحكاية عن الرجل الذي جاءهم من أقصى المدينة، فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: وقال لهم: اتَّبعوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر، ولا يسألونكم أموالكم على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿وَهُم﴾مع ذلك ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق سالكون سبيله، قال: فلما قال هذا أخذوه ورفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: وأي شيء لي إذا لم أعبد خالقي الذي أنشأني وأنعم علي وهداني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تردون عند البعث فيجزيكم بكفركم، ثم أنكر اتخاذ الأصنام وعبادتها، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعبدهم ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ أي: إن أراد الله إهلاكي والإضرار بي ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تدفع ولا تمنع

---

(١) البيت في (جامع الشواهد)، وفي بعض النسخ: «ترى»، بدل «طوى»، وهو تصحيف وكذلك «برى». و«ما» في قوله «ما في غروضها» موصولة، وتكون مفعولاً لطوى، وليست بنافية كما زعمه بعض.

شفاعتهم عني شيئاً، والمعنى: لا شفاعة لهم فتغني ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: ولا يخلصوني من ذلك الهلاك، أو الضرر والمكروه ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إني إن فعلت ذلك في عدول عن الحق واضح، والوجه في هذا الاحتجاج أن العبادة لا يستحقها إلا الله سبحانه، المنعم بأصول النعم وبما لا توازيه نعمة منعم. ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي واقبلوه، عن وهب. وقيل: إنه خاطب بذلك الرسل، أي: فاسمعوا ذلك مني حتى تشهدوا لي به عند اللّه، عن ابن مسعود. قال: ثم إن قومه لما سمعوا ذلك القول منه وطؤوه بأرجلهم حتى مات، فأدخله الله الجنة وهو حي فيها يرزق، وهو قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقيل: رجموه حتى قتلوه، عن قتادة. وقيل: إن القوم لما أرادوا أن يقتلوه رفعه الله إليه، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء الدنيا وهلاك الجنة، عن الحسن ومجاهد. وقال: إن الجنة التي دخلها يجوز هلاكها. وقيل: إنهم قتلوه، إلا أن الله سبحانه أحياه وأدخله الجنة فلما دخلها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى من المغفرة وجزيل الثواب ليرغبوا في مثله، وليؤمنوا لينالوا ذلك. وفي تفسير الثعلبي بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن النبي ﷺ قال: سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب عليه السلام، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون، فهم الصديقون وعليٌّ أفضلهم. ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: من المدخلين الجنة، والإكرام هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التبجيل والإعظام. وفي هذا دلالة على نعيم القبر، لأنه إنما قال ذلك وقومه أحياء، وإذا جاز نعيم القبر جاز عذاب القبر، فإن الخلاف فيهما واحد، وما في قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ مصدرية، والمعنى: بمغفرة الله لي، ويجوز أن يكون معناه: بالذي غفر لي به ربي، فيكون اسماً موصولًا، ويجوز أن يكون المعنى: بأي شيء غفر لي ربي؟ فيكون استفهاماً. يقال: علمت بما صنعت هذا بإثبات الألف، وبم صنعت هذا بحذفها، إلا أن الحذف أجود في هذا المعنى.

ثم حكى سبحانه ما أنزله بقومه من العذاب والاستئصال، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتله أو من بعد رفعه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني الملائكة، أي: لم ننتصر منهم بجند من السماء، ولم تنزل لإهلاكهم بعد قتلهم الرسل جنداً من السماء يقاتلونهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: وما كنا ننزلهم على الأمم إذا أهلكناهم. وقيل معناه: وما أنزلنا عى قومه من بعده رسالة من السماء، قطع الله عنهم الرسالة حين قتلوا رسله، عن مجاهد والحسن. والمراد: أن الجند هم ملائكة الوحي الذين ينزلون على الأنبياء. ثم بين سبحانه بأي شيء كان هلاكهم، فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر، صيحة واحدة حتى هلكوا بأجمعهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي: ساكنون قد ماتوا. وقيل: إنهم لما قتلوا حبيب بن مري النجار، غضب الله عليهم، فبعث جبرائيل حتى أخذ بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم لا يسمع لهم حس، كالنار إذا طفئت ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ معناه: يا ندامة على العباد في الآخرة باستهزائهم بالرسل في الدنيا. ثم بين سبب الحسرة، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ

﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، عن مجاهد، وهذا من قول الله سبحانه، والمعنى: أنهم حلوا محل من يتحسر عليه. وقيل إن المعنى: يا ويلًا على العباد ـ عن ابن عباس. ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الرجل المذكور. وقال أبو العالية: إنهم لما عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة على العباد، يعني على الرسل حيث لم نؤمن بهم، فتمنوا الإيمان وندموا حين لم تنفعهم الندامة.

قال الزجاج: إذا قال قائل: ما الفائدة في مناداة الحسرة والحسرة مما لا تجيب؟ فالفائدة في ذلك أن النداء باب تنبيه، فإذا قلت للمخاطب: أنا أعجب مما فعلت، فقد أفدته أنك متعجب، وإذا قلت: واعجباه مما فعلت، ويا عجباه تفعل كذا، كان دعاؤك العجب أبلغ في الفائدة. والمعنى: يا عجب أقبل فإنه من أوقاتك، وكذلك إذا قلت: ويل زيد لم فعل كذا، ثم قلت: يا ويل زيد لم فعل كذا، كان أبلغ، وكذلك في كتاب الله تعالى: يا ويلتا، ويا حسرتا، ويا حسرة على العباد، والحسرة: أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى قلبه حسيراً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ بتشديد الميم، والباقون: بالتخفيف. وقرأ أهل الكوفة غير حفص: ﴿**وما عملت**﴾ بغير هاء، والباقون: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾.

● **الحجة:** من خفف الميم من ﴿لَمَا﴾ فإن من قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ مخففة من الثقيلة، و «ما» من ﴿لَمَا﴾ مزيدة، والتقدير: وإنه كل لجميع لدينا محضرون، ومن شدد الميم من ﴿لَّمَّا﴾ فإن ﴿لَّمَّا﴾ ها هنا بمعنى «إلا» يقال: سألتك لما فعلت كذا، وإلا فعلت. وإن: نافية، فيكون التقدير: ما كل إلا محضرون. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الحذف في التنزيل من هذا كثير، نحو قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ و ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وموضع «ما» جر، والتقدير: ليأكلوا مما عملته أيديهم، ويجوز أن يكون «ما» نافية، أي: ولم تعمله أيديهم، ويقوي ذلك قوله: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والتقدير: ألم يروا أنهم إليهم لا يرجعون، و ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا.

● **المعنى:** ثم خوّف سبحانه كفار مكة، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء الكفار ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي: كم قرناً أهلكناهم، مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى: ألم يروا أن القرون التي أهلكناهم لا يرجعون إليهم، أي: لا يعودون إلى الدنيا

أفلا يعتبرون بهم، ووجه التذكير بكثرة المهلكين، أي: أنكم ستصيرون إلى مثل حالهم، فانظروا لأنفسكم واحذروا أن يأتيكم الهلاك وأنتم في غفلة وغرة كما أتاهم، ويسمى أهل كل عصر قرناً لاقترانهم في الوجود: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ معناه: أن الأمم يوم القيامة يحضرون فيقفون على ما عملوه في الدنيا، أي: وكل الماضين والباقين مبعوثون للحساب والجزاء. ثم قال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: ودلالة وحجة قاطعة لهم على قدرتنا على البعث ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾ أي: الأرض القحطة المجدبة التي لا تنبت أحييناها بالنبات ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: كل حب يتقوّتونه مثل الحنطة والشعير والأرز وغيرها من الحبوب ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: فمن الحب يأكلون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ﴾ وإنما خص النوعين لكثرة أنواعهما ومنافعهما ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: وفجرنا في تلك الأرض الميتة، أو في تلك الجنات عيوناً من الماء ليسقوا بها الكرم والنخيل، ثم بين سبحانه أنه إنما فعل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي: من ثمر النخيل، رد الضمير إلى أحد المذكورين، كما قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: غرضنا نفعهم بذلك وانتفاعهم بأكل ثمار الجنات. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ولم تعمل تلك الثمار أيديهم، هذا إذا كان «ما» بمعنى النفي. قال الضحاك أي: وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها، أراد أنه من صنع الخالق ولم يدخل في مقدورات الخلائق، وإذا كان بمعنى الذي، فالتقدير: والذي عملته أيديهم من أنواع الأشياء المتخذة من النخل والعنب، الكثير منافعها. وقيل تقديره: ومن ثمره ما عملته أيديهم، يعني الغروس والزروع التي قاسوا حراثتها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أفلا يشكرون الله تعالى على مثل هذه النعم. وهذا تنبيه منه سبحانه لخلقه على شكر نعمائه، وذكر جميل بلائه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ زيد عن يعقوب: ﴿لِمُسْتَقِرٍّ لَّهَا﴾ بكسر القاف، والباقون: بفتحها. وقرأ أهل الحجاز والبصرة غير أبي جعفر ورويس: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بالرفع، والباقون: بالنصب. وروي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام، وابن عباس وابن مسعود وعكرمة وعطاء بن أبي رباح: ﴿لا مستقر لها﴾ بنصب الراء.

● **الحجة:** قال أبو علي: الرفع على تقدير: وآية لهم القمر قدرناه منازل، مثل قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ فهو على هذا أشبه بالجمل التي قبلها. والقول في آية أنه يرتفع بالابتداء،

و﴿لَّهُمُ﴾ صفة للنكرة، والخبر مضمر، تقديره: وآية لهم في الشاهد في الوجود. وقوله: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ تفسير للآية، كما أن قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ تفسير للوعد[١]، و﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ تفسير للوصية[٢]، ومن نصب فقد حمله على زيداً ضربته. وأما قوله: ﴿لا مستقر لها﴾ فظاهره العموم، والمعنى الخصوص، فهو بمنزلة قوله:

أبكي لِفَقدِكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقةٌ وما سَما فَنَنٌ يوماً على ساقِ[٣]

والمعنى: لو عشت أبداً لبكيتك، وكذلك قوله: ﴿لا مستقر لها﴾ أي: ما دامت السموات على ما هي عليه، فإذا زالت السموات استقرت الشمس وبطل سيرها.

● **اللغة:** السلخ: إخراج الشيء من لباسه، ومنه: إخراج الحيوان من جلده، ومنه قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: فخرج منها خروج الشيء مما لابسه. والعرجون: العذق الذي فيه الشماريخ، وهو العثكول والعِثكال والكِباسة والقنو، وهو فعلول، قال رؤبة:

في خِدْرِ مَيَّاسِ الدُّمى مُعرجَنِ[٤]

● **الإعراب:** ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ تقديره: ذا منازل، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ولا يجوز أن يكون بلا حذف، لأن القمر غير المنازل، وإنما يجري فيها، ولا يجوز أن ينتصب ﴿مَنَازِلَ﴾ على الظرف، لأنه محدود، والفعل لا يصل إلى المحدود إلا بحرف جر، نحو: جلست في المسجد، ولا يجوز جلست المسجد.

● **المعنى:** ثم نزه سبحانه نفسه وعَظَّمَها، دالاً بذلك على أنه هو الذي يستحق منتهى الحمد، وغاية الشكر، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: تنزيهاً وتعظيماً وبراءة عن السوء الذي خلق الأصناف والأشكال من الأشياء، فالحيوان على مشاكلة الذكر للأنثى، وكذلك النخل والحبوب أشكال، والتين والكرم ونحوهما أشكال، فلذلك قال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: من سائر النبات ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: وخلق منهم أولاداً أزواجاً وذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مما في بطون الأرض وقعر البحار فلم يشاهدوه ولم يتصل خبره بهم ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ﴾ أي: ودلالة لهم أخرى: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: ننزع منه ونخرج ضوء الشمس، فيبقى الهواء مظلماً كما كان، لأن الله سبحانه يضيء الهواء بضياء الشمس، فإذا سلخ منه الضياء أي كشط وأزيل يبقى مظلماً. وقيل: إنما قال سبحانه: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ لأنه تعالى جعل الليل كالجسم لظلمته، وجعل النهار كالقشر، ولأن النهار عارض، فهو كالكسوة، والليل أصل فهو

---

(١) أي في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

(٢) أي في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١].

(٣) المطوقة: الحمامة التي في عنقها طوق. والفنن: الغصن.

(٤) الخدر: الستر. والمياس: المتبختر. والدمى: جمع الدمية: الصنم، وقيل: الصورة المنقشة من العاج، أو الرخام، و«معرجن» أي: مصور فيه صورة النخل من قولهم عرجن الثوب: صور فيه صور العراجين.

كالجسم، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الليل لا ضياء لهم فيه ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ معناه: ودلالة أخرى لهم الشمس، وفي قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أقوال:

أحدها: أنها تجري لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا، فلا تزال تجري حتى تنقضي الدنيا، عن جماعة من المفسرين. قال أبو مسلم: ومعنى هذا ومعنى: ﴿**لا مستقر لها**﴾ واحد، أي: لا قرار لها إلى انقضاء الدنيا.

وثانيها: أنها تجري لوقت واحد لا تعدوه ولا يختلف، عن قتادة.

وثالثها: أنها تجري إلى أقصى منازلها في الشتاء والصيف لا تتجاوزها، والمعنى: أن لها في الارتفاع غاية لا تتجاوزها ولا تنقطع دونها، ولها في الهبوط غاية لا تتجاوزها ولا تقصر عنها، فهو مستقرها.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي: القادر الذي لايعجزه شيء ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلًا، ينزل كل يوم وليلة منزلة منها، لا يختلف حاله في ذلك إلى أن يقطع الفلك ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: عاد في آخر الشهر دقيقاً، كالعذق اليابس العتيق، ثم يخفى يومين آخر الشهر، وإنما شبهه سبحانه بالعذق لأنه إذا مضت عليه الأيام جف وتقوس، فيكون أشبه الأشياء بالهلال. وقيل: إن العذق يصير كذلك في كل ستة أشهر.

روى علي بن إبراهيم بإسناده قال: دخل أبو سعيد المكاري وكان واقفياً على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فقال له: أبلغ من قدرك أنك تدَّعي ما ادعاه أبوك؟ فقال له أبو الحسن: مالك أطفأ الله نورك؟ وأدخل الفقر بيتك؟ أما علمت أن الله عز وجل أوحى إلى عمران، أني واهب لك ذكراً يبرىء الأكمه والأبرص، فوهب له مريم، ووهب لمريم عيسى، فعيسى من مريم، ومريم من عيسى، ومريم وعيسى شيء واحد، وأنا من أبي، وأبي مني، وأنا وأبي شيء واحد.

فقال له أبو سعيد: فأسألك عن مسألة؟ قال: سل، ولا أخالك تقبل مني، ولست من غنمي، ولكن هلمَّها، قال: ما تقول في رجل قال عند موته: كل مملوك لي قديم فهو حرٌ لوجه الله، فقال أبو الحسن: ما ملكه لستة أشهر فهو قديم وهو حر. قال: وكيف صار كذلك؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أسماه الله: قديماً، ويعود كذلك لستة أشهر، قال فخرج أبو سعيد من عنده وذهب بصره، وكان يسأل على الأبواب حتى مات.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره، لأن الشمس أبطأ سيراً من القمر، فإنها تقطع منازلها في سنة، والقمر يقطعها في شهر، والله سبحانه يجريهما إجراء التدوير بأن باين بين فلكيهما ومجاريهما، فلا يمكن أن يدرك أحدهما الآخر ما داما على هذه الصفة ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: ولا يسبق الليل النهار. وقيل معناه: لا يجتمع ليلتان ليس بينهما يوم، بل تتعاقبان كما قدره الله تعالى، عن عكرمة.

وروى العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال: كنت بخراسان حيث اجتمع

الرضا عليه السلام، والفضل بن سهل، والمأمون في إيوان الحبري بمرو، فوضعت المائدة، فقال الرضا عليه السلام: إن رجلاً من بني إسرائيل سألني بالمدينة، فقال: النهار خلق قبل أم الليل؟ فما عندكم؟ قال: فأداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء، فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها ـ أصلحك الله ـ قال: نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل: من جهة الحساب، فقال: قد علمت ـ يا فضل ـ أن طالع الدنيا السرطان، والكواكب في مواضع شرفها، فزحل في الميزان، والمشتري في السرطان، والشمس في الحمل، والقمر في الثور، فذلك يدل على كينونة الشمس في الحمل، في العاشر من الطالع في وسط السماء، فالنهار خلق قبل الليل، وفي قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: قد سبقه النهار. ثم قال: ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بانبساط، وكل ما انبسط في شيء فقد سبح فيه، ومنه: السباحة في الماء، وإنما قال: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بالواو والنون لما أضاف إليها ما هو من فعل الآدميين، كما قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ لما وصفها بصفة من يعقل. وقال ابن عباس: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ أي: يجري كل واحد منها في فلكه كما يدور المغزل في الفلكة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب وسهل: ﴿ذرياتهم﴾ على الجميع، والباقون: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد. وقرأ ابن كثير وورش ومحمد بن حبيب عن الأعمش وروح وزيد عن يعقوب: ﴿يَخَصِّمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد، وقرأ أبو عمرو بفتح الخاء أيضاً، إلا أنه يشمه الفتح ولا يشبعه، وقرأ أهل المدينة غير ورش: ﴿يَخْصِّمُونَ﴾ ساكنة الخاء مشددة الصاد، وقرأ حمزة: ﴿يَخْصِمُونَ﴾ ساكنة الخاء خفيفة الصاد، والباقون: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد.

● **الحجة:** من قرأ ﴿يَخَصِّمون﴾ حذف الحركة من التاء المدغم في يختصمون وألقاها على الساكن الذي قبلها وهو الخاء، وهذا أحسن الوجوه، بدلالة قولهم: ودَّ وفرَّ وغض، ألقوا حركة العين على الساكن الذي قبلها. ومن قرأ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ حذف الحركة من الحرف المدغم،

إلا أنه لم يلقها على الساكن الذي قبلها كما ألقاه في الأول، فالتقى الساكنان، فحرك الحرف الذي قبل المدغم بالكسر. ومن قرأ ﴿يَخْصّمُون﴾ جمع بين الساكنين الخاء والحرف المدغم. قال أبو علي: ومن زعم أن ذلك ليس في طاقة اللسان، فقد ادَّعى ما يعلم فساده بغير استدلال. وأما من قرأ ﴿يَخْصِمون﴾ وتقديره: يخصم بعضهم بعضاً، فحذف المضاف وحذف المفعول به، ويجوز أن يكون المعنى: يخصمون مجادلهم عند أنفسهم، فحذف المفعول به، ومعنى: ﴿يخصمون﴾ يغلبون في الخصام خصومهم.

● **اللغة:** الحمل: منع الشيء أن يذهب إلى جهة السفل. والفُلك: السفن، لأنها تدور في الماء، ومنه: الفلكة، لأنها تدور في المغزل، والفَلك: لأنها تدور بالنجوم، وفلك ثدي المرأة إذا استدار. و ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء، وشحنت الثغر بالرجال أشحنه شحناً: إذا ملأته، ومنه الشِّحنة، لأنه يملأ بهم البلد.

● **الإعراب:** ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ نصب على أنه مفعول له ﴿وَمَتَٰعًا﴾ عطف عليه ويمكن أن يكون على معنى: إلا أن نرحمهم رحمة ونمتعهم متاعاً.

● **المعنى:** ثم امتن سبحانه على خلقه بذكر فنون نعمه دالاً بذلك على وحدانيته فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: وحجة وعلامة لهم عى اقتدارنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني آباءهم وأجدادهم الذين هؤلاء من نسلهم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يعني سفينة نوح المملوءة من الناس، وما يحتاج إليه من فيها فسلموا من الغرق، فانتشر منهم بشر كثير، ويسمَّى الآباء ذرية من ذرأ الله الخلق، لأن الأولاد خلقوا منهم، وسمي الأولاد ذرية لأنهم خلقوا من الآباء، عن الضحاك وقتادة وجماعة من المفسرين. وقيل: الذرية هم الصبيان والنساء، والفلك هي السفن الجارية في البحار، وخص الذرية بالحمل في الفلك لضعفهم، ولأنه لا قوة لهم على السفر كقوة الرجال، فسخر الله لهم السفن ليمكن الحمل في البحر، والإبل ليمكن الحمل في البر، يقول القائل: حملني فلان إذا أعطاه ما يحمل، أو هداه إلى ما يحمل عليه، قال الشاعر:

ألا فتى عنده خفان يحملني عليهما إنني شيخ على سفر

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح سفناً يركبون فيها كما ركب نوح، يعني السفن التي عملت بعد سفينة نوح مثلها على صورتها وهيئتها، عن ابن عباس وغيره. وقيل: إن المراد به الإبل، وهي سفن البر، عن مجاهد. وقيل: مثل السفينة من الدواب كالإبل والبقر والحمير، عن الجبائي. ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي: وإن نشأ إذا حملناهم في السفن نغرقهم بتهييج الرياح والأمواج ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: ولا يخلصون من الغرق إذا أردناه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلا أن نرحمهم بأن نخلصهم في الحال من أهوال البحر، ونمتعهم إلى وقت ما قدرناه، لتقضي آجالهم. وقيل معناه: بقيناهم نعمة منّا عليهم، وإمتاعاً إلى مدة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للمشركين ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من أمر الآخرة فاعملوا لها ﴿وَمَا

﴿خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لتكونوا على رجاء الرحمة من الله تعالى، عن ابن عباس. وقيل معناه: اتقوا ما مضى من الذنوب، وما يأتي من الذنوب، عن مجاهد. أي: اتقوا عذاب الله بالتوبة للماضي. والاجتناب للمستقبل. وقيل: اتقوا العذاب المنزل على الأمم الماضية، وما خلفكم من عذاب الآخرة، عن قتادة. وروى الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال معناه: اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب، وما خلفكم من العقوبة، وجواب ﴿وَإِذَا﴾ محذوف، تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: أعرضوا عن الداعي وعن التفكر في الحجج وفي المعجزات، و ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ هي التي تزاد في النفي للاستغراق، ومن الثانية للتبعيض، أي: ليس تأتيهم آية، أيّة آيةٍ كانت إلا ذهبوا عنها وأعرضوا عن النظر فيها، وذلك سبيل من ضل عن الهدى وخسر الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أيضاً ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في طاعته وأخرجوا ما أوجب الله عليكم في أموالكم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ احتجوا في منع الحقوق بأن قالوا: كيف نطعم من يقدر الله على إطعامه؟ ولو شاء الله إطعامه أطعمه، فإذا لم يطعم دل على أنه لم يشأ إطعامه، وذهب عليهم أن الله سبحانه إنما تعبدهم بذلك، لما لهم فيه من المصلحة، فأمر الغني بالإنفاق على الفقير ليكسب به الأجر والثواب.

واختلف في هؤلاء الذين قالوا ذلك. فقيل: هم اليهود حين أمروا بإطعام الفقراء، عن الحسن. وقيل: هم مشركو قريش، قال لهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: أطعمونا من أموالكم ما زعمتم أنه لله، وذلك قوله: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾، عن مقاتل. وقيل: هم الزنادقة الذين أنكروا الصانع تعلقوا بقوله: ﴿رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: إن كان هو الرزاق فلا فائدة في التماس الرزق منا، وقد رزقنا وحرمكم، فلم تأمرون بإعطاء من حرمه الله. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من قول الكفار لمن أمرهم بالإطعام، عن قتادة. وقيل: إنه من قول الله تعالى لهم حين ردوا هذا بالجواب، عن علي بن عيسى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به من نزول العذاب بنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك أنت وأصحابك، وهذا استهزاء منهم بخبر النبي صلى الله عليه وآله وخبر المؤمنين. فقال تعالى في جوابهم: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد النفخة الأولى، عن ابن عباس. يعني أن القيامة تأتيهم بغتة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ الصيحة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يختصمون في أمورهم ويتبايعون في الأسواق. وفي الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه، فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم. والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم. وقيل: وهم يختصمون هل ينزل بهم العذاب أم لا؟ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ يعني أن الساعة إذا أخذتهم بغتة لم يقدروا على الإيصاء بشيء ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ولا إلى منازلهم يرجعون من الأسواق، وهذا إخبار عما يلقونه في النفخة الأولى عند قيام الساعة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ
فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا
يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ
أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح: ﴿**في شغل**﴾ ساكنة الغين، والباقون: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ بضم الغين. وقرأ أبو جعفر: ﴿**فكهون**﴾ بغير ألف حيث وقع، ووافقه حفص في المطففين ﴿**انقلبوا فكهين**﴾ وقرأ الآخرون بالألف كل القرآن وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿في ظُلَلٍ﴾ بضم الظاء بلا ألف، والباقون: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قرأ: ﴿من بعثِنا مِن مرقدنا﴾ وفي الشواذ قراءة ابن أبي ليلى: ﴿**يا ويلتا**﴾ وقرأ أبي بن كعب: **من هَبَّنا**(١) **من مرقدنا**.

● **الحجة:** الشغل والشغُل لغتان، وكذلك الفكه والفاكه. والظُّلل: جمع ظُلة، والظلال يجوز أيضاً أن يكون جمع ظُلة، فيكون كبُرمة وبِرام وعُلبة وعِلاب، ويجوز أن يكون جمع ظِل. وأما قوله: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾ فهو كقولك: يا ويلي من أخذك مني، قال ابن جني: من الأولى متعلقة بالويل كقولك: يا تألمي منك، وإن شئت كان حالًا فتعلقت بمحذوف حتى كأنه قال: يا ويلنا كائناً من بعثنا، فجاز أن يكون حالًا منه، كما جاز أن يكون خبراً عنه، في مثل قول الأعشى:

قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يا رجل

وذلك أن الحال ضرب من الخبر، وأما من في قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فمتعلقة بنفس البعث. ومن قرأ: ﴿**يا ويلتا**﴾ فأصله يا ويلتي، فأبدلت الياء ألفاً لأنه نداء، فهو موضع تخفيف، فتارة تحذف هذه الياء، نحو: غلام، وتارة بالبدل، نحو: يا غلام، قال:

يا أبتا علك أو عساكا(٢)

فإن قلت: كيف قال: ﴿**يا ويلتا**﴾، وهذا اللفظ للواحد وهم جماعة؟ فالقول أنه يكون على أن كل واحد منهم قال: يا ويلتا من بعثنا من مرقدنا، ونحوه قوله: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أي: فاجلدوا كل واحد منهم، ومثله ما حكاه أبو زيد من قولهم: أتينا الأمير فكسانا كلنا حلة، وأعطانا

---

(١) على قول من قال: إنَّ هب بمعنى أهب، يقال: أهبه من نومه أي: أيقظه. وأنكره ابن جني، وسيأتي الكلام فيه في الحجة.

(٢) هذا عجز بيت وصدره: «تقول بنتي قد أنى إناكا» وهو مذكور في (جامع الشواهد).

كلنا مائة، أي: كسا كل واحد منا حلة، وأعطى كل واحد منا مائة. وأما «هَبنا» فيمكن أن يكون هبَّ لغة في أهب، ويمكن أن يكون على معنى: هب بنا، أي: أيقظنا، ثم حذف حرف الجر فوصل الفعل.

● **اللغة:** قال أبو عبيدة: الصور جمع صورة، مثل بسرة وبُسر، وهو مشتق من صاره يصوره صوراً إذا أماله، فالصورة تميل إلى مثلها بالمشاهدة. والجدث: القبر، وجمعه الأجداث، وهذه لغة أهل العالية، ويقول أهل السافلة بالفاء: جدف. والنسول: الإسراع في الخروج، يقال: نسل ينسِل وينسُل، قال امرؤ القيس:

وإن تَـكُ قَـد سـاءَتـكِ مِـنّـي خَـلـيـقَـةٌ فَـسُـلّي ثِـيـابي مـن ثِـيـابِـكِ تَـنـسَـلِ(١)

وقال آخر:

عَـسَـلانَ الـذِّئـبِ أمـسـى قـارِبـاً بَـرَدَ الـلَّـيـلُ عَـلَـيـهِ فَـنَـسَـل(٢)

● **الإعراب:** ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، ويكون ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ كلاماً تاماً يوقف عليه، ويجوز أن يكون هذا من نعت ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ أي: مرقدنا الذي كنا راقدين فيه، فيكون الوقف على مرقدنا هذا، ويكون ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف الخبر على تقدير: هذا ما وعد الرحمن، أو حق ما وعد الرحمن. ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل من ما، والمعنى: لهم ما يتمنون لهم سلام، و ﴿قَوۡلٗا﴾ منصوب على أنه مصدر فعل محذوف، أي: يقوله الله قولاً.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن النفخة الثانية، وما يلقونه فيها إذا بُعثوا بعد الموت، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: إلى الموضع الذي يحكم الله فيه لا حكم لغيره هناك ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يخرجون سراعاً، فلما رأوا أهوال القيامة ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ أي: من حشرنا من منامنا الذي كنا فيه نياماً، ثم يقولون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فيما أخبرونا عن هذا المقام، وهذا البعث. قال قتادة: أول الآية للكافرين، وآخرها للمسلمين، قال الكافرون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، وقال المسلمون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وإنما وصفوا القبر بالمرقد، لأنهم لما أحيوا كانوا كالمنتبهين عن الرقدة. وقيل: إنهم لما عاينوا أحوالهم في القيامة عدُّوا أحوالهم في قبورهم بالإضافة إلى تلك الأهوال رُقاداً. قال قتادة: هي النومة بين النفختين، لا يفتر عذاب القبر إلا فيما بينهما، فيرقدون. ثم أخبر سبحانه عن سرعة بعثهم، فقال: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: لم تكن المدة إلا مدة صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي: فإذا الأولون والآخرون مجموعون في عرصات القيامة، محصلون في موقف الحساب. ثم حكى

---

(١) هذا بيت من المعلقة، وقد مر، وكذا البيت الآتي.

(٢) قائله لبيد، وقيل: هو للنابغة الجعدي، وعسل الذئب: مضى مسرعاً، واضطرب في عدوه، وهز رأسه.

سبحانه ما يقوله يومئذٍ للخلائق، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقص من له حق شيئاً من حقه من الثواب، أو العوض أو غير ذلك، ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب، بل الأمور جارية على مقتضى العدل، وذلك قوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكر سبحانه أولياءه، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ شغلهم النعيم الذي يشملهم وغمرهم بسروره عما فيه أهل النار من العذاب، عن الحسن والكلبي. فلا يذكرونهم ولا يهتمون بهم، وإن كانوا أقاربهم. وقيل: شغلوا بافتضاض العذارى، عن ابن عباس وابن مسعود، وهو المروي عن الصادق عليه السلام. قال: وحواجبهنّ كالأهلة[1]، وأشفار أعينهن كقوادم النسور. وقيل: باستماع الألحان، عن وكيع. وقيل: شغلهم في الجنة سبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء: فثواب الرِّجل بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ وثواب اليد ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ وثواب الفرج ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وثواب البطن ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ الآية وثواب اللسان ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الآية. وثواب الأذن ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ونظائرها. وثواب العين ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

﴿فَـٰكِهُونَ﴾ أي: فرحون، عن ابن عباس، وقيل: ناعمون متعجبون بما هم فيه. قال أبو زيد: الفكِه: الطيب النفس الضحوك. رجل فكه وفاكه، ولم يسمع لهذا فعل في الثلاثي. وقال أبو مسلم: إنه مأخوذ عن الفكاهة، فهو كناية عن الأحاديث الطيبة. وقيل: فاكهون: ذوو فاكهة، كما يقال: لاحمٌ شاحمٌ، أي: ذو لحم وشحم، وعاسل ذو عسل، قال الحطيئة:

وغَـرَرْتَـنـي وَزَعَـمْـتَ أنَّـكَ   لابِـنٌ فـي الـصَّـيْـفِ تـامِـرُ

أي: ذو لبن وتمر. ثم أخبر سبحانه عن حالهم، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ أي: هم وحلائلهم في الدنيا ممن وافقهم على إيمانهم في أستار عن وهج[2] الشمس وسمومها، فهم في مثل تلك الحال الطيبة من الظلال التي لا حر فيها ولا برد. وقيل: أزواجهم اللاتي زوجهم الله من الحور العين ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ أشجار الجنة. وقيل: في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر عليها الحجال. وقيل: هي الوسائد ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ أي: جالسون جلوس الملوك، إذ ليس عليهم من الأعمال شيء. قال الأزهري: كل ما اتكىء عليه فهو أريكة، والجمع أرائك ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: ما يتمنون ويشتهون. قال أبو عبيدة: يقول العرب: ادَّع عليَّ ما شئت، أي: تمن علي. وقيل معناه: أن كل من يدعي شيئاً فهو له بحكم الله تعالى، لأنه قد هذب طباعهم فلا يدعون إلا ما يحسن منهم. قال الزجاج: هو مأخوذ من الدعاء، يعني أن أهل الجنة كل ما يدعونه يأتيهم. ثم بين سبحانه ما يشتهون، فقال: ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي: لهم سلام، ومُنَى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم ﴿قَوْلًا﴾ أي: يقوله الله قولًا ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ بهم يسمعونه من الله فيؤذنهم بدوام الأمن والسلامة، مع سبوغ النعمة والكرامة. وقيل: إن الملائكة تدخل عليهم من كل باب يقولون: سلام عليكم من ربكم الرحيم.

---

(١) جمع الهلال.   (٢) الوهج: حر النار.

ثم ذكر سبحانه أهل النار، فقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم: انفصلوا معاشر العصاة واعتزلوا من جملة المؤمنين. وقيل معناه: كونوا على حدة، عن السدي. وقيل معناه: أن لكل كافر بيتاً في النار، يدخل فيردم بابه لا يرى ولا يُرى، عن الضحاك. ثم خصمهم سبحانه بالتوبيخ، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: ألم آمركم على ألسنة الأنبياء والرسل في الكتب المنزلة ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطيعوا الشيطان فيما يأمركم به ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: وقلت لكم: أن الشيطان لكم عدو ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر عداوته عليكم يدعوكم إلى ما فيه هلاككم. وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يخلق عبادة الشيطان، لأنه حذر من ذلك ووبَّخ عليه.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وابن عامر: ﴿جُبْلاً﴾ بضم الجيم وسكون الباء، وقرأ أهل المدينة وعاصم وسهل: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ روح وزيد ﴿جُبُلًّا﴾ بضم الجيم والباء وتشديد اللام، وهو قراءة الحسن والأعرج والزهري، وقرأ الباقون: ﴿جُبُلاً﴾ بضمهما وتخفيف اللام.

● **الحجة:** معناهن جميعاً: الخلق الكثير والجماعة، والجمع الذين جبلوا على خليقة، أي: طبعوا، وأصل الجبْل الطبع، ومنه الجبَل، لأنه مطبوع على الثبات. وقال أبو مسلم: أصله الغلظة والشدة.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه في حكايته ما يقوله الكفار يوم القيامة: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فوصف عبادته بأنه طريق مستقيم، من حيث كان طريقاً إلى الجنة، ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: أضل الشيطان عن الدين خلقاً كثيراً منكم، بأن دعاهم إلى الضلال، وحملهم على الضلال وأغواهم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنه يغويكم ويصدكم عن الحق فتنتهون عنه، صورته استفهام، ومعناه الإنكار عليهم والتبكيت لهم، وفي هذا بطلان مذهب أهل الجبر في أن الله أراد إضلالهم، ولو كان كما قالوه لكان ذلك أضرّ عليهم، وأنكر من إرادة الشيطان ذلك ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في دار التكليف، حاضرة لكم تشاهدونها ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أي: الزموا العذاب بها، وأصل الصلاء اللزوم، ومنه المصَلي الذي يجيء في أثر السابق للزومه بأثره. وقيل معناه: صيروا صلاها، أي: وقودها، عن أبي مسلم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جزاء لكم على كفركم بالله وتكذيبكم أنبياءه.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ هذا حقيقة الختم، فتوضع على أفواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرون على الكلام والنطق ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ بما عملوا ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: نستنطق الأعضاء التي كانت لا تنطق في الدنيا لتشهد عليهم، ونختم على أفواههم التي عهد منها النطق، واختلف في كيفية شهادة الجوارح على وجوه:

أحدها: أن الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلم وتنطق وتعترف بذنوبها.

وثانيها: أن الله تعالى يجعل فيها كلاماً، وإنما نسب الكلام إليها لأنه لا يظهر إلا من جهتها.

وثالثها: أن معنى شهادتها وكلامها أن الله تعالى يجعل فيها من الآيات ما يدل على أن أصحابها عصوا الله بها، فسمي ذلك شهادة منها، كما يقال: عيناك تشهدان بسهرك، وقد ذكرنا أمثال ذلك فيما سلف.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ أبو بكرو حده: ﴿مكاناتهم﴾ على الجمع، والباقون: على التوحيد، وقد تقدم ذكر ذلك. وقرأ عاصم وحمزة وسهل: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف وتشديدها، وقرأ الباقون: بضم الكاف وتخفيفها. وقرأ أهل المدينة والشام ويعقوب وسهل: ﴿لتنذر﴾ بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة**: يقال: نكَسْته، ونكّسته، وأنكسه، وأنكُسه، مثل: ردَدْت، وردَّدت، غير أن التشديد للتكثير، والتخفيف يحتمل القليل والكثير. ومن قرأ: ﴿لتنذر﴾ بالتاء، فهو خطاب للنبي ﷺ، ومن قرأ بالياء أراد القرآن، ويجوز أن يريد: لينذر الله.

● **اللغة**: الطَّمس: محو الشيء حتى يذهب أثره، فالطمس على العين كالطمس على الكتاب، ومثله الطمس على المال، وهو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، وأعمى مطموس وطميس، وهو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين. والمسخ: قلب الصورة إلى خلقة مشوهة، كما مسخ قوم قردة وخنازير.

● **الإعراب**: «أنى» في محل النصب على الحال من يبصرون، أو على أنه في معنى مصدره.

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عن قدرته على إهلاك هؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: لأعميناهم عن الهدى، عن ابن عباس. وقيل

معناه: لتركناهم عمياً يترددون، عن الحسن وقتادة والجبائي. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فطلبوا طريق الحق وقد عموا عنه ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي: فكيف يبصرون؟، عن ابن عباس. وقيل معناه: فطلبوا النجاة والسبق إليها ولا بصر لهم، فكيف يبصرون وقد أعميناهم؟ وقيل: طلبوا الطريق إلى منازلهم فلم يهتدوا إليها ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: على مكانهم الذي هم فيه قعود. والمعنى: ولو نشاء لعذبناهم بنوع آخر من العذاب، فأقعدناهم في منازلهم ممسوخين قردة وخنازير، والمكانة والمكان واحد. وقيل معناه: ولو شئنا لمسخناهم حجارة في منازلهم ليس فيهم أرواحهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء لو فعلنا ذلك بهم. وقيل معناه: فما استطاعوا مضياً من العذاب ولا رجوعاً إلى الخلقة الأولى بعد المسخ، وهذا كله تهديد هدَّدهم الله به. ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: من نطول عمره نصيره بعد القوة إلى الضعف، وبعد زيادة الجسم إلى النقصان، وبعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلوقة، فكأنه نكس خلقه. وقيل: ننكسه: نرده إلى حال الهرم التي تشبه حال الصبي في ضعف القوة، وغروب العلم، عن قتادة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون في أن الله تعالى يقدر على الإعادة كما قدر على ذلك، وإنما قال على الخطاب لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ومن قرأ بالياء فالمعنى: أفليس لهم عقل فيعتبروا ويعلموا ذلك.

ثم أخبر سبحانه عن نبيه ﷺ توكيداً لقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعني قول الشعراء وصناعة الشعر، أي: ما أعطيناه العلم بالشعر وإنشائه ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يقول الشعر من عند نفسه. وقيل معناه: ما يتسهل له الشعر، وما كان يتزين له بيت شعر حتى أنه إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً، كما روي عن الحسن أن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً(١)

أشهد أنك رسول الله، وما علمك الشعر، وما ينبغي لك. وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتمثل ببيت أخي بني قيس:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فجعل يقول: «يأتيك من لم تزود بالأخبار»، فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فيقول: إني لست بشاعر وما ينبغي لي، فأما قوله ﷺ:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) هذا عجز بيت لسحيم عبد بني الحسحاس، يخاطب صاحبته عميرة، وصدره: «وعميرة ودع إنْ تجمرت عادياً» وهو مذكور في (جامع الشواهد) وكذا البيت الآتي.

فقد قال قوم: إن هذا ليس بشعر. وقال آخرون: إنما هو اتفاق منه، وليس بقصد إلى قول الشعر. وقيل إن معنى الآية: وما علمناه الشعر بتعليم القرآن. وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً، فإن نظمه ليس بنظم الشعر، وقد صح أنه كان يسمع الشعر ويحث عليه، وقال لحسان بن ثابت: «لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك[1]». ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: الذي أنزلناه عليه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ من عند رب العالمين، ليس بشعر، ولا رجز، ولا خطبة، والمراد بالذكر أنه يتضمن ذكر الحلال والحرام، والدلالات وأخبار الأمم الماضية وغيرها، وبالقرآن أنه مجموع بعضه إلى بعض، فجمع سبحانه بينهما لاختلاف فائدتهما ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: أنزلناه لتخوف به من معاصي الله من كان مؤمناً، لأن الكافر كالميت، بل أقل من الميت، لأن الميت وإن كان لا ينتفع ولا يتضرر، فالكافر لا ينتفع بدينه، ويتضرَّر به، ويجوز أن يكون المراد بمن كان حياً عاقلًا، وروي ذلك عن علي عليه السلام. وقيل: من كان حي القلب حي البصر، عن قتادة ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يجب الوعيد والعذاب على الكافرين بكفرهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن والأعمش: ﴿رُكُوبُهُمْ﴾ وقراءة عائشة وأبي بن كعب: ﴿رَكُوبَتُهُمْ﴾.

● **الحجة:** أما الرُكوب، فمصدر، والكلام على حذف المضاف، والتقدير: فمنها ذو رُكوبهم، وذو الركوب هو المركوب، ويجوز أن يكون التقدير: فمن منافعها رُكوبهم، كما يقول الإنسان لغيره: من بركاتك وصول الخير إليّ على يدك. وأما ﴿ركوبتهم﴾ فهي المركوبة. كالقتوبة، والحلوبة، والجزورة، لما يُقتب ويحلب ويجزر.

● **المعنى:** ثم عاد الكلام إلى ذكر الأدلة على التوحيد، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ معناه: أولم يعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: لمنافعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما ولينا خلقه بإبداعنا وإنشائنا، لم نشارَك في خلقه، ولم نخلقه بإعانة معين، واليد في اللغة على أقسام: منها الجارحة، ومنها النعمة، ومنها القوة، ومنها تحقيق الإضافة، يقال في معنى النعمة: لفلان عندي يد بيضاء، وبمعنى القدرة: تلقى فلان قولي باليدين، أي: بالقوة والتقبل، وبمعنى تحقيق الإضافة، قول الشاعر:

---

(١) وللإمام الرازي في هذه الآية تحقيق لطيف، وكذا للفيض القاشاني (ره) من الخاصة فراجع: (التفسير الكبير ج٢٦: ١٠٤)، و(الصافي ج٢: ٤١٦).

دعَــوْتُ لِمــا نــابَنــي مِـسْــوَراً فَــلَبّــى فَــلَبّــيْ يَــديْ مِــسْــوَرِ[1]

وإنما ثناه لتحقيق المبالغة في الإضافة إلى مسور، ويقولون: هذا ما جنت يداك، وهو المعني في الآية، وإذا قال الواحد منا: عملت هذا بيدي، دل ذلك على انفراده بعمله من غير أن يكله إلى أحد. ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ أي: ولو لم نخلقها لما ملكوها، ولما انتفعوا بها وبألبانها، وركوب ظهورها ولحومها. وقيل: فهم لها ضابطون قاهرون، لم نخلقها وحشية نافرة منهم، لا يقدرون على ضبطها فهي مسخرة لهم، وهو قوله: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها لهم حتى صارت منقادة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ قسم الأنعام بأن جعل منها ما يركب، ومنها ما يذبح فينتفع بلحمه ويؤكل. قال مقاتل: الركوب الحمولة، يعني الإبل والبقر ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ فمن منافعها: لبس أصوافها وأشعارها وأوبارها، وأكل لحومها وركوب ظهورها، إلى غير ذلك من أنواع المنافع الكثيرة فيها، والمشارب من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على هذه النعم. ثم ذكر سبحانه جهلهم، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعبدونها ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لكي ينصروهم ويدفعوا عنهم عذاب الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني هذه الآلهة التي عبدوها، لا تقدر على نصرهم والدفع عنهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يعني أن هذه الآلهة معهم في النار محضرون، لأن كل حزب مع ما عبده من الأوثان في النار، فلا الجند يدفعون عنها الإحراق، ولا هي تدفع عنهم العذاب، وهذا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، عن الجبائي. وقيل معناه: إن الكفار جند للأصنام يغضبون لهم ويحضرونهم في الدنيا، عن قتادة، أي: يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً. قال الزجاج: ينصرون الأصنام وهي لا تستطيع نصرهم. ثم عزى نبيه ﷺ بأن قال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في تكذيبك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم، فنجازيهم على كل ذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

● **القراءة:** قرأ يعقوب: ﴿يقدر﴾ بالياء، وكذلك في الأحقاف، والوجه في ظاهر، وفي

(١) البيت في جامع الشواهد.

الشواذ قراءة طلحة وإبراهيم التيمي والأعمش: ﴿ملكة كل شيء﴾ ومعناه: فسبحان الذي بيده القدرة على كل شيء، وهو من ملكت العجين إذا أجدت عجنه فقويته بذلك، والملكوت: فعلوت منه، زادوا فيه الواو والتاء للمبالغة بزيادة اللفظ، ولهذا لا يطلق الملكوت إلا على الأمر العظيم.

● **الإعراب:** ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ ويجوز أن يكون مرفوعاً أو منصوباً على المدح. ﴿أَن يَقُولَ﴾ في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ.

● **الحجة:** قيل: إن أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء بعظم بالٍ متفتت وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: نعم، فنزلت الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى آخر السورة.

● **المعنى:** ثم نبَّه سبحانه خلقه على الاستدلال على صحة البعث والإعادة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أولم يعلم ﴿ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والتقدير: ثم نقلناه من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى العظم، ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً سوياً، ثم جعلنا فيه الروح، وأخرجناه من بطن أمه، وربيناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله، وصار متكلماً خصيماً، وذلك قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخاصم ذو بيان، أي: فمن قدر على جميع ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة، وهي أسهل من الإنشاء والابتداء.

ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان واقعاً بالطبيعة، لأن الطبيعة في حكم الموات في أنها ليست بحية قادرة، فكيف يصح منها الفعل؟ ولا أن يكون كذلك بالاتفاق، لأن المحدَث لا بد له من محدِث قادر عالم، وفي الآية دلالة على صحة استعمال النظر في الدين، لأن الله سبحانه أقام الحجة على المشركين بقياس النشأة الثانية على النشأة الأولى، وألزم من أقر بالأولى أن يقر بالثانية.

ثم أكد سبحانه الإنكار عليه، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي: ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي وفته بيده، وتعجبه ممن يقول: إن الله يحييه ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: وترك النظر في خلق نفسه، إذ خُلق من نطفة، ثم بين ذلك المثل بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالية، واختلف في القائل لذلك. فقيل: هو أبي بن خلف، عن قتادة ومجاهد، وهو المروي عن الصادق عليه السلام. وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، عن سعيد بن جبير. وقيل: أمية بن خلف، عن الحسن. ثم قال سبحانه في الرد عليه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا المتعجب من الإعادة ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن من قدر على اختراع ما يبقى، فهو على إعادته قادر لا محالة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ من الابتداء والإعادة، فيعلم به قبل أن يخلقه أنه إذا خلقه كيف يكون، ويعلم به قبل أن يعيده أنه إذا أعاده كيف يكون. ثم زاد سبحانه في البيان وأخبر من صنعه بما هو عجيب الشأن فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: جعل لكم من الشجر المطفىء للنار ناراً محرقة، يعني بذلك المرخ والعفار، وهما شجرتان يتخذ الأعراب زنودها منهما، فبين سبحانه أن من قدر على أن يجعل في الشجر الذي هو في غاية الرطوبة ناراً حامية،

مع مضادة النار للرطوبة، حتى إذا احتاج الإنسان حك بعضه ببعض فتخرج منه النار وينقدح، قدر أيضاً على الإعادة. وتقول العرب. «في كُلِّ شَجَرٍ نار، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفار»[١]. وقال الكلبي: كل شجر تنقدح منه النار إلا العناب.

ثم ذكر سبحانه من خلقه ما هو أعظم من الإنسان، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ هذا استفهام معناه التقرير، يعني: من قدر على خلق السموات والأرض، واختراعهما مع عظمهما وكثرة أجزائهما، يقدر على إعادة خلق البشر. ثم أجاب سبحانه هذا الاستفهام بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أي: يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع ما خلق. ثم ذكر قدرته على إيجاد الأشياء، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والتقدير: أن يكوِّنه فيكوِّن، فعبر عن هذا المعنى بـ ﴿كُن﴾ لأنه أبلغ فيما يراد، وليس هنا قول، وإنما هو إخبار بحدوث ما يريده تعالى. وقيل إن المعنى: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول من أجله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فعبر عن هذا المعنى بـ ﴿كُن﴾ وقيل: إن هذا إنما هو في التحويلات نحو قوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، و﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وما أشبه ذلك.

ولفظ الأمر في الكلام على عشرة أوجه:

أحدها: الأمر لمن هو دونك.

والثاني: الندب، كقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ﴾.

وثالثها: الإباحة، نحو قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟﴾، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ۚ﴾.

والرابع: الدعاء ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

والخامس: الترفيه، كقوله: ﴿أرفِقْ بِنَفْسِكَ﴾.

السادس: الشفاعة، نحو قولك: شفعني فيه.

السابع: التحويل، نحو: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ و ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

الثامن: التهديد، نحو قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

التاسع: الاختراع والإحداث، نحو قوله: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾.

العاشر: التعجب، نحو: ﴿أبصر بهم وأسمع﴾.

قال علي بن عيسى في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الأمر ها هنا أفخم من الفعل، فجاء للتفخيم والتعظيم، قال: ويجوز أن يكون بمنزلة التسهيل والتهوين. فإنه إذا أراد فعل شيء فعله بمنزلة ما يقول للشيء: كن فيكون في الحال، وأنشد:

فقالت له العينان: سمعاً وطاعة ... وحَدّرتا كالدُّر لمّا يُثَقَّبِ

---

(١) قال ابن منظور بعد ذكر المثل: استمجد: استفضل أي استكثرا من النار، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما، فصلحا للإقتداح بهما.

وإنما أخبر عن سرعة دمعه دون أن يكون ذلك قولًا على الحقيقة. ثم نزه سبحانه نفسه من أن يُوصَف بما لا يليق به، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تنزيهاً له من نفي القدرة على الإعادة، وغير ذلك مما لا يليق بصفاته، الذي بيده، أي: بقدرته ملك كل شيء، ومن قدر على كل شيء قدر على إحياء العظام الرميم، وعلى خلق كل شيء وإفنائه وإعادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، أي: تردون إلى حيث لا يملك الأمر والنهي أحد سواه، فيجازيكم بالثواب والعقاب، على الطاعات والمعاصي، على قدر أعمالكم.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

● **عدد آيها:** مائة وإحدى وثمانون آية بصري، وآيتان في الباقي.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ غير البصري، وكلهم يعدون ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ غير أبي جعفر.

● **فضلها:** قال أبي بن كعب: قال رسول الله ﷺ: ومن قرأ سورة الصافات، أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جني وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين. وروى الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة، لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بلية في حياته الدنيا، مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يصبه الله في ماله، ولا ولده، ولا بدنه، بسوء من شيطان رجيم، ولا جبار عنيد، وإن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيداً، وأماته شهيداً، وأدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة.

● **تفسيرها:** افتتح الله هذه السورة، بمثل ما اختتم به سورة يسٓ من ذكر البعث، فقال:

﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** أدغم أبو عمرو وحمزة التاء في الصاد، وفي الزاي، وفي الذال، من ﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾. ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ مدغماً ﴿فالمغيرات صبحاً﴾. ﴿فالملقيات ذكراً﴾. ﴿والسابحات سبحاً﴾. ﴿فالسابقات سباقاً﴾ مدغماً، وابن عباس لا يدغم شيئاً من ذلك، والباقون بإظهار التاء في ذلك كله. وقرأ عاصم وحمزة ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتنوين ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ بالجر، وقرأ أبو بكر ﴿بِزِينَةٍ﴾ منوناً أيضاً ﴿الكواكب﴾ بالنصب. وقرأ الباقون: ﴿بزينة الكواكب﴾ مضافة. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿**لا يسمعون**﴾ بتشديد السين والميم، والباقون: بالتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة اللفظين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان، وأصول الثنايا، ويجتمعان في الهمس، والمدغم فيه يزيد على المدغم بخلتين: هما الإطباق والصفير، ويحسن إدغام الأنقص في الأزيد، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً في الأنقص صوتاً، فلهذا يحسن إدغام التاء في الزاي من قوله: ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ لأن التاء مهموسة، والزاي مجهورة، وفيها زيادة صفير، كما كان في الصاد، وكذلك حسن إدغام التاء في الذال في

قوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، فأما إدغام التاء في الضاد من قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ فإن التاء أقرب إلى الذال وإلى الزاي منها في الضاد، لأن الذال والزاي والصاد من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا وطرفها، والضاد أبعد منهن لأنها من وسط اللسان. وكذلك حسن إدغام التاء فيها لأن الصاد تغشّى الصوت بها، واتسع واستطال حتى اتصل صوتها بأصول الثنايا وطرف اللسان فأدغم التاء فيها، وسائر حروف طرف اللسان وأصول الثنايا إلا حروف الصفير فإنها لم تدغم في الضاد، ولم تدغم الضاد في شيء من هذه الحروف لما فيها من زيادة الصوت. فأما الإدغام في ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ و﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ فحسن لمقاربة الحروف.

فأما من قرأ بالإظهار في هذه الحروف فلاختلاف المخارج.

وأما من قرأ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ جعل ﴿الكواكب﴾ بدلًا من الـ ﴿زينة﴾ كما تقول: مررت بأبي عبد الله زيد، ومن قرأ الكواكب بالنصب أعمل الزينة في الكواكب، والمعنى: بأن زينّا الكواكب فيها، ومثل ذلك ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ يَتِيمٗا﴾ ومن قرأ: ﴿بزينةِ الكواكب﴾ أضاف المصدر إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾، و﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾.

ومن قرأ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ فإنما هو لا يتسمعون، فأدغم التاء في السين، وقد يتسمع ولا يسمع، فإذا نفي التسمع عنهم فقد نفي سمعهم، من جهة التسمع ومن جهة غيره فهو أبلغ، ويقال: سمعت الشيء واستمعته، كما يقال: حقرته واحتقرته، وشويته واشتويته، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ وقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ فعدى الفعل مرة بإلى، ومرة باللام. وحجة من قرأ: «يسمعون» قوله: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾.

● **اللغة:** قال أبو عبيدة: كل شيء بين السماء والأرض لم يضم قطريه فهو صاف. ومنه: الطير صافات، إذا نشرت أجنحتها، والصافات جمع الجمع، لأنه جمع صافة. والزجر: الصرف عن الشيء لخوف الذم والعقاب. المارد: الخارج إلى الفساد العظيم، وهو من وصف الشياطين، وهم المردة، وأصله الإنجراد، ومنه الأمرد، فالمارد المنجرد من الخير. الدحور: الدفع بالعنف، يقال: دحر يدحر دحراً ودحوراً. والواصب: الدائم الثابت، قال أبو الأسود:

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه   يوماً بذمّ الدهر أجمع واصبا

والخطفة: الإستلاب بسرعة، يقال: خطفه واختطفه. والشهاب: شعلة نار ساطعة، يقال: فلان شهاب حرب، إذا كان ماضياً. والثاقب: المضيء، كأنه يثقب بضوئه، ومنه: حسب ثاقب، أي: شريف.

● **الإعراب:** ﴿وَحِفۡظٗا﴾ مصدر فعل محذوف، أي: زيناها وحفظناها. ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ جملة مجرورة الموضع بأنها صفة: شيطان. ﴿دُحُورٗاۖ﴾ مصدر فعل دل عليه ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ أي: يدحرون دحوراً. ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ يحتمل أن يكون ﴿مَنۡ خَطِفَ﴾ في موضع نصب على الاستثناء والعامل فيه، ما يتعلق به اللام في ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ والمستثنى منه «هم» من ﴿وَلَهُمۡ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء منقطعاً، فيكون ﴿مَنۡ خَطِفَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾.

● **المعنى:** ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ اختلف في معنى الصافات على وجوه:

أحدها: أنها الملائكة تصفُّ أنفسها صفوفاً في السماء، كصفوف المؤمنين في الصلاة، عن ابن عباس ومسروق والحسن وقتادة والسدي.

وثانيها: أنها الملائكة تصُفُّ أجنحتها في الهواء إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة تنتظر ما يأمرها الله تعالى، عن الجبائي.

وثالثها: أنهم جماعة من المؤمنين يقومون مصطفين في الصلاة وفي الجهاد، عن أبي مسلم.

﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ اختلف فيها أيضاً على وجوه:

أحدها: أنها الملائكة تزجر الخلق عن المعاصي زجراً، عن السدي ومجاهد. وعلى هذا فإنه يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد، كما يوصل مفهوم إغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف.

وثانيها: أنها الملائكة الموكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها، عن الجبائي.

وثالثها: أنها زواجر القرآن وآياته الناهية عن القبائح، عن قتادة.

ورابعها: أنهم المؤمنون يرفعون أصواتهم عند قراءة القرآن، لأن الزجرة الصيحة، عن أبي مسلم.

﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ اختلف فيها أيضاً على أقوال:

أحدها: أنها الملائكة تقرأ كتب الله تعالى، والذكر الذي ينزل على الموحى إليه، عن مجاهد والسدي.

وثانيها: أنها الملائكة تتلو كتاب الله الذي كتبه لملائكته، وفيه ذكر الحوادث فتزداد يقيناً بوجود المخبر على وفق الخبر.

وثالثها: جماعة قراء القرآن من المؤمنين يتلونه في الصلاة، عن أبي مسلم. وإنما لم يقل: فالتاليات تلواً، كما قال: ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ لأن التالي قد يكون بمعنى التابع، ومنه قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ فلما كان اللفظ مشتركاً بيَّنه بما يزيل الإبهام.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ وهذه أقسام أقسم الله تعالى بها أنه واحد ليس له شريك. ثم اختلف في مثل هذه الأقسام، فقيل: إنها أقسام بالله تعالى، على تقدير: ورب الصافات، ورب الزاجرات، ورب التين والزيتون، لأن في القسم تعظيماً للمقسم به، ولأنه يجب على العباد ألا يقسموا إلا بالله تعالى، إلا أنه حذف لأن حجج العقول دالة على المحذوف، عن الجبائي والقاضي. وقيل: بل أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء، وإنما جاز ذلك لأنه ينبىء عن تعظيمها، بما فيها من الدلالة على توحيده وصفاته العُلى، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به. ثم قال سبحانه: ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر الأجناس من الحيوان والنبات والجماد ﴿وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ﴾ وهي مشارق الشمس،

أي: مطالعها بعدد أيام السنة، ثلاثمائة وستون مشرقاً، والمقارب مثل ذلك، تطلع الشمس كل يوم من مشرق، وتغرب في مغرب، عن ابن عباس والسدي. وإنما خص المشارق بالذكر، لأن الشروق قبل الغروب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني التي هي أقرب السموات إلينا، وإنما خصها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: بحسنها وضوئها، والتزيين: تحسين الشيء وجعله على صورة تميل إليها النفس، فالله سبحانه زين السماء على وجه تمتع الرائي لها، وفي ذلك أعظم النعمة على العباد، مع ما لهم من المنفعة بالتفكير فيها والاستدلال بها على صانعها ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ أي: وحفظناها من كل شيطان ﴿مَّارِدٍ﴾ أي: خبيث خال من الخير، متمرد، والمعنى: وحفظناها من دُنوِّ كل شيطان للاستماع، فإنهم كانوا يسترقون السمع، ويستمعون إلى كلام الملائكة، ويقولون ذلك إلى ضعفة الجن، وكانوا يوسوسون بها في قلوب الكهنة، ويوهمونهم أنهم يعرفون الغيب، فمنعهم الله تعالى عن ذلك ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لكيلا يتسمعوا إلى الكتبة من الملائكة في السماء، عن الكلبي. وقيل: إلى كلام الملإ الأعلى، أي: لكي لا يتسمعوا، والملأ الأعلى عبارة عن الملائكة لأنهم في السماء ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يرمون بالشهب من كل جانب من جوانب السماء، إذا أرادوا الصعود إلى السماء للاستماع ﴿دُحُورًا﴾ أي: دفعاً لهم بالعنف وطرداً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك أيضاً عذاب دائم يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ والتقدير: لا يتسمعون إلى الملائكة، إلا من وثب الوثبة إلى قريب من السماء، فاختلس خلسة من الملائكة، واستلب استلاباً بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: فلحقه وأصابه نار مضيئة محرقة، والثاقب: المنير المضيء، وهذا كقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ بضم التاء، والباقون بفتحها. وقرأ ابن عامر وأهل المدينة غير ورش: ﴿أوْ آباؤُنا﴾ ساكنة الواو، والباقون بفتحها، وكذلك في الواقعة.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بالفتح، فالمعنى: بل عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون، أو عجبت من نزول الوحي عليك وهم يسخرون. والضم فيما زعموا قراءة علي عليه السلام وابن عباس، وروي عن شريح من إنكار له فإنه قال: إن الله لا يعجب، وقد احتج بعضهم للضم بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ وليس في هذا دلالة على أن الله

سبحانه أضاف العجب إلى نفسه، ولكن المعنى: وإن تعجب فعجب قولهم عندكم، والمعنى في الضم: أن إنكار البعث والنشر، مع ثبات القدرة على الابتداء والإنشاء عجيب، ويبين ذلك عند من استدل عندكم مما تقولون فيه هذا النحو من الكلام إذا ورد عليكم مثله، كما أن قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ معناه: أن هؤلاء ممن تقولون أنتم فيه هذا النحو، وكذلك قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عند من لم يجعل اللفظ على الاستفهام، وعلى هذا النحو قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ و ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ولا يجوز أن يكون العجب في وصف القديم سبحانه كما يكون في وصف الإنسان، لأن العجب فينا إنما يكون إذا شاهدنا ما لم نشاهد مثله، ولم نعرف سببه، وهذا منتف عن القديم سبحانه.

● **اللغة:** اللازب واللازم بمعنى، أبدلت من الميم الباء قال النابغة:

ولا يحسبون الخير لا شر عنده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وبعض بني عقيل يقولون: لاتب أيضاً بالتاء. والداخر: الصاغر أشد الصغر.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: فاسألهم يا محمد سؤال تقرير ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أحكم صنعاً ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ قبله ممن الأمم الماضية والقرون السالفة، يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بالعذاب. وقيل: أهم أشد خلقاً أم من خلقنا من الملائكة والسموات والأرض، وغلب ما يعقل على ما لا يعقل، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ معناه: أنهم إن قالوا: نحن أشد، فأعلمهم أن الله خلقهم من طين، فكيف صاروا أشد قوة منهم، والمراد: أن آدم خلقه الله من طين، وأن هؤلاء نسله وذريته فكأنهم منه. وقال ابن عباس: اللازب: الملتصق من الطين الحر الجيد. ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من تكذيبهم إياك ﴿وَ﴾ هم ﴿يسخرون﴾ من تعجبك، ومن ضم التاء، فالمراد: أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه بأنه عجب من هذا القرآن حين أعطيه، وسخر منه أهل الضلال، وتقديره. قل: بل عجبتُ، عن المبرد. وقيل: يسخرون، أي: يهزأون بدعائك إياهم إلى الله والنظر في دلائله وآياته. وروي عن الأعمش عن أبي وائل قال: قرأ عبد اللّه بن مسعود ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بالضم فقال شريح: إن الله لا يعجب، إنما يعجب من لايعلم، قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم، فقال: إن شريحاً كان معجباً برأيه، إن عبد اللّه قرأ: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ وعبد اللّه أعلم من شريح، وإضافة العجب إلى الله تعالى ورد الخبر به، كقوله: «عجب ربكم من شاب ليس له صبوة، وعجب ربكم من إلكم وقنوطكم[1]». ويكون ذلك على وجهين: عجب مما يرضى، ومعناه الاستحسان والخبر عن تمام الرضى، وعجب مما يكره، ومعناه الإنكار له والذم.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي: وإذا خوفوا بالله، ووعظوا بالقرآن لا ينتفعون بذلك، ولا

---

(١) قال ابن الأثير الصبوة: الميل إلى الهوى وقال في (ألل) في الحديث: «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم» الإل: شدة القنوط. ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء. وقال أبو عبيدة: المحدثون يروونه بكسر الهمزة، والمحفوظ عند أهل اللغة الفتح، وهو أشبه بالمصادر.

يتعظون به ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ من آيات الله، ومعجزة مثل انشقاق القمر، وغيرها ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يستهزئون ويقولون: هذا عمل السحر، وسخر واستسخر بمعنى واحد. وقيل معناه: يستدعي بعضهم بعضاً إلى إظهار السخرية. وقيل معناه: يعتقدونه سخرية، كما تقول: استقبحه، أي: اعتقده قبيحاً، واستحسنه، أي: اعتقده حسناً. ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: وقالوا لتلك الآية: ما هذا إلا سحر ظاهر وتمويه، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بعد ذلك ومحشورون، أي: كيف نبعث بعد ما صرنا تراباً؟ ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الذين تقدمونا بهذه الصفة؟ أي: أو يبعث آباؤنا بعد ما صاروا تراباً؟ يعنون أنَّ هذا لا يكون، ومن فتح الواو وجعلها واو العطف دخل عليها همزة الاستفهام، كقوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون أشد الصغار، ثم ذكر أن بعثهم يقع بزجرة واحدة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي: فإنما قصة البعث ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة من إسرافيل، يعني نفخة البعث، والزجرة: الصرفة عن الشيء بالمخافة، فكأنهم زجروا عن الحال التي هم فيها إلى الحشر ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى البعث الذي كذبوا به. وقيل معناه: فإذا هم أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله ﴿وَقَالُوا﴾ أي: ويقولون معترفين على أنفسهم بالعصيان ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ من العذاب، وهو كلمة يقولها القائل عند الوقوع في الهلكة، ومثله: يا حسرتنا، ينادون مثل هذه الأشياء، على وجه التنبيه على عظم الحال ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب، عن ابن عباس. وقيل: يوم الجزاء، عن قتادة. والمراد أنهم اعترفوا بالحق خاضعين نادمين.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حالهم أيضاً، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الخلائق، والحكم وتمييز الحق من الباطل على وجه يظهر لجميعهم الحال فيه، وذلك بأن يدخل المطيع الجنة على وجه الإكرام، ويدخل العاصي النار على وجه الإهانة ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ﴾ يا معشر الكفار ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا كلام بعضهم لبعض. وقيل: هل هو كلام الملائكة. ثم حكى سبحانه ما يقوله للملائكة بأن قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بارتكاب المعاصي، أي: اجمعوهم من كل جهة. وقيل: ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله سبحانه، وبتكذيبهم الرسل. وقيل: ظلموا الناس ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم، عن ابن عباس ومجاهد، ومثله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا

﴿ثَلَٰثَةً﴾ أي: أشباهاً وأشكالاً ثلاثة، فيكون المعنى: أن صاحب الزنا يحشر مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر إلى غيرهم. وقيل: وأشياعهم من الكفار، عن قتادة. وقيل: وأزواجهم المشركات، كأنه قال: احشروا المشركين والمشركات، عن الحسن. وقيل: وأتباعهم على الكفر ونظراؤهم وضرباؤهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلاً من الهداية إلى الجنة، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلاً من البشارة بالنعيم.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: قفوا هؤلاء الكفار واحبسوهم عن دخول النار ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ روى أنس بن مالك مرفوعاً أنهم مسؤولون عما دعوا إليه من البدع. وقيل: مسؤولون عن أعمالهم وخطاياهم، عن الضحاك. وقيل: عن قول: لا إله إلا الله، عن ابن عباس. وقيل: عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، عن أبي سعيد الخدري. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً حدثناه عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بالإسناد يقال: وقفت أنا، ووقفت غيري، وبعض بني تميم يقول: أوقفت الدابة والدار، وأنشد الفراء:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس أوقفوا

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: لا تتناصرون، وهذا على وجه التوبيخ والتبكيت، أي: مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً في دفع العذاب، والتقدير: ما لكم غير متناصرين؟ ثم بين سبحانه أنهم لا يقدرون على التناصر، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون خاضعون، ومعنى الاستسلام: أن يلقي بيده غير منازع فيما يراد منه ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ هذا إخبار منه سبحانه أن كل واحد منهم يقبل على صاحبه الذي أغواه فيقول له على وجه التأنيب والتعنيف: لم غررتني؟ ويقول ذلك له: لم قبلت مني؟ وقيل: الأتباع على المتبوعين، والمتبوعون على الأتباع يتلاومون ويتعاتبون ويتخاصمون ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: يقول الكفار لغواتهم: إنكم كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة، ولذلك أقررنا لكم، والعرب تتيمن بما جاء من اليمين، عن الجبائي. وقيل: معناه: كنتم تأتوننا من قبل الدين، فتروننا أن الحق والدين ما يضلوننا به، واليمين عبارة عن الحق، عن الزجاج. وقيل معناه: كنتم تأتوننا من قبل القوة والقدرة، فتخدعوننا من أقوى الوجوه، ومنه قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، عن الفراء: ﴿قَالُوا۟﴾ في جواب ذلك ليس الأمر كما قلتم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بالله ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: قدرة وقوة فنجبركم على الكفر، فلا تسقطوا اللوم عن أنفسكم، فإنه لازم لكم ولاحق بكم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: خارجين عن الحق باغين، تجاوزتم الحد إلى أفحش الظلم وأعظم المعاصي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ

لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **المعنى**: هذا تمام الحكاية عن الكفار الذين قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ ثم قالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ أي: وجب علينا قول ربنا، بأنا لا نؤمن ونموت على الكفر، أو وجب علينا العذاب الذي نستحقه على الكفر والإغواء ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب الذي نستحقه على الكفر، أي: ندركه كما ندرك المطعوم بالذوق، ثم يعترفون بأنهم أغووهم بأن قالوا: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: أضللناكم عن الحق، ودعوناكم إلى الغي ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: داخلين في الضلالة والغي. وقيل معناه: فخيبناكم إنا كنا خائبين ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ واشتراكهم: اجتماعهم فيه، والمعنى: أن ذلك التخاصم لم ينفعهم، إذا اجتمع الأتباع والمتبوعون كلهم في النار، الأتباع بقبول الكفر، والمتبوعون بالكفر والإغواء ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين جعلوا لله شركاء، عن ابن عباس. وقيل معناه: إنا مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين.

ثم بين سبحانه أنه إنما فعل ذلك بهم من أجل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول ذلك ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي: يأنفون من هذه المقالة ويستخفون بمن يدعوهم إليها ويقولون: لا ندع عبادة الأصنام لقول شاعر مجنون ـ يعنون النبي ﷺ ـ يدعونا إلى خلافها. وقيل: لأجل شاعر، عن أبي مسلم. فرد الله هذا القول عليهم وكذبهم بأن قال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ليس بشاعر ولا مجنون، ولكنه أتى بما تقبله العقول، من الدين الحق والكتاب ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: حقق ما أتى به المرسلون من بشاراتهم، والكتاب الحق بدين الإسلام. وقيل: صدقهم بأن أتى بمثل ما أتوا به من الدعاء إلى التوحيد. وقيل: صدقهم بالنبوة. ثم خاطب الكفار، فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ على كفركم ونسبتكم إياه إلى الشعر والجنون ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: على قدر أعمالكم، ثم استثنى من جملة المخاطبين المعذبين فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا العبادة لله، وأطاعوه في كل ما أمرهم به، فإنهم لا يذوقون العذاب وإنما ينالون الثواب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ٤٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿يُنْزِفون﴾ بكسر الزاي، والباقون: بفتح الزاي، وكذلك في سورة الواقعة، إلا عاصم فإنه قرأها هنا بفتح الزاي، وهناك بكسر الزاي.

● **الحجة:** قال أبو علي: أنزف يكون على معنين:

أحدهما: بمعنى سكر، قال:

لَعَمْري لَئِنْ أَنزَفْتُمُ أو صَحَوتُمُ لَبِئْسَ النَدامى كُنْتُم آلَ أبجَرا[١]

فمقابلته صحوتهم يدل على أنه أراد سَكرتم.

والآخر: بمعنى أنفد شرابه، فمعنى أنزف: صار ذا إنفاد لشرابه، كما أن الأول معناه: النفاد من عقله. فمن قرأ ﴿ينزِفون﴾: يجوز أن يريد به لا يسكرون عن شربها، ويجوز أن يريد به لا نفد ذلك عندهم، كما ينفد شراب أهل الدنيا. ومن قرأ: ﴿يُنزَفون﴾ بفتح الزاي، فإنه من نزف الرجل فهو منزوف ونزيف، إذا ذهب عقله بالسكر.

● **اللغة:** قال الأخفش: كل كأس في القرآن فالمراد به الخمر. معين: يحتمل أن يكون فعيلاً من أمعن في الأمر إذا اشتد دخوله فيه، وهو الماء الشديد الجري. ويحتمل أن يكون مفعولاً من عين الماء، لأنه يجري ظاهراً للعين. واللذة اللذيذة: يقال: شراب لذ ولذيذ. والغول: فساد يلحق الشيء خفياً، يقال: اغتاله اغتيالاً وغاله غَوْلاً، ومنه الغيلة، وهي القتل سراً، قال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالُنا وتذهب بالأوَّلِ الأوَّلِ[٢]

والقاصرات: جمع قاصرة، وهن اللاتي يقصُرن طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، والقصر: معناه الحبس. والعِين: النُّجل العيون، الحسانها. والمكنون: المصون من كل شيء، قال الشاعر:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا صِ ميزت من جوهر مكنون

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما أعده لعباده المخلصين من أنواع النعم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ جعل لهم التصرف فيه، وحكم لهم به في الأوقات المستأنفة، في كل وقت شيئاً معلوماً مقدراً، ثم فسر ذلك الرزق بأن قال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وهي جمع فاكهة، يقع على الرطب واليابس من الثمار، كلها يتفكهون بها، ويتنعمون بالتصرف فيها ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ مع ذلك، أي: معظمون مبجلون، وضد الإكرام الإهانة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: وهم مع ذلك في بساتين فيها أنواع النعيم يتنعمون بها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وهي جمع سرير ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ يستمتع بعضهم بالنظر إلى

---

(١) قائله أبيرد اليربوعي. الندامى جمع الندمان: المنادم على الشرب. وبعد هذا البيت قوله:

شربتم، ومدرتم، وكان أبوكم كذاكم إذا ما يشرب الكأس مدرا

وأبجر: هو ابن جابر العجلي.

(٢) قال في (اللسان) أي: توصل إلينا شراً. وتعدمنا عقولنا.

وجوه بعض، ولا يرى بعضهم قفا بعض ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ وهو الإناء بما فيه من الشراب ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر جارية في أنهار ظاهرة العيون، عن الحسن وقتادة والضحاك والسدي. وقيل: شديد الجري. ثم وصف الخمر فقال: ﴿بَيْضَاءَ﴾ وصفها بالبياض لأنها في نهاية الرقة مع الصفاء واللطافة النورية التي لها. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، وذكر أن قراءة ابن مسعود صفراء، فيحتمل أن يكون بيضاء الكأس، صفراء اللون. ﴿لَذَّةٍ﴾ أي: لذيذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ليس فيها ما يعتري خمر الدنيا من المرارة والكراهة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا يصيبهم منها وجع في البطن ولا في الرأس، ويقال: للوجع غول لأنه يؤدي إلى الهلاك ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: يسكرون، ولا ينزفون وَلا يفنى خمرهم، وتحمل هذه القراءة على هذا لزيادة الفائدة، وعلى القراءة الأولى فيحمل الغول على الصداع والوجع وأذى الخمار. قال ابن عباس: معناه: ولا يبولون، قال: وفي الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول، فنزه الله سبحانه خمر الجنة عن هذه الخصال ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهن لحبهنَّ إياهم. وقيل معناه: لا يفتحن أعينهن دلالًا وغنجاً ﴿عِينٌ﴾ أي: واسعات العيون، والواحدة عيناء. وقيل: هي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، عن الحسن ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبههن ببيض النعام مكنّة بالريش من الغبار والريح، عن الحسن وابن زيد، وفي معناه قول امرىء القيس:

كبِكْرِ المقاناةِ البياض بصُفرةٍ ... غذاها نميرُ الماء غيرَ مُحَلَّلِ(١)

وقيل: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر، وقبل أن تمسه الأيدي، والمكنون المصون، ثم قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعني أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم، من حين بعثوا إلى أن أدخلوا الجنة، فيخبر كل صاحبه بإنعام الله تعالى عليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) هذا البيت من معلقته المعروفة. والبكر من كل صنف: ما لم يسبقه مثله. والمراد هنا: بيض النعام، وإضافته إلى المقاناة من قبيل قوله تعالى ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ والمقاناة: المخاطبة. والنمير: الماء النامي في الجسد. وقيل: العذب من الماء. وغير محلل أي: غير يسير، أو من قولهم: مكان محلل: إذا أكثر الناس به الحلول أي: لم يكثر حلول الناس عليه فيكدره ذلك، يصف معشوقته عنيزة، وشبه لونها بيض نعام تشوب بياضها صفرة. وفي قوله: «البياض» تجوز الحركات الثلاث، وذكروا للبيت معان أخر ذكرها الزوزني في (شرح المعلقات) فراجع.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وابن محيصن: ﴿هل أنتمُ مُطلِعون﴾ بالتخفيف، ﴿فأُطلِعَ﴾.

● **الحجة:** الإطلاع: الإقبال، فعلى هذا يكون معناه: فهل أنتم مقبلون، فأقبل وأطلع يكون مسنداً إلى مصدره، أي: فاطلع الإطلاع، كما يقال: قد قيم، أي: قد قيم القيام.

● **الإعراب:** ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ نصب بقوله: ﴿بِمَيِّتِينَ﴾ انتصاب المصدر بالفعل الواقع قبله، كما تقول: ما ضربت إلا ضربة واحدة، والتقدير: فما نموت إلا موتتنا الأولى.

● **المعنى:** هذا تمام الحكاية عن أحوال أهل الجنة، وإقبال بعضهم على بعض في المساءلة عن الأخبار والأحوال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في دار الدنيا، أي صاحبٌ يختص بي، إما من الإنس على قول ابن عباس، أو من الشيطان على قول مجاهد ﴿يَقُولُ﴾ لي على وجه الإنكار عليَّ والتهجين لفعلي ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين وبالبعث والنشور والحساب والجزاء، والاستفهام هنا على وجه الإنكار ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزيون محاسبون، من قولهم: كما تدين تدان، والمعنى: أن ذلك القرين كان يقول لي في الدنيا على طريق الاستبعاد والاستنكار: أنبعث بعد أن صرنا تراباً وعظاماً بالية، ونجازى على أعمالنا؟ أي: إن هذا لا يكون أبداً، وهذا أبلغ في النفي من أن يقول: لا نبعث ولا نجازى ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: ثم قال هذا المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون على موضع من الجنة يرى منه هذا القرين؟ يقال: طلع على كذا، إذا أشرف عليه، والمعنى: هل تؤثرون أن تروا مكان هذا القرين في النار؟ وفي الكلام حذف، أي: فيقولون له: نعم، اطلع أنت، فأنت أعرف بصاحبك. قال الكلبي: وذلك لأن الله تعالى جعل لأهل الجنة كوة ينظرون منها إلى أهل النار ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ أي: فاطلع هذا المؤمن فرأى قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار ﴿قَالَ﴾ أي: فقال له المؤمن ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ هذه ﴿إن﴾ المخفَّفة من الثقيلة بدلالة مصاحبة لام الإبتداء لها في قوله ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أقسم بالله سبحانه على وجه التعجب، إنك كدت تهلكني بما قلته لي ودعوتني إليه، حتى يكون هلاكي كهلاك المتردي من شاهق، ومنه قوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: تردى في النار ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليَّ بالعصمة واللطف والهداية حتى آمنت ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، ولا يستعمل الحضر مطلقاً إلا في الشر. قال قتادة: فوالله لولا أن الله عرفه إياه لما كان يعرفه، لقد تغيَّر حَبره وسَبره، أي: حسنه وسحناؤه[١] ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ معناه: أن هذا المؤمن يقول لهذا القرين على وجه التوبيخ والتقريع: أليس كنت في الدنيا تقول: إنا لا نموت إلا الموتة التي تكون في الدنيا ولا نعذب، فقد ظهر الأمر بخلاف ذلك. وقيل: إن هذا من قول أهل الجنة بعضهم لبعض على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنة، ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ معناه: فما نحن بميتين في هذه الجنة إلا موتتنا التي كانت في الدنيا، وما نحن بمعذبين كما وعدنا الله تعالى،

---

(١) السحناء: الهيئة واللون.

ويريدون به التحقيق لا الشك، وإنما قالوا هذا القول لأن لهم في ذلك سروراً مجدداً، وفرحاً مضاعفاً، وإن كانوا قد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة، وهذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير، فيقول مستعجباً: كل هذا المال لي؟ وهو يعلم أن ذلك له، وهذا كقوله:

أبطحاءَ مكة: هذا الذي أراه عِياناً وهذا أنا؟!

قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **اللغة:** النُّزُل: الرَّيْع والفضل، يقال لهذا الطعام: نُزْل ونُزُل. وقيل: هي الأنزال التي يتقوت بها فتقيم الأبدان، وتبقى عليها الأرواح. ويقال: أقمت للقوم نزلهم، أي ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء. وزعم قطرب أن الزقوم شجرة مرة تكون بتهامة. قال أبو مسلم: وظاهر التلاوة يدل على أن العرب كانت لا تعرفها، فلذلك فسَّر بعد ذلك. والطلع: حمل النخلة سمي بذلك لطلوعه. والشوب: خلط الشيء بما ليس منه وهو شر منه. والحميم: الحار الذي يدني من الإحراق المهلك، قال:

أحَمَّ الله ذلك من لقاء أُحادَ أُحادَ في الشهر الحلال

أي: أدناه. وحمم ريشُ الفرخ حتى يدنو من الطيران، والحميم: الصديق القريب، أي: الداني من القلب. وهُرع الرجل وأهرع: إذا استُحِث فأسرع، قال الأزهري: الإهراع: الإسراع، والمَهْرَع: الحريص.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه في تمام الحكاية عن قول أهل الجنة: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي: لمثل هذا الثواب والفوز والفلاح، فليعمل العاملون في دار التكليف. وقيل: إن هذا من قول الله تعالى، أي: لمثل هذا النعيم الذي ذكرناه وهو من قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ إلى قوله: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾. ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ هذا ترغيب في طلب الثواب بالطاعة، أي: من كان يريد أن يعمل لنفع يرجوه فليعمل لمثل هذا النفع العظيم.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: أذلك الذي ذكرناه من قِرى أهل الجنة وما أعد لهم خير في باب الأنزال التي يتقوت بها، ويمكن معها الإقامة أم نُزُل أهل النار فيها؟، عن الزجاج. وقيل معناه: أسبب هذا المؤدي إليه خير أم سبب ذلك؟ لأن الزقوم لا خير فيه. وقيل: إنما جاز ذلك لأنهم لما عملوا بما أدى إليه فكأنهم قالوا: فيه خير. وقيل: إنما قال: خير، على وجه المقابلة، فهو مثل قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وهذا كما يقول الرجل

لعبده: إن فعلت كذا أكرمتك، وإن فعلت كذا ضربتك، أهذا خير أم ذلك؟ وإن لم يكن في الضرب خير.

والزقوم: ثمر شجرة متكره جداً، من قولهم: تزقم هذا الطعام، إذا تناوله على تكرُّه ومشقة شديدة. وقيل: الزقوم شجرة في النار يقتاتها أهل النار لها ثمرة مُرة خشنة اللمس منتنة الرائحة. وقيل: إنها معروفة من شجر الدنيا تعرفها العرب. وقيل: إنها لا تعرفها، فقد روي أن قريشاً سمعت هذه الآية قالت: ما نعرف هذه الشجرة، فقال ابن الزبعرى: الزقوم بكلام البربر التمر والزبد، وفي رواية بلغة اليمن، فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية، زقمينا، فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد، فيزعم أن النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: خبرة لهم افتتنوا بها، وكذبوا بكونها فصارت فتنة لهم، عن قتادة والزجاج. وقيل: إن المراد بالفتنة العذاب، أي: جعلناها شدة عذاب لهم من قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون، عن الجبائي وأبي مسلم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إن الزقوم شجرة تنبت في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى دركاتها، عن الحسن، ولا يبعد أن يخلق الله سبحانه بكمال قدرته شجرة في النار من جنس النار، أو من جوهر لا تأكله النار ولا تحرقه، كما أنها لا تحرق السلاسل والأغلال فيها، وكما لا تحرق حياتها وعقاربها، وكذلك الضريع وما أشبه ذلك. ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ يسأل عن هذا فيقال: كيف شبه طلع هذه الشجرة برؤوس الشياطين وهي لا تعرف وإنما يشبه الشيء بما يعرف؟ وأجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن رؤوس الشياطين ثمرة يقال لها: الأستَن، وإياه عنى النابغة بقوله:

تَـحِـيـدُ عــن أَسْــتَـنٍ سَـودٍ أسـافِـلُـهُ مثلُ الإماء اللَّواتي تَحمِلُ الحُزَما(١)

وهذه الشجرة تشبه بني آدم، قال الأصمعي: ويقال له: الصوم، وأنشد:

مــوكــل بــشُــدوفِ الــوم يــرْقُــبــه من المعارِم مهضومُ الحشا زَرِمُ(٢)

يصف وعلاً يظن هذا الشجر قناصين(٣)، فهو يرقبه. والشدوف: الشخوص، واحدها: شَدَف.

وثانياً: أن الشيطان جنس من الحيات، فشبه سبحانه طلع تلك الشجرة برؤوس تلك الحيات، أنشد الفراء:

---

(١) حاد عنه: مال وعدل. والحزمة: ما حزم من الحطب. شبّه شجرة الأستن بأمة سوداء تحمل الحطب على رأسها وقيل: وضمير تحيد يرجع إلى امرأة مذكورة في الأشعار السابقة.

(٢) العرم والعرمة: النقطة السوداء في أذن الشّاة الضائنة والمعزى. يقال قطيع أعرم: إذا كان بين العرم. وفي بعض النسخ «من المعازب»، وفسّره بعض فقال: من المعازب: من حيث يعزب عنه الشيء أي: يتباعد، ومهضوم الحشا: ضامره، وزرم - ككتف: لا يثبت في مكان.

(٣) القناص: الصياد.

عَـنـجـرِدٌ تـحـلِفُ حـيـن أحـلـفُ   كـمـثـل شـيـطـان الـحـمـاطِ أعْـرَف[١]

أي: له عرف، وأنشد المبرد:

وفـي الـبـقـل إنْ لـم يـدفَـع اللهُ شـرَّه   شياطين يغدو بعضهنَّ على بعض[٢]

وثالثها: أن قبح صور الشياطين متصور في النفوس، ولذلك يقولون لما يستقبحونه جداً: كأنه شيطان، فشبه سبحانه طلع هذه الشجرة بما استقرت بشاعته في قلوب الناس، قال الراجز:

أبـصـرتـهـا تـلـتـهـم الـثـعـبـانـا   شـيـطـانـةٌ تـزوجـت شـيـطـانـا[٣]

وقال أبو النجم:

الـرأس قـمـل كـلـه وصِـئـبـانٌ   ولـيـس فـي الـرِّجـلـيـن إلا خَـيـطـان

وهـي الـتـي يـفـزع مـنـهـا الـشـيـطـان

وقال امرؤ القيس:

أتـقـتـلـنـي والـمـشـرفـيُّ مـضـاجـعـي   ومـسـنـونـةٌ زرقٌ كـأنـيـاب أغـوال

فشبه أسنته بأنياب الأغوال، ولم يقل أحد: إنه رأى الغول. وهذا قول ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي. وقال الجبائي: إن الله تعالى يشوه خلق الشياطين في النار، حتى إنه لو رآهم راء من العباد لاستوحش منهم، فلذلك شبه برؤوسهم. ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ يعني أن أهل النار ليأكلون من ثمرة تلك الشجرة ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: يملؤون بطونهم منها لشدة ما يلحقهم من ألم الجوع، وقد روي أن الله تعالى يجوعهم حتى ينسوا عذاب النار من شدة الجوع، فيصرخون إلى مالك، فيحملهم إلى تلك الشجرة - وفيهم أبو جهل - فيأكلون منها فتغلي بطونهم كغلي الحميم، فيستسقون، فيسقون شربة من الماء الحار الذي بلغ نهايته في الحرارة، فإذا قربوها من وجوههم شوت وجوههم، فلذلك قوله: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فإذا وصل إلى بطونهم صهر ما في بطونهم، كما قال سبحانه: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ فذلك شرابهم وطعامهم، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ زيادة على شجرة الزقوم ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: خليطاً ومزاجاً من ماء حار، يمزج ذلك الطعام بهذا الشراب. وقيل: إنهم يكرهون على ذلك عقوبة لهم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد أكل الزقوم وشراب الحميم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه، وهو خارج عن الجحيم، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يردون إلى الجحيم، ويدل على ذلك قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ والجحيم: النار الموقدة. والمعنى: أن الزقوم والحميم طعامهم وشرابهم، والجحيم المسعرة منقلبهم ومأواهم ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: أن هؤلاء الكفار

---

(١) امرأة عنجرد: خبيثة، سيئة الخلق. والحماط: شجر عظام تنبت في بلاد العرب تسكنها الحيات. شبه الشاعر المرأة بحية له عرف.

(٢) البقل: قوم من العرب.

(٣) إلتهمه: إبتلعه بمرة.

صادفوا آباءهم ذاهبين عن الحق والدين ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ في الضلال، أي: يقلدونهم ويتبعونهم اتباعاً في سرعة. وقيل معناه: يسرعون، عن ابن عباس والحسن. وقيل: يعملون بمثل أعمالهم، عن الكلبي. وقيل: يستحثون، عن أبي عبيدة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي التي تدخل في جواب القسم، وقد للتوكيد ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل هؤلاء الكفار، الذين هم في عصر النبي ﷺ، عن طريق الهدى، واتباع الحق ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الخالية، والأكثر هو الأعظم في العدد، والأول هو الكائن قبل غيره، والأول قبل كل شيء هو الله سبحانه، لأن كل ما سواه موجود بعده، وفي هذه الآية دلالة على أن أهل الحق في كل زمان كانوا أقل من أهل الباطل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ من الأنبياء والمرسلين يخوفونهم من عذاب الله تعالى، ويحذرونهم معاصيه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: من المكذبين المعاندين للحق. والمعنى: فانظر يا محمد كيف أهلكتهم، وماذا حل بهم من العذاب؟ وكذلك يكون عاقبة المكذبين. ثم استثنى من المنذرين فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين قبلوا من الأنبياء وأخلصوا عبادتهم لله تعالى، فإن الله خلصهم من ذلك العذاب، ووعدهم بجزيل الثواب.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي: دعانا نوح بعد ما يئس من إيمان قومه لننصره عليهم، وذلك قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن لنوح في دعائه، أجبناه إلى ما سأل، وخلصناه من أذى قومه بإهلاكهم. وقيل: هو على العموم، أي: فلنعم المجيبون نحن لمن دعانا ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من المكروه الذي كان ينزل به من قومه، والكرب: كل غم يصل حرُّه إلى الصدر وأصل النجاة: من النجوة، للمكان المرتفع، فهي الرفع من الهلاك، وأهله هم الذين نجوا معه في السفينة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ بعد الغرق، فالناس كلهم بعد نوح من ولد نوح، عن ابن عباس وقتادة. فالعرب والعجم من أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة والخزر ويأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح، والسودان من أولاد حام بن نوح. قال الكلبي: لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساؤهم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه في أمة محمد ﷺ، فحذف، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. ومعنى تركنا: أبقينا. قال الزجاج معناه: تركنا عليه

الذكر الجميل إلى يوم القيامة وذلك الذكر قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تركنا عليه أن يُصلّى عليه إلى يوم القيامة فكأنه قال: وتركنا عليه التسليم في الآخرين. ثم فسر التسليم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقال الفراء: تركنا عليه قولاً، وهو أن يقال في آخر الأمم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال الكلبي: معناه: سلامة منا على نوح، وهذا هو السلام المراد بقوله: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: جزيناه ذلك الثناء الحسن في العالمين بإحسانه، عن مقاتل. وقيل إن معناه: مثل ما فعلنا بنوح، نجزي كل من أحسن بأفعال الطاعات وتجنب المعاصي، ونكافئهم بإحسانهم ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني نوحاً، وهذه الآية تتضمن مدح المؤمنين حيث خرج من بينهم مثل نوح ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: من لم يؤمن به، والمعنى: ثم أخبركم أني أغرقت الآخرين.

النظم: الوجه في اتصال قصة نوح والأنبياء بما قبلها تسلية النبي ﷺ في كفر قومه بأن حالهم معه شبيهة بحال من تقدم من الأمم مع أنبيائهم، وتحذير القوم عن سلوك مثل طريقتهم لئلا يعاقبوا بمثل عقوبتهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾
فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي
ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ حمزة وحده: ﴿يُزفون﴾ بضم الياء، والباقون: بفتحها. وفي الشواذ قراءة الحسن: ﴿فراغ عليهم سفقاً﴾. وقراءة عبد الله بن زيد: يزفون خفيفة الفاء.

● **الحجة**: زفت الإبل تزفُّ إذا أسرعت، وقراءة حمزة: ﴿يُزفون﴾ أي: يحملون غيرهم على الزفيف، قال الأصمعي: أزففت الإبل، حملتها على أن تزف، وهو سرعة المشي ومقاربة الخطو، والمفعول محذوف على قراءته. وقيل أيضاً: إن أزفَّ لغة في زف. وأما يزفون بالتخفيف، فذهب قطرب إلى أنها تخفيف يزفون، كقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: أقررن. قال الهذلي:

وزَفَّتِ الشَّولُ من بَرْدِ العَشيِّ كما ... زَفَّ النَّعامُ إلى حَفَّانِه الرُّوحِ[1]

(١) الشول: جمع الشائلة من الإبل، وهي التي أتى عليها من حملها، أو وضعها، سبعة أشهر، والحفان: فراخ النعام. والروح جمع الأروح: الواسع بين الفخذين، أو الرجلين. قال ابن منظور: وكل نعامة روحاء.

والظاهر أن يزفون من وزف[1] يزف مثل وعد يعد. وأما قوله: ﴿سفقاً﴾ فهو من قولهم: سفقت الباب وصفقته، والصاد أعرف، وروي عن الحسن بالصاد أيضاً.

● **اللغة:** الشيعة: الجماعة التابعة لرئيس لهم، وصار بالعرف عبارة عن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، الذين كانوا معه على أعدائه، وبعده مع من قام مقامه من أبنائه، وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ليهنكم الاسم! قلت: وما هو؟ قال: الشيعة، قلت: إن الناس يعيروننا بذلك، قال: أما تسمع قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ وقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾. والروغ: الميل من جهة إلى جهة، يقال: راغ يروغ روغاً وروغاناً، أي: حاد، والرواغ: الحياد، قال عدي بن زيد:

حين ينفع الرَّوَّاغُ ولا يَشـ ـفع إلا المصادِقُ النِّحرير

● **الإعراب:** ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من قوله: ﴿إِفْكًا﴾ و ﴿إِفْكًا﴾ مفعول تريدون ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ ما مبتدأ وظنكم خبره، وقوله: ﴿ضَرْبًۢا﴾ مصدر فعل محذوف، والتقدير: يضربهم ضرباً، والباء في قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بذلك المحذوف. و ﴿يَزِفُّونَ﴾ حال من ﴿وَأَقْبَلُوٓا۟﴾. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿تَعْبُدُونَ﴾ والتقدير: أتعبدون ما تنحتون مخلوقين ﴿هَبْ لِى﴾ مفعوله محذوف، أي: ولداً.

● **المعنى:** ثم أتبعه سبحانه وتعالى بقصة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وإن من شيعة نوح إبراهيم، يعني أنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق، عن مجاهد. وقيل إن معناه: وإن من شيعة محمد إبراهيم، كما قال: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية من هو أب لهم، فجعلهم ذرية لهم، وقد سبقوهم، عن الفراء ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: حين صدق الله وآمن به بقلب سليم، خالص من الشرك، بريء من المعاصي والغل والغش، على ذلك عاش وعليه مات. وقيل: بقلب سليم من كل ما سوى الله تعالى، لم يتعلق بشيء غيره، عن أبي عبد الله عليه السلام، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه التهجين لفعالهم، والتقريع لهم ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ أي: أي شيء تعبدون ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ الإفك هو أشنع الكذب وأفظعه، وأصله قلب الشيء عن جهته التي هي له، فلذلك كان الكذب إفكاً، وإنما قال: آلهة على اعتقاد المشركين، وتوهمهم الفاسد في إلٰهية الأصنام، لما اعتقدوا أنها تستحق العبادة. ثم أكد التقريع بقوله: ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: تريدون عبادة آلهة دون عبادة الرحمن، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، لأن الإرادة لا يصح تعلقها إلا بما يصح حدوثه، والأجسام مما لا يصح أن تراد. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يصنع بكم مع عبادتكم غيره. وقيل معناه: كيف تظنون برب تأكلون رزقه وتعبدون غيره؟ وقيل معناه: ما تظنون بربكم؟ أنه على أي صفة، ومن أي جنس من أجناس الأشياء حين شبّهتم به هذه

---

(١) وهو أيضاً بمعنى أسرع.

الأصنام؟. وفيه إشارة إلى أنه لا يشبه شيئاً ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أنه عليه السلام نظرفي النجوم، فاستدلَّ بها على وقت حمى كانت تعتاده، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراد أنه قد حضر وقت علته وزمان نوبتها، فكأنه قال: إني سأسقم لا محالة، وحان الوقت الذي تعتريني فيه الحمى، وقد يسمى المشارف للشيء باسم الداخل فيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ولم يكن نظره في النجوم على حسب ما ينظره المنجمون طلباً للأحكام، ومثله قول الشاعر:

إسهري ما سهرتِ أمّ حكيم واقعدي مرّة لذاكَ وقومي
وافتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قَطْع ليلٍ بهيم

وثانيها: أنه نظر في النجوم كنظرهم، لأنهم كانوا يتعاطون علم النجوم، فأوهمهم أنه يقول بمثل قولهم، فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فتركوه ظناً منهم أن نجمه يدل على سقمه، ويجوز أن يكون الله تعالى أعلمه بالوحي أنه سيسقمه في وقت مستقبل، وجعل العلامة على ذلك إما طلوع نجم على وجه مخصوص، أو اتصاله بآخر على وجه مخصوص، فلما رأى إبراهيم تلك الإمارة قال: إني سقيم. تصديقاً بما أخبره الله تعالى.

وثالثها: أن معناه: نظر في النجوم نظر تفكير، فاستدلَّ بها، كما قصه الله تعالى في سورة الأنعام على كونها محدثة غير قديمة، ولا آلهة، وأشار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. على أنه في حال مهلة النظر، وليس على يقين من الأمر ولا شفاء من العلم، وقد يسمى الشك بأنه سقم، كما يسمى العلم بأنه شفاء، وإنما زال عنه هذا السقم عند زوال الشك وكمال المعرفة، عن أبي مسلم. وهذا الوجه ضعيف، لأن سياق الآية يمنع منه، فإن قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى هذا الموضع من قصته يبين أنه عليه السلام لم يكن في زمان مهلة النظر، وأنه كان كامل المعرفة خالص اليقين والبصيرة.

ورابعها: أن معنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إني سقيم القلب أو الرأي، حزناً من إصرار القوم على عبادة الأصنام، وهي لا تسمع ولا تبصر، ويكون على هذا معنى نظره في النجوم: فكرته في أنها محدثة مخلوقة مدبرة، وتعجبه كيف ذهب على العقلاء ذلك من حالها حتى عبدوها.

وما رواه العياشي بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: والله ما كان سقيماً، وما كذب، فيمكن أن يحمل على أحد الوجوه التي ذكرناها، ويمكن أن يكون على وجه التعريض، بمعنى أن كل من كتب عليه الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به سقم في الحال.

وما روي أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله في سارة: إنها أختي. فيمكن أن يحمل أيضاً على المعاريض، أي: سأسقم، وفعله كبيرهم على ما ذكرناه في موضعه، وسارة أخته في الدين. وقد ورد في الخبر: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، والمعاريض أن يقول الرجل شيئاً يقصد به غيره، ويفهم

منه غير ما يقصده، ولا يكون ذلك كذباً، فإن الكذب قبيح لعينه، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، لأنه يرفع الثقة بقولهم، جل أمناء الله تعالى وأصفياؤه عن ذلك.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ إخبار عن قومه أنهم لما سمعوا قوله إني سقيم تركوه وأعرضوا عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ معناه: فمال إلى أصنامهم التي كانوا يدعونها آلهة ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ خاطبها وإن كانت جماداً على وجه التهجين لعابديها، وتنبيههم على أن من لا يتكلم ولا يقدر على الجواب، كيف تصح عبادتها، وكانوا صنعوا للأصنام طعاماً تقرباً إليها وتبركاً بها، فلما لم يجيبوه قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ زيادة في تهجين عابديها، كأنهم حاضرون لها، أي: ما لكم لا تجيبون؟ وفي هذا تنبيه على أنها جماد لا تأكل ولا تنطق، فهي أخس الأشياء وأقلها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: فمال على الأصنام يضربها ويكسرها باليد اليمنى، لأنها أقوى على العمل، عن الربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين القوة، كما في قوله:

تلقاها عرابة باليمين(١)

عن الفراء، وهو قول السدي. وقيل معناه: بالقسم الذي سبق منه، وهو قوله: وتالله لأكيدن أصنامكم ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: أقبلوا بعد الفراغ من عيدهم إلى إبراهيم يسرعون، عن الحسن وابن زيد. وقيل: يزفون زفيف النعام، وهو حالة بين المشي والعدو، عن مجاهد. وفي هذا أنهم أخبروا بصنيع إبراهيم بأصنامهم، فقصدوه مسرعين، وحملوه إلى بيت أصنامهم، وقالوا له: أأنت فعلت هذا بآلهتنا؟ فأجابهم على وجه الحجاج عليهم بأن ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فهو استفهام معناه الإنكار والتوبيخ، أي: كيف يصح أن يعبد الإنسان ما يعمله بيده؟ فإنهم كانوا ينحتون الأصنام بأيديهم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وخلق ما عملتم من الأصنام، فكيف تدعون عبادته وتعبدون معمولكم؟ هذا كما يقال: فلان يعمل الحصير، وهذا الباب من عمل فلان النجار، قال الحسن: معناه: وخلق أصل الحجارة التي تعملون منها الأصنام، وهذا يجري مجرى قوله: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقوله: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ في أنه أراد المنحوت من الجسم هنا، دون العرض الذي هو النحت، كما أراد هناك المأفوك فيه، والمصنوع فيه، من الحبال والعصي، دون العرض الذي هو فعلهم، فليس لأهل الجبر تعلق بهذه الآية، في الدلالة على أن الله سبحانه خالق لأفعال العباد، لأن من المعلوم أن الكفار لم يعبدوا نحتهم الذي هو فعلهم، وإنما كانوا يعبدون الأصنام التي هي الأجسام، وقوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ هو ما يعملون في المعنى، على أن مبنى الآية على التقريع للكفار، والإزراء عليهم بقبيح فعلهم، ولو كان معناه: والله خلقكم وخلق عبادتكم، لكانت الآية إلى أن تكون عذراً لهم أقرب من أن تكون لوماً وتهجيناً، ولكان لهم أن يقولوا: ولم توبخنا على عبادتها والله تعالى هو الفاعل لذلك؟ فتكون الحجة لهم لا عليهم، ولأنه قد أضاف العمل إليهم بقوله:

(١) هذا عجز بيت لشماخ. ونسبه بعض إلى حطيئة وصدره: «إذا ما راية رفعت لمجد»، وقد مرّ أيضاً.

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ فكيف يكون مضافاً إلى الله تعالى؟ وهذا تناقض، ولما لزمتهم الحجة ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ قال ابن عباس: بنوا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤوه ناراً، وطرحوه فيها، وذلك قوله: ﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم. وقيل: إن الجحيم النار العظيمة. ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي: حيلة وتدبيراً في إهلاكه وإحراقه بالنار ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ بأن أهلكناهم ونجينا إبراهيم وسلمناه ورددنا كيدهم عنه. وقيل: بأن أشرفوا عليه، فرأوه سالماً وتحققوا أن كيدهم لا ينفذ فيه، وعلموا أنهم مغلوبون ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: معناه: مهاجر إلى ربي، أي أهجر ديار الكفار، وأذهب إلى حيث أمرني الله تعالى بالذهاب إليه، وهي الأرض المقدسة. وقيل: إني ذاهب إلى مرضاة ربي بعملي ونيتي، عن قتادة ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ أي: يهديني ربي فيما بعد إلى طريق المكان الذي أمرني بالمصير إليه، أو إلى الجنة بطاعتي إياه. قال مقاتل: وهو أول من هاجر ومعه لوط وسارة إلى الشام، وإنما قال: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ ترغيباً لمن هاجر معه في الهجرة، وتوبيخاً لقومه، فلما قدم الأرض المقدسة سأل إبراهيم ربه الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ولداً صالحاً من الصالحين، كما تقول: أكلت من الطعام، فحذف لدلالة الكلام عليه.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ
فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ
ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ
عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ
وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿ماذا تري﴾ بضم التاء وكسر الراء، والباقون: بفتح التاء والراء، وفي الشواذ قراءة الأعمش والضحاك: بضم التاء وفتح الراء، وروي عن علي عليه السلام وابن مسعود وابن عباس ومجاهد والضحاك والأعمش وجعفر بن محمد: ﴿**فلما سلّما**﴾ بغير ألف ولام مشددة.

● **الحجة:** قال أبو علي: من فتح التاء فقال: ﴿مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ كان مفعول ﴿تَرَىٰۚ﴾ أحد الشيئين: إما أن يكون ﴿مَاذَا﴾ في موضع نصب بأنه مفعول، ويكون بمنزلة اسم واحد. وإما أن يكون «ذا» بمنزلة الذي، فيكون مفعول ﴿تَرَىٰ﴾ الهاء المحذوفة من الصلة، ويكون ترى على هذا معناها الرأي، وليس إدراك الحاسة، كما تقول؛ فلان يرى رأي أبي حنيفة، وإذا جعلت ذا بمعنى الذي صار تقديره: ما الذي تراه، فيصير «ما» في موضع ابتداء، والذي في موضع خبره،

ويكون المعنى: ما الذي تذهب إليه فيما ألقيت إليك؟ هل تستسلم له وتتلقاه بالقبول، أو تأتي غير ذلك؟.

ومن قرأ: ﴿ماذا تري﴾ فيجوز أن يكون ما مع ذا بمنزلة اسم واحد، فيكونا في موضع نصب، والمعنى: أجلداً تُرى على ما تحمل عليه أم خواراً؟. ويجوز أن يكون «ما» مبتدأ و «ذا» بمعنى الذي، ويعود إليه الذكر المحذوف من الصلة، والفعل منقول من رأى زيد الأمر، وأريته الشيء، إلا أنه من باب أعطيت، فيجوز الاقتصار على أحد المفعولين دون الآخر، كما أن أعطيت كذلك، ولو ذكرت المفعول الآخر كان: أريت زيداً خالداً.

قال ابن جني: من قرأ: ﴿ماذا تُرى﴾ فالمعنى: ماذا يلقى إليك ويوقع في خاطرك؟ ومن قرأ: ماذا ترى. فالمعنى: ماذا تشير به وتدعو إلي العمل بحسبه، وهو من قولك: ما رأيك في كذا؟ ومنه قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما يحضرك إياه الرأي والخاطر. وأما قوله: ﴿أَسْلَمَا﴾ فمعناه: فوَّضا وأطاعا. وأما ﴿سلَّما﴾ فمن التسليم، أي: سلما أنفسهما وآراهما كالتسليم باليد لما أمرا به ولم يخالفا ما أريد منهما من إجماع إبراهيم الذبح، وإسحاق أو إسماعيل الصبر.

● **اللغة:** التلُّ: الصرع، ومنه التل من التراب، جمعه تُلول، والتليل: العنق، لأنه يتل. والجبين: ما عن يمين الجبهة وشمالها، وللوجه جبينان الجبهة بينهما. والذبح: بكسر الذال: المهيأ لأن يذبح، وبفتح الذال: المصدر.

● **الإعراب:** اختلف في جواب «لما» من قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ فقيل: هو محذوف، وتقديره: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه فازا وظفرا بما أرادا. وقيل: جوابه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ والواو زائدة ﴿نَبِيًّا﴾ منصوب بأنه حال من ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ وذو الحال إسحاق.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه أنه استجاب لإبراهيم دعاءه بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي بابن وقور، عن الحسن. قال: وما سمعت الله تعالى نحل عباده شيئاً أجل من الحلم، والحليم: الذي لا يعجل في الأمر قبل وقته مع القدرة عليه. وقيل: الذي لا يعجل بالعقوبة. قال الزجاج: وهذه البشارة تدل على أن الغلام يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم. ثم أخبر سبحانه أن الغلام الذي بشره به ولد له وترعرع بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، عن مجاهد. والمعنى: بلغ إلى أن يتصرف، ويمشي معه ويعينه على أموره. قالوا: وكان يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: يعني بالسعي العمل لله والعبادة، عن الحسن والكلبي وابن زيد ومقاتل ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ معنى رأى في الكلام على خمسة أوجه:

أحدها: أبصر.

والثاني: علم، نحو: رأيت زيداً عالماً.

والثالث: ظن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

والرابع: اعتقد، نحو قوله:

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

والخامس: بمعنى الرأي، نحو: رأيت هذا الرأي.

وأما رأيت في المنام فمن رؤية البصر، فمعنى الآية: أن إبراهيم قال لابنه: إني أبصرت في المنام رؤيا، تأويلها الأمر بذبحك، فانظر ماذا تراه، أو أي شيء ترى من الرأي؟ ولا يجوز أن يكون ترى ها هنا بمعنى تبصر، لأنه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين، ولا يجوز أن يكون بمعنى علم أو ظن أو اعتقد، لأن هذه الأشياء تتعدى إلى مفعولين، وليس هنا إلا مفعول واحد، مع استحالة المعنى، فلم يبق إلا أن يكون من الرأي، والأولى أن يكون الله تعالى قد أوحى إليه في حال اليقظة، وتعبّده بأن يُمضي ما يأمره به في حال نومه، من حيث إن منامات الأنبياء لا تكون إلا صحيحة، ولو لم يأمره بذلك في حال اليقظة لما كان يجوز أن يعمل على ما يراه في المنام. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: منامات الأنبياء وحي. وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حق، إذا رأوا شيئاً فعلوه. وقال أبو مسلم: رؤيا الأنبياء ـ مع أن جميعها صحيحة ـ ضربان:

أحدهما: أن يأتي الشيء كما رأوه، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ الآية.

والآخر: أن يكون عبارة عن خلاف الظاهر مما رأوه في المنام، وذلك كرؤيا يوسف الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين، وكأن رؤيا إبراهيم من هذا القبيل، لكنه لم يأمن أن يكون ما رآه مما يلزمه العمل به على الحقيقة، ولا يسعه غير ذلك، فلما أسلما أعلمه الله سبحانه أنه صدق الرؤيا بما فعله، وفدى ابنه من الذبح بالذبح. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما أمرت به ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ستصادفني بمشيئة الله وحسن توفيقه ممن يصبر على الشدائد في جنب الله ويسلم لأمره ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما لأمر الله، ورضيا به، وأطاعاه. وقيل معناه: سلم الأب ابنه لله، وسلم الابن نفسه لله ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: اضطجعه على جبينه، عن الحسن. وقيل معناه: وضع جبينه على الأرض لئلا يرى وجهه، فتلحقه رقة الآباء، عن ابن عباس. وروي أنه قال: اذبحني وأنا ساجد لا تنظر إلى وجهي، فعسى أن ترحمني فلا تذبحني ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ تقديره: ناديناه بأن يا إبراهيم، أي: بهذا الضرب من القول ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: فعلت ما أمرت به في الرؤيا ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي: كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه، نجزي من سلك طريقهما في الإحسان بالاستسلام، والانقياد لأمر الله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إن هذا لهو الامتحان الظاهر والاختبار الشديد. وقيل: إن هذا لهو النعمة الظاهرة، وتسمى النعمة بلاء بسببها المؤدي إليها، كما يقال لأسباب الموت هي الموت، لأنها تؤدي إليه.

واختلف العلماء في الذبيح على قولين:

أحدهما: أنه إسحاق، وروي ذلك عن علي عليه السلام، وابن مسعود وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة وعطاء والزهري والسدي والجبائي.

والقول الآخر: أنه إسماعيل، عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والربيع بن أنس والكلبي ومحمد بن كعب القرظي. وكلا القولين قد رواه أصحابنا عن أئمتنا عليهم السلام، إلا أن الأظهر في الروايات أنه إسماعيل، ويعضده قوله بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومن قال: إنه بشر بنبوة إسحاق فقد ترك الظاهر، ولأنه قال في موضع آخر: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فبشره بإسحاق وبأنه سيولد له يعقوب، فكيف يبشره بذرية إسحاق ثم يأمره بذبح إسحاق مع ذلك؟.

وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أنا ابن الذبيحين». ولا خلاف أنه من ولد إسماعيل، والذبيح الآخر هو عبد الله أبوه، وحجة من قال: إنه إسحاق أن أهل الكتابين أجمعوا على ذلك، وجوابه أن إجماعهم ليس بحجة، وقولهم غير مقبول، وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فسألني عن الذبيح؟ فقلت: إسماعيل، واستدللت بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فأرسل إلى رجل بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده، فقال: إسماعيل. ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان من أمر الله فيه ما كان، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم.

وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، إسحاق أم إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي، أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان بمكة إسماعيل وهو بنى للبيت مع أبيه، والمنحر بمكة لا شك فيه، وقد استدل بهذه الآية من أجاز نسخ الشيء قبل وقت فعله، فقال: إن الله تعالى نهاه عن ذبحه بعد أن أمره به، وقد أجيب عن ذلك بأجوبة:

أحدها: أنه سبحانه لم يأمر إبراهيم بالذبح الذي هو فريُ الأوداج، وإنما أمره بمقدمات الذبح من الاضطجاع، وتناول المدية، وما يجري مجرى ذلك، والعرب قد تسمي الشيء باسم مقدماته، ولهذا قال: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ ولو كان أمره بالذبح لكان إنما صدق بعض الرؤيا، وأما الفداء بالذبح فلما كان يتوقعه من الأمر بالذبح، ولا يمتنع أيضاً أن يكون فدية عن مقدمات الذبح، لأن الفدية لا يجب أن تكون من جنس المفدي، ألا ترى أن حلق الرأس قد يفدى بدم ما يذبح، وكذلك لبس الثوب المخيط، والجماع، وغير ذلك.

وثانيها: أنه عليه السلام إنما أمر بصورة الذبح وقد فعله، لأنه فرى أوداج ابنه، ولكنه كلما فرى جزءاً منه وجاوزه إلى غيره عاد في الحال ملتحماً، فإن قلت: إن حقيقة الذبح هو قطع مكان مخصوص تزول معه الحياة، فالجواب أن ذلك غير مسلم، لأنه يقال: ذبح هذا الحيوان ولم يمت بعد، ولو سلمنا أن حقيقة الذبح ذلك، لكان لنا أن نحمل الذبح على المجاز للدليل الدال عليه.

وثالثها: أن الله تعالى أمره بالذبح، إلا أنه سبحانه جعل على عنقه صفحة من نحاس، وكلما أمرّ إبراهيم السكين عليه لم يقطع، أو كان كلما اعتمد على السكين انقلب، على اختلاف الرواية

فيه. وهذا التأويل يسوغ إذا قلنا: إنه كان مأموراً بما يجري مجرى الذبح، ولا يسوغ إذا قلنا: إنه أمر بحقيقة الذبح، لأنه يكون تكليفاً لما لا يطاق. ثم قال سبحانه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الفداء جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه، والذِّبح هو المذبوح وما يذبح، ومعناه: أنا جعلنا الذبح بدلًا عنه، كالأسير يُفدى بشيء. واختلف في الذبح، فقيل: كان كبشاً من الغنم، عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير. قال ابن عباس: هو الكبش الذي تقبل من هابيل حين قربه. وقيل: فدي بوعل أهبط عليه من ثبير[1]، عن الحسن. ولم سمي عظيماً؟ فيه خلاف. قيل: لأنه كان مقبولًا، عن مجاهد. وقيل: لأن قدر غيره من الكباش يصغر بالإضافة إليه. وقيل: لأنه رعى في الجنة أربعين خريفاً، عن سعيد بن جبير. وقيل: لأنه كان من عند الله كونه ولم يكن عن نسل. وقيل: لأنه فداء عبد عظيم. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قد مضى تفسير ذلك ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ أي: بولادة إسحاق ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ولداً نبياً من جملة الأنبياء الصالحين، وهذا ترغيب في الصلاح بأن مدح مثله في جلالته بالصلاح. ومن قال: إن الذبيح إسحاق، قال: يعني بشرناه بنبوة إسحاق، وآتينا إسحاق النبوة بصبره ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: وجعلنا فيما أعطيناهما من الخير والبركة، يعني النماء والزيادة، ومعناه: وجعلنا ما أعطيناهما من الخير دائماً ثابتاً نامياً، ويجوز أن يكون أراد كثرة ولدهما، وبقاءهم قرناً بعد قرن إلى أن تقوم الساعة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ومن أولاد إبراهيم وإسحاق ﴿مُحْسِنٌ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ بين الظلم.

القصة: من ذهب إلى أن الذبيح إسحاق ذكر أن إبراهيم لما فارق قومه مهاجراً إلى الشام، هارباً بدينه، كما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ دعا الله سبحانه أن يهب له ولداً ذكراً من سارة، فلما نزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة، وبشروه بغلام حليم، قال إبراهيم حين بشر به؛ هو إذاً له ذبيح، فلما ولد الغلام وبلغ معه السعي، قيل له: أوف بنذرك الذي نذرت، فكان هذا هو السبب في أمره عليه السلام بذبح ابنه، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك لإسحاق: انطلق نقرب قرباناً لله، وأخذ سكيناً وحبلًا، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال، قال له الغلام: يا أبه! أين قربانك؟ فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ إلى آخره، عن السدي. وقيل: إن إبراهيم رأى في المنام أن يذبح ابنه إسحاق، وقد كان حج بوالدته سارة وأهله، فلما انتهى إلى منى رمى الجمرة هو وأهله وأمر سارة فزارت البيت، واحتبس الغلام، فانطلق به إلى موضع الجمرة الوسطى، فاستشاره في نفسه، فأمره الغلام أن يمضي ما أمره الله، وسلما لأمر الله، فأقبل شيخ، فقال: يا إبراهيم، ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه، فقال: سبحان الله، تريد أن تذبح غلاماً لم يعص الله طرفة عين قط، قال إبراهيم: إن الله أمرني بذلك، قال: ربك ينهاك عن ذلك، وإنما أمرك بهذا الشيطان، فقال إبراهيم: لا والله، فلما عزم على الذبح، قال الغلام: يا أبتا، خمر وجهي وشد وثاقي، قال إبراهيم: يا بني، الوثاق مع الذبح؟ والله لا أجمعهما عليك اليوم! ورفع رأسه إلى

(١) ثبير كأمير -: جبل بين مكة وعرفات، من أعظم جبال مكة.

السماء، ثم انحنى عليه بالمدية، وقلب جبرائيل المدية على قفاها، واجتر الكبش من قِبَل ثبير، واجتر الغلام من تحته، ووضع الكبش مكان الغلام، ونودي من ميسرة مسجد الخيف، يا إبراهيم: قد صدقت الرؤيا بإسحاق، إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، قال: ولحق إبليس بأم الغلام حين زارت البيت، فقال لها: ما شيخ رأيته بمنى؟ قالت: ذاك بعلي، قال: فوصيف رأيته، قالت: ذاك ابني، قال: فإني رأيته وقد أضجعه وأخذ المدية ليذبحه، قالت: كذبت إبراهيم أرحم الناس فكيف يذبح ابنه؟ قال: فورب السماء ورب هذه الكعبة قد رأيته كذلك، قالت: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قالت: حق له أن يطيع ربه، فوقع في نفسها أنه قد أمر في ابنها بأمر، فلما قضت نسكها أسرعت في الوادي راجعة إلى منى، واضعة يديها على رأسها وهي تقول: يا رب، لا تؤاخذني بما عملت بأم إسماعيل، فلما جاءت سارة وأخبرت الخبر. قامت إلى ابنها تنظر، فرأت إلى أثر السكين خدشاً في حلقه، ففزعت واشتكت وكانت بدو مرضها الذي هلكت به، رواه العياشي وعلي بن إبراهيم بالإسناد في كتابيهما.

ومن قال: إن الذبيح إسماعيل، فمنهم محمد بن إسحاق بن يسار، وذكر أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل وهاجر، حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة، فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن يذبحه، فقال له: يا بني، خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه. فقال: يا أبت، أشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا تنتضح من دمي شيئاً، فتراه أمي، واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي، ليكون أهون علي، فإن الموت شديد، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم ذكر نحواً مما تقدم ذكره.

وروى العياشي بإسناده، عن بريدة بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم كان بين بشارة إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام، وبين بشارته بإسحاق؟ قال: كان بين البشارتين خمس سنين، قال الله سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ يعني إسماعيل، وهي أول بشارة بشر الله بها إبراهيم في الولد.

ولما ولد لإبراهيم إسحاق من سارة، وبلغ إسحاق ثلاث سنين، أقبل إسماعيل عليه السلام إلى إسحاق، وهو في حجر إبراهيم فنحاه وجلس في مجلسه، فبصرت به سارة، فقالت: يا إبراهيم، ينحي ابن هاجر ابني من حجرك، ويجلس هو في مكانه، لا والله لا تجاورني هاجر وابنها في بلاد أبداً، فنحهما عني، وكان إبراهيم مكرماً لسارة، يعزها ويعرف حقها، وذلك لأنها كانت من ولد الأنبياء وبنت خالته، فشق ذلك على إبراهيم، واغتم لفراق إسماعيل عليه السلام، فلما كان في الليل، أتى إبراهيم آت من ربه، فأراه الرؤيا في ذبح ابنه إسماعيل بموسم مكة، فأصبح إبراهيم حزيناً للرؤيا التي رآها، فلما حضر موسم ذلك العام، حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل في ذي الحجة من أرض الشام، فانطلق بها إلى مكة ليذبحه في الموسم، فبدأ بقواعد البيت الحرام،

فلما رفع قواعده خرج إلى منى حاجاً، وقضى نسكه بمنى، ورجع إلى مكة فطافا بالبيت أسبوعاً، ثم انطلقا إلى السعي، فلما صارا في المسعى، قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام: يا بني! إني أرى في المنام أني أذبحك في موسم عامي هذا، فماذا ترى؟ قال: يا أبت! افعل ما تؤمر، فلما فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى منى، وذلك يوم النحر، فلما انتهى به إلى الجمرة الوسطى وأضجعه لجنبه الأيسر، وأخذ الشفرة ليذبحه، نودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. إلى آخره. وفُدي إسماعيل بكبش عظيم فذبحه، وتصدق بلحمه على المساكين.

وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن كبش إبراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال: أملح أقرن، ونزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى، بحيال الجمرة الوسطى، وكان يمشي في سواد، ويأكل في سواد، وينظر في سواد، ويبعر في سواد، ويبول في سواد.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن صاحب الذبح قال: هو إسماعيل. وعن زياد بن سوقة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن صاحب الذبح، فقال: إسماعيل عليه السلام.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

● **اللغة:** أصل المن: القطع، ومنه قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، وحبل منين: أي منقطع. والنصر: المعونة، إلا أن كل نصر معونة، وليس كل معونة نصراً، لأن النصر يختص بالمعونة على الأعداء، والمعونة عامة.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم بذكر موسى وهارون، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما نعماً قطعت عنهما كل أذية، فمنها النبوة، ومنها النجاة من آل فرعون، ومنها سائر النعم الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من تسخير قوم فرعون إياهم، واستعمالهم في الأعمال الشاقة. وقيل: من الغرق، ونصرناهم على فرعون وقومه ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ القاهرين، بعد أن كانوا مغلوبين مقهورين ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ يعني التوراة، الداعي إلى نفسه بما فيه من البيان، وكذلك كل كتب الله تعالى بهذه الصفة ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دللناهما على الطريق المؤدي إلى الحق، الموصل إلى الجنة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ الثناء الجميل ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ بأن قلنا ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ وقد مر القول في ذلك، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما فعلنا بهما ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نفعل

بالمطيعين، نجزيهم ذلك على طاعاتهم، وفي هذا دلالة على أن ما ذكره الله كان على وجه الثواب لموسى وهارون ومن تقدم ذكره، لأن لفظ الجزاء يفي ذلك ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من جملة عبادنا المصدقين بجميع ما أوجبه الله تعالى عليهم العاملين بذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل العراق غير أبي عمرو وأبي بكر ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ النصب، والباقون: برفع الجميع. وقرأ ابن عامر ونافع ورويس عن يعقوب: **﴿آل ياسين﴾** بفتح الألف وكسر اللام المقطوعة من ياسين، والباقون: «إلياسين» بكسر الألف وسكون اللام موصولة بياسين، وفي الشواذ قراءة ابن مسعود ويحيى والأعمش والحكم بن عيينة: **﴿وإن إدريس﴾**، **﴿سلام على إدراسين﴾** وقراءة ابن محيصن وأبي رجاء: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾، **﴿وسلام على الياسين﴾** بغير همز.

● **الحجة:** من قرأ: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فهو على الاستئناف، ومن نصب فعلى البدل من ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وقال أبو علي: من قرأ: ﴿آلِ يٰس﴾ فحجته أنها في المصحف مفصولة من ﴿يس﴾ وفي فصلها دلالة على أن آل هو الذي تصغيره أهيل. وقال الزجاج: من قرأ الياسين، فإنه جمع إلياس، جمع هو وأمته المؤمنون، وكذلك يجمع ما ينسب إلى الشيء بلفظ الشيء، تقول: رأيت المسامعة والمهالبة، تريد بني المسمع، وبني المهلب، وكذلك رأيت المهلبين والمسمعين. وفيها وجه آخر: وهو أن يكون لغتان: إلياس، وإلياسين. كما قيل: ميكال وميكائيل، وقال أبو علي: هذا لا يصح، لأن ميكال وميكائيل لغتان في اسم واحد، وليس أحدهما مفرداً والآخر جمعاً، كإلياس وإلياسين، وإدريس وإدراسين. ومثله:

قدني من نصر الخبيبين قدي[1]

أراد عبد الله ومن كان على رأيه، فكذلك إلياسين وإدراسين من كان من شيعته وأهل دينه على إرادة ياء النسب، التقدير: إلياسيين وإدراسيين، فحذف كما حذف من سائر هذه الكلم التي يراد بها الصفة كالأعجمين والأشعرين.

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه: «ليس الإمام بالشحيح الملحد» وقد اختلفت الكلمات في قائله فمنهم من نسبه على صيغة الجمع على أنه أراد عبد الله وشيعته. والشحيح: البخيل. والملحد: الذي ألحد في الحرم أي: ظلم.

● **الإعراب:** ﴿سَلَٰمٌ﴾ في هذه الآي كلها مبتدأ، والخبر بعده الجار والمجرور، والجملة في موضع المفعول، لقوله: ﴿وتركنا﴾ ولو أعمل ﴿وتركنا﴾ فيه لقال: سلاماً، ويجوز أن يكون التقدير: وتركنا عليه في الآخرين الثناء الحسن، فحذف مفعول تركنا، ثم ابتدأ فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه قصة إلياس، فقال: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ واختلف فيه، فقيل: هو إدريس، عن ابن مسعود وقتادة. وقيل: هو من أنبياء بني إسرائيل، من ولد هارون بن عمران، ابن عم اليسع، عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغيرهما قالوا: إنه بعد حزقيل لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وكان يوشع لما فتح الشام، بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطاً منهم ببعلبك، وهم سبط إلياس، بعث فيهم نبياً إليهم، فأجابه الملك، ثم إن امرأته حملته على أن ارتد وخالف إلياس وطلبه ليقتله، فهرب إلى الجبال والبراري. وقيل: إنه استخلف اليسع على بني إسرائيل، ورفعه الله تعالى من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة الطعام والشراب، وكساء الريش، فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً، وسلط الله على الملك وقومه عدواً لهم، فقتل الملك وامرأته، وبعث الله اليسع رسولًا فآمنت به بنو إسرائيل، وعظموه وانتهوا إلى أمره، عن ابن عباس. وقيل: إن إلياس صاحب البراري، والخضر صاحب الجزائر، ويجتمعان في كل يوم عرفة بعرفات، وذكر وهب: أنه ذو الكفل ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله ونقمته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ يعني صنماً لهم من ذهب كانوا يعبدونه، عن عطاء. والبعل: بلغة أهل اليمن هو الرب والسيد، عن عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي. فالتقدير: أتدعون رباً غير الله تعالى ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي: تتركون عبادة أحسن الخالقين ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ أي: خالقكم ورازقكم، فهو الذي تحق له العبادة ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وخالق من مضى من آبائكم وأجدادكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، ولم يصدقوه ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ للحساب، أو في العذاب والنار ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثنى من جملتهم الذين أخلصوا عبادتهم لله من قومه ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ فيه القولان اللذان ذكرناهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ قال ابن عباس: آل يس آل محمد ﷺ، وياسين من أسمائه، ومن قرأ: ﴿الياسين﴾ أراد إلياس ومن اتبعه. وقيل: ﴿يسٓ﴾ اسم السورة. فكأنه قال: سلام على من آمن بكتاب الله تعالى والقرآن الذي هو يس ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بإحسانهم ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المصدقين العاملين بما أوجبناه عليهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: و﴿يَزِيدُونَ﴾ بالواو، والوجه فيه ظاهر.

● **اللغة:** الغابر: الباقي قليلاً بعد ما مضى، ومنه: الغبار، لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً. والتدمير: الإهلاك على وجه التنكيل. والآبق: الفارُّ إلى حيث لا يهتدي إليه طالبه، وقد أبق يأبق إباقاً. والمشحون: المملوء. والمساهمة: المقارعة، مأخوذ من إلقاء السهام. ودحضت حجته: أي سقطت. وأدحضها الله، مأخوذ من الدحض وهو الزلق، لأنه يسقط المار فيه، قال الشاعر:

وحُدتُ كما حاد البعير عن الدحْض[1]

والالتقام: ابتلاع اللقمة، يقال: لقمه والتقمه وتلقمه بمعنى وألام الرجل فهو مليم، أتى بما يلام عليه، قال لبيد:

سفهاً عَذَلتَ ولمتَ غير مُليم وهَداك قبل اليوم غيرُ حكيم

والعراء: الفضاء الذي لا يورايه شجر ولا غيره. وقيل: العراء: وجه الأرض الخالي. قال:

ورفعتُ رجلًا لا أخاف عِثارها ونبذتُ بالبلد العراء ثيابي

واليقطين: كل شجرة تبقى من الشتاء إلى الصيف ليس لها ساق، قال أمية بن أبي الصلت:

فأنبتَ يقطيناً عليه برحمةٍ من الله لولا الله أُلقِيَ ضاحياً

وهو يفعيل: من قطن بالمكان إذا أقام به إقامة زائل، لا إقامة راسخ، والقطاني من الحبوب، التي تقيم في البيت مثل الحمص والعدس والخلَّر، واحدها: قِطنية وقُطنية.

● **الإعراب:** ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من قوله: ﴿لَتَمُرُّونَ﴾. ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ الجار والمجرور أيضاً في موضع نصب عطفاً عليه، تقديره: لتمرون عليه مصبحين وممسين.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم خبر لوط، فقال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: رسولًا من جملة من أرسله الله إلى خلقه، داعياً لهم إلى طاعته، ومنبهاً لهم على وحدانيته ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ إذ يتعلق بمحذوف، وكأنه قيل: اذكر يا محمد إذ نجيناه، أي: خلصناه ومن آمن به من قومه من عذاب الاستئصال ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: في الباقين الذين أهلكوا، استثنى من جملة قومه امرأته فقال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِٱلَّيْلِ﴾ هذا خطاب لمشركي العرب، أي: تمرون في ذهابكم ومجيئكم إلى

---

(١) قائله طرفة، وقبله: «رديت ونجى اليشكري حذاره». وحاد عن الشيء: مال وعدل.

الشام، على منازلهم وقراهم بالنهار وبالليل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعتبرون بهم، ومن كثر مروره بموضع العبر فلم يعتبر، كان ألوم ممن قل ذلك عنه. والمعنى: أفلا تتفكرون فيما نزل بهم، لتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال.

والوجه في ذكر قصص الأنبياء وتكريرها، التشويق إلى مثل ما كانوا عليه، من مكارم الأخلاق، ومحاسن الخلال، وصرف الخلق عما كان عليه الكفار، من مساوىء الخصال، ومقابح الأفعال.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: فرَّ من قومه إلى السفينة، المملوءة من الناس والأحمال، خوفاً من أن ينزل العذاب بهم وهو مقيم فيهم ﴿فَسَاهَمَ﴾ يونس القوم بأن ألقوا السهام عى سبيل القرعة، أي: قارعهم ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المقروعين، عن الحسن وابن عباس. وقيل: من المسهومين، عن مجاهد. والمراد: من الملقين في البحر.

واختلف في سبب ذلك. فقيل: إنهم أشرفوا على الغرق، فرأوا أنهم إن طرحوا واحداً منهم في البحر لم يغرق الباقون. وقيل: إن السفينة احتبست، فقال الملاحون: إن ها هنا عبداً آبقاً، فإن من عادة السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، فلذلك اقترعوا، فوقعت القرعة على يونس ثلاث مرات، فعلموا أنه المطلوب، فألقى نفسه في البحر. وقيل: إنه لما وقعت القرعة عليه ألقوه في البحر.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ أي: ابتلعه. وقيل: إن الله سبحانه أوحى إلى الحوت: أني لم أجعل عبدي رزقاً لك، ولكني جعلت بطنك مسجداً له، فلا تكسرن له عظماً، ولا تخدشن له جلداً ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مستحق للوم، لوم العتاب، لا لوم العقاب، على خروجه من بين قومه من غير أمر ربه، وعندنا أن ذلك إنما وقع منه تركاً للمندوب، وقد يلام الإنسان على ترك المندوب، ومن جوز الصغيرة على الأنبياء قال قد وقع ذلك صغيرة مكفرة.

واختلف في مدة لبثه في بطن الحوت. فقيل: كانت ثلاثة أيام، عن مقاتل ابن حيان. وقيل: سبعة أيام، عن عطاء. وقيل: عشرين يوماً، عن الضحاك. وقيل: أربعين يوماً، عن السدي ومقاتل بن سليمان والكلبي ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: كان من المصلين في حال الرخاء، فنجاه الله عند البلاء، عن قتادة. وقيل: كان تسبيحه أنه كان يقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، عن سعيد بن جبير. وقيل: من المسبحين أي: من المنزهين الله عما لا يليق به، ولا يجوز في صفته الذاكرين له ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ أي: فطرحناه بالمكان الخالي الذي لا نبت فيه ولا شجر. وقيل: بالساحل، ألهم الله سبحانه الحوت حتى قذفه ورماه من جوفه على وجه الأرض ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض حين ألقاه الحوت ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ وهو القرع، عن ابن مسعود. وقيل: هو كل نبت يبسط على وجه الأرض ولا ساق له، عن ابن عباس والحسن. وروي عن ابن مسعود قال: خرج يونس من بطن الحوت كهيئة فرخ ليس له ريش، فاستظل بالشجر من الشمس ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قيل: إن الله سبحانه

أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل، عن قتادة. وكانت رسالته هذه بعد ما نبذه الحوت، عن ابن عباس. فعلى هذا يجوز أن يكون أرسل إلى قوم بعد قوم، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين بشريعة فآمنوا بها.

وقيل في معنى ﴿أَوْ﴾ من قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وجوه:

أحدها: أنه على طريق الإبهام على المخاطبين، كأنه قال: أرسلناه إلى إحدى العدتين.

وثانيها: أن أو تخيير، كأن الرائي خير بين أن يقول: هم مائة ألف أو يزيدون، عن سيبويه. والمعنى: أنهم كانوا عدداً لو نظر إليهم الناظر لقال: هم مائة ألف أو يزيدون.

وثالثها: أن أو بمعنى الواو، كأنه قال: ويزيدون، عن بعض الكوفيين. وقال بعضهم: معناه: بل يزيدون، وهذان القولان الأخيران غير مرضيين عند المحققين(1)، وأجود الأقوال الثاني. واختلف في الزيادة على مائة ألف، كم هي؟ فقيل: عشرون ألفاً، عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: بضع وثلاثون ألفاً، عن الحسن والربيع. وقيل: سبعون ألفاً، عن مقاتل بن حيان ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ حكى سبحانه عنهم أنهم آمنوا بالله وراجعوا التوبة، فكشف عنهم العذاب، ومتعهم بالمنافع واللذات إلى انقضاء آجالهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ
إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ
﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ
سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ
ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر ونافع برواية إسماعيل وورش من طريق الأصفهاني: ﴿لَكَـٰذِبُونَ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ بالوصل والابتداء ﴿إصطفى﴾ بكسر الهمزة والباقون: ﴿أَصْطَفَى﴾ بفتح الهمزة، وكذلك ورش من طريق البخاري.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه: الهمز على وجه التقريع لهم بذلك والتوبيخ، ويقويه قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ فكما أن هذه المواضع كلها استفهام، كذلك قوله ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ ووجه القراءة الأخرى: أنه على وجه الخبر، كأنه إصطفى البنات فيما يقولون، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي: عند نفسك، وفيما كنت تقوله وتذهب إليه، ويجوز أن يكون ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ بدلًا من قوله: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لأن ولادة البنات واتخاذهن: اصطفاؤهن، فيصير ﴿اصطفى﴾ بدلًا

(١) يعني القول بأن «أو» بمعنى الواو، أو بمعنى بل، على قراءة: «أو يزيدون».

من المثال الماضي، كما كان قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بدلًا من قوله: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ ويجوز أن يكون ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ تفسيراً لكذبهم في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ كما أن قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ تفسير للوعد، ويجوز أن يكون متعلقاً بالقول على أنه أريد حرف العطف فلم يذكر، واستغنى بما في الجملة الثانية من الاتصال بالأولى عن حرف العطف، كقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ ونحو ذلك.

● **المعنى**: ثم عاد الكلام إلى الرد على مشركي العرب، فقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي: سلهم واطلب الحكم منهم في هذه القصة ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ أي: كيف أضفتم البنات إلى الله تعالى واخترتم لأنفسكم البنين؟ وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله على وجه الاصطفاء لا على وجه الولادة ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا﴾ معناه: بل خلقنا الملائكة إناثاً ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون خلقنا إياهم، أي: كيف جعلوهم إناثاً ولم يشهدوا خلقهم؟ ثم أخبر عن كذبهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ حين زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل، ومثله قول ذي الرمة:

أَستحدثَ الركب من أشياعهم خبراً ... أم راجع القلب من أطرابه طرب

والمعنى: كيف يختار الله سبحانه الأدون على الأعلى، مع كونه مالكاً حكيماً، ثم وبخهم فقال: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ لله بالبنات، ولأنفسكم بالبنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون فتنتهون عن مثل هذا القول ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ أي: حجة بينة على ما تقولون وتدعون، وهذا كله إنكار في صورة الاستفهام ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ المعنى: فأتوا بكتابكم الذي لكم فيه الحجة إن كنتم صادقين في قولكم، والمراد أنه دليل لكم على ما تقولونه من جهة العقل لا من جهة السمع. ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ اختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أن المراد به قول الزنادقة: إن الله وإبليس أخوان، وأن الله تعالى خلق النور، والخير، والحيوان النافع. وإبليس خلق الظلمة، والشر، والحيوان الضار، عن الكلبي وعطية.

وثانيها: أنه قول المشركين: إن الملائكة بنات الله، وسمي الملائكة جنَّة لاستتارهم عن العيون، عن مجاهد وقتادة والجبائي.

وثالثها: أنهم قالوا: صاهر الله الجن، فحدثت الملائكة، تعالى الله عن قولهم.

ورابعها: أنهم أشركوا الشيطان في عبادة الله تعالى، فذلك هو النسب الذي جعلوه بينه وبين الجنة، عن الحسن ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ أي: علمت الملائكة أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول، محضرون للعذاب يوم القيامة، عن السدي. وقيل معناه: قد علمت الجنة، وهم الجن الذين دعوهم أنهم محضرون العذاب بدعائهم إلى هذا القول ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزه سبحانه نفسه عما وصفوه به وأضافوه إليه ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثنى عباده المخلصين من جملة الكفار القائلين فيه ما لا يليق به.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة الحسن: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بضم اللام.

● **الحجة:** قال ابن جني: كان الشيخ أبو علي يحمله على أنه حذف لام ﴿صال﴾ تخفيفاً، وأعرب اللام بالضم، كما حذفت لام البالية من قولهم: ما باليت به بالة. وذهب قطرب إلى أنه: صالِ، أي: صالون، فحذف النون للإضافة والواو لالتقاء الساكنين، وحمل على معنى ﴿مَن﴾ لأنه جمع، كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وقال هذا حسن عندي، وقول أبي علي مأخوذ به.

● **اللغة:** الفاتن: الداعي إلى الضلال بتزيينه. وأصل الفتنة: من قولهم: فتنت الذهب بالنار، إذا أخرجته إلى حال الخلاص. الصالي: اللازم للنار المحترق بها. والمصطلي: المستدفىء بالنار، ومنه: الصلاة، للزوم الدعاء فيها، والمصلي: الذي يجيء بعد السابق للزومه أثره.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه الكفار بأن قال لهم: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ وموضع «ما» نصب، عطفاً على الكاف والميم، والمعنى: إنكم يا معشر الكفار والذي تعبدونه ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه يعود إلى ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ والتقدير: إنكم وما تعبدونه، ما أنتم بفاتنين على عبادته أحداً، إلا من يصلى الجحيم ويحترق بها، بسوء اختياره. وقيل معناه: ما أنتم بمضلين أحداً، أي: لا تقدرون على إضلال أحد إلا من سبق في علم الله تعالى، أن سيكفر بالله تعالى، ويصلى الجحيم.

والآخر: أن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الله تعالى، والتقدير: ما أنتم على الله وعلى دينه، بمضلين أحداً إلا من هو صالي الجحيم باختياره، وهذا كما يقال: لا يهلك على الله هالك. وفلان يربح على فلان، ويخسر على فلان. ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا قول جبرائيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: إنه قول الملائكة، وفيه مضمر، أي: وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم في السموات يعبد اللّه فيه. وقيل معناه: أنه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حد له، فكيف يجوز أن يعبد من بهذه الصفة وهو عبد مربوب؟ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ حول العرش ننتظر الأمر والنهي من الله تعالى. وقيل: القائمون صفوفاً في الصلاة. قال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء، كصفوف أهل الدنيا في الأرض. وقال الجبائي: صافون بأجنحتنا في الهواء للعبادة والتسبيح ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المصلون والمنزهون الرب عما لا يليق به. ومنه قوله: فرغت من سُبحتي، أي: من صلاتي، وذلك لما في الصلاة من تسبيح الله

تعالى وتعظيمه، والمسبحون القائلون: سبحان الله على وجه التعظيم لله، ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ إن هذه هي المخففة من الثقيلة، ألا ترى أن اللام قد لزم خبرها، والمعنى: وإن هؤلاء الكفار يعني أهل مكة كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من كتب الأولين، التي أنزلها على أنبيائه. وقيل: ذكراً: أي علماً من الأولين الذين تقدمونا، وما فعل الله بهم، فسمي العلم ذكراً، لأن الذكر من أسباب العلم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين يخلصون العبادة لله تعالى، فجعلوا العذر في امتناعهم من الإيمان أنهم لا يعرفون أخبار من تقدمهم، وهل حصلوا في جنة أو نار ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ في الكلام حذف. تقديره: فلما أتاهم الكتاب وهو القرآن كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، وهذا تهديد لهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سبق الوعد منا، لعبادنا الذين بعثناهم إلى الخلق ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ في الدنيا والآخرة على الأعداء بالقهر والغلبة وبالحجج الظاهرة. وقيل معناه: سبقت كلمتنا لهم بالسعادة. ثم ابتدأ فقال: إنهم، أي: إن المرسلين لهم المنصورون، واللام للتأكيد، وهم فصل. وقيل: عني بالكلمة قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ الآية. وسميت جملة من الكلام بأنها كلمة، لانعقاد بعض معانيه ببعض، حتى صار خبراً واحداً، وقصة واحدة كالشيء الواحد. قال الحسن: المراد بالآية نصرتهم في الحرب، فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء قط في الحرب، وإنما قتل من قتل منهم غيلة، أو على وجه آخر في غير الحرب، وإن مات نبي قبل النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى العادة بأن ينصر قومه من بعده، فيكون في نصرة قومه نصرة له، فقد تحقق قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وقال السدي: المراد بالآية النصر بالحجة ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أضاف المؤمنين إلى نفسه، ووصفهم بأنهم جنده، تشريفاً وتنويهاً بذكرهم، حيث قاموا بنصرة دينه. وقيل معناه: أن رسلنا هم المنصورون، لأنهم جندنا، وإن جندنا هم الغالبون، يقهرون الكفار بالحجة تارة، وبالفعل أخرى. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء الكفار ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت نأمرك فيه بقتالهم، يعني يوم بدر، عن مجاهد والسدي. وقيل: إلى يوم الموت، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: إلى يوم القيامة. وقيل: إلى انقضاء مدة الإمهال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: أنظرهم وأبصر ما ضيعوا من أمر الله، فسوف يرون العذاب، عن ابن زيد. وقيل: وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب فسوف يبصرون. وقيل: وأبصر حالهم بقلبك، فسوف يبصرون

ذلك في القيامة معاينة. وفي هذا إخبار بالغيب، لأنه وعد نبيه ﷺ بالنصر والظفر، فوافق المخبر الخبر، وكأنهم قالوا: متى هذا العذاب؟ فأنزل الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يطلبون تعجيل عذابنا ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: إذا نزل العذاب بأفنية دورهم، كما يستعجلون ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس الصباح، صباح من خُوِّف وحذر، فلم يحذر ولم يخف. والساحة: فناء الدار وفضاؤها الواسع. فالمراد أن العذاب لعظمه، لا يسعه إلا الساحة ذات الفضاء الواسع. وقيل: نزل بساحتهم: أي بدارهم، عن السدي. وكانت العرب تفاجىء أعداءها بالغارات صباحاً، فخرج الكلام على عادتهم، ولأن الله سبحانه أجرى العادة بتعذيب الأمم وقت الصباح، كما قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ مضى تفسيره. وإنما كرر ما سبق للتأكيد. وقيل: لأن المراد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالآخر عذاب الآخرة، أي: فكن على بصيرة من أمرك، فسوف يكونون في بصيرة من أمرهم حين لا ينفعهم. ثم نزه سبحانه نفسه عن وصفهم وبهتهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا﴾ أي: تنزيهاً لربك، مالك العزة، يعز من يشاء من الأنبياء والأولياء، لا يملك أحد إعزاز أحد سواه، فسبحانه عما يصفونه مما لا يليق به من الصفات، وهو قولهم باتخاذ الأولاد واتخاذ الشريك ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلامة وأمان لهم من أن ينصر عليهم أعداؤهم. وقيل: هو خبر معناه أمر، أي: سلموا عليهم كلهم لا تفرقوا بينهم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: احمدوا الله الذي هو مالك العالمين، وخالقهم والمنعم عليهم، وأخلصوا له الثناء والحمد، ولا تشركوا به أحداً، فإن النعم كلها منه.

وروى الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام، وقد روي أيضاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ، قال: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

سُورَة ص

(مكية)

● **عدد آيها:** هي ثمان وثمانون آية كوفي، وست حجازي بصري شامي، وخمس في عدد أيوب بن المتوكل وحده.

● **اختلافها:** ثلاث آيات: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كوفي ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ غير البصري ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ كوفي وبصري، وفي رواية المعلى عن الجحدري، وتركها أيوب، وهو يوافق الجحدري إلا في هذا الحرف.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة ص، أعطي من الأجر بوزن كل جبل سخره الله لداود حسنات، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغيراً أو كبيراً». وروى العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة، أعطي من خير الدنيا والآخرة، ما لم يعط أحد من الناس، إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وأدخله الله الجنة وكل من أحب من أهل بيته، حتى خادمه الذي يخدمه، وإن كان ليس في حد عياله، ولا في حد من شفع له، وأمنه الله يوم الفزع الأكبر.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الصافات، بذكر القرآن والرسول وإنكار الكفار لما دعاهم إليه، افتتح هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، والرد على الكفار أيضاً، فقال:

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي بن كعب، والحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿صادِ﴾ بكسر الدال، وقراءة الثقفي: صادَ، بفتح الدال، والقراءة[1] بالوقف، وهو الصحيح، لأن حروف الهجاء يوقف عليها، وقراءة عيسى بن عمرو، وأبي عبد الرحمن السلمي: ﴿عُجَّابٌ﴾ بتشديد الجيم.

● **الحجة:** من كسر فلاجتماع الساكنين، أو لأنه جعله من المصادة وهي المعارضة، أي: عارض القرآن بعملك، ومن فتح فلأن الفتحة أخف من الكسرة، ويجوز أن يكون من فتح جعل الصاد علماً للسورة، فلم يصرفه. والعجاب بالتشديد: هو المفرط في العجب، يقال: شيء عجيب، ثم عجَاب بالتخفيف، ثم عجّاب بالتشديد، كما قالوا: رجل وضيء ووضّاء، وأنشد:

---

(١) أي: القراءة المشهورة.

والمرء يُلحِقه بفتيان الندى خلقُ الكريم وليس بالوضَّاء

وقال آخر:

جاؤوا بصيْدٍ عجبٍ من العجَبِ ازيرقِ العينين طُوّالِ الذنَبْ

● **اللغة:** الشقاق والمشاقة: الخلاف، وأصله أن يصير كل واحد من الفريقين في شق، أي: في جانب، ومنه يقال: شق فلان العصا، إذا خالف. والمناص: من النوْص، وهو التأخر، ناص ينوص إذا تأخر، وباص يبوص ـ بالباء ـ إذا تقدم، قال امرؤ القيس:

أمن ذكر ليلى إن نأتك تَنُوص فتَقْصر عنها خطوة وتبُوصُ

● **الإعراب:** اختلف في جواب القسم على وجوه:

أحدها: أن جوابه محذوف، فكأنه قال: والقرآن ذي الذكر، لقد جاء الحق وظهر الأمر، لأن حذف الجواب في مثل هذا أبلغ، فإن ذكر الجواب يقصر المعنى على وجه، والحذف يصرف إلى كل وجه فيعم.

والثاني: أن جوابه ﴿صٓ﴾ فإن معناه: صدق، أقسم سبحانه بالقرآن أن محمداً ﷺ قد صدق والله، وفعل والله.

والثالث: أن الجواب مما كفى منه قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وقيل: ما كفى منه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فكأنه قال: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما قالوا، وأحدهما عن الفراء والآخر عن قتادة.

والرابع: أن جوابه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والتقدير: لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذف اللام، ومثله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ والتقدير: لقد أفلح، عن الفراء، وهذا غلط، لأن اللام لا تدخل على المفعول، و ﴿كَمْ﴾ مفعول.

والخامس: أن الجواب في آخر السورة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ إلا أنه بعُد من أول الكلام، عن الكسائي.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن التاء متصلة بلا، وأنهما بمنزلة ليس. قال الزجاج: ويجوز ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في اللغة، فأما النصب فعلى أن المعنى ليس الوقت حين مناص. والرفع على أن يجعل حين اسم ليس، ويضمر الخبر، والمعنى: ليس حين ملجأ لنا، والوقف عليها لات بالتاء، والكسائي يقف بالهاء لاه والأول أصح، لأن هذه التاء نظيرة التاء في الفعل، نحو ذهبت، وفي الحرف نحو رأيت زيداً ثمت عمراً، فإنها دخلت في الموضعين على ما لا يعرب، ولا هو في طريق الأسماء. وقال الأخفش: إن لات حين مثل: لا رجل في الدار، ودخلت التاء في التأنيث. قال الشاعر:

تذكرَ حب ليلى لاتَ حيناً وأضحى الشيبُ قد قطَع القَرِينا

والقول الآخر: أن التاء متصلة بحين، كما قال الشاعر:

العاطفينَ تَحينَ ما مِنْ عاطفِ   والمطعمين زمانَ ما مِنْ مُطعِمِ

وقد أجازوا الجر بلات، وأنشدوا لأبي زبيد:

طلبوا صُلحنا ولاتَ أوانٍ   فأجبنا أنْ ليس حينَ بقاءِ

قال الزجاج: والذي أنشدناه أبو العباس المبرد بالرفع، وقد روي بالكسر.

● **الحجة:** قال المفسرون: إن أشراف قريش، وهم خمسة وعشرون، منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم، وأبو جهل، وأبي وأمية ابنا خلف، وعتيبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنه سفه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ، وقال: يا ابن أخي! هؤلاء قومك يسألونك، فقال: ماذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك، فقال ﷺ أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك، نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا: لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً، فنزلت هذه الآيات. وروي أن النبي ﷺ استعبر، ثم قال: يا عم، والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه، فقال له أبو طالب: امض لأمرك، فوالله لا أخذلك أبداً.

● **المعنى:** ﴿صٓ﴾ اختلفوا في معناه، فقيل: هو اسم للسورة. وقيل: غير ذلك على ما ذكرناه في أول البقرة، وقال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى أقسم به، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام، وقال الضحاك: معناه صدق، وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن، فعلى هذا يجوز أن يكون موضعه نصباً، على تقدير: حذف حرف القسم، ويجوز أن يكون رفعاً، على تقدير: هذه صاد في مذهب فمن جعله اسماً للسورة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي الشرف، عن ابن عباس. يوضحه قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وقيل معناه: ذي البيان الذي يؤدي إلى الحق، ويهدي إلى الرشد، لأن فيه ذكر الأدلة، التي إذا تفكر فيها العاقل عرف الحق عقلاً وشرعاً. وقيل: ذي التذكر لكم، عن قتادة. وقيل: فيه ذكر الله وتوحيده، وأسماؤه الحسنى وصفاته العلى، وذكر الأنبياء وأخبار الأمم، وذكر البعث والنشور، وذكر الأحكام وما يحتاج إليه المكلّف من الأحكام، عن الجبائي. ويؤيده قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي: في تكبر عن قبول الحق وحمية جاهلية، عن قتادة. ويدل عليه قوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ وقيل: في ملكة واقتدار، وقوة بتمكين الله إياهم ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: عداوة وعصيان ومخالفة، لأنهم يأنفون عن متابعتك، ويطلبون مخالفتك.

ثم خوفهم سبحانه فقال ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ بتكذيبهم الرسل ﴿فَنَادَوا۟﴾ عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الوقت حين منجى ولا فوت. وقيل: لات حين نداء ينجي. قال قتادة: نادى القوم على غير حين النداء ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾

أي جاءهم رسول من أنفسهم مخوف من جهة الله تعالى، يحذرهم المعاصي وينذرهم النار ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ حين يزعم أنه رسول الله ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا استفهام إنكار وتعجب، وذلك أن النبي ﷺ أبطل عبادة ما كانوا يعبدونه من الآلهة مع الله، ودعاهم إلى عبادة الله وحده. فتعجبوا من ذلك، وقالوا: كيف جعل لنا إلهاً واحداً بعد ما كنا نعبد آلهة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد: من أن الإله واحد ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ لأمر عجيب مفرط في العجب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾.

● **اللغة:** الانطلاق: الذهاب بسهولة، ومنه: طلاقة الوجه، والخلق. والاختلاق والفريُ والافتراء متقارب. والارتقاء: الصعود من سفل إلى علو درجة درجة، قال:

لو لم يجد سلماً ما كان مرتقياً ... والمرتقى والذي رقّاهُ سيان

الأسباب: جمع سبب، والسبب: ما يوصل به إلى المطلوب، وأسباب السموات أبوابها، قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

والفرق بين السبب والعلة في عرف المتكلمين: أن السبب ما يوجب ذاتاً، والعلة ما يوجب صفة.

● **الإعراب:** أن امشوا: أن هذه هي التي تسمى المفسرة، بمعنى: أي امشوا، قال الزجاج: ويجوز أن يكون تقديره: بأن امشوا، أي: بهذا القول.

● **المعنى:** ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ هذا تمام الحكاية عن الكفار الذين تقدم ذكرهم، أي: وانطلق الأشراف منهم ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: امشوا ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني أنهم خرجوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب وهم يقولون: اثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على دينكم، وتحملوا المشاق لأجله. وقيل: إن القائل لذلك عقبة بن أبي معيط ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: أمر يراد بنا. وقيل معناه: أن هذا فساد في الأرض، وعن قريب ينزل به الهلاك، ونتخلص منه. وقيل: إن هذا الأمر يراد بنا من زوال نعمة، أو نزول شدة، لأنهم كانوا يعتقدون في الأصنام أنهم لو تركوا عبادتها أصابهم القحط والشدة. ثم حكي عنهم أيضاً بأنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد وخلع الأنداد من دون الله ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعنون في

النصرانية، لأنها آخر الملل، عن ابن عباس. قال: إن النصارى لا يوحدون، لأنهم يقولون: ثالث ثلاثة. وقيل: يعنون ملة قريش، أي: في ملة زماننا هذا، عن مجاهد وقتادة. وقيل معناه: ما سمعنا بأن هذا يكون في آخر الزمان، عن الحسن ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي يقول محمد ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: تخرُّص وكذب وافتعال.

ثم أنكروا تخصيص الله إياه بالقرآن والنبوة، بأن قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا؟ وليس بأكبر سناً منا، ولا بأعظم شرفاً؟ فقال سبحانه: ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: ليس يحملهم على هذا القول إلا الشك في الذكر الذي أنزلته على رسولي ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ وهذا تهديد لهم، والمعنى: إنهم سيذوقونه، ثم أجابهم عن إنكارهم نبوته بقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يقول: أبأيديهم مفاتيح النبوة والرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، أي: إنها ليست بأيديهم ولكنها بيد ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ كثير الهبات والعطايا على حسب المصالح، فيختار للنبوة من يشاء من عباده، ونظيره قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيتهيأ لهم أن يمنعوا الله من مراده ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ أي: إن ادعوا ذلك فليصعدوا ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: في أبواب السماء وطرقها، عن مجاهد وقتادة. وقيل: الأسباب: الحيل، أي: فليحتالوا في أسباب توصلهم إلى السموات ليأتوا بالوحي إلى من اختاروا.

●●●

قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿مِن فُوَاقٍ﴾ بضم الفاء، والباقون: بفتحها.

● **الحجة:** وهما لغتان: مثل قُصاص الشعر وقَصاصه، وجُمام المكُوك[1] وجَمامه، وهو من الإفاقة، وما بين الرضعتين فواق. وقيل: بينهما فرق، فبالفتح يكون بمعنى الراحة، وبالضم بمعنى المهلة والانتظار، عن أبي عبيدة والفراء.

اللغة: هنالك: إشارة إلى المكان البعيد، وهناك: بين البعيد والقريب، وهنا: للقريب، ومثله: ذا، وذاك، وذلك. والأحزاب: جمع حزب وهو الجماعة التي تجتمع من كل أوب. وقال الزجاج: ما لها من فواق: أي: رجوع، وفواق الناقة مشتق من الرجوع أيضاً، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه: أي: رجع إلى الصحة.

---

(١) المكوك: مكيال معروف لأهل العراق. وقولهم: عندي جمام المكوك دقيقاً أي: ملؤه.

● **الإعراب:** ﴿مَّا﴾ مزيدة في قوله: ﴿جُندٌ مَّا﴾ مثلها في قول الأعشى:

فاذهبا ما إليك أدركني الحلم عداني عن هيجكم أشغالي

و ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ، و ﴿هُنَالِكَ﴾ صفة له، أي: جند ثابت هنالك. و ﴿مَهْزُومٌ﴾ خبر مبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرفاً لـ ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: جند مهزوم في ذلك الموضع ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ يجوز أن يقف على قوله: ﴿نُوحٍ﴾ ويكون ﴿وَعَادٌ﴾ مبتدأ، ما بعده معطوف عليه، ويكون ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ خبراً عن الجميع، ويجوز أن يكون الخبر قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ ويجوز أن يكون ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ ابتداء، ويقف على ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن الكفار أنهم سيهزمون ببدر، فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ قال قتادة: أخبر الله سبحانه وهو بمكة، أنه سيهزم جند المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر، و ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر ومصارعهم بها، أي: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند مهزومون، مغلوبون، من جملة الكفار الذين تحزبوا على الأنبياء، وأنت منصور عليهم، مظفر غالب. وقيل: هم أحزاب الذين حاربوا نبينا ﷺ يوم الخندق. ووجه اتصاله بما قبله أن المعنى: كيف يرتقون إلى السماء وهم فرق من قبائل شتى مهزومون؟

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل هؤلاء الكفار ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ وقيل في معناه أقوال:

أحدها: أنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها، عن ابن عباس وقتادة وعطاء.

والثاني: أنه كان يعذب الناس بالأوتاد، وذلك أنه إذا غضب على أحدٍ وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض، عن السدي والربيع بن أنس ومقاتل والكلبي.

والثالث: أن معناه: ذو البنيان، والبنيان أوتاد، عن الضحاك.

والرابع: أن المعنى: ذو الجنود والجموع الكثيرة، بمعنى أنهم يشدون ملكه، ويقوون أمره كما يقوي الوتد الشيء، عن الجبائي والقتيبي. والعرب تقول: هو في عز ثابت الأوتاد، والأصل فيه: أن بيوتهم إنما ثبتت بالأوتاد، قال الأسود بن يعفر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشةٍ في ظل ملكٍ ثابت الأوتاد

والخامس: أنه سمي ذو الأوتاد، لكثرة جيوشه السائرة في الأرض وكثرة أوتاد خيامهم، فعبر بكثرة الأوتاد عن كثرة الأجناد.

﴿وَثَمُودُ﴾ يعني قوم صالح ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ لما ذكر سبحانه هؤلاء المكذبين أعلمنا أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب، ومعناه: هم الأحزاب حقاً، أي: أحزاب الشيطان، كما يقال: هم هم، قال:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم، يا أم خالد(١)

(١) قائله أشهب بن زميلة، ونسبه بعض إلى حريث بن مخفض، وحانت أي: هلكت. وفلج: موضع بين مكة والبصرة. وأم خالد: اسم امرأة.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ما كل حزب منهم إلا كذب الرسل ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب عليهم عقابي بتكذيبهم رسلي ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي: وما ينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي النفخة الأولى في الصور ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: لا يكون لتلك الصيحة إفاقة بالرجوع إلى الدنيا، عن قتادة والسدي. والمراد: أن عقوبة أمة محمد ﷺ بعذاب الاستئصال مؤخرة إلى يوم القيامة. وعقوبة سائر الأمم معجلة في الدنيا، كما قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ قال الفراء: إذا ارتضعت البهيمة أمها ثم تركتها حتى تنزل فتلك هي الإفاقة والفواق، ثم قيل لكل راحة وإنظار للاستراحة فواق. وقيل معناه: ما لها مثنوية، أي: صرف، ورد عن الضحاك. وقيل: ما لها من فتور، كما يفتر المريض، عن ابن زيد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

● **اللغة:** القِطُّ: الكتاب، قال الأعشى:

ولا المَلِكُ النعمانُ يوم تَقِيتُه ... بنعمته يعطِي القُطوط ويأفِق[1]

أي: كتب الجوائز، واشتقاقها من القِط وهو القطع، لأنها تقطع النصيب لكل واحد بما كتب فيها، والقِط: النصيب أيضاً، قال أبو عبيدة: والقط: الحساب، وفي الأثر: إن عمر وزيداً كانا لا يريان ببيع القطوط بأساً إذا خرجت، والفقهاء لا يجيزونه، وهي الجوائز والأرزاق، وقولهم: ما رأيته قط، أي: قطع الدهر الذي مضى.

● **المعنى:** ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني هؤلاء الكفار الذين وصفهم ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: قدم لنا نصيبنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قالوه على وجه الاستهزاء بخبر الله عز وجل، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل معناه: أرنا حظنا من النعيم في الجنة حتى نؤمن، عن السدي وسعيد بن جبير. وقيل: لما نزل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ قالت قريش: زعمت يا محمد أنّا نؤتى كتابنا بشمالنا، فعجل لنا كتبنا التي نقرؤها في الآخرة، استهزاء منهم بهذا الوعيد، وتكذيباً به، عن أبي العالية والكلبي ومقاتل. فقال سبحانه

---

(١) كان النعمان بن منذر ملك العرب، من قبل الساسانيين أكاسرة إيران، واتفق أن أبرويز غضب عليه، فطلبه بالمدائن، وألقاه تحت أرجل الفيل، فداسوه بأرجلهم فمات، وقيل: حبسه بخانقين حتى وقع الطاعون فمات فيه، في قصة طويلة، ذكره الطبري في (تاريخه ج١: ٥٩٦ - ٦١٠)، وابن الأثير في (الكامل ج١: ١٧١ - ١٧٤)، يقول الأعشى: لم ينج من الموت أحد، ولا النعمان. ويأفق أي: يفضل على أصحابه.

لنبيه ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد، أي: احبس نفسك ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك، فإن وبال ذلك يعود عليهم ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي: ذا القوة على العبادة، عن ابن عباس ومجاهد. وذكر أنه يقوم نصف الليل، ويصوم نصف الدهر، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد الصوم. وقيل: ذا القوة على الأعداء وقهرهم، وذلك لأنه رمى بحجر من مقلاعه صدر رجل، فأنفذه من ظهره، فأصاب آخر فقتله. وقيل معناه: ذا التمكين العظيم والنعم العظيمة، وذلك أنه كان يبيت كل ليلة حول محرابه ألوف كثيرة من الرجال ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: تواب راجع عن كل ما يكره الله تعالى إلى كل ما يحب، من آب يؤوب إذا رجع، عن مجاهد وابن زيد. وقيل: مسبح، عن سعيد بن جبير. وقيل: مطيع، عن ابن عباس.

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ لله إذا سبح، ويحتمل أن يكون الله سبحانه خلق في الجبال التسبيح، ويمكن أن يكون بني فيها بنية يأتي فيها التسبيح ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أي: بالرواح والصباح ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ أي: وسخرنا الطير ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ أي: مجموعة إليه تسبح الله تعالى معه ﴿كُلّٞ﴾ يعني كل الطير والجبال ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ رجّاع إلى ما يريد، مطيع له بالتسبيح معه. قال الجبائي: لا يمتنع أن يكون الله تعالى خلق في الطيور من المعارف ما تفهم به أمر داود عليه السلام ونهيه، فتطيعه فيما يريد منها وإن لم تكن كاملة العقل مكلفة ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي: قوينا ملكه بالحرس والجنود والهيبة وكثرة العدد والعدة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهي النبوة. وقيل: الإصابة في الأمور، وقيل: العلم بالله وشرائعه، عن أبي العالية والجبائي ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ يعني الشهود والإيمان، وأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، لأن خطاب الخصوم لا ينفصل ولا ينقطع إلا بهذا، وهو قول الأكثرين. وقيل: فصل الخطاب هو العلم بالقضاء والفهم، عن ابن مسعود والحسن ومقاتل وقتادة. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد بتسبيح الجبال معه ما أعطاه الله تعالى من حسن الصوت بقراءة الزبور، فكان إذا قرأ الزبور، أو رفع صوته بالتسبيح بين الجبال، ردت الجبال عليه مثله من الصدى، فسمى الله ذلك تسبيحاً.

• • •

قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾.

• **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي رجاء وقتادة: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ بفتح التاء وضم الطاء.

وقراءة الحسن والأعرج: ﴿نِعجة ولي نِعجة﴾ بكسر النون. وقراءة أبي حيوة: ﴿وَعَزَنِي﴾ بتخفيف الزاي. وقراءة عمر بن الخطاب: ﴿فَتَّنَّاهُ﴾ بتشديد التاء والنون، وقراءة قتادة وأبي عمرو وفي بعض الروايات الشاذة: ﴿فَتَنَاهُ﴾ بتخفيف النون.

● **الحجة:** أما قراءة: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ من شط يشِط ويشُط إذا بعُد، قال عنترة:

شَطَّتْ مزارُ العاشقين فأصبحتْ　　عَسِراً عليَّ طلابكِ ابنة مخرمِ(١)

قال ابن جني: معناه: بعدت عن مزار العاشقين، ولما بالغ في ذكر استضراره بها خاطبها بذلك، لأنه أبلغ، فعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب فقال طلابك. فأما النِّعجة: فهي لغة في النَّعجة، ومثله: لِقوة ولَقوة، وقوم شِجعة وشجعة، أي: شُجعان. وأما ﴿وَعَزَنِي﴾ بالتخفيف، فيمكن أن يكون أصله عززني، غير أنه خفف بحذف الزاي الثانية أو الأولى، كما قالوا في مسست وظللت مست وظلت. وأما قوله: ﴿فَتَّنَّاهُ﴾ فإنما هو فعلناه للمبالغة، وأما فتناه بتخفيف النون، فإن المراد بالتثنية هنا الملكان اللذان اختصما إليه، أي: اختبراه.

● **اللغة:** الخصم: هو المدعي على غيره حقاً من الحقوق، والمنازع له فيه، ويعبر به عن الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد، لأن أصله المصدر، فيقال: رجل خَصْم، ورجلان خصم، ورجال خصم. يقال: خاصمته فخصمته أخْصمه خصماً. والتسور: الإتيان من جهة السور، يقال: تسور فلان الدار إذا أتاها من جهة سورها. المحراب: مجلس الأشراف الذي يحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه سمي المصلى محراباً، وموضع القبلة محراباً. وأشط الرجل في حكمه: إذا جار فهو مشط، وشط عليه في السوم يشط شططاً، قال:

ألا يا لقومي قد أشَطَّتْ عواذلي　　ويزعمن أن أودى بحقّيَ باطلي(٢)

● **الإعراب:** ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ وقيل: إن التَّسوُّر في زمان غير زمان الدخول. ﴿خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن خصمان. ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ هم مبتدأ، وقليل خبره، وما زائدة، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذين و ﴿هُمْ﴾ مبتدأ والخبر محذوف، أي: وقليل الذين هم كذلك.

● **المعنى:** لما ذكر سبحانه أنه آتى داود الحكمة وفصل الخطاب، عقبه بذكر من تخاصم إليه، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ أي: هل بلغك خبرهم؟ والمراد بالاستفهام هنا الترغيب في الاستماع، والتنبيه على موضع إخلاله ببعض ما كان ينبغي أن يفعله ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي: حين صعدوا إليه المحراب وأتوه من أعلى سوره، وهو مصلاه، وإنما جمعهم لأنه أراد المدعى والمدعي عليه ومن معهما، وقد تعلق به من قال: إن أقل الجمع

---

(١) هذا بيت من المعلقة يقول: بعدت الحبيبة عن مزار العاشقين، فعسر عليّ طلبها، ثم التفت إلى الخطاب بها وخاطبها بقوله: طلابك. . . انتهى. وفي رواية الزوزني وغيره: «حلت بأرض الزائرين فأصبحت. . . اهـ». أي: نزلت بأرض الأعداء.

(٢) قائله الأحوص.

اثنان. وأجيب عن ذلك بأنه أراد الفريقين ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لدخولهم عليه في غير الوقت الذي يحضر فيه الخصوم، من غير الباب الذي كان يدخل الخصوم منه، ولأنهم دخلوا عليه بغير إذنه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي: فقالوا لداود: نحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لتقضي بيننا، وذلك قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تجر علينا في حكمك، ولا تجاوز الحق فيه، بالميل لأحدنا على صاحبه ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: دلنا وأرشدنا إلى وسط الطريق، الذي هو طريق الحق.

ثم حكى سبحانه ما قاله أحد الخصمين لصاحبه بقوله:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قال الخليل: النعجة هي الأنثى من الضأن، والبقر الوحشية، والشاة الجبلية، والعرب تكني عن النساء بالنعاج، والظباء، والشاة، قال الأعشى:

فرميتُ غفلة عينِه عن شاتِهِ ... فأصبت حبة قلبِها وطحالها[(١)]

قال عنترة:

يا شاةَ ما قنصٍ لمن حلَّتْ لَهُ ... حرُمتْ عليَّ وليتها لم تَحرُم[(٢)]

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: ضمها إليّ، واجعلني كافلها الذي يلزم نفسه القيام بها وحياطتها. والمعنى: أعطنيها. وقيل معناه: انزل لي عنها حتى تصير في نصيبي، عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في مخاطبة الكلام. وقيل معناه: أنه إن تكلم كان أبين مني، وإن بطش كان أشد مني، وإن دعا كان أكثر مني[(٣)]، عن الضحاك ﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ معناه: إن كان الأمر على ما تدعيه لقد ظلمك بسؤاله إياك بضم نعجتك ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فأضاف المصدر إلى المفعول به ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاء المخالطين جمع الخليط ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم استثنى من جملة الخلطاء، الذين يبغي بعضهم على بعض الذين آمنوا، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: فإنهم لا يظلم بعضهم بعضاً ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وقليل هم، و ﴿مَّا﴾ مزيدة ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: عَلِم داود أنا اختبرناه وابتليناه. وقيل: أنا شددنا عليه في التعبد، عن علي بن عيسى. وقيل: أراد الظن المعروف الذي هو خلاف اليقين ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: سأل الله سبحانه المغفرة والستر عليه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: صلى لله تعالى ﴿وَأَنَابَ﴾ إليه. وقيل: سقط ساجداً لله تعالى ورجع إليه، وقد يعبر عن السجود بالركوع، قال الشاعر:

فخرَّ على وجهه راكعاً ... وتاب إلى الله من كل ذنب

(١) يصف معاشقته بامرأة ذات بعل، وإصابته منها بعد انتهاز فرصة ومراقبة طويلة، لغفلة بعلها. والضمير في «عينه» و«شاته» يرجع إلى زوج تلك المرأة.

(٢) هذا أيضاً من معلقته المشهورة. والقنص: الصيد. يقول: يا هؤلاء اشهدوا شاة قنص لمن حلت له فتعجبوا من حسنها وجمالها، لكنها حرمت علي. وذكر الزوزني في الحرمة المذكورة في البيت وجهان، فراجع إن شئت.

(٣) وفي المخطوطتين هكذا: «وإن دعا كان أكثر مني، وإن بطش...».

قال الحسن: إنما قال: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لأنه لا يصير ساجداً حتى يركع. وقال مجاهد: مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة يقيمها، أو لحاجة لا بد منها ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: قُربى وكرامة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ في الجنة.

واختلف في استغفار داود عليه السلام من أي شيء كان؟ فقيل: إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، والخضوع له، والتذلل بالعبادة والسجود، كما حكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ وأما قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ فالمعنى: أنا قبلناه منه وأثبتناه عليه، فأخرجه على لفظ الجزاء، مثل قوله: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول. قيل في جوابه: ﴿فَغَفَرْنَا﴾ وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب، من الإمامية وغيرهم، ومن جوَّز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا في ذلك على وجوه:

أحدها: أن أوريا بن حيان خطب امرأة، وكان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضاً فزوجوها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الحرص على الدنيا، عن الجبائي.

وثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل، فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده، إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها: أنه كان في شريعته، أن الرجل إذا مات وخلف امرأة، فأولياؤه أحق بها، إلا أن يرغبوا عن التزويج بها، فلما قتل أوريا خطب داود عليه السلام امرأته، ومنعت هيبة داود وجلالته أولياءه أن يخطبوها، فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشاغلًا بالعبادة، فأتاه رجل وامرأة متحاكمين إليه، فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها، وذلك نظر مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع، ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر في أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته في الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين، أن يسأل الآخر عما عنده فيها، ولا يحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت في الحكم فزعه من دخولهما عليه في غير وقت العادة.

وأما ما ذكر في القصة أن داود كان كثير الصلاة، فقال. يا رب فضلت عليّ إبراهيم فاتخذته خليلًا، وفضلت عليّ موسى فكلمته تكليماً، فقال: يا داود، إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله، فإن شئت ابتليتك، فقال: نعم يا رب، فابتلني، فبينا هو في محرابه ذات يوم، إذ وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة، فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهويها، وهم بتزويجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه، وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة، ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها، فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم في محرابه يقرأ، إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعض، إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فنظر أحد الرجلين إلى

صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين، ليبكتاه على خطيئته، فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فممّا لا شبهة في فساده[1]، فإن ذلك مما يقدح في العدالة، فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أمناؤه على وحيه، وسفراؤه بينه وبين خلقه، بصفة من لا تقبل شهادته؟ وعلى حالة تنفر عن استماع إليه والقبول منه. جل أنبياء الله عن ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: لا أُوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين، حداً للنبوة، وحداً للإسلام.

وقال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون الداخلان على داود كانا خصمين من البشر، وأن يكون ذكر النعاج محمولاً على الحقيقة دون الكناية، وإنما خاف منهما لدخولهما من غير إذن، وعلى غير مجرى العادة، وإنما عوتب على أنه حكم بالظلم على المدعي عليه قبل أن يسأله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر والأعمش والبرجمي: ﴿لتدبروا﴾ بالتاء وتخفيف الدال. والباقون: بالياء وتشديد الدال.

● **الحجة:** «لتدبروا» أصله «لتتدبروا» فحذفت التاء الثانية التي هي فاء الفعل، وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أصله «ليتدبّروا» فأدغم التاء في الدال.

● **اللغة:** الخليفة: هو المدبر للأمور من قبل غيره، بدلاً من تدبيره، وفلان خليفة الله في أرضه، معناه: أنه جعل إليه تدبير عباده بأمره.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه إتمام نعمته على داود عليه السلام بقوله: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صيرناك خليفة تدبر أمور العباد، من قِبلنا بأمرنا. وقيل معناه: جعلناك خلف من مضى من الأنبياء، في الدعاء إلى توحيد الله تعالى وعدله وبيان شرائعه، عن أبي مسلم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصل أمورهم بالحق وضع كل شيء موضعه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: ما يميل طبعك إليه، ويدعو هواك إليه، فإذا كان مخالفاً للحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنك إذا اتبعت الهوى، عدل الهوى بك عن سبيل الحق الذي هو سبيل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) جواب «أما» في قوله «وأما ما ذكر في القصة أن داود..».

﴿يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعدلون عن العمل بما أمر الله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لهم عذاب شديد يوم الحساب، بتركهم طاعات الله في الدنيا، عن عكرمة والسدي. ويكون على هذا يتعلق ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ بـ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وقيل معناه: لهم عذاب شديد بإعراضهم عن ذكر يوم القيامة، فيكون ﴿يَوْمَ﴾ متعلقاً بنسوا ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لا غرض فيه حكمي، بل خلقناهما لغرض حكمي، وهو ما في ذلك من إظهار الحكمة، وتعريض أنواع الحيوان للمنافع الجليلة، وتعريض العقلاء منهم للثواب العظيم، وهذا ينافي قول أهل الجبر: إن كل باطل وضلال فهو من فعل الله ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وجحدوا حكمته ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ظاهر المعنى. ثم قال سبحانه على وجه التوبيخ للكفار على وجه الاستفهام: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معناه: بل أنجعل الذين صدقوا الله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والطاعات ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العاملين بالمعاصي ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: بل أنجعل المتقين الذي اتقوا المعاصي لله خوفاً من عقابه، كالفجار الذين عملوا بالمعاصي وتركوا الطاعات، أي إن هذا لا يكون أبداً. ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي: هذا القرآن كتاب منزل إليك مبارك، أي: كثير نفعه وخيره، فإن في التدين به يستبين الناس ما أنعم الله عليهم ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ليتفكر الناس ويتعظوا بمواعظه ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول فهم المخاطبون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● **اللغة:** الصافنات: جمع الصافنة من الخيل، وهي التي تقوم على ثلاث قوائم، وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر، يقال: صفنت الخيل تصفِن صُفوناً، إذا وقفت كذلك، قال الشاعر:

ألف الصُّفون فلا يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا[1]

(١) يقول: ألف الفرس الوقوف على ثلاث أرجل، واعتاده بحيث لو تراه فكأنه مكسور الرجل.

والجياد: جمع جواد، والياء ها هنا منقلبة عن واو، والأصل جواد، وهي السراع من الخيل، كأنها تجود بالركض. وقيل: هو جمع جوْد، فيكون مثل سوط وسياط. والكرسي: السرير، وأصله من التكرُّس، وهو الاجتماع، ومنه الكراسة لاجتماعها. والرخاء: الريح اللينة، وهي من رخاوة المرور وسهولته. والأصفاد: جمع صفد، وهو الغل، ومنه يقال للعطاء: صفد، لأنه يرتبط بشكره، كما قيل:

ومن وجد الإحسانَ قَيداً تَقَيَّدا[1]

● **الإعراب:** ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على أنه مفعول به، والتقدير: اخترت حب الخير، و﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ بمعنى على، وعلى هذا فيكون: أحببت بمعنى استحببت، مثل ما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: يؤثرونها. وقال أبو علي: أحببت بمعنى قعدت ولزمت، من قولهم: أَحَب البعير إذا برك، وقوله: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مفعول له، أي: لزمت الأرض لحب الخير، معرضاً عن ذكر ربي، فـ ﴿عَن﴾ في موضع نصب على الحال، و﴿ذِكْرِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الفاعل، أي: عما ذكرني ربي، حيث أمرني في التوراة بإقامة الصلاة ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: توارت الشمس ولم يجر لها ذكر، لأنه شيء قد عرف، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن، ولم يجر له ذكر، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يعني الأرض. قال الزجاج: في الآية دليل يدل على الشمس، وهو قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ فهو في معنى عرض عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب، قال: وليس يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر أو دليل بمنزلة الذكر، وقوله: ﴿مَسْحًا﴾ مصدر فعل محذوف، وهو خبر ﴿طفق﴾ التقدير: فطفق يمسح مسحاً، وقوله: ﴿رُخَآءً﴾ منصوب على الحال، والعامل فيه ﴿تَجْرِي﴾ فهو حال من حال، لأن تجري في محل نصب بكونه حالاً، و ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ بدل البعض من الكل، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: غير محاسب.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على قصة داود عليه السلام، حديث سليمان، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: وهبناه له ولداً ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: نعم العبد سليمان ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع إلى الله تعالى، في أمور دينه ابتغاء مرضاته ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يجوز أن يتعلق إذ بنعم العبد، أي: نعم العبد هو حين عرض عليه، ويجوز أن يتعلق باذكر يا محمد المحذوف لدلالة الكلام عليه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي: في آخر النهار بعد زوال الشمس ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الخيل الواقفة على ثلاث قوائم الواضعة طرف السنبك الرابع على الأرض ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السريعة المشي، الواسعة الخطو، قال مقاتل: إنه ورث من أبيه ألف فرس، وكان أبوه قد أصاب ذلك من العمالقة. وقال الكلبي: غزا سليمان دمشق، ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقال الحسن: كانت خيلًا خرجت من البحر، لها أجنحة، وكان سليمان قد صلى الصلاة الأولى، وقعد على كرسيه والخيل تعرض عليه،

---

(١) عجز بيت منسوب إلى المتنبي قاله في مدح سيف الدولة وقبله: «وقيدت نفسي في وراك محبة».

حتى غابت الشمس ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ والمراد بالخير: الخيل هنا، فإن العرب تسمي الخيل: الخير، عن قتادة والسدي. فالمعنى: آثرت حب الخيل عن ذكر ربي، أي على ذكر ربي. قال الفراء: كل من أحب شيئاً فقد آثره، وفي قراءة ابن مسعود: حب الخيل، وسمى النبي ﷺ زيد الخيل زيد الخير، وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة». وقيل معناه: حب المال، عن سعيد بن جبير. والخيل مال، والخير بمعنى المال كثير في التنزيل. وقيل: إن هذه الخيل كانت شَغلته عن صلاة العصر حتى فات وقتها، عن علي عليه السلام وقتادة والسدي. وفي روايات أصحابنا أنه فاته أول الوقت. وقال الجبائي: لم يفته الفرض، وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار لاشتغاله بالخيل. وقيل: إن ذكر ربي كناية عن كتاب الله التوراة. فالمعنى: إني أحببت الخيل عن كتاب الله، وكما أن ارتباط الخيل ممدوح في كتابنا، كذلك كان في كتابهم، عن أبي مسلم ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي: غربت الشمس، عن ابن مسعود وجماعة من المفسرين، وجاز وإن لم يجر للشمس ذكر، كما قال لبيد:

حتى إذا ألقت يداً في كافرٍ وأجنَّ عوراتِ الثُّغورِ ظلامُها[1]

وقيل: الضمير للخيل، يعني: حتى توارت الخيل بالحجاب، بمعنى أنها شغلت فكره إلى تلك الحال، وهي غيبوبتها عن بصره، وذلك بأنه أمر بإجراء الخيل، أجريت حتى غابت عن بصره، عن أبي مسلم وعلي بن عيسى ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: قال لأصحابه: ردوا الخيل علي، عن أكثر المفسرين. وقيل معناه: أنه سأل الله تعالى أن يرد الشمس عليه، فردها عليه حتى صلى العصر، فالهاء في ﴿رُدُّوهَا﴾ كناية عن الشمس، عن علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: أن المسح ها هنا القطع، والمعنى: أنه أقبل يضرب سوقها وأعناقها، لأنها كانت سبب فوت صلاته، عن الحسن ومقاتل. وقال أبو عبيدة: تقول العرب: مسح علاوته، أي: ضرب عنقه، وقيل: إنه إنما فعل ذلك لأنها كانت أعز ما له، فتقرب إلى الله تعالى بأن ذبحها ليتصدق بلحومها، ويشهد بصحته قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

وثانيها: أن معناه: فجعل يمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده حباً لها، عن ابن عباس والزهري وابن كيسان. قال ابن عباس: سألت علياً عليه السلام عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها يا ابن عباس؟ قلت: سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة، فقال: ردوها علي، يعني الأفراس، كانت أربعة عشر، فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف، فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً، لأنه ظلم الخيل بقتلها، فقال علي عليه السلام: كذب كعب، لكن

---

(١) البيت من المعلقات، يصف إشرافه على الأعداء، وصعوده جبلًا، ووقوفه على الجبل إلى غروب الشمس. والكافر: الليل. والإجنان: الستر. والثغر: موضع المخافة. وعورته: أشده مخافة، يقول: حتى إذا ألقت الشمس يدها في الليل أي: ابتدأت في الغروب. وعبر عن هذا المعنى بإلقاء اليد، لأنه يعني ابتدأ بالشمس قبل إلقاء يده فيه، وستر الظلام.

اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم، لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس: ردُّوها عليّ فردت، فصلى العصر في وقتها، وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم، لأنهم معصومون مطهرون.

وثالثها: أنه مسح أعناقها وسوقها، وجعلها مسبلة في سبيل الله تعالى. وقيل لثعلب إن قطرباً يقول: مسحها وبارك عليها، فأنكر ذلك، وقال: القول ما قال الفراء: إنه ضرب أعناقها وسوقها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اختبرناه وابتليناه وشددنا المحنة عليه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي: وطرحنا عليه جسداً، والجسد الذي لا روح فيه ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان.

واختلف العلماء في زلته وفتنته، والجسد الذي ألقى على كرسيه على أقوال.

منها: أن سليمان قال يوماً في مجلسه: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق ولد. رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ. قال: ثم قال: فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً، فالجسد الذي ألقي على كرسيه كان هذا، ثم أناب إلى الله تعالى وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع إليه سبحانه، وهذا لا يقتضي أنه وقع منه معصية صغيرة ولا كبيرة، لأنه وإن لم يستثن ذلك لفظاً، فلا بد من أن يكون قد استثناه ضميراً واعتقاداً. إذ لو كان قاطعاً للقول بذلك، لكان مطلقاً لما لا يأمن من أن يكون كذباً، إلا أنه لما لم يذكر لفظة الاستثناء عوتب على ذلك، من حيث ترك ما هو مندوب إليه.

ومنها: ما روي أن الجن والشياطين لما ولد لسليمان ابن، قال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء، فأشفق منهم عليه، فاسترضعه في المزن وهو السحاب، فلم يشعر إلا وقد وضع على كرسيه ميتاً، تنبيهاً على أن الحذر لا ينفع عن القدر، فإنما عوتب على خوفه من الشياطين، عن الشعبي. وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ومنها: أنه ولد له ولد ميت، جسد بلا روح، فألقي على سريره، عن الجبائي.

ومنها: أن الجسد المذكور هو جسد سليمان لمرض امتحنه الله تعالى به. وتقدير الكلام: وألقينا منه على كرسيه جسداً لشدة المرض، فيكون جسداً منصوباً على الحال، والعرب تقول في الإنسان إذا كان ضعيفاً: هو جسد بلا روح، ولحم على وضم. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى حال الصحة، عن أبي مسلم. واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ولو أتى بالكلام على شرحه لقال: يقول الذين كفروا منهم، أي: من المجادلين، كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ ومثله قول الأعشى:

وكَأَنَّ السُّمُوطَ عَلَّقَهَا السِّلْـ ـكُ بِعَطْفَيْ جَيْداءَ أُمِّ غَزالِ[1]

---

(١) قيل: يعني كأن العقد من هذه المرأة معلق على جيد ظبية.

ولو أتى بالشرح لقال: علقها السلك منها، وقال كعب بن زهير:

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعازيلُ(١)

ولو أتى بالشرح لقال: فما زال منهم أنكاس.

وأما ما ذكر عن ابن عباس أنه أُلقِيَ شيطان اسمه صخر على كرسيه، وكان مارداً عظيماً، لا يقوى عليه جميع الشياطين، وكان نبي الله سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان، حتى أخذ الخاتم من امرأة من نسائه، وأقام أربعين يوماً في ملكه، وسليمان هارب. وعن مجاهد أن شيطاناً اسمه آصف، قال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك بذلك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه، وقعد الشيطان على كرسيه، ومنعه الله تعالى نساء سليمان، فلم يقربهن، وكان سليمان يستطعم فلا يطعم، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فشق بطنه فوجد خاتمه فيه، فرد الله عليه ملكه. وعن السدي: أن اسم ذلك الشيطان حيقيق، وما ذكر أن السبب في ذلك، أن الله سبحانه أمره أن لا يتزوج في غير بني إسرائيل، فتزوج من غيرهن. وقيل: بل السبب فيه أنه وطىء امرأة في حال الحيض، فسال منه الدم، فوضع خاتمه ودخل الحمام، فجاء إبليس الشيطان وأخذه. وقيل: تزوج امرأة مشركة، ولم يستطع أن يكرهها على الإسلام، فعبدت الصنم في داره أربعين يوماً، فابتلاه الله بحديث الشيطان والخاتم أربعين يوماً. وقيل: احتجب ثلاثة أيام ولم ينظر في أمر الناس، فابتلي بذلك. فإن جميع ذلك مما لا يعول عليه، لأن النبوة لا تكون في خاتم، ولا يجوز أن يسلبها الله لنبي، ولا أن يمكن الشيطان من التمثل بصورة النبي، والقعود على سريره، والحكم بين عباده، وبالله التوفيق.

ثم حكى سبحانه دعاء سليمان حين أناب إلى الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يسأل عن هذا فيقال: إن هذا القول من سليمان يقتضي الضن والمنافسة، لأنه لم يرض بأن يسأل الملك حتى أضاف إلى ذلك أن يمنع غيره منه. وأجيب عنه بأجوبة:

أحدها: أن الأنبياء لا يسألون إلا ما يؤذن لهم في مسألته، وجائز أن يكون الله تعالى أعلم سليمان أنه إن سأل ملكاً لا يكون لغيره، كان أصلح له في الدين، وأعلمه أنه لا صلاح لغيره في ذلك، ولو أن أحدنا صرح في دعائه بهذا الشرط، حتى يقول: اللهم اجعلني أكثر أهل زماني مالاً، إذا علمت أن ذلك أصلح لي، لكان ذلك منه حسناً جائزاً، ولا ينسب في ذلك إلى شح وضن، واختاره الجبائي.

---

(١) هذا بيت من قصيدة لامية له قالها في مدح النبي ﷺ وقبل هذا البيت ببيت قوله:

«إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول»

الأنكاس جمع نكس: الضعيف. والكشف جمع أكشف: الذي لا ترس معه. والميل جمع أميل: الذي لا سيف معه، والمعازيل: الذين لا سلاح معهم. يصف أصحاب رسول الله ﷺ، عند الهجرة من مكة. وقوله: «زالوا» أي: تحولوا وانتقلوا، وليس فيهم من هذه صفته، بل هم أقوياء ذوو سلاح، فرسان عند اللقاء.

وثانيها: أنه يجوز أن يكون التمس من الله تعالى آية لنبوته، يبين بها من غيره، وأراد لا ينبغي لأحد غيري ممن أنا مبعوث إليه، ولم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيين، كما يقال: أنا لا أطيع أحداً بعدك، أي: لا أطيع أحداً سواك.

وثالثها: ما قاله المرتضى قدس الله روحه: إنه يجوز أن يكون إنما سأل ملك الآخرة وثواب الجنة، ويكون معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ لا يستحقه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصلح أن يعمل ما يستحق به ذلك لانقطاع التكليف.

ورابعها: أنه التمس معجزة تختص به، كما أن موسى يختص بالعصا واليد البيضاء، واختص صالح بالناقة، ومحمد ﷺ بالمعراج والقرآن، ويدل عليه ما روي مرفوعاً عن النبي ﷺ، أنه صلى صلاة فقال: إن الشيطان عرض لي ليفسد عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فدفعته، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية، حتى تصبحوا وتنظروا إليه أجمعين، فذكرت قول سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِى وَهَبۡ لِى مُلۡكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ فرده الله خاسئاً. أورده البخاري ومسلم في الصحيحن.

ثم بين سبحانه أنه أجاب دعاءه بقوله: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِى بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: لينة سهلة، عن ابن زيد. وقيل: طيبة سريعة، عن قتادة. وقيل: مطيعة تجري إلى حيث يشاء، عن ابن عباس ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد سليمان من النواحي، عن أكثر المفسرين. وحقيقته حيث قصد. والمعنى: أنه ينطاع له كيف أراد. قال الحسن: كان يغدو من إيليا، ويقيل بقزوين، ويبيت بكابل.

سؤال: كيف وصف سبحانه الريح بالعاصف في قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ ووصفها هنا بخلافه؟.

جوابه: يجوز أن يكون الله سبحانه جعلها عاصفة تارة ورخاء أخرى، بحسب ما أراد سليمان عليه السلام.

﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ أي: وسخرنا له الشياطين أيضاً ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ في البر يبني له ما أراد من الأبنية الرفيعة ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ في البحر على اللآلىء والجواهر، فيستخرج له ما يشاء منها ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي: وسخرنا له آخرين من الشياطين، مشدودين في الأغلال والسلاسل من الحديد، وكان يجمع بين اثنين وثلاثة منهم في سلسلة، لا يمتنعون عليه إذا أراد ذلك بهم عند تمردهم. وقيل: إنه إنما كان يفعل ذلك بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي: هذا الذي تقدم ذكره من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك عطاؤنا ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ أي: فاعط من الناس من شئت، وامنع من شئت، والمن: الإحسان إلى من لا يستثيبه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا تحاسب يوم القيامة على ما تعطي وتمنع، فيكون أهنأ لك، عن قتادة والضحاك وسعيد بن جبير. وقيل معناه: بغير جزاء، أي: أعطيناكه تفضلًا لا مجازاة، عن الزجاج. وقيل إن المعنى: فأنعم على من شئت من الشياطين بإطلاقه، أو أمسك من شئت منهم في وثاقه، وصرِّفه في عمله من غير حرج عليك فيما تفعله ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ﴾ معناه: وإن لسليمان عندنا لقربى

وحسن مرجع في الآخرة، وهذا من أعظم النعم، إذ هي النعمة الباقية الدائمة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿بنصب﴾ بضمتين، وقرأ يعقوب: ﴿بنصب﴾ بفتحتين، والباقون: بضم النون وسكون الصاد.

● **الحجة:** قال الزجاج: النَّصَب والنُّصْب لغتان، كالرَّشد والرُّشد، والبُخل والبَخل، تقول: نصبت نصباً، قال أبو عبيدة: النُّصب: البلاء والشر، وأنشد لبشر بن أبي حازم:

(تعنَّاك نَصبٌ من أميمة مُنصِبُ)

ومن قرأ: ﴿بنصب﴾ بضمتين، فإنه أتبع الصاد ما قبله، فهي أربع لغات.

● **اللغة:** الركض: الدفع بالرجل على جهة الإسراع، ومنه: ركض الفرس لإسراعه إذا دفعه برجله. قال سيبويه: يقال: رَكَضتِ الدابة ورَكَضتُها، فهو مثل جبَر العظمُ وجبرتُه. والضِّغثُ: ملء الكف من الشجرة، والحشيش، والشماريخ، وما أشبه ذلك.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة أيوب عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ شرفه الله سبحانه، بأنه أضافه إلى نفسه، واقتد به في الصبر على الشدائد، وكان في زمان يعقوب بن إسحاق، وتزوج ليا بنت يعقوب ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: حين دعا ربه رافعاً صوته يقول: يا رب، لأن النداء هو الدعاء بطريقة يا فلان. ومتى قال: اللهم افعل بي كذا وكذا، كان داعياً، ولا يكون منادياً ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: بتعب ومكروه ومشقة. وقيل: بوسوسة فيقول له: طال مرضك، ولا يرحمك ربك، عن مقاتل. وقيل: بأن يذكره ما كان فيه من نعم الله تعالى، من الأهل والولد والمال، وكيف زال ذلك كله، وحصل فيما هو فيه من البلية، طمعاً أن يزله بذلك، ويجد طريقاً إلى تضجره وتبرمه، فوجده صابراً مسلماً لأمر الله. وقيل: إنه اشتد مرضه حتى تجنبه الناس، فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه، ويخرجوه من بينهم، ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم، فكان أيوب يتأذى بذلك ويتألم منه، ولم يشك الألم الذي كان من أمر الله تعالى. قال قتادة: دام ذلك سبع سنين، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها، لأن في ذلك تنفيراً، فأما المرض والفقر وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله بذلك، فأجاب الله دعاءه وقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: ادفع برجلك الأرض ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وفي الكلام حذف،

أي: فركض رجله، فنبعت بركضته عين ماء. وقيل: نبعت عينان، فاغتسل من إحداهما فبرىء، وشرب من الأخرى فروي، عن قتادة. والمغتسل: الموضع الذي يغتسل منه. هو اسم للماء الذي يغتسل به، عن ابن قتيبة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ هذا مفسر في سورة الأنبياء. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أن الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية، وأحيا له أهله الذين ماتوا وهو في البلية ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أيفعلنا ذلك به لرحمتنا إياه، فيكون منصوباً بأنه مفعول له، ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر، لما كانت الموهبة بمعنى الرحمة ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتذكر ويعتبر به ذوو الألباب، أي: العقول، ويعرفوا حسن عاقبة الصبر فيصبروا كما صبر، قالوا: إنه أطعم جميع أهل قريته سبعة أيام، وأمرهم بأن يحمدوا الله ويشكروه.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملء الكف من الشماريخ وما أشبه ذلك، أي: وقلنا له ذلك، وذلك أنه حلف على امرأته لأمر أنكره من قولها، لئن عوفي ليضربنها مائة جلدة، فقيل له: خذ ضغثاً بعدد ما حلفت به ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ أي: واضربها به دفعة واحدة، فإنك إذا فعلت ذلك برت يمينك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، نهاه عن الحنث. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان السبب في ذلك أن إبليس لقيها في صورة طبيب، فدعته لمداواة أيوب عليه السلام، فقال: أداويه على أنه إذا برىء قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاء سواه، قالت: نعم، فأشارت إلى أيوب بذلك، فحلف ليضربنها. وقيل: إنها كانت ذهبت في حاجة فأبطأت في الرجوع، فضاق صدر المريض فحلف. ثم أخبر سبحانه عن حال أيوب وعظم منزلته فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ على البلاء الذي ابتليناه به ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع إلى الله منقطع إليه. وروى العياشي بإسناده أن عباداً المكي قال: قال لي سفيان الثوري: إني أرى لك من أبي عبد الله عليه السلام منزلة، فاسأله عن رجل زنى وهو مريض، فإن أقيم عليه الحد خافوا أن يموت، ما تقول فيه؟ فسألته، فقال لي: هذه المسألةُ من تلقاء نفسك أو أمرك بها إنسان؟ فقلت: إن سفيان الثوري أمرني أن أسألك عنها، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتى برجل أحبن[1] قد استسقى بطنه، وبدت عروق فخذيه، وقد زنى بامرأة مريضة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، فأتي بعرجون فيه مائة شمراخ، فضربه به ضربة، وضربها به ضربة، وخلى سبيلهما، وذلك قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾

(١) الأحبن: الذي عظم بطنه، وورم.

﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وحده: ﴿**واذكر عبدنا ابراهيم**﴾ والباقون: ﴿**عبادنا**﴾ وقرأ أهل المدينة وهشام: ﴿**بخالصة ذكرى الدار**﴾ غير منون على الإضافة، والباقون: بالتنوين، وخلافهم في ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ مذكور في سورة الأنعام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿**ما يوعدون**﴾ بالياء، وابن كثير وحده يقرأ في سورة ق بالياء أيضاً، والباقون: بالتاء في الموضعين. وفي الشواذ قراءة الحسن والثقفي. ﴿أولي الأيد﴾ بغير ياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿**عبدنا**﴾ فإنه اختصه بالإضافة على وجه التكرمة له، والاختصاص بالمنزلة الشريفة، كما قيل في مكة بيت الله. ومن قرأ: ﴿**عبادنا**﴾ أجرى هذا الوصف على غيره من الأنبياء أيضاً، وجعل ما بعده بدلًا من العباد، والأول جعل إبراهيم بدلًا، وما بعده معطوفاً على المفعول به المذكور، وقوله: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ بدلًا من الخالصة، تقديره: إنا أخلصناهم بالذكرى الدار، ويجوز أن يقدر في قوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ التنوين فيكون ﴿ٱلدَّارِ﴾ في موضع نصب تقديره: بأن يذكروا الدار بالتأهب للآخرة.

والثاني: ألا يقدر البدل، ولكن يكون الخالصة مصدراً، فيكون مثل قوله: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ ويكون المعنى: بخالصة تذكر الدار، ويقوي هذا الوجه ما روي من قراءة الأعمش: بخالصتهم ذكرى الدار، وهذا يقوي النصب، فكأنه قال: بأن أخلصوا تذكير الدار، فإذا نونت خالصة، احتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون المعنى: بأن خَلصت لهم ذكرى الدار، فيكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل.

والآخر: أن يقدر المصدر الذي هو خالصة من الإخلاص، فحذفت الزيادة فيكون المعنى: بإخلاصِ ذكرى، فيكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع نصب.

و﴿الدَّارِ﴾ يجوز أن يعني بها الدنيا، ويجوز أن يعني بها الآخرة، والذي يدل على أنه يجوز أن يراد بها الدنيا، قوله تعالى في الحكاية عن إبراهيم: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فاللسان: هو القول الحسن والثناء عليه، لا الجارحة، كما في قول الشاعر:

نـدمـتُ عـلى لـسـانٍ فـات مـنـي ... فـليـتَ بـأنـه فـي جـوفِ عِـكـمِ[١]

(١) قائله الحطيئة. والعكم: داخل الجنب.

وكذلك قول الآخر:

إنـي أتـانـي لـسـان لا أُسـرُّ بـه   من عَـلو لا كـذب فيـه ولا سَـخـر[١]

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، و﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ والمعنى: أبقينا عليهم الثناء الجميل في الدنيا، فالدار في هذا التقدير ظرف، والقياس أن يتعدى الفعل والمصدر إليه بالحرف، ولكنه على: ذهبت الشام عند سيبويه.

وكـمـا عـسـل الـطـريـق الـثـعـلـب[٢]

وأما جواز كون الدار الآخرة في قوله: ﴿أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ فيكون ذلك بإخلاصهم ذكرى الدار، ويكون ذكرهم لها وجل قلوبهم منها ومن حسابها، كما قال: ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ فالدار على هذا مفعول بها، وليست كالوجه المتقدم، وأما من أضاف فقال: ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ فإن الخالصة تكون على ضروب، تكون للذكر، وغير الذكر، فإذا أضيفت إلى ذكرى اختصت الخالصة بهذه الإضافة، فتكون هذه الإضافة إلى المفعول به، كأنه بإخلاصهم ذكرى الدار، أي: بأن أخلصوا ذكرها والخوف منها لله، ويكون على إضافة المصدر، الذي هو الخالصة إلى الفاعل، تقديره: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والدار على هذا يحتمل الوجهين اللذين تقدما من كونهما للآخرة والدنيا.

فأما قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فيجوز في ﴿خَالِصَةٌ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون مصدراً كالعاقبة.

والآخر: أن يكون وصفاً، وكلا الوجهين يحتمل الآية، فيجوز أن يكون ما في بطون هذه الأنعام ذات خلوص، ويجوز أن يكون الصفة وأنّث على المعنى لأنه كثرة، والمراد به الأجنة والمضامين[٣]، فيكون التأنيث على هذا.

ومن قرأ: ﴿الليسع﴾ جعله اسماً على صورة الصفات كالحارث والعباس، ألا ترى أن فعيلا مثل ضيغم وحيدر كثير في الصفات. ووجه قراءة من قرأ: ﴿وَالْيَسَعَ﴾، أن الألف واللام قد يدخلان الكلمة على وجه الزيادة، كما حكى أبو الحسن الخمسة عشر درهماً، قال:

ولـقـد جـنـيـتُـكَ أكـمُـؤاً وعَـسـاقِـلاً   ولـقـد نـهـيـتُـكَ عـن بـنـات الأوبـر[٤]

(١) قائله أعشى باهلة نسبه المؤلف (ره) إلى عامر بن الحرث. وَعَلْوَ: اسم امرأة على ما قيل.
(٢) هذا جزء بيت لساعدة بن جؤية الهذلي وتمامه:

«لـدن بـهـز الـكـف يـعـسـل مـتـنـه   كـمـا عـسـل الـطـريـق الـثـعـلـب»

وهو مذكور في (جامع الشواهد) وقد مر في الكتاب أيضاً غير مرة.
(٣) الأجنة: جمع الجنين. والمضامين ما في أصلاب الفحول.
(٤) جنيتك أي: جنيت لك بمعنى قطعت. والعساقل جمع عسقول: نوع من الكمأة أبيض.

وبنات الأوبر ضرب من الكمأة معرفة، فأدخل في المعرفة الألف واللام على وجه الزيادة، فكذلك التي تكون في اليسع.

ومن قرأ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ بالتاء، فعلى معنى: قل للمتقين هذا ما توعدون، والياء على معنى: وإن للمتقين لحسن مآب هذا ما يوعدون، والياء أعم، لأنه يصلح أن يدخل فيه الغيب من الأنبياء، وأما في سورة ق فنحو هذا ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا ما توعدون أيها المتقون، على الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، أو على قل لهم: هذا ما توعدون، والياء على إخبار النبي ﷺ بما وعدوا، كأنه: هذا ما يوعدون أيها النبي.

ومن قرأ: ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ بغير ياء، فإنه يحتمل أن يكون أراد الأيدي، فحذف الياء تخفيفاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ونحو ذلك، ويحتمل أن يكون أراد بالأيد القوة في طاعة الله، ويدل عليه أنه مقرون بالأبصار، أي: البصر بما يحظى عند الله، وعلى هذا فالأيدي هنا إنما هي جمع اليد التي هي القوة لا التي هي الجارحة، ولا النعمة، لكنه كقولك: له يد في الطاعة.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿جَنَّاتِ﴾ بدل من ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾. ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي: مفتحة لهم الأبواب منها. وقال بعضهم: مفتحة لهم أبوابها، والمعنى واحد، إلا أن على تقدير العربية: الأبواب منها، أجود أن يجعل الألف واللام بدلًا من الهاء والألف، لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف في شيء، لأن الهاء والألف اسم، والألف واللام دخلتا للتعريف، ولا يبدل حرف جاء بمعنى، من اسم، ولا ينوب عنه. قال أبو علي: ﴿مُفَتَّحَةً﴾ صفة لـ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وفي ﴿مُفَتَّحَةً﴾ ضمير يعود إلى ﴿جَنَّاتِ﴾ و ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بدل من ذلك الضمير، فُتحت الجنان إذا فتحت أبوابها، فيكون من بدل البعض من الكل، نحو ضربت زيداً رأسه، وفي القرآن ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وليس ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ معرفة، إذ ليس عدن بعلم، وإنما هو بمنزلة جنات إقامة، وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر هذا، ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، أي: هذا أمرهم.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم حديث الأنبياء، فقال: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد لقومك وأمتك ﴿عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ليقتدوا بهم في حميد أفعالهم وكريم خلالهم، فيستحقوا بذلك حسن الثناء في الدنيا، وجزيل الثواب في العقبى، كما استحق أولئك، وإذا قرىء ﴿عبدنا﴾ فيكون التقدير: واذكر عبدنا إبراهيم خصه بشرف الإضافة إلى نفسه، واذكر إسحاق ويعقوب وصفهم جميعاً، فقال: ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ أي: ذوي القوة على العبادة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ الفقه في الدين، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. ومعناه: أولي العلم والعمل، فالأيدي: العمل، والأبصار: العلم، عن أبي مسلم. وقيل: أولي الأيدي: أولي النعم على عباد الله، بالدعاء إلى الدين، والأبصار جمع البصر وهو العقل ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي: جعلناهم لنا خالصين، بأن خلصت لهم ذكرى الدار، والخالصة بمعنى الخلوص، والذكرى بمعنى التذكير، أي: خلص لهم تذكير الدار، وهو أنهم كانوا يتذكرونها بالتأهب لها، ويزهدون في الدنيا كما

هو عادة الأنبياء. وقيل: المراد بالدار الدنيا، عن الجبائي وأبي مسلم، أي: خصصناهم بالذكر في الأعقاب من بين أهل الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا﴾ وبحسب ما سبق في علمنا ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ للنبوة وتحمل أعباء الرسالة ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خير، كالأموات جمع ميت، وهو الذي يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة. وقيل: هي جمع خير، فيكون كالأقيال جمع قيل، وهذا مثل قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي: اذكر لأمتك هؤلاء أيضاً ليقتدوا بهم ويسلكوا طريقتهم، وقد تقدم ذكرهم ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ قد اختارهم الله للنبوة ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: شرف لهم وذكر جميل، وثناء حسن يذكرون به في الدنيا أبداً ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حسن مرجع ومنقلب يرجعون في الآخرة إلى ثواب الله ومرضاته، ثم فسر حسن المآب بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فهي في موضع جر على البدل، أي: جنات إقامة وخلود ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي: يجدون أبوابها مفتوحة حين يردونها، ولا يحتاجون إلى الوقوف عند أبوابها حتى تفتح. وقيل معناه: لا يحتاجون إلى مفاتيح بل تفتح بغير مفتاح، وتغلق بغير مغلاق. قال الحسن: تكلم يقال: انفتحي انغلقي. وقيل معناه: إنها معدة لهم غير ممنوعين منها، وإن لم تكن أبوابها مفتوحة قبل مصيرهم إليها، كما يقول الرجل لغيره: متى نشطت لزيارتي فالباب مفتوح والدست مطروح(١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: مستندين فيها إلى المساند جالسين جلسة الملوك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: يتحكمون في ثمارها وشرابها، فإذا قالوا لشيء منها أقبل حصل عندهم ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: وعندهم في هذه الجنان أزواج قصرن طرفهن على أزواجهن، راضيات بهم، ما لهن في غيرهم رغبة، والقاصر نقيض الماد، يقال: فلان قاصر طرفه عن فلان، وماد عينه إلى فلان، قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطَّرفِ لو دَبَّ مُحوِلٌ ... من الذَّرِّ فوقَ الأتبِ منها لأثَّرا(٢)

﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: أقرانٌ على سن واحد، ليس فيهن عجوز ولا هرمة. وقيل: أمثال وأشباه عن مجاهد. أي: متساويات في الحسن ومقدار الشباب، لا يكون لواحدة على صاحبتها فضل في ذلك. وقيل: أتراب على مقدار سن الأزواج، كل واحدة منهن تِرب زوجها لا تكون أكبر منه. قال الفراء: الترب: اللدة، مأخوذ من اللعب بالتراب، ولا يقال إلا في الإناث، قال عمر بن أبي ربيعة:

أبرزوها مِثلَ المَهاةِ تَهادى ... بين عشرٍ كواعبٍ أترابِ(٣)

---

(١) الدست: الوسادة.

(٢) المحول: الذي أتى عليه حول. والأتب: ثوب يشق وتجعله المرأة على عنقها من غير كم ولا جيب. يصف امرأة برقة الجلد ولطافته، وأنا في اللطافة والرقة بحيث لو دب هذا النمل من فوق ثوبها، ليؤثر في جسدها.

(٣) قال في (اللسان) المهاة: البلورة والدرة. والمهاة: بقرة الوحش، سميت بذلك لبياضها على التشبيه بالبلورة والدرة. وتهادى في المشي: تبختر وتمايل. والبيت من أبيات قالها في وصف محبوبته ثريا بنت عبد الله بن الحرث، وبعده قوله:

«ثم قالوا تحبها قلت بهراً ... عدد الرمل والحصى والتراب»

وقد مر في الكتاب. وفي (أمالي الشريف): «بين خمس كواعب...».

﴿هَٰذَا﴾ يعني ما ذكر فيما تقدم ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: يوعد به المتقون أو يخاطبون فيقال لهم هذا القول ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: ليوم الجزاء ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكرنا ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أي: عطاؤنا الجاري المتصل ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: فناء وانقطاع، لأنه على سبيل الدوام، عن قتادة. وقيل: إنه ليس لشيء في الجنة نفاد، ما أكل من ثمارها خلف مكانه مثله، وما أكل من حيوانها وطيرها عاد مكانه حياً، عن ابن عباس.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتشديد، حيث كان في القرآن، والباقون: بالتخفيف. وقرأ أهل البصرة: «وأخر» بضم الألف، والباقون: ﴿وَآخَرُ﴾ على التوحيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: أما الغساق بالتشديد فلا يخلو أن يكون اسماً أو وصفاً، فالاسم لا يجيء على هذا الوزن إلا قليلاً، نحو الكلاد والفدّان والجبّان[1]، فينبغي أن يكون وصفاً قد أقيم مقام الموصوف، والأحسن ألا تقام الصفة مقام الموصوف إلا أن تكون صفة قد غلبت، نحو العبد والأبطح والأبرق، والقراءة بالتخفيف أحسن من حيث ذكرنا.

ومن قرأ: «وأخر» على الجمع كان «أخر» مبتدأ، و ﴿مِن شَكْلِهِ﴾ في موضع صفته، أي: من ضربه، و ﴿أَزْوَاجٌ﴾ خبر المبتدأ، لأنه جمع كالمبتدأ، وقد وصفت النكرة فحسن الابتداء بها، والضمير في ﴿شَكْلِهِ﴾ يعود إلى قوله: ﴿حَمِيمٌ﴾ ويجوز أن يكون المعنى: من شكل ما ذكرناه.

ومن قرأ: ﴿وَآخَرُ﴾ على الإفراد، فآخر يرتفع بالابتداء في قول سيبويه، وفيه ذكر مرفوع عنده، وبالظرف في قول أبي الحسن، ولا ذكر في الظرف لارتفاع الظاهر به، فإن لم تجعل ﴿وَآخَرُ﴾ مبتدأ في هذا الوجه خاصة، قلت: إنه يكون ابتداء بالنكرة فلا أحمل على ذلك، ولكن لما قال: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ دل هذا الكلام على أن لهم حميماً وغساقاً، فحمل المعطوف على المعنى، فجعل لهم المدلول عليه خبراً آخر فهو قول. وكان التقدير: لهم عذاب آخر من شكله أزواج، فيكون ﴿مِن شَكْلِهِ﴾ في موضع الصفة، ويكون ارتفاع ﴿أَزْوَاجٌ﴾ به في قول سيبويه وأبي الحسن. ولا يجوز أن يجعل قوله: ﴿مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ في قول من قرأ «وأخر» على الجمع وصفاً ويضمر الخبر، كما فعلت ذلك في قول من وحد، لأن الصفة لا يرجع منها ذكر

---

(١) الكلاّء: مرفأ السفن. ساحل كل نهر. والفدان: آلة يحرث بها. والجبّان: المقبرة.

إلى الموصوف، ألا ترى أن ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ إذا ارتفع بالظرف لم يجز أن يكون فيه ذكر مرفوع، والهاء التي للإفراد لا ترجع إلى الجمع في الوجه البين، فتحصل الصفة بلا ذكر يعود منها إلى الموصوف، وأما امتناع أخر من الصرف في النكرة فللعدل والوصف، فمعنى العدل فيه أن هذا النحو لا يوصف به بالألف واللام، واستعملت أخر بلا ألف ولام، فصارت بذلك معدولة عن الألف واللام.

● **اللغة:** المهاد: الفراش الموطأ، يقال: مهدت له تمهيداً، مثل وطأت له توطئة. والحميم: الحار الشديد الحرارة، ومنه الحمى لشدة حرارتها. والغساق: قيح شديد النتن، يقال: غسقت القرحة تغسق غسوقاً. وقيل: هو مشتق من الغسق وهو السواد والظلمة، أي: هو على ضد ما يراد في الشراب من الضياء والرقة، عن أبي مسلم. ومنه يقال: ليل غاسق، وغسقت عينه أظلمت، وأغسق المؤذن المغرب أخَّره إلى الظلمة. والشكل ـ بفتح الشين ـ: الضرب المتشابه، والشكل ـ بالكسر ـ: النظير في الحسن، وهو الدل أيضاً. والاقتحام: الدخول في الشيء بشدة وصعوبة. قال أبو عبيدة قولهم: لا مرحباً به، أي: لا رحبت عليه الأرض. وقال القتيبي قولهم: مرحباً بك، أي: أتيت رَحْباً وسعة، قال النابغة:

لا مرحباً بغد ولا أهلاً به ... إن كان تفريق الأحبة في غد

● **الإعراب:** ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ و ﴿حَمِيمٌ﴾ خبره و ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ معطوف عليه، و ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ خبر بعد خبر، والتقدير: هذا حميم وغساق فليذوقوه. ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مبتدأ وخبراً، و ﴿حَمِيمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو حميم، ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمير يفسره هذا الظاهر.

● **المعنى:** لما بيَّن سبحانه أحوال أهل الجنة وما أعد لهم من جزيل الثواب عقَّبه ببيان أحوال أهل النار وما لهم من أليم العذاب، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذكرناه للمتقين، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الذين طغوا على الله وكذبوا رسله ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهو ضد مآب المتقين، ثم فسر ذلك فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها فيصيرون صَلاء لها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: فبئس المسكن وبئس الممهد ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه ـ عن الفراء والزجاج. وقيل معناه: هذا الجزاء للطاغين فليذوقوه، وأطلق عليه لفظ الذوق، لأن الذائق يدرك الطعم بعد طلبه، فهو أشد إحساساً به، والحميم الماء الحار، والغساق البارد الزمهرير، عن ابن مسعود، وابن عباس. فيكون المعنى: أنهم يعذبون بحارِّ الشراب الذي انتهت حرارته، وببارد الشراب الذي انتهت برودته، فببرده يحرق كما تحرق النار. وقيل: إن الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كلِّ ذات حُمةٍ من حية وعقرب، عن كعب. وقيل: هو ما يسيل من دموعهم يُسقونه مع الحميم، عن السدي. وقيل: هو القيح الذي يسيل منهم يجمع ويسقونه، عن ابن عمر وقتادة. وقيل: هو عذاب لا يعلمه إلا الله، عن الحسن ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: وضروب أخر ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من شكل هذا العذاب وجنسه ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: ألوان وأنواع متشابهة في الشدة لا نوع واحد ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ ها هنا حذف، أي: يقال لهم: هذا فوج وهم قادة

الضلالة إذا دخلوا النار، ثم يدخل الأتباع، فيقول الخزنة للقادة: هذا فوج، أي: قطع من الناس وهم الأتباع مقتحم معكم في النار، دخلوا كما دخلتم، عن ابن عباس. وقيل: يعني بالأول أولاد إبليس، وبالفوج الثاني بني آدم، أي: يقال لبني إبليس بأمر الله تعالى: هذا جمع من بني آدم مقتحم معكم يدخلون النار وعذابها وأنتم معهم، عن الحسن ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لا اتسعت لهم أماكنهم لأنهم لازموا النار، فيكون المعنى على القول الأول: أن القادة والرؤساء يقولون للأتباع: لا مرحباً بهؤلاء إنهم يدخلون النار مثلنا، فلا فرح لنا في مشاركتهم إيانا، فيقول الأتباع لهم ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: لا نلتم رحباً وسعة ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: حملتمونا على الكفر الذي أوجب لنا هذا العذاب، ودعوتمونا إليه. وأما على القول الثاني أن أولاد إبليس يقولون: لا مرحباً بهؤلاء، قد ضاقت أماكننا بهم، إذ كانت النار مملوءة منا فليس لنا منهم إلا ضيق في شدة، وهذا كما روي عن النبي ﷺ: «أن النار تضيق عليهم كضيق الزُّج بالرمح» ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: يقول بنو آدم: بل لا كرامة لكم، أنتم شرعتموه لنا وزينتموه في نفوسنا ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ الذي استقررنا عليه ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: يدعون عليهم بهذا إذا حصلوا في نار جهنم، أي: من سبب لنا هذا العذاب ودعانا إلى ما استوجبنا به ذلك ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مثلًا مضاعفاً إلى مثل ما يستحقه ﴿فِي النَّارِ﴾ أحد الضعفين لكفرهم بالله، والضعف الآخر لدعائهم إيانا إلى الكفر.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل العراق غير عاصم: ﴿**اتخذناهم**﴾ موصولة الهمزة، والباقون: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بقطع الهمزة. وقرأ أهل المدينة والكوفة غير عاصم: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضم السين، والباقون بكسرها. وقرأ أبو جعفر: ﴿**إن يوحى إلي إلا إنما**﴾ بكسر الألف، والباقون «أنما» بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: في إلحاق همزة الاستفهام في قوله: ﴿**اتخذناهم سخرياً**﴾ بعض البعد، لأنهم قد علموا أنهم اتخذوهم سخرياً، وكيف يستقيم أن يستفهم عنه، ويدل على علمهم بذلك أنه قد أخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿**اتخذناهم سخرياً**﴾ فهذه الجملة هي صفة للنكرة. فأما وجه فتح الهمزة فإنه يكون على التقرير، وعودلت بأم لأنها على لفظ الاستفهام، كما عودلت بأم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وإن لم يكن استفهاماً في المعنى، وكذلك قولهم: ما أبالي أزيداً ضربت أم عمراً، فإن قلت: فما الجملة

المعادلة بقوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في قول من كسر الهمزة في قوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾؟ فالقول فيه أن الجملة المعادلة لأم محذوفة، والمعنى: أتراهم أم زاغت عنهم الأبصار، وكذلك قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ لأن المعنى: أخبروني عن الهدهد أحاضر هو أم كان من الغائبين، هذا قول أبي الحسن.

ويجوز عندي في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۞ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أن تكون المعادلة لأم محذوفة تقديره: أفأصحاب النار خير أم من هو قانت؟ وحكي عن أبي عمرو أنه قال: ما كان من مثل العبودية فسُخريُّ مضموم، وما كان من مثل الهزء فسِخري مكسور السين، وقد تقدم ذكر هذا.

قال ابن جني: من قرأ: ﴿إِنَّمَآ﴾ فعلى الحكاية، فكأنه قال: إن يقال لي إلا إنما أنا نذير مبين، وهذا كما تقول لصاحبك أنت قلت إنك شجاع، ونحو ذلك قول الشاعر:

تـنـادَوا بـالـرَّحـيـلِ غـداً وفـي تَـرحـالِهِـم نـفـسـي[1]

قال: وأجاز أبو علي ثلاثة أضرب من الإعراب: بالرحيلُ والرحيلَ والرحيلِ رفعاً ونصباً وجراً، فمن رفع أو نصب فقدر في الحكاية اللفظ المقول البتة، فكأنهم قالوا: الرحيل غداً، فأما الجر فعلى إعمال الباء فيه، وهو معنى ما قالوه، ولكن حكيت منه قولك: غداً وحده، وهو خبر المبتدأ أو في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ، ولا يكون ظرفاً لتنادوا، لأن الفعل الماضي لا يعمل في الزمان الآتي، وإذا قال: بالرحيل غداً، فإن غداً يجوز أن يكون ظرفاً لنفس الرحيل، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل آخر نصب الرحيل، أي: يُحدث الرحيل غداً.

● **المعنى**: ثم حكى سبحانه عن أهل النار أيضاً بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أي: يقولون ذلك حين ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم فيها معهم، وهم المؤمنون، عن الكلبي. وقيل: نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما يقولون: ما لنا لا نرى عماراً وخباباً وصهيباً وبلالاً، الذين كنا نعدهم في الدنيا من جملة الذين يفعلون الشر والقبيح، ولا يفعلون الخير، عن مجاهد. وروى العياشي بالإسناد عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن أهل النار يقولون: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار؟ يعنونكم لا يرونكم في النار، لا يرون والله أحداً منكم في النار ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ معناه: أنهم يقولون لما لم يروهم في النار، أتخذناهم هزؤاً في الدنيا فأخطأنا أم عدلت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ أي: إن ما ذكر قبل هذا لحق، أي: كائن لا محالة، ثم بين ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ يعني تخاصم الأتباع والقادة، أو مجادلة أهل النار بعضهم لبعض على ما أخبر عنهم. ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال:

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي: مخوف من معاصي الله ومحذر من عقابه ﴿وَمَا مِنْ

---

(١) أي: هلاك نفسي.

﴿إِلَٰهٍ﴾ يحق له العبادة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لجميع خلقه، المتعالي بسعة مقدوراته، فلا يقدر أحد على الخلاص من عقوبته إذا أراد عقابه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الإنس والجن وكل خلق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب عباده مع قدرته على عقابهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ اختلف فيه فقيل: يعني القرآن هو حديث عظيم، لأنه كلام الله المعجز، ولأن فيه أنباء الأولين ﴿أَنتُمْ عَنْهُ﴾ أي: عن تدبره والعمل به ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي. وقيل: خبر القيامة خبر عظيم أنتم عنه معرضون، أي: عن الاستعداد لها غافلون، وبها مكذبون، عن الحسن. وقيل معناه: النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم، عن الزجاج. يعني ما أنبأهم به من قصص الأولين إنهم عنه معرضون لا يتفكرون فيه، فيعلموا صدقي في نبوّتي قال ويدل على صحة هذا المعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ يعني الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني ما ذكر من قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى آخر القصة، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي. أي فما علمت ما كانوا فيه إلا بوحي من الله تعالى. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال لي ربي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا، قال: اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات(١)، ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه: ما كان لي من علم باختصام الملائكة فيما ذكرنا، لولا أن الله تعالى أخبرني به لم يمكني إخباركم، ولكن ما يوحى إلي إلا الإنذار البين الواضح. وقيل معناه: ليس يوحى إلي إلا أني نذير مبين مخوف مظهر للحق.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

● **المعنى:** ثم دل سبحانه على أن اختصام الملائكة كان في أمر آدم عليه السلام بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فالظاهر أن ﴿إِذْ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ وإن اعترض بينهما كلام ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾

(١) السبرات جمع السبرة: الغداة الباردة.

﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: فإذا سويت خلق هذا البشر وتمّمت أعضاءه وصورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: أحييته وجعلت فيه الروح، وأضاف الروح إلى نفسه تشريفاً له، ومعنى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ أي: توليت فعله من غير سبب وواسطة كالولادة المؤدية إلى ذلك، فإن الله شرف آدم وكرمه بهذه الحالة ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: فاسجدوا له أجمعين، وفي الكلام حذف، والتقدير: ثم إن الله تعالى خلق ذلك البشر الذي وعدهم بخلقه ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفسّر في سورة البقرة ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ هذا سؤال توبيخ، وتعريف للملائكة أنه لا عذر له في الامتناع عن السجود، ومعنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ توليت خلقه بنفسي من غير واسطة، عن الجبائي. ومثله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وذكر اليدين لتحقيق الإضافة لخلقه إلى نفسه، وهو قول مجاهد. ومثله قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ربك. وقيل معناه: خلقته بقدرتي، عن أبي مسلم وغيره. والعرب كما تطلق لفظ اليد للقدرة والقوة، فقد تطلق لفظة اليدين، قال:

تحمَّلتُ من ذَلفاءِ ما ليس لي به ... ولا للجبالِ الرّاسياتِ يدانِ[1]

وقال آخر:

أنابغَ إنكم لم تبلغونا ... وما لكم بذلكم يدان

وقال عروة بن حزام:

فإن تَحمِلي وُدّي ووُدّكِ تَفدَحي ... وما لَكِ بالحَملِ الثقيلِ يدانِ[2]

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: أرفعت نفسك فوق قدرك وتعظمت عن امتثال أمري أم كنت من الذين تعلو أقدارهم عن السجود فتعاليت عنه؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فضل النار على الطين ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: طريد مبعد ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ﴾ إبليس عند ذلك ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أخرني إلى يوم يحشرون للحساب وهو يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي: المؤخرين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وقد فسرنا جميع ذلك فيما تقدم ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أي: أقسم بقدرتك التي تقهر بها جميع خلقك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ يعني بني آدم كلهم ﴿أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: أدعوهم إلى الغي وأزين لهم القبائح إلا عبادك الذين استخلصتهم وآثرتهم وعصمتهم فلا سبيل لي عليهم.

● ● ●

(١) يصف شدة ما تحمله من عشق محبوبته ذلفاء.
(٢) فدحه الأمر والحمل: أثقله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير الكسائي وهبيرة وروح وزيد عن يعقوب: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع، والباقون: بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب الحقّ الأول كان منصوباً بفعل مضمر يدل انتصاب الحق عليه، وذلك الفعل هو ما ظهر في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ويجوز أن ينتصب على التشبيه بالقسم، فيكون الناصب له ما ينصب القسم من نحو: الله لأفعلن فيكون التقدير: الحق لأملأن، وقد يجوز أن يكون الحقُّ الثاني الأول، وكرر على وجه التأكيد. ومن رفع كان محتملًا لوجهين:

أحدهما: أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: أنا الحق.

والآخر: أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: فالحق مني، كما قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه ما أجاب به إبليس وأنه ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَٱلْحَقَّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي: حقاً ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ والحق أقول اعتراض بين القسم والمقسم عليه، وجاز ذلك لأنه مما يؤيد القصة، كما قال الشاعر:

أرانـي ـ ولا كـفـرانَ لله ـ آيـةً   لـنـفسي لـقـد طـالـبتُ غـيـرَ مُـنِـيلِ(١)

فاعترض بقوله: ولا كفران لله، بين المفعول الأول والثاني، ومن رفع فعلى معنى: فأنا الحق، أو الحق مني، وأقول الحق ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ وقبل قولك ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ثم خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الوحي والقرآن والدعاء إلى الله سبحانه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: مال تعطونيه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لهذا القرآن من تلقاء نفسي. وقيل معناه: أني ما أتيتكم رسولًا من قبل نفسي، ولم أتكلف هذا الإتيان، بل أمرت به. وقيل معناه: لست ممن يتعسف في طلب الأمر الذي لا يقتضيه العقل. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أورده البخاري في الصحيح ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين. وقيل: ما القرآن إلا شرف لمن آمن به ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: ولتعلمن يا كفار مكة خبر صدقه بعد الموت، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: بعد يوم بدر، عن السدي. وقيل: من عاش علم ذلك إذا ظهر أمره، وعلا دينه، ومن مات علمه بعد الموت، عن الكلبي.

---

(١) الشعر في (جامع الشواهد).

سُورَةُ الزُّمَرِ

وتسمى أيضاً: سورة الغرف، وهي مكية كلها، عن مجاهد وقتادة والحسن. وقيل: سوى ثلاث آيات نزلن بالمدنية، في وحشي قاتل حمزة ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾ إلى آخرهن. وقيل: غير آية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾.

● **عدد آيها:** خمس وسبعون آية كوفي، ثلاث شامي، اثنتان في الباقين.

● **اختلافها:** سبع آيات: ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ غير الكوفي ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الثاني: و ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ و ﴿مِنْ هَادٍ﴾ الثاني، و ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أربعهن كوفي ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ عراقي شامي والمدني الأخير ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مكي شامي والمدني الأول.

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين، الذين خافوا الله تعالى. وروى هارون بن خارجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة حتى يهابه من يراه، وحرم جسده على النار، ويبنى له في الجنة ألف مدينة، في كل مدينة ألف قصر، في كل قصر مائة حوراء، وله مع ذلك عينان تجريان، وعينان نضاختان، وجنتان مدهامتان، وحور مقصورات في الخيام.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة ص بذكر القرآن، وافتتح هذه السورة أيضاً به، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾.

● **اللغة:** التكوير: طرح الشيء بعضه على بعض، يقال: كور المتاع، إذا ألقى بعضه على بعض، ومنه: كور العمامة.

● **الإعراب:** ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيل الكتاب من الله لا من

غيره، كما تقول: استقامة الناس من الأنبياء، أي: إنها لا تكون إلا منهم. ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا تنزيل الكتاب، فعلى هذا يجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون في موضع نصب، لأنه يتعلق بـ ﴿تَنزِيلُ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مفعول ﴿أَنزَلْنَآ﴾ ويجوز أن يكون في موضع الحال، والتقدير: أنزلنا الكتاب محقين أو محقاً، فيكون ذو الحال «نا» من ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ في موضع نصب على المصدر، والتقدير: ليقربونا قربى، والتقدير: يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا، فيكون يقولون خبر ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ لأنه مبتدأ، أو يكون حالًا من الضمير في ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ ويكون الخبر قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿يُكَوِّرُ﴾ يحتمل أن يكون حالًا، ويحتمل أن يكون استئناف كلام، فلا يكون له محل.

● **المعنى:** عظَّم الله سبحانه أمر القرآن، وحث المكلفين على القيام بما فيه، واتباع أوامره ونواهيه، بأن قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ المتعالي عن المثل والشبه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أفعاله وأقواله، فوصف هنا نفسه بالعزة تحذيراً من مخالفة كتابه، وبالحكمة إعلاماً بأنه يحفظه، حتى يصل إلى المكلفين من غير تغيير لشيء منه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم ننزله باطلًا بغير غرض. وقيل معناه: بالأمر الحق، أي: بالدين الصحيح ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ أي: توجه بعبادتك إلى الله وحده ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ من شرك الأوثان والأصنام. والإخلاص أن يقصد العبد بنيته وعمله إلى خالقه، لا يجعل ذلك لغرض الدنيا ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ والخالص هو الذي لا يشوبه الرياء والسمعة، ولا وجه من وجوه الدنيا، والدين الخالص الإسلام، عن الحسن. وقيل: هو شهادة أن لا إله إلا الله، عن قتادة. وقيل معناه: ألا لله الطاعة بالعبادة التي يستحق بها الجزاء، فهذا لله وحده لا يجوز أن يكون لغيره. وقيل: هو الاعتقاد الواجب في التوحيد والعدل والنبوة والشرائع، والإقرار بها والعمل بموجبها، والبراءة من كل دين سواها، فهذا تفصيل قول الحسن أنه الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: زعموا أن لهم من دون الله مالكاً يملكهم، وها هنا حذف يدل الكلام عليه، أي يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليشفعوا لنا إلى الله، والزلفى القربى، وهو اسم أقيم مقام المصدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين، فيعاقب كلًا منهم على قدر استحقاقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى طريق الجنة أو لا يحكم بهدايته إلى الحق ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ على الله وعلى رسوله ﴿كَفَّارٌ﴾ بما أنعم الله عليه جاحد لإخلاص العبادة لله، ولم يرد به الهداية إلى الإيمان، لقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾. ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ على ما يقوله هؤلاء: من أن الملائكة بنات الله، أو ما يقوله النصارى: من أن المسيح ابن الله، أو اليهود: أن عزيراً ابن الله ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ أي: لاختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما كان يتخذ الولد باختيارهم حتى يضيفوا إليه من شاؤوا، بل كان يختص من خلقه ما يشاء لذلك، لأنه غير ممنوع من مراده. ومثله قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ ثم أخبر سبحانه أنه منزه عن اتخاذ الأولاد بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لخلقه بالموت، وهو حي لا يموت. ثم

نبَّه سبحانه على كمال قدرته فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً لغير غرض، بل خلقهما للغرض الحكمي ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ أي: يدخل كل واحد منهما على صاحبه بالزيادة والنقصان، فما يزيد في أحدهما ينقص من الآخر، عن الحسن وجماعة من المفسرين. وقيل: يغشى هذا هذا، كما قال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ و ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ عن قتادة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ بأن أجراهما على وتيرة واحدة ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ أي: إلى مدة قدرها الله لهما أن يجريا إليها. وقيل: إلى قيام الساعة. وقيل: لأجل مسمى، أي: أبيض لوقت معلوم في الشتاء والصيف، هو المطلع والمغرب لكل واحد منهما ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مر معناه، وفائدة الآية أن من قدر على خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وإدخال الليل في النهار، فهو منزه عن اتخاذ الولد والشريك، فإن ذلك من صفة المحتاجين.

●●●

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو في رواية أوقية وأبي شعيب السوسي وأبي عمرو الدوري عن اليزيدي عنه وحمزة وفي رواية العجلي: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ ساكنة الهاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي وخلف ونافع برواية إسماعيل وأبو بكر برواية البرجمي ﴿يَرۡضَهُۥ﴾ مضمومة الهاء مشبعة، وقرأ الباقون بضم الهاء مختلسة غير مشبعة. وقرأ ابن كثر ونافع وحمزة: ﴿أَمَنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ خفيفة الميم، والباقون: بتشديد الميم.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿يرضهو﴾ فألحق الواو: أن ما قبل الهاء متحرك، فيكون بمنزلة ضربهو، وهذا لهو، ومن قال: ﴿يَرۡضَهُ﴾ فحرك الهاء ولم يلحق الواو أن الألف المحذوفة

للجزم ليس يلزم حذفها، لأن الكلمة إذا نصبت أو رفعت عادت الألف، فصار الألف في حكم الثابت، فإذا ثبت الألف فالأحسن ألا يلحق الواو، نحو قوله: ألقى موسى عصاه، وذلك أن الهاء خفيفة فلو لحقتها الواو وقبلها الألف، لأشبه الجمع بين الساكنين، وأما من أسكن فقال: ﴿يَرضَهْ لكم﴾ فإن أبا الحسن يزعم أن ذلك لغة، وعلى هذا قوله:

ونضواي مشتاقان له أرقان(١)

ومن قرأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن المعنى: الجاحد الكافر خير أم من هو قانت، ويدل على المحذوف قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ودل عليه أيضاً قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وقد تقدم ذكره.

والآخر أن المعنى: قل: أمن هو قانت كغيره، أي: أمن هو مطيع كمن هو عاص، ويكون على هذا الخبر محذوفاً لدلالة الكلام عليه، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾. وأما من خفف فقال: ﴿أمن هو قانتٌ﴾ فالمعنى أيضاً؛ أم من هو قانت كمن هو بخلاف هذا الوصف، فلا وجه للنداء هنا، لأن هذا موضع معادلة، وإنما يقع فيه الحمل الذي يكون فيه أخبار وليس النداء كذلك. وقال أبو الحسن: القراءة بالتخفيف ضعيفة، لأن الاستفهام إنما يبتدىء ما بعده ولا يحمل على ما قبله، وهذا الكلام ليس قبله شيء يحمل عليه إلا في المعنى.

● **اللغة**: التخويل: العطية العظيمة على وجه الهبة، وهي المنحة، خوله الله مالاً، ومنه الحديث: كان يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة عليهم، أي يتعبدهم، والحديث الآخر: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، اتخذوا مال الله دولاً، ودين الله دخلاً(٢)، وعباد الله خولاً، أي: يظنون عباد الله عبيدهم أعطاهم الله ذلك. قال أبو النجم:

أعطى فلم يَبْخل ولم يُبخَّلِ ... كُوم الذُّرى من خوَل المخوَّلِ(٣)

والقانت: الداعي، والقانت: المصلي، قال:

قانتاً لله يتلو كتبه ... وعلى عمدٍ من الناس اعتزل

آناء الليل: واحدها أني وأنّى.

● **الإعراب**: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ذلكم مبتدأ، و ﴿ٱللَّهُ﴾ عطف بيان، و

---

(١) هذا عجز بيت مر تمامه في ما سبق وصدره: «فظلت لدى البيت العتيق أخيله». والنضو: الدابة التي هزلتها الأسفار، وأذهبت لحمها. وفي بعض الروايات: «مطواي» بدل «ونضواي» ومعناه: صاحباي. والإرق: السهر.

(٢) الدُّول - بضم الدال - جمع الدولة: وهي ما يتداوله الناس. والدخل: العيب، والغش، والفساد، وحقيقته أن يدخلوا في الدين أموراً لم تجر بها السنة.

(٣) الكوم جمع الكوماء: وهي الناقة عظيمة السنام.

﴿رَبُّكُمْ﴾ يدل على لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ وإن شئت كان خبراً لمبتدأ. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يرتفع ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ بالظرف، والظرف مع ما ارتفع به في موضع الحال، والعامل فيه معنى الإشارة، والتقدير: ثابتاً له الملك، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وكذا قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جاز أن يكون في موضع الحال، أي: متوحداً بالوحدانية، وجاز أن يكون خبراً آخر. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أنّى في موضع نصب على الحال، أو على المصدر، ومعناه كيف تصرفون.

● **المعنى:** ثم أبان سبحانه عن كمال قدرته، بخلق آدم وذريته، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام، لأن جميع البشر من نسله ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء، أي: من فضل طينته. وقيل: من ضلع من أضلاعه. وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم: يقتضي التراخي والمهلة، وخلق الوالدين قبل الولد، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عطف يوجب أن الكلام الثاني بعد الأول، ويجري مجرى قول القائل: قد رأيت ما كان منك اليوم ثم ما كان منك أمس، وإن كان ما كان أمس قبل ما يكون اليوم، مثله قول الشاعر:

ولقد ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه

وثانيها: أنه معطوف على معنى «واحدة» فكأنه قال: خلقكم من نفس واحدة أوجدها وحدها ثم جعل منها زوجها.

وثالثها: أنه خلق الذرية في ظهر آدم، وأخرجها من ظهره كالذر، ثم خلق من بعد ذلك حواء من ضلع من أضلاعه على ما ورد في الأخبار، وهذا ضعيف، وقد مضى الكلام عليه.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن معنى الإنزال هنا الإحداث والإنشاء، كقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ ولم ينزل اللباس، ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والصوف، واللباس يكون منهما، فكذلك الأنعام تكون بالنبات، والنبات يكون بالماء.

والثاني: أنه أنزلها بعد أن خلقها في الجنة، عن الجبائي قال: وفي الخبر: الشاة من دواب الجنة، والإبل من دواب الجنة.

والثالث: أن المعنى جعلها نزلاً ورزقاً لكم، ويعني بالأزواج الثمانية من الأنعام: الإبل والبقر، والغنم والضأن والمعز، من كل صنف اثنان هما زوجان، وهو مفسر في سورة الأنعام. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يكسو العظام لحماً ثم ينشئ خلقاً آخر، عن قتادة ومجاهد والسدي. وقيل: خلقاً في بطون الأمهات، بعد الخلق في ظهر آدم، عن أبي زيد ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: ظلمة الليل، أو ظلمة صلب الرجل، وظلمة الرحم، وظلمة البطن. ثم خاطب سبحانه خلقه فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي يملك التصرف فيكم ﴿لَهُ

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ على جميع المخلوقات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن طريق الحق بعد هذا البيان، مثل قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ أي: تجحدوا نعمة الله تعالى ولم تشكروه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن شكركم، فلا يضره كفركم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وفي هذا أوضح دلالة على أنه سبحانه لا يريد الكفر الواقع من العباد. لأنه لو أراده لوجب متى وقع أن يكون راضياً به لعبده، لأن الرضا بالفعل ليس إلا ما ذكرناه، ألا ترى أنه يستحيل أن نريد من غيرنا شيئاً ويقع منه على ما نريده فلا نكون راضين، أو أن نرضى شيئاً ولم نرده البتة ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: وإن تشكروا الله تعالى على نعمه، وتعترفوا بها يرضه لكم ويرده منكم ويثبكم عليه، والهاء في يرضه كناية عن المصدر الذي دل عليه، وإن تشكروا، والتقدير: يرضى الشكر لكم كقولهم: من كذب كان شراً له أي: كان الكذب شراً له ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة ثقل أخرى، والمعنى: لا يؤاخذ بالذنب إلا من يرتكبه ويفعله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يخبركم بما عملتموه ويجازيكم بحسب ذلك ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يخفى عليه سر وعلانية.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ من شدة ومرض وقحط وغير ذلك ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه وحده لا يرجو سواه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل نيل هذه النعمة. قال الزجاج معناه: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل من قبل وجائز أن يكون المعنى: نسي الله الذي كان يتضرع إليه من قبل، ومثله ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ فكانت ﴿مَآ﴾ مما تدل على الله تعالى، و ﴿مَن﴾ عبارة عن كل مميز، و ﴿مَآ﴾ يكون لكل شيء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: سمي له أمثالاً في توجيه عبادته إليها من الأصنام والأوثان ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه أو يضل هو عن الدين، واللام لام العاقبة، وذلك أنهم لم يفعلوا ما فعلوه وغرضهم ذلك، لكن عاقبتهم كانت إليه ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ هذا أمر معناه الخبر، والمعنى: أن مدة تمتعه في الدنيا بكفره قليلة زائلة ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تعذب فيها دائماً.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ أي أهذا الذي ذكرناه خير أم من هو دائم على الطاعة؟ عن ابن عباس والسدي. وقيل: على قراءة القرآن وقيام الليل، عن ابن عمر. وقيل: يعني صلاة الليل، عن أبي جعفر عليه السلام ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعات الليل ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يسجد تارة في الصلاة ويقوم أخرى ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يتردد بين الخوف والرجاء، أي: ليسا سواء وهو قوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يستوي الذين يعلمون ما وعد الله من الثواب والعقاب، والذين لا يعلمون ذلك ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يتعظ ذوو العقول من المؤمنين، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: عقاب ربكم باجتناب معاصيه، وتم الكلام. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: فعلوا الأعمال الحسنة، وأحسنوا إلى غيرهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لهم على ذلك في هذه الدنيا حسنة، أي ثناء حسن، وذكر جميل ومدح وشكر وصحة وسلامة، عن السدي. وقيل معناه: للذين أحسنوا العمل في هذه الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة، وهو الخلود في الجنة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ هذا حث لهم على الهجرة من مكة، عن ابن عباس، أي: لا عذر لأحد في ترك طاعة الله، فإن لم يتمكن منها في أرض فليتحول إلى أخرى يتمكن منها فيها، كقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وقيل معناه: وأرض الله الجنة واسعة، فاطلبوها بالأعمال الصالحة، عن مقاتل وأبي مسلم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم على طاعاتهم وصبرهم على شدائد الدنيا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لكثرته لا يمكن عده وحسابه. وروى العياشي بالإسناد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى (١٤) فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)﴾.

● **اللغة:** الظلة: السترة العالية، جمعها ظلل. والإنقاذ: الإنجاء. والغرف: المنازل الرفيعة، واحدها: غرفة.

● **الإعراب:** ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ خبره. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ في موضع نصب بدل من ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والتقدير: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، وخبر ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟﴾ قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ و ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ترتفع بالظرف، لجريه خبراً على المبتدأ. قال الزجاج: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ معناه الشرط والجزاء، وألف الاستفهام هنا معناها معنى التوقيف، والألف الثانية جاءت مؤكدة، معادة لما طال الكلام والمعنى: أفمن حق عليه

كلمة العذاب أفأنت تنقذه. ومثله ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أعاد أنّ الثانية، والمعنى: أنكم إذا متُّم وكنتم تراباً وعظاماً تخرجون. ويكون على وجه آخر، على أنه حذف الخبر، وفي الكلام دليل على المحذوف، على معنى: أفمن حق عليه كلمة العذاب يتخلّص منه أو ينجو منه، أفأنت تنقذ، أي: لا يقدر أحد أن ينقذه.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: موحداً له لا أعبد معه سواه، والعبادة الخالصة: هي التي لا يشوبها شيء من المعاصي ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضاً ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيكون لي فضل السبق وثوابه ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب يوم القيامة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ وطاعتي ﴿فَاعْبُدُوا﴾ أنتم معاشر الكفار ﴿مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام، وهذا على وجه التهديد لهم بذلك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ في الحقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فلا ينتفعون بأنفسهم ولا يجدون في النار أهلًا، كما كان لهم في الدنيا أهل، فقد فاتتهم المنفعة بأنفسهم وأهليهم، عن مجاهد وابن زيد. وقيل: خسروا أنفسهم بأن قذفوها بين أطباق الجحيم، وخسروا أهليهم الذين أعدوا لهم في جنة النعيم، عن الحسن. قال ابن عباس: إن الله تعالى جعل لكل إنسان في الجنة منزلًا وأهلًا، فمن عمل بطاعته كان له ذلك، ومن عصاه صار إلى النار، ودفع منزله وأهله إلى من أطاع، فذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الظاهر الذي لا يخفى ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: سرادقات وأطباق من النار ودخانها، نعوذ بالله منها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: فرش ومهد. وقيل: إنما سمي ما تحتهم من النار ظللًا، لأنها ظلل لمن تحتهم، إذ النار أدراك وهم بين أطباقها. وقيل: إنما أجري اسم الظلل، والمراد أن النار تحيط بجوانبهم ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: ذلك الذي وصف من العذاب، يخوف الله به عباده رحمة لهم، ليتقوا عذابه بامتثال أوامره ثم أمرهم بالاتقاء فقال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فقد أنذرتكم وألزمتكم الحجة، وإنما حذف الياء في الموضعين، لأن الكسرة تدل عليها.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: الأوثان والشيطان. وقيل: كل من دعا إلى عبادة غير الله تعالى، وإنما أنث للجماعة، وفي قراءة الحسن ﴿اجتنبوا الطَّواغيت﴾ ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ أي: اجتنبوا عبادتها ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ابوا إليه، فأقلعوا عما كانوا عليه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي: البشارة، وهي الإعلام بما يظهر به السرور في بشرة وجوههم جزاء على ذلك. وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنتم هم، ومن أطاع جباراً فقد عبده. ثم قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِ﴾ اجتزأ بالكسرة عن الياء ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: أولاه بالقبول والعمل به، وأرشده إلى الحق. وقيل: فيتبعون أحسن ما يؤمرون به، عن السدي. وروي عن أبي الدرداء قال: لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً: الظمأ بالهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقى طيب التمر. وقيل معناه: يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن، عن الزجاج. وقيل: يستمعون ما في القرآن والسنة، من الطاعات والمباحات، فيتبعون الطاعة التي هي أحسن، إذ يستحق الثواب عليه أكثر، وهو أن يأخذ بأفضل الأمرين، كما أن القصاص حق والعفو أفضل، فيأخذون بالعفو ﴿أُولَٰئِكَ

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هؤلاء الذين هذه صفتهم، هم الذين هداهم الله فاهتدوا به إلى الحق ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول الذين انتفعوا بعقولهم. وقال عبد الرحمن بن زيد: نزل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآيتين في ثلاثة نفر، كانوا يقولون في الجاهلية: لا إله إلا الله، زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ اختلف في تقديره، فقيل معناه: أفمن وجب عليه وعيد الله بالعقاب، أفأنت تخلصه من النار؟ فاكتفى بذكر من في النار عن الضمير العائد إلى المبتدأ، عن الزجاج والأخفش. وقيل تقديره: أفأنت تنقذ من في النار منهم؟ وأتى بالاستفهام مرتين توكيداً للتنبيه على المعنى. وقال ابن الأنباري: الوقف على قوله: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ والتقدير: كمن وجبت له الجنة؟ ثم يبتدىء ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ وأراد بكلمة العذاب قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وإنما قال ذلك للنبي ﷺ لحرصه على إسلام المشركين، والمعنى: أنك تقدر على إدخال الإسلام في قلوبهم شاؤوا أم أبوا، فلا عليك إذا لم يؤمنوا، فإنما أتوا ذلك من قبل نفوسهم، وهذا كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ الآية. ثم بين سبحانه ما أعده المؤمنين كما بين ما أعده للكفار، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أي: قصور في الجنة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ قصور ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ وهذا في مقابلة قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فإن في الجنة منازل رفيعة بعضها فوق بعض، وذلك أن النظر من الغرف إلى الخضر والمياه أشهى وألذ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت الغرف ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **اللغة:** الينابيع: جمع ينبوع، وهو الموضع الذي ينبع منه الماء، يقال: نبع الماء من موضع كذا، إذا فار منه. والزرع: ما ينبت على غير ساق، والشجر ما له ساق وأغصان، والنبات يعم الجميع. وهاج النبت يهيج هيجاً: إذا جف وبلغ نهايته في اليبوسة. والحطام:

فتات التبن والحشيش، والحَطْم: الكسر للشيء اليابس، ومنه سميت جهنم: حطَمة، لأنها تكسر كل شيء، ومنه الحطيم بمكة، قال النضر: لأن البيت رُفِع وتُرِك ذلك محطوماً، وهو حجر الكعبة مما يلي الميزاب.

● **الإعراب:** ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ مَن مع صلته مبتدأ والخبر محذوف، تقديره: أفمن شرح الله صدره كمن قسا قلبه من ذكر الله، أي: من ترك ذكر الله، لأن القلب إنما يقسو من ترك ذكر الله، ويجوز أن يكون تشمئز عند ذكر الله، فيقال: قست من ذكر الله، أي: من ذكر الناس لله. ﴿كِتَٰبًا﴾ منصوب لأنه بدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

● **المعنى:** لما قدم سبحانه ذكر الدعاء إلى التوحيد، عقبه بذكر دلائل التوحيد، فقال يخاطب نبيه ﷺ، وإن كان المراد جميع المكلفين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخل ذلك الماء ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل العيون والأنهار والقني والآبار، ونظيره قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء من الأرض ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: صنوفه من البر والشعير والأرز وغير ذلك. يقال: هذا لون من الطعام، أي صنف. وقيل: مختلف الألوان من أخضر وأصفر وأبيض وأحمر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجف وييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: رفاتاً منكسراً متفتتاً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ معناه: إن في إخراج هذه الزروع ألواناً مختلفة بماء واحد، ونقلها من حال إلى حال، لتذكيراً لذوي العقول السليمة، إذا تفكروا في ذلك عرفوا الصانع المحدث، وعلموا صحة الابتداء والبعث والإعادة ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: فسح صدره ووسع قلبه لقبول الإسلام والثبات عليه، وشرح الصدر يكون بثلاثة أشياء:

أحدها: بقوة الأدلة التي نصبها الله تعالى، وهذا يختص به العلماء.

والثاني: بالألطاف التي تتجدد له حالًا بعد حال، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾.

والثالث: بتوكيد الأدلة، وحل الشبهة، وإلقاء الخواطر. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: على دلالة وهدى ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ شبه الأدلة بالنور لأن بها يعرف الحق، كما بالنور تعرف أمور الدنيا، عن الجبائي. وقيل: النور كتاب الله عز وجل، فبه نأخذ، وإليه ننتهي، عن قتادة. وحذف: كمن هو قاسي القلب، يدل على المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين ألفوا الكفر وتعصبوا له، وتصلبت قلوبهم حتى لا ينجع فيها وعظ، ولا ترغيب ولا ترهيب، ولا ترق عند ذكر الله، وقراءة القرآن عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: عدول عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، سماه الله حديثاً، لأنه كلام الله، والكلام سمي حديثاً، كما يسمى كلام النبي ﷺ حديثاً، ولأنه حديث التنزيل، بعد ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء، وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته، ولإعجازه، واشتماله على جميع ما

يحتاج المكلف إليه، من التنبيه على أدلة التوحيد والعدل، وبيان أحكام الشرع، وغير ذلك من المواعظ وقصص الأنبياء والترغيب والترهيب، ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً، ويصد بعضه بعضاً، ليس فيه اختلاف ولا تناقض. وقيل معناه: أنه يشبه كتب الله المتقدمة، وإن كان أعم وأجمع وأنفع. وقيل: متشابهاً في حسن النظم، وجزالة اللفظ، وجودة المعاني ﴿مَّثَانِيَ﴾ سمي بذلك لأنه يثنى فيه بعض القصص والأخبار والأحكام والمواعظ بتصريفها في ضروب البيان، ويثنى أيضاً في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: تأخذهم قشعريرة خوفاً مما في القرآن من الوعيد ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة. والمعنى: أن قلوبهم تطمئن وتسكن إلى ذكر الله الجنة والثواب، فحذف مفعول الذكر للعلم به. وروي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال: إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت[1] عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها. وقال قتادة: هذا نعت لأولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني القرآن ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بما نصب فيه من الأدلة، وهم الذين آتاهم القرآن من أمة محمد ﷺ، عن الجبائي. وقيل: يهدي به من يشاء من الذين اهتدوا به. إنما خصهم بذلك لأنهم المنتفعون بالهداية، ومن لم يهتد لا يوصف بأنه هداه الله، إذ ليس معه هداية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن طريق الجنة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: لا يقدر عى هدايته أحد، عن الجبائي. وقيل معناه: من ضل عن الله ورحمته فلا هادي له، يقال: أضللت بعيري إذا ضل، عن أبي مسلم. وقيل معناه: من يضلله عن زيادة الهدى والألطاف، لأن الكافر لا لطف له.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تقديره: أفحال من يدفع عذاب الله بوجهه يوم القيامة كحال من يأتي آمناً لا تمسه النار؟ وإنما قال: بوجهه، لأن الوجه أعز أعضاء الإنسان. وقيل معناه: أمن يُلقى في النار منكوساً فأول عضو منه مسته النار وجهه، عن عطاء. ومعنى يتقي يتوقى، كما قال عنترة:

إذ يتقون بيَ الأسنة لم أخم   عنها ولكني تضايق مقدمي[2]

أي: يقدمونني إلى القتال فيتوقون بي حرها. ثم أخبر سبحانه عما يقوله خزنة النار للكفار بقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء ما كسبتموه من المعاصي. ثم أخبر سبحانه عن أمثال هؤلاء الكفار من الأمم الماضية فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بآيات الله وجحدوا رسله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم آمنون غافلون.

---

(١) أي: تتساقط.
(٢) هذا بيت من معلقته المعروفة. والخيم: الجبن يقول: حين جعلني أصحابي حاجزاً بينهم وبني أسنة أعدائهم أي: قدموني لم أجبن عن أسنتهم، ولم أتأخر، ولكن قد تضايق موضع أقدامي، فتعذر التقدم، فتأخرت لذلك. ويروى «ولو أن تضايق مقدمي» والمعنى: فلم أتأخر، ولو كان المسافة بيني وبينهم ضيقاً.

النظم: إنما اتصل قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ بما تقدم من ذكر أدلة التوحيد والعدل التي إذا تفكر فيها العاقل انشرح صدره، واطمأنت نفسه إلى ثلج اليقين. واتصل قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ بما تقدمه من قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: فإن أحسن الحديث القرآن فهو أولى بالاتباع، عن أبي مسلم. واتصل قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بما قبله على تقدير: فمن لم يهتد بهدي الله لا يهتدي، وكيف يهتدي بغيره من يتقي بوجهه سوء العذاب؟ يعني المقيم على كفره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ ابن كثير وأهل البصرة غير سهل: ﴿سالماً﴾ بالألف، والباقون: ﴿سَلَمًا﴾ بغير ألف واللام مفتوحة. وفي الشواذ قراءة سعيد بن جبير: ﴿سِلْماً﴾ بكسر السين وسكون اللام.

● **الحجة**: قال أبو علي: يقوي قراءة من قرأ: «سالماً» قوله: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ فكما أن الشريك عبارة عن العين، وليس باسم حدث، فكذلك الذي بإزائه ينبغي أن يكون فاعلًا، ولا يكون اسم حدث. ومن قرأ: «سَلماً سِلماً» فهما مصدران وليسا بوصفين، كحسن وبطل ونقض ونضو، يقال: سلم سلماً وسلامة وسِلماً، والمعنى فيمن قال: سِلْماً: ذا سلم، أي: رجلًا ذا سلم. قال أبو الحسن: سلم من الاستسلام. وقال غيره: السلم خلاف المحارب.

● **اللغة**: الخزي: المكروه والهوان. والتشاكس: التمانع والتنازع، تشاكسوا في الأمر تشاكساً، وأصله من الشكاسة، وهو سوء الخلق. والاختصام: رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه، وقد يكون أحدهما محقاً، والآخر مبطلاً، وقد يكونان جميعاً مبطلين: كاليهودي والنصراني، وقد يكونان جميعاً محقين.

● **الإعراب**: قال الزجاج: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال، أي: في حال عروبيته، وذكر ﴿قُرْءَانًا﴾ توكيداً، كما تقول: جاءني زيد رجلًا صالحاً، وجاءني عمرو إنساناً عاقلًا، فتذكر رجلًا، وإنساناً، توكيداً. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ فرجلًا بدل من قوله: ﴿مَثَلًا﴾ والتقدير: ضرب الله مثل رجل، فحذف المضاف. وقوله: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ يرتفع بالظرف، و ﴿رَجُلًا﴾ عطف على الأول، أي: ومثل رجل سالم.

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عما فعله بالأمم المكذبة بأن قال: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ أي: الذل والهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وأشد ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ سمى ذكر الأمم الماضية مثلاً، كما قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ والمعنى: إنا وصفنا وبيّنا للناس في هذا القرآن كل ما يحتاجون إليه، من مصالح دينهم ودنياهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتذكروا ويتدبروا فيعتبروا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: غير ذي ميل عن الحق، بل هو مستقيم موصل إلى الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لكي يتقوا معاصي الله. ثم ضرب سبحانه مثلاً للكافر وعبادته الأصنام، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: مختلفون سيئو الأخلاق متنازعون، وإنما ضرب هذا المثل لسائر المشركين، ولكنه ذكر رجلاً واحداً وصفه بصفة موجودة في سائر المشركين، فيكون المضروب له مضروباً لهم جميعاً، ويعني بقوله: ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: يعبد آلهة مختلفة وأصناماً كثيرة، وهم متشاجرون متعاسرون، هذا يأمره، وهذا ينهاه، ويريد كل واحد منهم أن يفرده بالخدمة، ثم يكل كل منهم أمره إلى الآخر، ويكل الآخر إلى الآخر، فيبقى هو خالياً عن المنافع، وهذا حال من يخدم جماعة مختلفة الآراء والأهواء، هذا مثل الكافر، ثم ضرب سبحانه مثل المؤمن الموحد، فقال: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً يعبد مالكاً واحداً، لايشوب بخدمته خدمة غيره، ولا يأمل سواه، ومن كان بهذه الصفة نال ثمرة خدمته، لا سيما إذا كان المخدوم حكيماً قادراً كريماً، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي عليه السلام أنه قال: أنا ذاك الرجل السلم لرسول الله صلى الله عليه وآله. وروى العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال: الرجل السلم للرجل حقاً عليٌّ وشيعته ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي هذان الرجلان صفة وشبهاً في حسن العاقبة وحصول المنفعة، أي: لا يستويان، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وحياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء المختلفين في أمره، وتم الكلام. ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: احمدوا الله المستحق للثناء والشكر على هذا المثل الذي علمكموه فأزال به للمؤمنين الشبه، وأوضح الدلالة. وقيل معناه: احمدوا الله حيث لطف بكم حتى عبدتموه وحده، وأخلصتم الإيمان له والتوحيد، فهي النعمة السابغة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

ثم بين سبحانه المقام الذي يتبين فيه المحق والمبطل، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي: عاقبتك الموت، وكذا عاقبة هؤلاء ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني المحق والمبطل، والظالم والمظلوم، عن ابن عباس. وكان أبو العالية يقول: الاختصام يكون بين أهل القبلة. قال ابن عمر: كنا نرى أن هذه الآية فينا وفي أهل الكتابين، وقلنا: كيف نختصم نحن ونبينا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعلمت أنها فينا نزلت. وقال أبو سعيد الخدري في هذه الآية: كنا نقول: ربنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا، وقال ابن عباس: الاختصام يكون بين المهتدين والضالين، والصادقين والكاذبين.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الذي هنا جنس، لأن خبره جمع وهو قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ فلا يراد به واحد معين. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ﴾ اللام من صلة قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقيل: هو لام القسم، والتقدير: والله ليكفرن، فحذفت النون وكسرت اللام.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بأن ادعى له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالتوحيد والقرآن ﴿إِذْ جَاءَهُۥٓ﴾ ثم هدد سبحانه من هذه صورته بأن قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: منزل ومقام للجاحدين، وهذا استفهام يراد به التقرير، ومعناه: إنه لكذلك. ويقال: أثوى وثوى بمعنى. قال:

طال الثواء على ربع بيمؤود   أودى وكل جديد مرة مودِ(١)

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ اختلف في المعني به، فقيل: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ جاء بالقرآن وصدق به المؤمنون، فهو حجتهم في الدنيا والآخرة، عن ابن زيد وقتادة ومقاتل، واحتجوا بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل الذي جاء بالصدق وهو القرآن جبرائيل عليه السلام، وصدق به محمد ﷺ تلقاه بالقبول، عن السدي. وقيل: الذي جاء بالصدق وهو قول لا إله إلا الله هو محمد ﷺ، وصدق به هو أيضاً، وبلغه إلى الخلق، عن ابن عباس قال: ولو كان المصدِّق به غيره، لقال: والذي صدق به، وهذا أقوى الأقوال. وقيل: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، وصدق به أبو بكر، عن أبي العالية والكلبي. وقيل: الذي جاء بالصدق الأنبياء، وصدق به أتباعهم، عن عطاء والربيع. وعلى هذا فيكون الذي للجنس، كما في قول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد(٢)

ألا ترى أنه عاد إليه ضمير الجمع. وقيل: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدق به علي بن أبي طالب عليه السلام، عن مجاهد، ورواه الضحاك عن ابن عباس، وهو المروي عن أئمة الهدى عليهم السلام من آل محمد ﷺ. ثم منَّ سبحانه بما أعد لهم من النعيم فقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ من الثواب والنعيم في الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ينالون من جهته ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم الذي فعلوه في الدنيا، وأعمالهم الصالحة. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي:

(١) قائله شماخ. ويمؤود: اسم واد لغطفان. ومود: اسم فاعل من أودى أي: هلك.
(٢) مر البيت في هذا الجزء.

أسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك، بإيمانهم وإحسانهم ورجوعهم إلى الله تعالى ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالفرائض والنوافل، فهي أحسن أعمالهم، لأن المباح وإن كان حسناً فلا يستحق به ثواب ولا مدح.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم وأبو جعفر: ﴿بكاف عباده﴾ على الجمع، والباقون: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ على التوحيد. وقرأ أهل البصرة: ﴿كَٰشِفَٰتٌ﴾ و ﴿مُمْسِكَٰتٌ﴾ بالتنوين، وما بعدهما منصوبان، وقرأ الباقون بغير تنوين على إضافة كل واحدة منهما إلى ما بعدها.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: ﴿عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ فكأن المعنى: أليس الله بكافيك وهم يخوفونك؟ ومن قرأ: ﴿عباده﴾ فالمعنى: أليس الله بكاف عباده الأنبياء؟ كما كفى إبراهيم النار، ونوحاً الغرق، ويونس ما وقع إليه، فهو سبحانه كافيك كما كفى الأنبياء قبلك. ومن قرأ: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و ﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فالوجه فيه أنه مما لم يقع، وما لم يقع من أسماء الفاعلين أو كان للحال فالوجه فيه النصب، ووجه الجر أنه لما حذف التنوين ـ وإن كان المعنى على إثباته ـ عاقبت الإضافة التنوين.

● **المعنى:** لما وعد الله سبحانه الصادق والمصدّق عقبه بأنه يكفيهم، وإن كانت الأعداء تقصدهم وتؤذيهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استفهام يراد به التقرير، يعني به محمداً ﷺ، يكفيه عداوة من يعاديه ويناوئه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ كانت الكفار تخوفه بالأوثان التي كانوا يعبدونها، عن قتادة والسدي وابن زيد، لأنهم قالوا له: إنا نخاف أن تهلكك آلهتنا. وقيل: إنه لما قصد خالد لكسر العزّى بأمر النبي ﷺ قالوا: إياك يا خالد، فبأسها شديد، فضرب خالد أنفها بالفأس وهشمها، وقال: كفرانك يا عزى لا سبحانك، سبحان من أهانك، إني رأيت الله قد أهانك ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها. وقيل معناه: أن من وصفه بأنه ضال إذا ضل هو عن الحق، فليس له من يسميه هادياً. وقيل: من يحرمه الله من زيادات الهدى

فليس له زائد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: من يهده الله إلى طريق الجنة فلا أحد يضله عنها. وقيل: من يهده الله فاهتدى، فلا يقدر أحد على صرفه عنه. وقيل: من بلغ استحقاق زيادات الهدى، فقد ارتفع عن تأثير الوسواس ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ أي: قادر قاهر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه الجاحدين لنعمه.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأوجدها وأنشأها بعد أن كانت معدومة ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الفاعل لذلك، لأنهم مع عبادتهم الأوثان يقرون بذلك. ثم احتج عليهم بأن ما يعبدونه من دون الله لا يملك كشف الضر والسوء عنهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: بمرض، أو فقر، أو بلاء، أو شدة ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: هل يكشفن ضره ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي: بخير أو صحة ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: هل يمسكن ويحبسن عني رحمته. والمعنى: أن من عجز عن النفع والضر، وكشف السوء والشر، عمن يتقرب إليه، كيف يحسن منه عبادته؟ وإنما يحسن العبادة لمن قدر على جميع ذلك، ولا يلحقه العجز والمنع، وهو الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وبه يثق الواثقون، ومن توكل على غيره توكل على غير كاف ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على قدر جهدكم وطاقتكم في إهلاكي وتضعيف أمري ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ قدر جهدي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ قد مضى مفسراً، وفي هذا غاية الوعيد والتهديد.

النظم: اتصل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ بقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ والمعنى: أنه لاينبغي أن يخوفونك بها، مع اعترافهم بأن الخالق هو الله دون غيره.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة**: قرأ أهل الكوفة غير عاصم وقتيبة: ﴿قُضِيَ﴾ بالضم ﴿الموت﴾ بالرفع، والباقون: ﴿قَضَىٰ﴾ بالفتح ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من بنى الفعل للفاعل قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فكما أن هذا مبني للفاعل فكذلك حكم الذي عطف عليه، ومن بنى الفعل للمفعول به فهو في المعنى مثل بناء الفعل للفاعل، والأول أبين.

● **اللغة:** التوفي: قبض الشيء على الإيفاء والإتمام، يقال: توفيت حقي من فلان، واستوفيته بمعنى. والاشمئزاز: الإنقباض والنفور عن الشيء، قال عمرو بن كلثوم:

إذا عـض الـثـقـاف بـهـا اشـمـأزت ... وولـتـهـم عَـشَـوْزَنَـةً زَبـونـا(١)

وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: الشمز: نفور الشيء من الشيء يكرهه.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه تحقيق وعيده بالعذاب المقيم بأن قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع الخلق، عن ابن عباس ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ليس فيه شيء من الباطل. وقيل: بالحق معناه بأنه الحق، أو على أنه الحق الذي يجب النظر في موجبه ومقتضاه، فما صححه وجب تصحيحه، وما أفسده وجب إفساده، وما رغب فيه وجب العمل به، وما حذر منه وجب اجتنابه، وما دعا إليه فهو الرشد وما صرف عنه فهو الغي ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بما فيه من الأدلة ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ لأن النفع في عاقبته يعود إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه وحاد ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، لأن مضرة عاقبته من العقاب تعود عليه ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: برقيب في إيصال الحق إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتى لا يتركوه، ولا ينصرفوا عنه، إذ لا تقدر على إكراههم على الإسلام. وقيل: بكفيل يلزمك إيمانهم، فإنما عليك البلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبضها إليه وقت موتها وانقضاء آجالها، والمعنى: حين موت أبدانها وأجسادها على حذف المضاف ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، والتي تتوفى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل والتمييز، وهي التي تفارق النائم فلا يعقل، والتي تُتوفى عند الموت هي نفس الحياة، التي إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس، فالفرق بين قبض النوم وقبض الموت أن قبض النوم يضاد اليقظة، وقبض الموت يضاد الحياة، وقبض النوم يكون الروح معه في البدن، وقبض الموت يخرج الروح معه من البدن.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إلى يوم القيامة لا تعود إلى الدنيا ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يعني الأنفس الأخرى التي لم يقض على موتها، يريد نفس النائم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد سمي لموته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على توحيد الله وكمال قدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الأدلة، إذ لا يقدر على قبض النفوس تارة بالنوم، وتارة بالموت غير الله تعالى.

---

(١) هذا بيت من معلقته الشهيرة، يصف قومه بالعزة والمنعة، وأن كل من رامهم أرجعوه خائباً ذليلًا. والثقاف: الحديدة التي يستوي ويقوم بها الرماح. والعشوزنة: الصلبة الشديدة. والزبون: الدفوع. وقيل هذا البيت قوله:

«فـإن قـنـاتـنـا يـا عـمـرو أعـيـت ... عـلـى الأعـداء قـبـلـك أن تـلـيـنـا»

جعل القناة التي نفرت عن التقويم مثلًا لعزتهم التي لا تضعف وقوله: «عشوزنة زبوناً» للرماح.

قال ابن عباس: في بني آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحرك، فإذا نام قبض الله نفسه، ولم يقبض روحه وإذا مات قبض الله نفسه وروحه.

ويؤيده ما رواه العياشي بالإسناد عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن ثابت أبي المقدام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإذا أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح، وهو قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية، فمهما رأت في ملكوت السموات فهو مما له تأويل، وما رأت فيما بين السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان ولا تأويل له.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: بل اتخذوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آلهة ﴿شُفَعَآءَ قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ يعني الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أولو كانوا بهذه الصفة يتخذونهم شفعاء ويعبدونهم راجين شفاعتهم؟ ثم قال: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لايشفع أحد إلا بإذنه، عن مجاهد. والمعنى: لا يملك أحد الشفاعة إلا بتمليكه، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وفي هذا إبطال الشفاعة لمن ادعيت له الشفاعة من الآلهة ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مضى معناه. ثم أخبر سبحانه عن سوء اعتقادهم وشدة عنادهم، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي نفرت، عن السدي والضحاك والجبائي. وقيل: انقبضت، عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل. وقيل: كفرت واستكبرت، عن قتادة ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كان المشركون إذا سمعوا قول ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ نفروا من هذا، لأنهم كانوا يقولون: الأصنام آلهة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها من دونه ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون ويسرون حتى يظهر السرور في وجوههم.

النظم: اتصل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فبين سبحانه أن الحفيظ عليهم هو الذي يتوفاهم ويصرفهم كيف يشاء. وقيل: يتصل بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي: من كان هذه صفته، فإنه يكفيك أمرهم.

واتصل قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي: فكما أن أصنامهم لا تملك الضر والنفع فإنها لا تملك الشفاعة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ
عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **المعنى**: لما قدم سبحانه ذكر الأدلة فلم ينظروا فيها، والمواعظ فلم يتعظوا بها، أمر نبيه ﷺ أن يحاكمهم إليه ليفعل بهم ما يستحقونه، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ادع بهذا الدعاء ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا خالقهما ومنشئهما ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يا عالم ما غاب علمه عن جميع الخلق، وعالم ما شهدوه وعلموه ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ يوم القيامة ﴿فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم، وتفصل بينهم بالحق في الحقوق والمظالم، أي: فاحكم بيني وبين قومي بالحق، وفي هذا بشارة للمؤمنين بالظفر والنصر، لأنه سبحانه إنما أمره به للإجابة لا محالة. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: إني لأعرف موضع آية لم يقرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه، قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. ثم أخبر سبحانه عن وقوع العقاب بالكفار بأن قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ زيادة عليه ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وقد مضى تفسيره ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا ينتظرونه، ولا يظنونه واصلاً إليهم، ولم يكن في حسابهم. قال السدي: ظنوا أعمالهم حسنات فبدت لهم سيئات. وقيل: إن محمد بن المنكدر جزع عند الموت فقيل له: أتجزع؟ قال: أخذتني آية من كتاب الله عز وجل ﴿وَبَدَا لَهُم﴾ الآية. أخذتني أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: وظهر لهم أيضاً ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو كل ما ينذرهم النبي ﷺ مما كانوا ينكرونه ويكذبون به.

ثم أخبر عن شدة تقلب الإنسان من حال إلى حال فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ من مرض أو شدة ﴿دَعَانَا﴾ واستغاث بنا، مسلماً مخلصاً في كشفه، علماً بأنه لا يقدر غيرنا عليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه نعمة من الصحة في الجسم والسعة في الرزق، أو غير ذلك من النعم ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: قال: إنما أوتيته بعلمي وجلدي وحيلتي، عن الحسن والجبائي، فيكون هذا إشارة إلى جهلهم بمواضع المنافع والمضار.

وثانيها: على علم على خير علمه الله عندي، عن قتادة ومقاتل.

وثالثها: على علم يرضاه عني، فلذلك أتاني ما أتاني من النعم.

ثم قال: ليس الأمر على ما يقولونه ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلية واختبار يبتليه الله بها.

فيظهر كيف شكره أو صبره في مقابلتها، فيجازيه بحسبها. وقيل معناه: هذه النعمة فتنة، أي عذاب لهم إذا أضافوها إلى أنفسهم. وقيل معناه: هذه المقالة التي قالوها فتنة لهم، لأنهم يعاقبون عليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البلوى من النعمى. وقيل: لا يعلمون أن النعم كلها من الله، وإن حصلت بأسباب من جهة العبد ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: قد قال مثل هذه الكلمة وهذه المقالة ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فلم ينفعهم ما كانوا يجمعونه من الأموال، بل صارت وبالاً عليهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار، فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: أصابهم عقاب سيئاتهم، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه. وقيل: إنما سمّي عقاب سيئاتهم سيئة لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: من كفار قومك يا محمد ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أيضاً ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يفوتون الله تعالى. وقيل: لا يعجزون الله بالخروج من قدرته ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، بحسب ما يعلم من المصلحة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بتوحيد الله تعالى، لأنهم المنتفعون بها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بارتكاب الذنوب ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية. وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: ما في القرآن آية أوسع من ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية وفي مصحف عبد الله: إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء. وقيل: إن الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة، حين أراد أن يسلم وخاف ألا تقبل توبته، فلما نزلت الآية أسلم، فقيل: يا رسول الله، هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال ﷺ: بل للمسلمين عامة، وهذا لا يصح لأن الآية نزلت بمكة، ووحشي أسلم بعدها بسنين كثيرة، ولكن يمكن أن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه، فالآية محمولة على عمومها، فالله سبحانه يغفر جميع الذنوب للتائب لا محالة،

فإن مات الموحد من غير توبة فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه بعدله، وإن شاء غفر له بفضله، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ثم دعا سبحانه عباده إلى التوبة وأمرهم بالإنابة إليه فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا من الشرك والذنوب إلى الله فوحدوه ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: انقادوا له بالطاعة فيما يأمركم به. وقيل معناه: اجعلوا أنفسكم خالصة له. قد حث سبحانه بهذه الآية على التوبة، كي لا يرتكب الإنسان المعصية ويدع التوبة اتكالاً على الآية المتقدمة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ عند نزول العذاب بكم ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: من الحلال والحرام والأمر والنهي والوعد والوعيد، فمن أتى بالمأمور به وترك المنهي عنه، فقد اتبع الأحسن، عن ابن عباس. وقيل: إنما قال: ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ لأنه أراد بذلك الواجبات والنوافل، التي هي الطاعات دون المباحات. وقيل: أراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ، عن الجبائي. قال علي بن عيسى: وهذا خطأ، لأن المنسوخ لا يجوز العمل به، فلا يكون حسناً بل هو قبيح، ولايكون الحسن أحسن من قبيح، وقد أجيب عن هذا: بأن المنسوخ يجوز أن يكون حسناً، إلا أن العمل بالناسخ يكون أصلح وأحسن ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة في وقت لا تتوقعونه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تعرفون وقت نزوله بكم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: ﴿يا حسرتاي﴾ بياء مفتوحة بعد الألف، والباقون: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ بغير ياء.

● **الحجة:** قال ابن جني: في قوله: ﴿يا حسرتاي﴾ إشكال، وذلك أن الألف في حسرتا إنما هي بدل من يا ﴿حسرتي﴾ أبدلت الياء ألفاً هرباً إلى خفة الألف من ثقل الياء، قال: والذي عندي فيه أنه جمع بين العوض والمعوض عنه كمذهب أبي إسحاق وأبي بكر، في قول الفرزدق:

هما نفثا في فيَّ من فَمَوَيْهِما ... على النابحِ العاوي أشدَّ رِجامِ[1]

---

(١) نفث من فيه: رمى به. والنباح: صوت الكلب. والمراد من العاوي: الكلب. والرجام: الرمي بالحجارة. هذا البيت قبله:

«وان ابن ابليس وابليس البنا ... لهم بعذاب الناس كل غلام»

فجمع بين الميم والواو، وإنما الميم بدل من الواو، ومثله ما أنشده أبو زيد:

إنـي إذا مـا حـدث ألـمَّـا   أقـول: يـا الـلـهـم يـا الـلـهـمـا

فجمع بين ياء وميم، وإنما الميم عوض من ياء.

● **اللغة:** التفريط: إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته، ومثله: التقصير، وضده: الأخذ بالحزم، يقال: فلان حازم، وفلان مفرط. والتحسر: الإغتمام مما فات وقته، لانحساره عنه بما لا يمكنه استدراكه، ومثله: التأسف، وأصل الباب الانقطاع، يقال: انحسرت الدابة، أي: انقطع سيرها كلالاً. والجنب: العضو المعروف، والجنب أيضاً: معظم الشيء وأكثره، يقال: هذا قليل في جنب مودتك، ويقال: ما فعلت في جنب حاجتي، أي: في أمره، قال كثير:

ألا تـتـقـيـن الله فـي جـنـب عـاشـق   لـه كـبـد حـرى عـلـيـك تـقـطـع

● **الإعراب:** ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾ جواب قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لأن معناه: ما هداني، فقيل لها: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ لأن بلى جواب النفي، وليس في الظاهر نفي فيحمل على المعنى. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في موضع نصب على الحال، واستغنى عن الواو لمكان الضمير، ويجوز في غير القرآن: وجوههم، بالنصب على البدل من ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة بالنصب، ومثل النصب قول عدي بن زيد:

دعـيـنـي إن أمـرك لـن يـطـاعـا   ومـا ألـفـيـتـنـي حـلـمـي مـضـاعـا

● **المعنى:** لما أمر سبحانه باتباع الطاعات، واجتناب المقبحات، تحذيراً من نزول العقوبات، بين الغرض في ذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي: خوف أن تقول، أو حذراً من أن تقول، والمعنى: كراهة أن تصيروا إلى حال تقولون فيها ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: يا ندامتي على ما ضيعت من ثواب الله، عن ابن عباس. وقيل: قصرت في أمر الله، عن مجاهد والسدي. وقيل: في طاعة الله، عن الحسن. قال الفراء: الجنب القرب، أي في قرب الله وجواره. يقال: فلان يعيش في جنب فلان، أي: في قربه وجواره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ فيكون المعنى على هذا القول: على ما فرطت في طلب جنب الله، أي: في طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أي: فرطت في الطريق الذي هو طريق الله، فيكون الجنب بمعنى الجانب، أي: قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله. وروى العياشي بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: نحن جنب الله، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وإني كنت لمن المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وآله، والقرآن، وبالمؤمنين، في دار الدنيا، عن قتادة والسدي. وقيل: من الساخرين ممن يدعوني إلى الإيمان ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: فعلنا ذلك كراهة أن تقول: لو أراد الله هدايتي لكنت ممن يتقي معاصيه خوفاً من عقابه. وقيل: إنهم لما لم ينظروا في الأدلة، وأعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بالدنيا والأباطيل،

توهموا أن الله تعالى لم يهدهم، فقالوا ذلك بالظن، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ الآية. وقيل معناه: لو أن الله هداني إلى النجاة، بأن يردني إلى حال التكليف، لكنت ممن يتقي المعاصي، عن الجبائي. قال: لأنهم يضطرون يوم القيامة إلى العلم بأن الله قد هداهم ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين المطيعين.

ثم قال سبحانه منكراً على هذا القائل ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس كما قلت ﴿قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ أي: حججي ودلالاتي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وأنفت من اتباعها. وذلك قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بها، وإنما قال: جاءتك، وإن كانت النفس مؤنثة، لأن المراد بالنفس هنا الإنسان. وروي في الشواذ عن عاصم والجحدري ويحيى بن يعمر بكسر الكاف والتاءات ﴿بلى قد جاءتكِ آياتي فكذَّبتِ بها واستكبرتِ وكُنتِ مِنَ الكافرين﴾. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعموا أن له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبروا عن الإيمان بالله، هذا استفهام تقرير، أي: فيها مثواهم ومقامهم. وروى العياشي بإسناده عن خثيمة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من حدث عنا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنما يكذب على الله وعلى رسوله، لأنا إذا حدثنا لا نقول: قال فلان، وقال فلان، إنما نقول: قال الله، وقال رسوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. ثم أشار خثيمة إلى أذنيه، فقال: صُمّتا إن لم أكن سمعته. وعن سودة بن كليب قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية، فقال: كل إمام انتحل إمامة ليست له من الله، قلت: وإن كان علوياً؟ قال عليه السلام: وإن كان علوياً، قلت: وإن كان فاطمياً؟ قال: وإن كان فاطمياً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير حفص: ﴿بمفازاتهم﴾ والباقون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وقرأ أهل المدينة: ﴿تأمرونيَ﴾ خفيفة النون مفتوحة الياء، وقرأ ابن عامر: ﴿تأمرونني﴾ بنونين ساكنة الياء، وقرأ ابن كثير: ﴿تأمرونّيَ﴾ مشددة النون مفتوحة الياء، والباقون: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ مشددة النون ساكنة الياء. وقرأ زيد عن يعقوب: ﴿لنحبطن عملك﴾ والباقون: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة الإفراد أن المفازة والفوز واحد، فإفراد المفازة كإفراد

الفوز، وحجة الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها، ومثله في الإفراد والجمع: على مكانتكم، ومكاناتكم. وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ غير ينتصب على وجهين:

أحدهما: أعبد غير الله فيما تأمرونني.

والآخر: أن ينتصب بتأمروني، أي: أتأمرونني بعبادة غير الله، فلما حذف أن ارتفع ﴿أَعْبُدُ﴾ فصارت أن وصلتها في موضع نصب، ولا يجوز انتصاب غير بأعبد على هذا، لأنه في تقدير الصلة، فلا يعمل فيما تقدم عليه، فموضع أعبد وأن المضمرة نصب على تقدير البدل من غير، كأنه قال: أبعبادة غير الله تأمروني، إلا أن الجار حذف، كما حذف من قوله:

أمرتك الخير

وصار التقدير بعد الحذف: أغير الله تأمروني عبادته، فأضمر المفعول الثاني للأمر، والمفعول الأول علامة المتكلم، وأن أعبد بدل من غير، ومثل هذا في البدل قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: ما أنساني ذكره إلا الشيطان.

وأقول في بيانه وشرحه: إن تقديره كان في الأصل: أفبعبادة غير الله تأمرونني، ثم حذف المضاف الذي هو الباء، فوصل الفعل فنصبه فصار أفبعبادة غير الله تأمرونني، ثم حذف المضاف الذي هو عبادة، وأقيم المضاف إليه الذي هو غير مقامه، فصار أفغير الله تأمرونني، ثم جعل أعبد الذي تقديره: أن أعبده، وهو في معنى عبادته بدلًا من غير الله، وبياناً للمحذوف الذي هو عبادة في قوله: أفبعبادة غير الله، فصار مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ ومن قال إن قوله: ﴿أَعْبُدَ﴾ في موضع نصب على الحال، فلا وجه لقوله.

وأما على الوجه الأول: وهو أن يكون ﴿غيرَ اللهِ﴾ منصوباً بـ﴿أَعْبُدُ﴾ فإنه يكون ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراضاً بين العامل والمعمول.

رجعنا إلى كلام أبي علي: فأما ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فالقياس تأمرونني ويدغم فيصير ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ وجاز الإدغام وإسكان النون المدغمة، لأن قبلها حرف لين وهو الواو في تأمرونني ومن خفف فقال: ﴿تأمروني﴾ ينبغي أن يكون حذف النون الثانية المصاحبة لعلامة المنصوب المتكلم، لأنها قد حذفت في مواضع نحو:

يسوءُ الفاليات إذا فليني[1]

وإنِّي وكأنِّي وقدي وقدْنِي، وإنما قدرنا حذف الثانية لأن التكرير والتثقيل به وقع، ولأن حذف الأولى لحن لأنها دلالة الرفع، وعلى هذا يحمل قول الشاعر:

أبالموت الذي لا بد أني ملاق - لا أباك - تخوفيني

وفتح الياء من ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ وإسكانها جميعاً سائغ حسن.

---

(١) هذا عجز بيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب، يصف فيها الشيب وقبله: «تراه كالثغام يعل مسكاً» وهو مذكور في (جامع الشواهد) وقد مر في الكتاب أيضاً مراراً.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه عن حال الكفار، عقبه بذكر حال الأتقياء الأبرار، فقال: ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ معاصيه خوفاً من عقابه ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: منجاتهم من النار، وأصل المفازة المنجاة، وبذلك سميت المفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها، كما سموا: اللديغ[1] سليماً ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ﴾ أي: لا يصيبهم المكروه والشدة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من لذات الدنيا، ولما ذكر الوعد والوعيد بين سبحانه أنه القادر على كل شيء بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: محدث كل شيء ومبدعه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ مدبر ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ ـ واحدها مِقْلد ومقلاد ـ يريد: مفاتيح السموات والأرض بالرزق والرحمة ـ عن ابن عباس وقتادة. وقيل: خزائن السموات والأرض، يفتح الرزق على من يشاء، ويغلقه عمن يشاء، عن الضحاك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم يخسرون الجنة ونعيمها، ويصْلون النار وسعيرها. ثم أعلم سبحانه أنه المعبود لا معبود سواه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ أي: أتأمرونني أن أعبد غير الله ﴿أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ﴾ فيما تأمرونني به، إذ تأمرون بعبادة من لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر. ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا أدب عن الله تعالى لنبيه ﷺ، وتهديد لغيره، لأن الله تعالى قد عصمه من أهل الشرك ومداهنة الكفار[2]، وليس في هذا ما يدل على صحة القول بالإحباط على ما يذهب إليه أهل الوعيد، لأن المعنى فيه: أن من أشرك في عبادة الله غيره من الأصنام وغيرها، وقعت عبادته على وجه لا يستحق عليها الثواب به، ولذلك وصفها بأنها محبطة، إذ لو كانت العبادة خالصة لوجه الله تعالى لاستحق عليها الثواب. ثم أمر سبحانه بالتوحيد، فقال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي: وجه عبادتك إليه تعالى وحده دون الأصنام ﴿وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يشكرون الله على نعمه، ويخلصون العبادة له. قال الزجاج: ﴿اللَّهَ﴾ منصوب بقوله: ﴿فَاعْبُدْ﴾ في قول البصريين والكوفيين، والفاء جاءت على معنى المجازاة والمعنى: قد تبينت فاعبد الله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَالسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ

---

(١) اللديغ: الذي لسعته الحية أو العقرب.

(٢) وقد ورد في روايات كثيرة عن أهل بيت العصمة، صلوات الله عليهم أجمعين، أن القرآن نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة. وفي حديث ابن أبي عمير، عمن حدثه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما عاتب الله نبيه فهو يعني به كان فهذه الآية وأمثالها من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» خوطب به النبي ﷺ، لكن المراد به الأمة.

قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه محذوف، وتقديره: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته، فإذا ظرف زمان، والعامل فيه قبضته، وكان ها هنا تامة، إذ لو كانت ناقصة لكان جميعاً خبرها، ولم يجز أن يكون حالًا، وهذا كما قالوا في: أخطب ما يكون الأمير قائماً: إنّ التقدير: إذا كان قائماً، أو إذ كان قائماً، وهذا بسراً أطيب منه تمراً، إن التقدير: هذا إذا كان بسراً أطيب منه إذا كان تمراً، ومثله قول الشاعر:

إذا المرء أعيته المروة ناشئاً فمطلبها كهلًا عليه شديد[1]

أي: إذا كان كهلًا، والمعنى: والأرض في حال اجتماعها قبضته. قال الإمام النحوي البصير: قال أبو علي في الحجة: إن التقدير: والأرض ذات قبضة إذا كانت مجتمعة، وقال في الحلبيات: التقدير: والأرض مقبوضة إذا كانت مجتمعة، وقال: فعلى التقدير الذي في الحجة، لا يتأتى إعمال قبضته في إذا، لأنه قدره: ذات قبضته، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف. وعلى التقدير في الحلبيات: يتأتى إعمال قبضته في إذا، لأنه بمعنى مفعول.

وأقول: إن المضاف إليه إذا أقيم مقام المضاف بعد أن حذف المضاف، جاز أن يعمل عمل المضاف، كما أعرب بإعرابه، فارتفع بعد أن كان مجروراً في الأصل، فلما جاز أن يعمل المضاف فيما قبله، جاز لما قام مقامه أن يعمل فيما قبله كما اكتسى إعرابه، وكيف يجوز أن يستتم ما ذكره هذا الجامع للعلوم، على مثل أبي علي، مع أنه يشق الشعر في هذا الفن؟

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن أحوالهم فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظموا الله حق عظمته، إذ عبدوا غيره، وأمروا نبيه بعبادة غيره، عن الحسن والسدي. قال المبرد: وأصله من قولك: فلان عظيم القدر، يريد بذلك جلالته، والقدر: اختصاص الشيء بعظم أو صغر أو مساواة. وقيل معناه: وما وصفوا الله حق وصفه، إذ جحدوا البعث، فوصفوه بأنه خلق الخلق عبثاً، وأنه عاجز عن الإعادة والبعث ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والقبضة في اللغة: ما قبضت عليه بجميع كفّك، أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فذكر أن الأرض كلها مع عظمها، في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، فيكون في قبضته، وهذا تفهيم لنا على عادة التخاطب فيما بيننا، لأنا نقول: هذا في قبضة فلان، وفي يد فلان، إذا هان عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: يطويها بقدرته، كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه، وذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار والتحقيق للملك، كما قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: ما كان تحت قدرتكم، إذ ليس

---

(١) الشعر في (جامع الشواهد).

الملك يختص باليمين دون الشمال وسائر الجسد. وقيل معناه: أنه محفوظات مصونات بقوته، واليمين: القوة، كما في قول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد تلقَّاها عرابة باليمين(١)

ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عما يضيفونه إليه من الشبيه والمثل.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل، ووجه الحكمة في ذلك، أنها علامة جعلها الله ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف، ثم تجديد الخلق، فشبه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول، ولا تتصوره النفوس بأحسن من هذه الطريقة. وقيل: إن الصور جمع صورة، فكأنه نفخ في صورة الخلق، عن قتادة. وروي عنه أنه قرأ في «الصُّور» بفتح الواو ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يموت من شدة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السموات والأرض. يقال: صَعِق فلان، إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختلف في المستثنى. فقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، عن السدي. وهو المروي عن حديث مرفوع. وقيل: هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، عن سعيد بن جبير وعطاء. عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية: من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، متقلدون أسيافهم حول العرش ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ يعني نفخة البعث، وهي النفخة الثانية. وقال قتادة في حديث رفعه: إن ما بين النفختين أربعين سنة. وقيل: إن الله تعالى يفني الأجسام كلها بعد الصعق وموت الخلق ثم يعيدها. وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ إخبار عن سرعة إيجادهم، لأنه سبحانه إذا نَفخ النفخة الثانية أعادهم عقيب ذلك، فيقومون من قبورهم أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامة، لأن نور الأرض بالعدل، كما أن نور العلم بالعمل، عن الحسن والسدي. وقيل: بنور يخلقه الله عز وجل، يضيء به أرض القيامة من غير شمس ولا قمر ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة على بني آدم، توضع في أيديهم ليقرؤوا منها أعمالهم، والكتاب اسم جنس، فيؤدي معنى الجمع، أي: يوضع كتاب كل إنسان في يمينه أو شماله ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: يؤتى بهم، والشهداء هم الذين يشهدون للأنبياء على الأمم بأنهم قد بلغوا، وأن الأمم قد كذبوا، عن ابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، عن السدي. وقيل: هم عدول الآخرة، يشهدون على الأمم بما شاهدوا، عن الجبائي وأبي مسلم، وهذا كما جرت العادة، بأن القضاء يكون بمشهد الشهداء والعدول. وقيل: هم الحفظة من الملائكة، ويدل عليه قوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ وقيل: هم جميع الشهداء من الجوارح

---

(١) قائله شماخ ونسبه الجوهري إلى الحطيئة وعرابة: اسم رجل من الأنصار وقد مر البيت أيضاً.

والمكان والزمان ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: يفصل بينهم بمر الحق، لا ينقص أحد منهم شيئاً مما يستحقه من الثواب، ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: يعطي كل نفس عاملة بالطاعات، جزاء ما عملته على الوفاء والكمال دون النقصان ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: والله سبحانه أعلم من كل أحد بما يفعلونه من طاعة أو معصية، ولم يأمر الملائكة بكتابة الأعمال لحاجة إلى ذلك، بل لزيادة تأكيد، وليعلموا أنه يجازيهم بحسب ما عملوا.

النظم: اتصل قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظموه حق عظمته، إذ عبدوا معه غيره مع اقتداره على السموات والأرض.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٥)﴾.

● **القراءة**: قرأ أهل الكوفة: ﴿فُتِحَتْ﴾، ﴿فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما، والباقون: بالتشديد.

● **الحجة**: حجة التشديد قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وأنَّ التشديد يختص بالكثرة، ووجه التخفيف أن التخفيف يصلح للقليل والكثير.

● **اللغة**: السوق: الحث على السير، ومنه قولهم: الكلام يجري على سياقة واحدة، ومنه: السوق، لأن المعاملة تساق فيها بالبيع والشراء. والزمر: جمع زمرة، وهي الجماعة لها صوت كصوت المزمار، ومنه مزامير داود، وهي أصوات كانت له مستحسنة، قال:

له زجلٌ كأنه صوتُ حادٍ إذا طلب الوسيقة أو زميرُ(١)

وقال أبو عبيدة: هم جماعات في تفرقة، بعضهم في أثر بعض. وحف القوم بفلان: إذا

(١) الزجل: رفع الصوت والطرب. والحادي: الذي يحدو للإبل والوسيقة من الإبل كالرفقة من الناس، فإذا سوقت طردت معاً من الوسق وهو الطرد.

أطافوا به وأحدقوا به، والحفافان: الجانبان، قال المبرد: الواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ زائدة، وكان ينكر قول من يقول: هي واو الثمانية، وأنشد لامرىء القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى ... بنا بطن خبت ذي حِقافٍ عقنقل(١)

قال: والمعنى: فلما أجزنا ساحة الحي انتحى بنا. قال علي بن عيسى: إنما جيء بهذه الواو تارة، وحذفت أخرى للتصرف في الكلام. وجواب إذا في صفة أهل الجنة محذوف، وتقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وكانوا كيت وكيت فازوا ونالوا المنى، وما أشبه ذلك، وهذا معنى قول الخليل، لأنه قال في بيت امرىء القيس: الجواب محذوف، والتقدير: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا خلونا ونعمنا، ومثله قول بعض الهذليين:

حتى إذا سلكوهم في قتائدةٍ ... شَلاً كما تَطردُ الجمَّالةُ الشُّردا(٢)

فحذف جواب إذا، لأن هذا البيت آخر القصيدة، وتحقيقه أن التقدير: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها، فالواو: واو حال، وجواب إذا مضمر، كما أضمر في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ والتقدير: قاربوا الهلاك ثم تاب عليهم.

● **المعنى**: ثم أخبر سبحانه عن قسمة أحوال الخلائق في المحشر، بعد فصل القضاء، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: يساقون سوقاً في عنف ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي: فوجاً بعد فوج، وزمرة بعد زمرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: حتى إذا انتهوا إلى جهنم، فتحت أبواب جهنم عند مجيئهم إليها، وهي سبعة أبواب ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ الموكلون بها على وجه التهجين لفعلهم، والإنكار عليهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من أمثالكم من البشر ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ يقرؤون عليكم حجج ربكم، وما يدلكم على معرفته، ووجوب عبادته ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال الكفار لهم ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا، وخوفونا بآيات الله ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وجب العقاب على من كفر بالله تعالى، لأنه أخبر بذلك وعلم من يكفر ويوافي بكفره، فقطع على عقابه، فلم يكن شيء يقع منه خلاف ما علمه، وأخبر به فصار كوننا في جهنم، موافقاً لما أخبر به تعالى ولما علمه ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: فيقول عند ذلك خزنة جهنم، وهم الملائكة الموكلون ادخلوا أبواب جهنم مؤبدين لا آخر لعقابكم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس موضع إقامة المتكبرين عن الحق وقبوله، جهنم.

---

(١) البيت من المعلقات. والانتحاء: بمعنى القصد، أو بمعنى الإعتماد على الشيء، أو بمعنى الإعتراض. والكل محتمل في المقام. والخبت: الأرض المطمئنة وذي حقاف أي: ذات رمل. والعقنقل: الرمل المنعقد المتلبد. وفي أن جواب لما قوله (انتحى) أو هو محذوف تقديره: فلما أجزنا وانتحى بنا بطن خبت أمنا، أو طابت حالنا، ورق عيشنا، أو نحو ذلك خلاف ما ذكره الزوزني في (شرح المعلقات) وهنا قول ثالث وهو: إن جواب لما «هصرت» في بيت بعده على روية المشهور ذكره في هاشم (المعلقات العشر: ٦٧) فراجع.

(٢) مضى البيت في ما سبق.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي: يساقون مكرمين، زمرة بعد زمرة، كقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ وإنما ذكر السوق على وجه المقابلة لسوق الكافرين إلى جهنم، كلفظ البشارة في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإنما البشارة هي الخبر السار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم، وأبواب الجنة ثمانية. وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة ثمانية أبواب، منها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون. رواه البخاري ومسلم في الصحيحين. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ عند استقبالهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلامة من الله عليكم، يحيونهم بالسلامة ليزدادوا بذلك سروراً. وقيل: هو دعاء لهم بالسلامة والخلود، أي: سلمتم من الآفات ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طبتم بالعمل الصالح في الدنيا، وطابت أعمالكم الصالحة، وزكت. وقيل معناه: طابت أنفسكم بدخول الجنة. وقيل: إنهم طيبوا قبل دخول الجنة بالمغفرة واقتص لبعضهم من بعض، فلما هذبوا وطيبوا قال لهم الخزنة: طبتم، عن قتادة. وقيل: طبتم، أي: طاب لكم المقام، عن ابن عباس. وقيل: إنهم إذا قربوا من الجنة يردون على عين من الماء، فيغتسلون بها ويشربون منها، فيطهر الله أجوافهم، فلا يكون بعد ذلك منهم حدث وأذى، ولا تتغير ألوانهم، فتقول الملائكة ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: فادخلوا الجنة خالدين مخلدين مؤبدين ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: ويقول أهل الجنة إذا دخلوها اعترافاً بنعم الله تعالى عليهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ الذي وعدناه على ألسنة الرسل ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة، لما صارت الجنة عاقبة أمرهم عبر عن ذلك بلفظ الميراث، والإيراث. وقيل: لأنهم ورثوها عن أهل النار ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نتخذ من الجنة مُبوّأ ومأوى ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة قصورهم ومنازلهم وسعة نعمتهم ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: فنعم ثواب المحسنين الجنة والنعيم فيها.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ معناه: ومن عجائب أمور الآخرة أنك ترى الملائكة محدقين بالعرش، عن قتادة والسدي. يطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهون الله تعالى عما لا يليق به، ويذكرونه بصفاته التي هو عليها. وقيل: يحمدون الله تعالى حيث دخل الموحدون الجنة. وقيل: إن تسبيحهم في ذلك الوقت على سبيل التلذذ والتنعم، لا على وجه التعبد، إذ لي هناك تكليف، وقد عظم الله سبحانه أمر القضاء في الآخرة، بنصب العرش وقيام الملائكة حوله معظمين له سبحانه ومسبحين، كما أن السلطان إذا أراد الجلوس للمظالم، وقعد على سريره، وأقام جنده حوله تعظيماً لأمره، وإن استحال كونه عز وجل على العرش، إذ ليس بصفة الجواهر والأجسام، والجلوس على العرش من صفات الأجسام ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وفصل بين الخلائق بالعدل. وقيل: بين الأنبياء والأمم. وقيل: بين أهل الجنة والنار ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من كلام أهل الجنة، يقولون ذلك شكراً لله على نعمه التامة. وقيل: إنه من كلام الله تعالى، فقال في ابتداء الخلق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقال بعد إفناء الخلق ثم بعد بعثهم واستقرار أهل الجنة في الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فوجب الأخذ بأدبه في ابتداء كل أمر بالحمد، وختمه بالحمد.

سُورَةُ غَافِر

مكية. قال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقال الحسن: إلا قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ يعني بذلك: صلاة الفجر وصلاة المغرب، وقد ثبت أن فرض الصلاة نزل بالمدينة.

● **عدد آيها:** خمس وثمانون آية كوفي شامي، وأربع حجازي، آيتان بصري.

● **اختلافها:** تسع آيات: ﴿حمٓ﴾ كوفي ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ غير الكوفي ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ غير الشامي ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ شامي ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مكي كوفي، والمدني الأول ﴿والبصير﴾ شامي، والمدني الأخير ﴿يُسۡبَحُونَ﴾ كوفي شامي، والمدني الأخير ﴿كنتم تشركون﴾ كوفي شامي.

● **فضلها:** فضل الحواميم عموماً، وفضلها خصوصاً: أبو بريرة الأسلمي عن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم في صلاة الليل». أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: الحواميم ديباج القرآن، ابن عباس قال: لكل شيء لباب، ولباب القرآن الحواميم، ابن مسعود قال: إذا وقعتُ في آل حَم[1]، وقعت في روضات دَمِثاتٍ[2] أتأنّقُ فيهنَّ، أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأ سورة حم المؤمن، لم يبق روح نبي ولا صديق ولا مؤمن إلا صلوا عليه واستغفروا له. وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحواميم ريحان القرآن، فاحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها، وإن العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر، وإن الله ليرحم تاليها وقارئها، ويرحم جيرانه وأصدقاءه ومعارفه، وكل حميم أو قريب له، وإنه في القيامة يستغفر له العرش والكرسي وملائكة الله المقربون، وروى أبو الصباح عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ حم المؤمن في كل ثلاث، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وألزمه التقوى، وجعل الآخرة خيراً له من الدنيا.

● **تفسيرها:** لما ختم سبحانه سورة الزمر بذكر الملائكة، والجنة والنار، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ

---

(١) آل حَمَ: السور التي أولها حمَ، أو يُراد نفس حمَ: والظاهر أن المراد هنا هو الأول.

(٢) دمثات جمع دمثة: السهلة اللينة. وأتأنق فيهن: أي أعجب بهن، وأستلذ بقراءتهن، وأتتبع محاسنهن. قاله الجزري في (النهاية).

مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم إلا حماداً ويحيى عن أبي بكر: ﴿حمٓ﴾ بإمالة الألف، والباقون: بالفتح بغير إمالة، وهما لغتان فصيحتان.

● **اللغة:** من جعل ﴿حمٓ﴾ اسماً للسورة يؤيده قول شريح بن أوفى العجلي:

يُذَكِّرُني حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ ... فهلَّا تلا حَمَ قَبلَ التَّقَدُّمِ(١)

فجعله اسماً معرباً. وقول الكميت:

وجدنا لكم في آلِ حاميمَ آيةً ... تأوَّلَها مِنّا تقيٌّ ومُعْرِبُ(٢)

والعزيز: القادر الغالب الذي لا يغالب، المنيع بقدرته على غيره، ولا يقدر عليه غيره. والتوب: يجوز أن يكون جمع توبة، كدوْم ودوْمة، ويجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توباً. والطَّول: الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه، كما أن التفضل: النفع الذي فيه إفضال على صاحبه، ولو وقع النفع على خلاف هذا الوجه لم يكن تفضلاً.

● **الإعراب:** إذا قدرت: اتل ﴿حمٓ﴾، فموضعه نصب. وقيل: موضعه جر بالقسم، وقد يجوز أن يكون مرفوع الموضع على تقدير: هذا ﴿حمٓ﴾، وقد فتح الميم علي بن عيسى بن عمر، جعله إسماً للسورة فنصبه، ولم ينون لأنه على وزن هابيل، ويجوز أن يكون فتحه لالتقاء الساكنين، والقراء على تسكين الميم. وإذا كان من حروف التهجي فلا يدخلها الإعراب. و ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوف. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ جرٌّ بأنه صفة بعد صفة، ومعناه: أن من شأنه غفران الذنب، فيما مضى وفيما يستقبل، فلذلك كان صفة المعرفة، وكذلك، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ ولو جعلته بدلاً كانت المعرفة والنكرة سواء.

● **المعنى:** ﴿حمٓ﴾ قد مضى ذكر الأقوال فيه. وقيل: أقسم الله بحلمه وملكه، لا يعذب

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها شريح في وقعة الجمل، بعد قتله محمد بن طلحة بن عبيد الله المعروف بالسجاد، لكثرة صلاته، وجده في العبادة. وكان هواه مع علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكنه أطاع أباه طلحة. قيل: إن أباه أمره بالقتال، وكان كارهاً. فتقدم ونثل درعه بين رجليه، وقام عليها، وجعل كلما حمل عليه رجل، قال: ناشدتك بحاميم. فحمل عليه شريح وشد به فأنشده بحاميم أن لا يقتله، ولم يعتد شريح بذلك، وقتله. وقيل: قتله غيره وأول هذه القصيدة قوله:

ألا ليت شعري، هل أشنن غارة ... على ابن كدام، أو سويد بن أصرم

وقبل البيت المستشهد به قوله:

ضممت إليه بالسنان قميصه، ... فخر صريعاً لليدين، وللفم

على غير ذنب، غير أن ليس تابعاً ... علياً، ومن لا يتبع الحق يندم

(٢) كأنه أراد من الآية قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] وقوله: «تقي ومعرب» يعني الساكت عنه للتقية، والمفصح بالتفضيل.

من عاذَ به، وقال: «لا إلا الله» مخلصاً من قلبه، عن القرظي. وقيل: هو افتتاح أسمائه: حليم، حميد، حكيم، حي، حنان، ملك، مجيد، مبدىء، معيد، عن عطاء الخراساني. وقيل معناه: حم، أي: قضى ما هو كائن، عن الكلبي ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ الذي يحق له العبادة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الكثير العلوم ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لمن يقول: لا إله إلا الله، وهم أولياؤه وأهل طاعته، والذنب: اسم جنس، فالمعنى: غافر الذنوب، فيما مضى وفيما يستقبل ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يقبل توبة من تاب إليه من المعاصي، بأن يثيب عليها، ويسقط عقاب معاص تقدمتها على وجه التفضل منه، لذلك كان صفة مدح، ولو كان سقوط العقاب عندها واجباً لما كان فيه مدح. قال الفراء: معناهما ذي الغفران، وذي قبول التوبة، ولذلك صار نعتاً للمعرفة ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: شديد عقابه، وذكر ذلك عقيب قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لئلا يعول المكلف على الغفران، بل يكون بين الرجاء والخوف ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أي: ذي النعم على عباده، عن ابن عباس. وقيل: ذي الغنى والسعة، عن مجاهد. وقيل: ذي التفضل على المؤمنين، عن الحسن وقتادة. وقيل: ذي القدرة والسعة، عن ابن زيد والسدي. وروي عن ابن عباس أنه قال: غافر الذنب لمن قال: «لا إله إلا الله»، قابل التوب عمن قال: «لا إله إلا الله»، شديد العقاب لمن لم يقل: «إله إلا الله»، ذي الطول ذي الغنى عمن لم يقل: «لا إله إلا الله». وقيل: إنه إنما ذكر ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ عقيب قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ليعلم أن العاصي أُتي في هلاكه من قبل نفسه لا من قبل ربه، وإلا فنعمه سابغة عليه دنياً وديناً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: هو الموصوف بهذه الصفات دون غيره، ولا يستحق العبادة سواه ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع للجزاء، والمعنى أن الأمور تؤول إلى حيث لا يملك أحد النفع والضر، والأمر والنهي غيره تعالى، وهو يوم القيامة.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا يخاصم في دفع حجج الله، وإنكارها وجحدها، إلا الذين كفروا بالله وآياته وجحدوا نعمه ودلالاته ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ يا محمد ﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: تصرفهم في البلاد للتجارات سالمين أصحاء بعد كفرهم، فإن الله تعالى لا يخفى عليهم حالهم، وإنما يمهلهم لأنهم في سلطانه، ولا يفوتونه ولا يهملهم، وفي هذا غاية التهديد. ثم بين أن عاقبتهم الهلاك كعاقبة من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ يعني رسولهم نوحاً ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ وهم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب، نحو عاد وثمود ومن بعدهم ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ﴾ منهم ﴿بِرَسُولِهِمۡ﴾ أي: قصدوه ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي: ليقتلوه ويهلكوه، عن ابن عباس. وإنما قال: ﴿بِرَسُولِهِمۡ﴾ ولم يقل: برسولها لأن المراد الرجال ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: خاصموا رسلهم بأن قالوا ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ وهلا أرسل الله إلينا ملائكة، وبأمثال هذا من القول ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ الذي بينه الله تعالى، وجاءت به رسله، أي: ليبطلوه ويزيلوه، يقال: أدحش الله حجته، أي: أزالها ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالعقاب، أي: أهلكتهم، ودمرت عليهم، وعاقبتهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فانظر كيف كان عقابي لهم، وهذا استفهام تقرير لعقوبتهم الواقعة بهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ
وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ
فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وابن عامر: ﴿**كلمات ربك**﴾ على الجمع، والباقون: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ على التوحيد.

● **الحجة:** قال أبو علي: ﴿كَلِمَتُ﴾ تقع مفردة على الكثرة. فإذا كان كذلك استغنى فيها عن الجمع، كما تقول: يعجبني قيامكم وقعودكم، قال سبحانه: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فأفرد الصوت مع الإضافة إلى الكثرة، فكذلك الكلمة. وقد قالوا: قال قس في كلمته، يعنون خطبته. ومن جمع فلأن هذه الأشياء وإن كانت تدل على الكثرة قد تجمع إذا اختلف أجناسها.

● **الإعراب:** ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: أنهم، أو لأنهم، ويجوز أن يكون رفعاً على البدل من ﴿كَلِمَتُ﴾. ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ و ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ في موضع نصب، عطفاً على الهاء والميم في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أي: وأدخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم الجنة أيضاً، ويجوز أن يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: وعدت من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ لا يجوز أن يكون ﴿إِذْ﴾ ظرفاً لـ ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ لأن المصدر لا يجوز أن يحال بينه وبين معموله بالأجنبي، ولا يجوز أن يكون ظرفاً للمقت الثاني في قوله: ﴿مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ لأن الدعاء إلى الإيمان كان في الدنيا، ومقتهم أنفسهم يكون في الآخرة، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لـ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ لأن ﴿تُدْعَوْنَ﴾ في موضع جرّ بالإضافة، والمضاف إليه لا يجوز أن يعمل في المضاف، فالوجه أن يتعلق الظرف بفعل مضمر دلت عليه الجملة، تقديره: مقتم إذ تدعون، أو يتعلق بالمقت الثاني على تقدير تسمية الشيء بما يؤول إليه.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما حق على الأمم المكذبة من العقاب ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من قومك، أي: أصرُّوا على كفرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي لأنهم أو بأنهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ عن الأخفش. ثم أخبر سبحانه عن حال المؤمنين،

وأنه تستغفر لهم الملائكة، مع عظم منزلتهم عند الله تعالى، فحالهم بخلاف أحوال من تقدم ذكرهم من الكفار، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ عبادة لله وامتثالاً لأمره ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ يعني الملائكة المطيفين بالعرش، وهم الكروبيون وسادة الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ينزهون ربهم عما يصفه به هؤلاء المجادلون. وقيل: يسبحونه بالتسبيح المعهود ويحمدونه على إنعامه ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: ويصدقون به ويعترفون بوحدانيته ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي: ويسألون الله المغفرة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أهل الأرض، أي: صدقوا بوحدانية الله، واعترفوا بإلٰهيته، وبما يجب الاعتراف به، يقولون في دعائهم لهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، والمراد بالعلم المعلوم، كما في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أي: بشيء من معلومه على التفصيل، فجعل العلم في موضع المعلوم، والمعنى: أنه لا اختصاص لمعلوماتك، بل أنت عالم لكل معلوم، ولا تختص رحمتك حياً دون حي، بل شملت جميع الحيوانات، وفي هذا تعليم الدعاء، ليبدأ بالثناء عليه قبل السؤال ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ الذي دعوت إليه عبادك، وهو دين الإسلام ﴿وَقِهِمۡ﴾ أي: وادفع عنهم ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وفي هذه الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى، إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم، بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ مع قبول توبتهم، ووقايتهم النار ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ على ألسن أنبيائك ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ ليكمل أنسهم، ويتم سرورهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادر على من يشاء ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعالك. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: وقهم عذاب السيئات، ويجوز أن يكون العذاب هو السيئات، وسماه السيئات اتساعاً، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أي: ومن تصرف عنه شر معاصيه، فتفضلت عليه يوم القيامة بإسقاط عذابها فقد أنعمت عليه ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالبغية والفلاح العظيم. ثم عاد الكلام إلى من تقدم ذكرهم من الكفار، فقال عز اسمه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ﴾ أي: يناديهم الملائكة يوم القيامة ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ والمقت أشد العداوة والبغض، والمعنى: أنهم لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، مقتوا أنفسهم لسوء صنيعهم، فنودوا لمقت الله إياكم في الدنيا، إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، عن مجاهد وقتادة والسدي. وقيل: إنهم لما تركوا الإيمان، وصاروا إلى الكفر، فقد مقتوا أنفسهم أعظم المقت، وهذا كما يقول أحدنا لصاحبه: إذا كنت لا تبالي بنفسك، فمبالاتي بك أقل، وليس يريد أنه لا يبالي بنفسه، بل يريد أنه يفعل فعل من هو كذلك، عن البلخي.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ

تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ
ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ روح وزيد عن يعقوب: ﴿لتنذر﴾ بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** التاء على وجه الخطاب للنبي ﷺ، وقرأ القراء بالياء على أن الضمير يعود إلى ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

● **الإعراب:** ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ انتصب ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لمدلول قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لمن ثبت الملك في هذا اليوم، ويجوز أن يتعلق بنفس ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ وقال قوم: إن الوقف على ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ حسن، ويبتدئ: ﴿ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: في هذا اليوم.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن الكفار الذين تقدم وصفهم بعد حصولهم في النار بأنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن الإماتة الأولى في الدنيا بعد الحياة، والثانية في القبر قبل البعث، والإحياء الآتي في القبر للمساءلة، والثانية في الحشر، عن السدي، وهو اختيار البلخي.

وثانيها: أن الإماتة الأولى حال كونهم نطفاً، فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة الثانية، ثم أحياهم للبعث، فهاتان حياتان وموتتان، ونظيره قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ الآية، عن ابن عباس وقتادة والضحاك، واختاره أبو مسلم.

وثالثها: أن الحياة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، ولم يرد الحياة يوم القيامة، والموتة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، عن الجبائي ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ التي اقترفناها في الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ هذا تلطف منهم في الاستدعاء، أي: هل بعد الاعتراف سبيل إلى الخروج. وقيل: إنهم سألوا الرجوع إلى الدنيا، أي: هل من خروج من النار إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ ولو علم الله سبحانه أنهم يفلحون لردهم إلى حال التكليف، ولذلك قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ تنبيهاً على أنهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنوه، وفي الكلام حذف، تقديره: فأجيبوا: بأنه لا سبيل لكم إلى الخروج ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم العذاب الذي حل بكم ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا قيل: «لا إله إلا الله»، قلتم: أجعل الآلهة إلهاً واحداً وجحدتم ذلك؟ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: وإن يشرك به معبود آخر من الأصنام والأوثان تصدقوا ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ في ذلك، والفصل بين الحق والباطل ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ القادر على كل شيء، ليس فوقه من هو أقدر منه، أو من يساويه في مقدوره، ونقلت هذه اللفظة من علو المكان إلى علو الشأن، ولذلك جاز وصفه

سبحانه بذلك، يقال: استعلى فلان عليه بالقوة وبالحجة، وليس كذلك الرفعة، ولذلك لا يوصف مكانه بأنه رفيع، كما وصف بأنه: عليٌّ ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العظيم في صفاته التي لا يشاركه فيها غيره. وقيل: هو السيد الجليل، عن الجبائي.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته وتوحيده، من السماء والأرض والشمس والقمر ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ من الغيث والمطر الذي ينبت ما هو رزق للخلق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: وما يتعظ بهذه الآيات وليس يتفكر في حقيقتها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إليه. وقيل: إلا من يُقبل إلى طاعة الله، عن السدي. ثم أمر المؤمنين بتوحيده، فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: وجّهوا عبادتكم إليه تعالى وحده ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فلا تبالوا بهم. ثم وصف سبحانه نفسه، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ الرفيع بمعنى الرافع، أي: هو رافع درجات الأنبياء والأولياء إلى الجنة، عن عطاء عن ابن عباس. وقيل معناه: رافع السموات السبع، عن سعيد بن جبير. وقيل معناه: أنه عالي الصفات ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مالك العرش وخالقه وربه. وقيل: ذو الملك، والعرش: الملك، عن أبي مسلم ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقيل: الروح هو القرآن، وكل كتاب أنزله الله تعالى على نبي من أنبيائه. وقيل: الروح: الوحي هنا، لأنه يحيي به القلب، أي يلقي الوحي على قلب من يشاء ممن يراه أهلاً له، يقال: ألقيت عليه كذا، أي فهمته إياه. وقيل: إن الروح جبرائيل عليه السلام، يرسله الله تعالى بأمره، عن الضحاك وقتادة. وقيل: إن الروح ها هنا النبوة، عن السدي ﴿لِيُنذِرَ﴾ النبي بما أوحى إليه ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء وأهل الأرض، عن قتادة والسدي وابن زيد. وقيل: فيه يلتقي الأولون والآخرون، والخصم والمخصوم، والظالم والمظلوم، عن الجبائي. وقيل: يلتقي الخلق والخالق، عن ابن عباس. يعني أنه يحكم بينهم. وقيل: يلتقي المرء وعمله والكل مراد والله أعلم ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ من قبورهم. وقيل: يبرز بعضهم لبعض فلا يخفى على أحد حال غيره، لأنه ينكشف ما يكون مستوراً ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ أي: من أعمالهم وأحوالهم، ويقول الله في ذلك اليوم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقرُّ المؤمنون والكافرون بأنه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وقيل: إنه سبحانه هو القائل لذلك، وهو المجيب لنفسه، ويكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين. قال محمد بن كعب القرظي: يقول الله تعالى ذلك بين النفختين، حين يُفني الخلائق كلها، ثم يجيب نفسه لأنه بقي وحده، والأول أصح، لأنه بين أنه يقول ذلك يوم التلاق، يوم يبرز العباد من قبورهم، وإنما خص ذلك اليوم بأن له الملك فيه، لأنه قد ملك العباد بعض الأمور في الدنيا، ولا يملك أحد شيئاً ذلك اليوم.

فإن قيل: أليس يملك الأنبياء والمؤمنون في الآخرة الملك العظيم؟.

فالجواب: أن أحداً لا يستحق إطلاق الصفة بالملك إلا الله، لأنه يملك جميع الأمور من غير تمليك مملك.

وقيل: إن المراد به يوم القيامة، قبل تمليك أهل الجنة ما يملكهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وفي الحديث: إن الله تعالى يقول: أنا

الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وعنده مظلمة حتى أقِصه منه، ثم تلا هذه الآية. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا ظلم لأحد على أحد، ولا ينقص من ثواب أحد، ولا يزاد في عقاب أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره.

● **النظم:** اتصل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ بما تقدم من ذكر إنكار الكفار البعث، فعقبه سبحانه بذكر اعترافهم بذلك يوم القيامة، وأيضاً فإنه سبحانه لما ذكر مقتهم أنفسهم، لعظم ما نزل بهم، ذكر بعده سؤالهم الرجعة إلى الدنيا. وإنما اتصل قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بما تقدم من إقرارهم بصفة الرب سبحانه، فكأنهم قالوا: اعترفنا بك ربنا، فإنك أمتنا وأحييتنا، ومع هذا فقد اعترفنا بذنوبنا. واتصل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي: ومن هذه صفاته يريكم آياته. واتصل قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: وهو الرفيع الدرجات. وقيل إنه لما ذكر حال الفريقين ذكر الدرجات.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وهشام عن ابن عامر: ﴿والذين تدعون﴾ بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** من قرأ بالتاء فعلى الخطاب، والتقدير: قل لهم يا محمد، ومن قرأ بالياء جعل الإخبار عن الغائب.

● **اللغة:** الآزفة: الدانية، من قولهم: أزِف الأمر إذا دنا وقته، قال النابغة:

أزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنَّ رِكابَنا ... لَمّا تَزَل بِرِحالِنا وكأنْ قَدِ[1]

والحناجر: جمع حنجرة، وهي الحلقوم. والكاظم: الممسك على ما في قلبه، يقال: كظم غيظه: إذا تجرعه، وأصل الكظم للبعير على جرته يردها في حلقه.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ منصوب على الحال، والحال محمولة على المعنى، لأن القلوب لا يقال لها: كاظمون، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب، والمعنى: إذ

---

(١) هذا البيت من قصيدة يصف فيها المتجردة امرأة النعمان في قضية ذكرها في مقدمة (المعلقات العشر: ٥٧) وقبل هذا البيت قوله:

لا مرحباً بغدٍ، ولا أهلاً له ... إنْ كان تفريقُ الأحبة في غدِ

يقول: قرب ارتحالنا غير «وكأنها قد زالت». وفي (شواهد الأشموني)، و(جامع الشواهد): «أفد» مكان «أزف»، وهو بمعناه أيضاً.

قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم، وهو حال من الضمير في ﴿لَدَى﴾ ومعناه: متوقفين عن كل شيء، إلا عما دُفعت إليه من فكرها فيه، ونسبة الكظم إلى القلب، كنسبة الكتابة إلى الأيدي في قوله: ﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وإنما ذلك للجملة. ﴿يُطَاعُ﴾ جملة في موضع جر، بكونها صفة ﴿شَفِيعٍ﴾ أي: ولا من شفيع يطاع.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخوف المكلفين يوم القيامة، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: الدانية، وهو يوم القيامة، لأن كل ما هو آت دان قريب. وقيل: يوم دنو المجازاة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف، حتى تصير إلى الحنجرة، ومثله قوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾. ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: مغمومين مكروبين ممتلئين غمًا قد أطبقوا أفواههم على قلوبهم من شدة الخوف ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يريد ما للمشركين والمنافقين من قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيهم فتقبل شفاعته، عن ابن عباس ومقاتل، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: خيانتها، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، عن مجاهد وقتادة. والخائنة مصدر مثل الخيانة، كما أن الكاذبة واللاغية بمعنى الكذبة واللغو. وقيل إن تقديره: يعلم الأعين الخائنة، عن مؤرج. وقيل: هو الرمز بالعين، عن السدي. وقيل: هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى، ورأيت وما رأى، عن الضحاك ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ويعلم ما تضمره الصدور. وفي الخبر: أن النظرة الأولى لك والثانية عليك، فعلى هذا تكون الثانية محرمة، فهي المراد بخائنة الأعين ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يفصل بين الخلائق بالحق، فيوصل كل ذي حق إلى حقه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنها جماد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الذي يجب أن يسمع المسموعات ويبصر المبصرات إذا وجدتا، وهاتان الصفتان في الحقيقة ترجعان إلى كونه حياً لا آفة به. وقال قوم: معناهما: العالم بالمسموعات، والعالم بالمبصرات، والأول هو الصحيح.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: ﴿أشد منكم﴾ بالكاف والميم، والباقون: ﴿مِنْهُمْ﴾ بالهاء والميم.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ فأتى بلفظ الغيبة، فلأن ما قبله ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾، ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ومن قال: ﴿منكم﴾ فلانصرافه من الغيبة إلى الخطاب كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

● **المعنى:** ثم نبههم سبحانه على النظر بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين من الأمم لرسلهم، ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في أنفسهم ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وأكثر عمارة للأبنية العجيبة. وقيل: وأبعد ذهاباً في الأرض لطلب الدنيا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: دافع يدفع عنهم عذابه، ويمنع من نزوله بهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الباهرات، والدلالات الظاهرات ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بها ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أهلكهم عقوبة على كفرهم ﴿إِنَّهُ قَوِىٌّ﴾ قادر على الانتقام منهم ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: شديد عقابه. ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليعتبروا بها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بعثناه بحججنا ودلالاتنا ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة ظاهرة، نحو قلب العصا حية، وفلق البحر ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ كان موسى رسولًا إلى كافتهم، إلا أنه خص فرعون لأنه كان رئيسهم، وكان هامان وزيره، وقارون صاحب كنوزه، والباقون تبع لهم، وإنما عطف السلطان على الآيات لاختلاف اللفظين تأكيداً. وقيل: المراد بالآيات حجج التوحيد والعدل، وبالسلطان المعجزات الدالة على نبوته ﴿فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ﴾ أي: مموه ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يدعو إليه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: فلما أتاهم موسى بالتوحيد والدلالات عليه من عندنا. وقيل: المراد بالدين الحق ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: أمروا بقتل الذكور من قوم موسى، لئلا يكثر قومه ولا يتقوى بهم، وباستبقاء نسائهم للخدمة، وهذا القتل غير القتل الأول، لأنه أمر بالقتل الأول، لئلا ينشأ منهم من يزول ملكه على يده ثم ترك ذلك، فلما ظهر موسى عاد إلى تلك العادة، فمنعهم الله عنه بإرسال الدم والضفادع والطوفان والجراد، كما مضى ذكر ذلك. ثم أخبر سبحانه أن ما فعله من قتل الرجال، واستحياء النساء، لم ينفعه بقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق لا ينتفعون به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن

يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وأبو عمرو: ﴿وأن يظهر﴾ بغير ألف قبل الواو، و﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ بالنصب. وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿وأَنْ يَظْهرَ﴾ بفتح الياء ﴿الفساد﴾ بالرفع، وقرأ حفص ويعقوب: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ﴾ بضم الياء ﴿الفساد﴾ بالنصب، والباقون: ﴿أو أن يظهر﴾ بفتح الياء ﴿الفساد﴾ بالرفع. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع وأبو جعفر: ﴿عذت﴾ هنا وفي الدخان بإدغام الذال في التاء، وكذلك قوله: ﴿فنبذتها﴾ حيث كان، والباقون: بالإظهار حيث كان.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ﴾ فالمعنى: إني أخاف هذا الضرب منه، كما تقول: كلْ خبزاً أو تمراً، أي: هذا الضرب. ومن قرأ: ﴿وأَنْ يُظْهِرَ﴾ فالمعنى: إني أخاف هذين الأمرين منه، ومن قرأ: ﴿يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ فأسند الفعل إلى موسى، فلأنه أشبه بما تقدم من قوله: ﴿يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ ومن قرأ: ﴿وأن يَظهر﴾ فالمعنى: وأن يظهر الفساد في الأرض بمكانه، أو أراد: أنه إذا بدل الدين ظهر الفساد بالتبديل. فأما الإدغام في ﴿عُذۡتُ﴾ فحسن لتقارب الحرفين، والإظهار حسن لأن الذال ليست من حيز التاء، وإنما الذال والظاء والثاء من حيز، والدال والتاء والطاء من حيز، إلا أنها كلها من طرف اللسان وأصول الثنايا، فلذلك صارت متقاربة.

● **المعنى:** ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ أي: قال لقومه اتركوني أقتله، وفي هذا دلالة على أنه كان في خاصة فرعون قوم يشيرون عليه بألا يقتل موسى، ويخوفونه بأن يدعو ربه فيهلك، فلذلك قال: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: كما يقولون. وقيل: إنهم قالوا له: هو ساحر، فإن قتلته قبل ظهور الحجة، قويت الشبهة بمكانه، بل أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين، وقوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ معناه: وقولوا له: ليدع ربه وليستعن به في دفع القتل عنه، فإنه لا يجيء من دعائه شيء، قاله تجبراً وعتواً وجرأة على الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ إن لم أقتله، وهو ما تعتقدونه من إلهيتي ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ بأن يتبعه قوم ويحتاج إلى أن نقاتله، فيخرب فيما بين ذلك البلاد، ويظهر الفساد، وقيل: إن الفساد عند فرعون أن يعمل بطاعة الله، عن قتادة. فلما قال فرعون هذا، استعاذ موسى بربه، وقال قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: إني اعتصمت بربي الذي خلقني، وربكم الذي خلقكم، من شر كل متكبر على الله، متجبر عن الانقياد له، لا يصدق بيوم المجازاة، ليدفع شره عني، ولما قصد فرعون قتل موسى، وعظهم المؤمن من آله، وهو قوله:

﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ في صدره على وجه التقية قال أبو عبد الله عليه السلام: التقيَّة من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، والتقيَّة: ترس الله في الأرض،

لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل. قال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى، فقال: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. قال السدي ومقاتل: كان ابن عم فرعون، وكان آمن بموسى، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى. وقيل: إنه كان ولي عهده من بعده، وكان اسمه حبيب. وقيل: اسمه حزبيل ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهو استفهام إنكار، ولو قال: أتقتلون رجلًا قائلًا ربي الله؟ لم يدل على أن القتل من أجل الإيمان، لأن يقول يكون صفة لرجل، نحو: يقتلون رجلًا قائلًا ربي الله، فموضع ﴿أَن يَقُولَ﴾ نصب على أنه مفعول له ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بما يدل على صدقه من المعجزات، مثل العصا واليد وغيرهما ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ إنما قال هذا على وجه التلطف، كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه: إن يك كاذباً فعلى نفسه وبال كذبه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ قيل: إنَّ موسى كان يعدهم بالنجاة إن آمنوا، وبالهلاك إن كفروا، وقال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ لأنهم إذا كانوا على إحدى الحالين، نالهم أحد الأمرين، فذلك بعض الأمر لا كله. وقيل: إنما قال: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ لأنه توعدهم أموراً مختلفة، منها: الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فيكون هلاكهم في الدنيا بعض ما توعدهم به. وقيل: استعمل البعض في موضع الكل، تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام، كما قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل

وكأنه قال: أقل ما فيه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي ذلك البعض هلاككم. وقال علي بن عيسى: إنما قال: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ على المظاهرة بالحجاج، أي: إنه يكفي بعضه، فكيف جميعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لا يهدي إلى جنته وثوابه من هو مسرف على نفسه، متجاوز عن الحد في المعصية، كذاب على ربه، ويجوز أن يكون هذا حكاية عن قول المؤمن، ويجوز أن يكون ابتداء الكلام من الله تعالى.

ثم ذكرهم هذا المؤمن ما هم فيه من الملك، ليشكروا الله على ذلك بالإيمان به، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لكم السلطان على أهل الأرض، يعني أرض مصر اليوم ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عالين فيها، غالبين عليها، قاهرين لأهلها ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ أي: من يمنعنا من عذاب الله ﴿إِن جَآءَنَا﴾ ومعناه: لا تتعرضوا لعذاب الله، بقتل النبي وتكذيبه، فلا مانع لعذاب من عذاب الله إن حل بكم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عند ذلك ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم إلا بما أراه صواباً، وأرضاه لنفسي. وقيل معناه: ما أعلمكم إلا ما أعلم ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وما أرشدكم إلا إلى ما هو طريق الرشاد والصواب عندي، وهو قتل موسى والتكذيب به، واتخاذي إلهاً ورباً. ثم ذكرهم ما نزل بمن قبلهم، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: عذاباً مثل يوم الأحزاب. قال الجبائي: القائل لذلك موسى، لأن المؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه، وهذا لا يصح لأنه

قريب من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وأراد بالأحزاب الجماعات التي تحزبت على أنبيائها بالتكذيب، وقد يطلق اليوم على النعمة والمحنة، فكأنه قال: يوم هلاكهم.

• • •

قوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وابن ذكوان وقتيبة: ﴿**على كل قلبٍ**﴾ بالتنوين، والباقون: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ على الإضافة. وفي الشواذ قراءة ابن عباس والضحاك وأبي صالح والكلبي: ﴿**يوم التنادّ**﴾ بتشديد الدال.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نوَّن فإنه جعل المتكبر صفة لقلب، فإذا وصف القلب بالتكبر كان صاحبه في المعنى متكبراً، فكأنه أضاف التكبر إلى القلب، كما أضيف الصعر إلى الخد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ فكما يكون بتصعير الخد متكبراً، كذلك يكون بالتكبر في القلب متكبراً بجملة. وأما من أضافه فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ فلا يخلو من أن يقدر الكلام على ظاهره، أو يقدر فيه حذفاً، فإن تركته على ظاهره كان المعنى: يطبع الله على كل قلب متكبر، أي: يطبع على جملة القلب من المتكبر، وليس المراد أن يطبع على كل قلبه، فيعم الجميع بالطبع، إنما المعنى: أنه يطبع على القلوب إذا كانت، قلباً قلباً، والطبع علامة في جملة القلب، كالختم عليه، فإذا كان الحمل على الظاهر غير مستقيم، علمت أن الكلام ليس على ظاهره، وأنه حذف منه شيء، وذلك المحذوف إذا أظهرته: كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر، فيكون المعنى: يطبع على القلوب إذا كانت قلباً قلباً، من كل متكبر، ويختم عليه. ويؤكد ذلك أن في حرف ابن مسعود فيما زعموا ﴿**على قلب كل متكبر**﴾ وإظهار ﴿كُلِّ﴾ في حرفه يدل على أنه في حرف العامة أيضاً مراد، وحسن حذف كلّ لتقدم ذكره، كما جاز ذلك في قوله:

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرءاً ونارٍ توقَّدُ بالليلِ ناراً[1]

---

(١) هذا البيت لأبي داود الأيادي الذي ضرب بجاره كعب بن يمامة المثل في حسن الجوار. قال قيس بن زهيرة:

«سأفعل ما بدا لي ثم آوي إلى جار كجار أبي داود» =

وفي قولهم: ما كل سوداء تمرة، ولا بيضاء شحمة، فحذف كل لتقدم ذكرها فكذلك في الآية. وأما التنادّ بالتشديد، فإنه تفاعل من ندَّ يندُّ إذا نفر.

● **اللغة:** الجبار: الذي يقتل على الغضب، يقال: أجبر فهو جبار، مثل أدرك فهو درَّاك، قال الفراء: ولا ثالث لهما. وقال ابن خالويه: وجدت لهما ثالثاً، أسار فهو سئّار(1).

● **المعنى:** ثم فسر سبحانه ذلك، فقال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ الدأب: العادة، ومعناه: إني أخاف عليكم مثل سنة الله في قوم نوح وعاد وثمود، وحالهم حين أهلكهم الله﴾ واستأصلهم جزاء على كفرهم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ وفي هذا أوضح دلالة على فساد قول المجبرة، القائلة بأن كل ظلم يكون في العالم، فهو بإرادة الله تعالى، ثم حذرهم عذاب الآخرة أيضاً، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ حذف الياء للاجتزاء بالكسرة الدالة عليها، وهو يوم القيامة يُنادى فيه بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور. وقيل: إنه اليوم الذي ينادي فيه أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الآية. وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، عن الحسن وقتادة وابن زيد. وقيل: يُنادى فيه كل إناس بإمامهم. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: يوم تعرضون على النار فارين منها، مقدرين أن الفرار ينفعكم. وقيل: منصرفين إلى النار بعد الحساب، عن قتادة ومقاتل ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع من عذاب الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من يضلل الله عن طريق الجنة فما له من هاد يهديه إليها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ وهو يوسف بن يعقوب بعثه الله رسولاً إلى القبط ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج الواضحات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، عن ابن عباس. وقيل: مما دعاكم إليه من الدين ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: أقمتم على كفركم، وظننتم أن الله تعالى لا يجدد لكم إيجاب الحجة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه كافر، وأصل الإسراف مجاوزة الحد ﴿مُرْتَابٌ﴾ أي: شاك في التوحيد، ونبوة الأنبياء ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: في دفع آيات الله وإبطالها، وموضع ﴿الَّذِينَ﴾ نصب لأنه بدل من قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ويجوز أن يكون رفعاً بتقدير: هم ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: بغير حجة ﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: كبر ذلك الجدال منهم عداوة عند الله ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، والمعنى: مقته الله تعالى ولعنه وأعد له العذاب، ومقته المؤمنون

= وقال طرفة:

«إني كفاني من أمر هممت به ... جار كجار الحذاقي الذي اتصفا»

والحذاقي: هو أبو داود. يخاطب في هذا البيت امرأته ويقول: ما ينبغي لك أن تظني أنَّ كل من له صورة المرء امرءاً، وإنما الخليق باسم الرجل هو المتصف بالصفات النفيسة، والخصال الحميدة، ولا كل نار اشتعل في الليل ناراً، بل الخليق باسم النار التي تشتعل للإكرام، والضيافة، وهداية طريق الضالة.

(1) وهو الذي يسئر في الإناء من الشراب، يقال: أسأر منه شيئاً أي: أبقى بقية.

وأبغضوه بذلك الجدال، وأنتم جادلتم وخاصمتم في رد آيات الله مثلهم، فاستحققتم ذلك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما طبع على قلوب أولئك، بأن ختم عليها علامة لكفرهم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يفعل ذلك عقوبة له على كفره، والجبار: صفة للمتكبر، وهو الذي يأنف من قبول الحق. قيل: وهو القتال.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص: ﴿فأطلع﴾ بالنصب، والباقون: بالرفع. واختلافهم في ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وفي ﴿يدخلون الجنة﴾ قد تقدم ذكره[1].

● **الحجة:** من رفع ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ فعلى معنى: لعلي أبلغ ولعلي أطلع، ومثله قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ وليس بجواب. ومن نصب جعله جواباً بالفاء لكلام غير موجب، والمعنى: إني إذا بلغت واطلعت. ومما يقوي بناء الفعل للفاعل في ﴿صُدَّ﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكذلك ﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ينبغي أن يكون الفعل فيه مبنياً للفاعل. ومن ضم الصاد فلأن ما قبله مبني للمفعول به، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

● **اللغة:** الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد، وهو من التصريح بالأمر، وهو إظهاره بأتم الإظهار. والسبب: كل ما يتوصل به إلى شيء يبعد عنك، وجمعه الأسباب. والتباب: الخسار والهلاك بالانقطاع.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما موّه به فرعون على قومه، لما وعظه المؤمن وخوفه من قتل موسى، وانقطعت حجته بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وهو وزيره وصاحب أمره ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: قصراً مشيداً بالآجر. وقيل: مجلساً عالياً، عن الحسن ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم فسر تلك الأسباب فقال: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والمعنى: لعلي أبلغ الطرق من سماء إلى سماء، عن السدي. وقيل: أبلغ أبواب طرق السموات، عن قتادة. وقيل: منازل السموات، عن ابن

(١) راجع الجزء الخامس والجزء الثالث.

عباس. وقيل: لعلي أتسبب وأتوصل به إلى مرادي، وإلى علم ما غاب عني. ثم بين مراده فقال: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: فأنظر إليه، فأراد به التلبيس على الضعفة، مع علمه باستحالة ذلك، عن الحسن. وقيل: أراد فأصل إلى إله موسى فغلبه الجهل، واعتقد أن الله سبحانه في السماء، وأنه يقدر على بلوغ السماء ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ معناه: وإني لأظن موسى كاذباً في قوله إن له إلهاً غيري أرسله إلينا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما زين لهؤلاء الكفار سوء أعمالهم ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: قبيح عمله، وإنما زين له ذلك أصحابه وجلساؤه، وزين له الشيطان، كما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ومن ضم الصاد فالمعنى أنه صده غيره، ومن فتح فالمعنى أنه صد نفسه أو صد غيره ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: هلاك وخسار لا ينفعه.

ثم عاد الكلام إلى ذكر نصيحة مؤمن آل فرعون وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي طريق الهدى، وهو الإيمان بالله وتوحيده، والإقرار بموسى. وقيل: إن هذا القائل موسى أيضاً، عن الجبائي ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: انتفاع قليل ثم يزول وينقطع، ويبقى وزره وآثامه ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: دار الإقامة التي يستقر الخلائق فيها، فلا تغتروا بالدنيا الفانية، ولا تؤثروها على الدار الباقية ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: من عمل معصية فلا يجزى إلا مقدار ما يستحقه عليها من العقاب لا أكثر من ذلك ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بالله وأنبيائه، شرط الإيمان في قبول العمل الصالح ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: زيادة على ما يستحقونه تفضلًا من الله تعالى، ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحساب. وقيل معناه: لا تبعة عليهم فيما يعطون من الخير في الجنة، عن مقاتل. قال الحسن: هذا كلام مؤمن آل فرعون. ويحتمل أن يكون كلام الله تعالى إخباراً عن نفسه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة إلا أبا بكر ويعقوب: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ بقطع الهمزة وكسر الخاء، والباقون: بالوصل وضم الخاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: القول مراد في الوجهين جميعاً، كأنه قال: يقال: أدخلوهم، ويقال: أدخلوا، فمن قال: أدخِلوا كان ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعولاً به، و ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعولاً ثانياً. والتقدير: إرادته حرف الجر ثم حذف، كما أنك إذا قلت: دخل زيدٌ الدار، كان معناه: في الدار، كما أن خلافه الذي هو خرج كذلك في التقدير، وكذلك قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ ومن قال: ﴿أُدخُلوا آلَ فرعون﴾ كان انتصاب ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على النداء، و ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ في موضع مفعول به، وحذف الجار فانتصب انتصاب المفعول به. وحجة من قال: ﴿أُدخُلوا﴾ قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ و ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ و ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ وحجة من قال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ أنه أمر بهم فأدخلوا.

● **المعنى:** ثم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ﴾ أي مالكم؟ كما يقول الرجل: مالي أراك حزيناً؟ معناه: مالك؟ ومعناه: أخبروني عنكم، كيف هذه الحال ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من النار بالإيمان بالله ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى الشرك الذي يوجب النار، ومن دعا إلى سبب الشيء فقد دعا إليه. ثم فسر الدعوتين بقوله: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا يجوز حصول العلم به، إذ لا يجوز قيام الدلالة على إثبات شريك لله تعالى، لا من طريق السمع، ولا من طريق العقل ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي: إلى عبادة القادر الذي لا يقهر ولا يمنع، فينتقم من كل كفار عنيد، الغافر لذنوب من يشاء من أهل التوحيد ﴿لَا جَرَمَ﴾ قيل معناه: حقاً مقطوعاً به من الجزم، وهو القطع. قال الزجاج حكاية عن الخليل: هو رد الكلام، والمعنى: وجب وحق ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي: وجب بطلان دعوته. يقول: لا بد أنما تدعونني إليه من عبادة الأصنام، أو عبادة فرعون ليس له دعوة نافعة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فأطلق أنه ليس له دعوة ليكون أبلغ، وإن توهم جاهل أن له دعوة يُنتفع بها، فإنه لا يعتد بذلك لفساده وتناقضه. وقيل معناه: ليست لهذه الأصنام استجابة دعوة أحد في الدنيا ولا في الآخرة، فحذف المضاف، عن السدي وقتادة والزجاج. وقيل معناه: ليست له دعوة في الدنيا، لأن الأصنام لا تدعو إلى عبادتها فيها، ولا في الآخرة، لأنها تبرأ من عبادها فيها ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ووجب أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله، فيجازي كلاً بما يستحقه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: ووجب أن المسرفين الذين أسرفوا على أنفسهم، بالشرك وسفك الدماء بغير حقها ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الملازمون لها.

ثم قال لهم على وجه التخويف والوعظ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ صحة ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا حصلتم في العذاب يوم القيامة. وقيل معناه: فستذكرون عند نزول العذاب بكم ما أقول لكم من النصيحة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أسلم أمري إلى الله، وأتوكل عليه، وأعتمد على لطفه، والأمر اسم جنس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي عالم بأحوالهم، وبما يفعلونه من طاعة ومعصية، وأظهر إيمانه بهذا القول ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: صرف الله عنه سوء مكرهم، فنجا مع موسى حتى عبر البحر معه، عن قتادة. وقيل: إنهم هموا بقتله فهرب إلى جبل، فبعث فرعون رجلين في طلبه، فوجداه قائماً يصلي، وحوله الوحوش صفوفاً، فخافا ورجعا هاربين ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أحاط ونزل بهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: مكروهه وما يسوء

منه، وآل فرعون أشياعه وأتباعه. وقيل: من كان على دينه، عن الحسن. وإنما ذكر آله ولم يذكره، لأنهم إذا هلكوا بسببه، فكيف يكون حاله؟ وسوء العذاب في الدنيا الغرق، وفي الآخرة النار، وذلك قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: يعرض آل فرعون على النار في قبورهم صباحاً ومساء فيعذبون، وإنما رفع ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدلًا من قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وعن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار. يقال: هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة. أورده البخاري ومسلم في الصحيحين. وقال أبو عبد الله عليه السلام: ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة، لأن في نار القيامة لا يكون غدو وعشي. ثم قال: إن كانوا يعذبون في النار غدواً وعشياً ففيما بين ذلك هم من السعداء، لا، ولكن هذا في البرزخ قبل يوم القيامة، ألم تسمع قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهذا أمر لآل فرعون بالدخول، أو أمر للملائكة بإدخالهم في أشد العذاب، وهو عذاب جهنم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

● **اللغة:** التبع: يصلح أن يكون مصدراً، يقال: تبع تبعاً، ويجوز أن يكون جمع تابع، نحو: خادم وخدم، وخائل وخول، وغائب وغيب.

● **الإعراب:** ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ التقدير: أولم تك القصة و ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ تفسير القصة، فاسم كان مضمر.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما يجري بين أهل النار من التحاج، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ معناه: واذكر يا محمد لقومك، الوقت الذي يتحاج فيه أهل النار في النار، ويتخاصم الرؤساء والأتباع ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ معاشر الرؤساء ﴿تَبَعًا﴾ وكنا نمتثل أمركم ونجيبكم إلى ما تدعوننا إليه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنه يلزم الرئيس الدفع عن أتباعه والمنقادين لأمره، أي: هل أنتم حاملون عنا قسطاً من النار والعذاب الذي نحن فيه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: نحن وأنتم في النار، و ﴿كُلٌّ فِيهَآ﴾ مبتدأ وخبر في موضع رفع بأنه خبر إنَّ ويجوز أن يكون ﴿كُلٌّ﴾ خبر إنَّ والمعنى: إنا مجتمعون في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بذلك وبألا يتحمل أحد عن أحد، وأنه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره لا محالة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: حصلوا في النار من الأتباع والمتبوعين ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهم الذين يتولون عذاب أهل النار، من الملائكة الموكلين بهم ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يقولون ذلك لأنه لا طاقة لهم على شدة العذاب، ولشدة جزعهم، إلا أنهم يطمعون في التخفيف، لأن معارفهم ضرورية يعلمون أن عقابهم لا ينقطع ولا يخفف عنهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال الخزنة لهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والدلالات على صحة التوحيد والنبوات، أي: فكفرتم وعاندتم حتى استحققتم هذا العذاب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جاءتنا الرسل والبينات فكذبناهم وجحدنا نبوتهم ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أي: قالت الخزنة فادعوا أنتم فإنا لا ندعو إلا بإذن، ولم يؤذن لنا فيه. وقيل: إنما قالوا ذلك استخفافاً بهم. وقيل معناه: فادعوا بالويل والثبور ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضياع، لأنه لا ينتفع به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وابن عامر وأهل البصرة: ﴿يوم لا تنفع﴾ بالتاء، والباقون: بالياء.

● **الحجة:** والوجهان حسنان، لأن المعذرة والاعتذار بمعنى، كما أن الوعظ والموعظة كذلك.

● **الإعراب:** ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ محمول على موضع قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما يقال: جئتك أمس واليوم.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن نفسه، بأنه ينصر رسله ومن صدقهم، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ننصرهم بوجوه النصر، فإن النصر قد يكون بالحجة، ويكون أيضاً بالغلبة في المحاربة، وذلك بحسب ما تقتضيه الحكمة، ويعلمه سبحانه من المصلحة، ويكون أيضاً بالألطاف والتأييد وتقوية القلب، ويكون بإهلاك العدو، وكل هذا قد كان للأنبياء والمؤمنين من قِبل الله تعالى، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصروا أيضاً بالقهر على من ناوأهم، وقد نصروا بإهلاك عدوهم وإنجائهم مع من آمن معهم، وقد يكون النصر بالانتقام لهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قُتل، حين قُتل به سبعون ألفاً، فهم لا محالة منصورون في الدنيا بأحد هذه الوجوه ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد مثل الأصحاب جمع

صاحب، وهم الذين يشهدون بالحق للمؤمنين، وعلى المبطلين والكافرين يوم القيامة، وفي ذلك سرور للمحق، وفضيحة للمبطل، في ذلك الجمع العظيم. وقيل: هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون، عن قتادة. وقيل: هم الحفظة من الملائكة، عن مجاهد. يشهدون للرسل بالتبليغ، وعلى الكفار بالتكذيب. وقيل: هم الأنبياء وحدهم، يشهدون للناس وعليهم. ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: إن اعتذروا من كفرهم لم يقبل منهم، وإن تابوا لم تنفعهم التوبة، وإنما نفى أن تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار الدنيا، لأن الآخرة دار الإلجاء إلى العمل، والملجأ غير محمود على العمل الذي ألجىء إليه ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة، والحكم عليهم بدوام العقاب ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنم نعوذ بالله منها.

ثم بين سبحانه نصرته موسى وقومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: أعطيناه التوراة فيها أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وأورثنا من بعد موسى بني إسرائيل التوراة وما فيه من البيان ﴿هُدًى﴾ أي: هو هدى، أي: دلالة يعرفون بها معالم دينهم ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وتذكير لأولي العقول، لأنهم الذين يتمكنون من الانتفاع به دون من عقل له، ويجوز أن يكون ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ منصوبين على أن يكونا مصدرين وضعا موضع الحال من الكتاب، بمعنى: هادياً ومذكراً. ويجوز أن يكون بمعنى المفعول له، أي: للهدى والتذكير.

ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك، وتحمل المشاق في تكذيبهم إياك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدك به من النصر في الدنيا، والثواب في الآخرة ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ من جوز الصغائر على الأنبياء. قال معناه: اطلب المغفرة من الله على صغيرة وقعت منك، ولعظيم نعمته على الأنبياء كلفهم التوبة من الصغائر، ومن لا يجوّز ذلك عليهم وهو الصحيح قال: هذا تعبد من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالدعاء والاستغفار، لكي يزيد في الدرجات، وليصير سنة لمن بعده[1] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نزه الله تعالى واعترف بشكره، وإضافة النعم إليه ونفي التشبيه عنه. وقيل: نزه صفاته عن صفات المحدثين، ونزه أفعاله عن أفعال الظالمين. وقيل معناه: صلّ بأمر ربك ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ من زوال الشمس إلى الليل ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، عن مجاهد. وقيل: يريد الصلوات الخمس، عن ابن عباس. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله جل جلاله: يا ابن آدم اذكرني بعد الغداة ساعة، وبعد العصر ساعة، أكفك ما أهمك.

● ● ●

(١) وقد مرّ أنّ القرآن نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، كما ورد في روايات كثيرة فراجع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء، والباقون: بالياء. وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو بكر غير الشموني وسهل: ﴿سَيُدۡخَلُونَ﴾ بضم الياء، وفتح الخاء، والباقون: بفتح الياء وضم الخاء.

● **الحجة:** التاء على قل لهم: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ والياء على أن الكفار ﴿قَلِيلٗا مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾ الوجه في القراءتين ظاهر.

● **الحجة:** نزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية. في اليهود، لأنهم كانوا يقولون: سيخرج المسيح الدجال[1] فنعينه على محمد وأصحابه، ونستريح منهم، ويُردُّ الملك إلينا، عن أبي العالية.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ أي: يخاصمون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دفع آيات الله، وإبطالها ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: حجة ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ الله إياها، يتسلطون بها على إنكار مذهب يخالف مذهبهم ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ أي: ليس في صدورهم إلا عظمة وتكبر على محمد ﷺ وجبرية ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ ما هم ببالغي مقتضى تلك العظمة، لأن الله تعالى مُذلهم. وقيل معناه: كبر بحسدك على النبوة التي أكرمك الله بها، ما هم ببالغيه، لأن الله تعالى يرفع بشرف النبوة من يشاء. وقيل: ما هم ببالغي وقت خروج الدجال ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ من شر اليهود والدجال، ومن جميع ما يجب الاستعاذة منه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال هؤلاء ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بضمائرهم، وفي هذا تهديد لهم فيما أقدموا عليه. ثم قال سبحانه: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مع عظمهما وكثرة أجزائهما، ووقوفهما بغير عمد، وجريان الفلك والكواكب

---

(١) المسيح: اسم خص الله به عيسى بن مريم عليه السلام، وقيل في وجه تسميته عليه السلام بالمسيح وجوه. وممن سمي بالمسيح هو الكذاب الدجال قال الشاعر: «إذا المسيح يقتل المسيحا» يعني عيسى بن مريم يقتل الدجال، وسمي الدجال مسيحاً لوجوه ذكرها اللسان في «مسح» فراجع، وروى بعض المحدثين: المسيح بكسر الميم والتشديد - في الدجال «بوزن سكيت» وقد يستفاد من الروايات أنَّ الدجال رجل من يهود. قال في (الكشاف)، في تفسير الآية: وقيل: المجادلون هم اليهود، وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح بن داود، يريدون الدجال، ويبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فرجع إلينا الملك، فسمَّى الله تمنيهم ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمناهم.

من غير سبب ﴿أَكۡبَرُ﴾ أي: أعظم وأهول في النفس ﴿مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ وإن كان خلق الناس عظيماً، بما فيه من الحياة والحواس المهيأة لأنواع مختلفة من الإدراكات ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لعدولهم عن الفكر فيه، والاستدلال على صحته، والمعنى: أنهم إذا أقروا بأن الله تعالى خلق السماء والأرض، فكيف أنكروا قدرته على إحياء الموتى؟ ولكنهم أعرضوا عن التدير، فحلوا محل الجاهل الذي لا يعلم شيئاً، ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي من أهمل نفسه ومن تفكر فعرف الحق، شبه الذي لا يتفكر في الدلائل بالأعمى، والذي يستدل بها بالبصير ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ أي وما يستوي المؤمنون الصالحون، ولا الكافر والفاسق، في الكرامة والإهانة، والهدى والضلال ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ مزيدة، ويجوز أن تكون مصدرية، فيكون تقديره: قليلًا تذكرهم، أي قل نظرهم فيما ينبغي أن ينظروا فيه مما دُعوا إليه.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني القيامة ﴿لَأٓتِيَةٞ﴾ أي: جائية واقعة ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي: لا شك في مجيئها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بذلك لجهلهم بالله تعالى، وشكهم في أخباره ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ يعني إذا اقتضت المصلحة إجابتكم، وكل من يسأل الله شيئاً ويدعوه، فلا بد أن يشترط المصلحة في ذلك، إما لفظاً أو إضماراً، وإلا كان قبيحاً، لأنه ربما كان داعياً بما يكون فيه مفسدة، ولا يشترط انتفاءها فيكون قبيحاً. وقيل معناه: وحدوني واعبدوني أثبكم، عن ابن عباس. ويدل عليه قول النبي ﷺ: الدعاء هو العبادة. ولما عبر عن العبادة الدعاء، جعل الإثابة استجابة ليتجانس اللفظ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ ودعائي ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين. وفي الآية دلالة على عظم قدر الدعاء عند الله تعالى، وعلى فضل الانقطاع إليه، وقد روى معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك، ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعاً، كان أحدهما أكثر صلاة، والآخر دعاء، فأيهما أفضل؟ قال: كل حسن، قلت: قد علمت، ولكن أيهما أفضل؟ قال: أكثرهما دعاء، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ إلى آخر الآية. وقال: هي العبادة الكبرى. وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء. وروى حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر: أي العبادة أفضل؟ قال: ما من شيء أحب إلى الله من أن يُسأل ويُطلب ما عنده، وما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا

وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما يدل على توحيده، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ معاشر الخلق ﴿ٱلَّيْلَ﴾ وهو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: وغرضه في خلق الليل سكونكم، واستراحتكم فيه من كد النهار وتعبه ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: وجعل لكم النهار ـ وهو ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ـ مضيئاً تبصرون فيه مواضع حاجاتكم، فجعل سبحانه النهار مبصراً لما كان يبصر فيه المبصرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بهذه النعم من غير استحقاق منهم لذلك ولا تقدم طلب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ومع هذا فإن أكثر الناس لا يعترفون بهذه النعم، بل يجحدونها ويكفرون بها.
ثم قال سبحانه مخاطباً لخلقه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي أظهر هذه الدلالات، وأنعم بهذه النعم، هو الله خالقكم ومالككم ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من السموات والأرض وما بينهما ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق العبادة سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدلالة على توحيده؟ ثم قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما صُرف وأفك هؤلاء ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهم من تقدمهم من الكفار، صرفهم أكابرهم ورؤساؤهم.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر الأدلة على توحيده، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقراً تستقرون عليه ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: وجعل السماء بناء مرتفعاً فوقها، ولو جعلها رتقاً لما أمكن الخلق الانتفاع بما بينهما. ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لأن صورة ابن آدم أحسن صور الحيوان. وقال ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً، يأكل بيده، ويتناول بيده، وكل من خلقه الله يتناول بفيه ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لأنه ليس شيء من الحيوان، له طيبات المآكل والمشارب، مثل ما خلق الله سبحانه لابن آدم، فإن أنواع الطيبات، واللذات التي خلقها الله تعالى لهم من الثمار، وفنون النبات، واللحوم وغير ذلك، مما لا يحصى كثرة. ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء خالقكم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: جل الله، بأنه الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزال ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ معناه: إن الذي أنعم عليكم بهذه النعم، هو الحي على الإطلاق من غير علة، ولا فاعل ولا بنية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مخلصين في دعائه وعبادته ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الفراء: وهو خبر وفيه إضمار، كأنه قال: ادعوه واحمدوه على هذه النعم، وقولوا: الحمد لله رب العالمين. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله»، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين. يريد قول الله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار قومك ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: نهاني الله ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أوجه العبادة إلى من تدعونه من دون الله، من الأصنام التي تجعلونها آلهة ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: حين أتاني الحجج والبراهين من جهة الله تعالى، دلتني على ذلك ﴿وَأُمِرْتُ﴾ مع ذلك ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أستسلم لأمر رب العالمين، الذي يملك تدبير الخلائق أجمعين. ثم عاد إلى ذكر الأدلة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ معاشر البشر ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أباكم آدم من تراب، وأنتم نسله وإليه تنتمون ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم أنشأ من ذلك الأصل الذي خلقه من تراب النطفة، وهي ماء الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي قطعة من الدم ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً واحداً واحداً، فلذلك ذكره بالتوحيد. قال يونس: العرب تجعل الطفل للواحد والجماعة. قال الله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ والمعنى: ثم يقلبكم أطواراً، إلى أن يخرجكم من أرحام الأمهات أطفالاً صغاراً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهو حال استكمال القوة، وهذا يحتمل أن يكون معطوفاً على معنى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ لتنشؤوا وتشبوا، ثم لتبلغوا أشدكم، ويحتمل أن يكون معطوفاً على معنى قوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ التقدير: لطفوليتكم ثم لتبلغوا أشدكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بعد ذلك ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يصير شيخاً، ومن قبل أن يبلغ أشده ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي: وليبلغ كل واحد منكم ما سمي له من الأجل الذي يموت عنده. وقيل: هذا للقرن الذي تقوم عليهم القيامة، والأجل المسمى هو القيامة، عن الحسن ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: خلقكم لهذه الأغراض التي ذكرها، ولكي تتفكروا في ذلك فتعقلوا ما أنعم الله به عليكم من أنواع النعم، وأراده منكم من إخلاص العبادة.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: من خلقكم من تراب على هذه الأوصاف التي ذكرها، هو الذي يحييكم، وهو الذي يميتكم، فأولكم من تراب، وآخركم إلى تراب ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ومعناه: أنه يفعل ذلك من غير أن يتعذر ويمتنع عليه، فهو بمنزلة ما يقال له: كن فيكون، لأنه سبحانه يخاطب المعدوم بالتكون. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني المشركين الذين يخاصمون في إبطال حجج الله ودفعها ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف ومن

أين يقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال؟ ولو كانوا يخاصمون في آيات الله، بالنظر في صحتها، والفكر فيها لما ذمهم الله تعالى. ثم وصفهم سبحانه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بالقرآن وجحدوه ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: وكذبوا بما أرسلنا به من الكتب والشرائع رسلنا قبلك ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم إذا حل بهم وبال ما جحدوه، ونزل بهم عقاب ما ارتكبوه، فيعرفون أن ما دعوتهم إليه حق، وما ارتكبوه ضلال وفساد.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن مسعود وابن عباس: ﴿والسلاسلَ﴾ بفتح اللام ﴿يَسحبون﴾.

● **الحجة:** قال ابن جني: تقديره: إذ الأغلال في أعناقهم ويَسحبون السلاسل، فعطف الجملة من الفعل والفاعل، على الجملة التي من المبتدأ والخبر، كما قد عودل إحداهما بالآخر، ونحو قوله:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... أموف بأذراع بن طيبة أم تذم

أي أأنت موف بها أم تذم؟ فقابل بالمبتدأ والخبر، التي من الفعل والفاعل الجاري مجرى الفاعل(١).

● **اللغة:** الأغلال: جمع غُل، وهو طوق يدخل في العنق للذل والألم، وأصله الدخول، يقال: انغل العنق في الشيء، إذا دخل فيه. والغلول: الخيانة، لأنها تصير كالغلّ في عنق صاحبها. السلاسل: جمع سلسلة، وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة. والسحب: جر الشيء على الأرض، هذا أصله. والسجر: أصله إلقاء الحطب في معظم النار، كالتنور الذي يسجر بالوقود. والفرح والبطر والأشر نظائر. والمرح: شدة الفرح، وفرس مروح: أي نشيط، قال:

ولا يُثنى على الحَدَثانِ عِرضي ... ولا أرخي مِنَ المَرَحِ الإزارا(٢)

● **الإعراب:** ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: مسحوبين على النار،

---

(١) أي: قابل بالمبتدأ والخبر، وهو قوله «أموف» فإن تقديره «أأنت موف» الجملة التي من الفعل والفاعل، وهو قوله: «تذم» وهي بمنزلة اسم الفاعل، لأن قام زيد مثلًا بمنزلة قائم.

(٢) ثنى الشيء: عطفه. وحدثان الدهر: نوائبه. وأرخى الإزار: أسبله. واللفظ كناية أي: لا أفرح من توجه النعم كما لا ينعطف في النوائب عرضي.

مسجونين فيها. والعامل في ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا لم يوقف على ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ووقف على ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ ومن وقف على ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فالعامل في ﴿إِذِ﴾ ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

● **المعنى**: ثم قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي: يعلمون وبال أمرهم في حال تكون الأغلال في أعناقهم ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: يجرون في الماء الحار، الذي قد انتهت حرارته ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي ثم يقذفون في النار، ويلقون فيها. وقيل معناه: ثم يصيرون وقود النار، عن مجاهد. والمعنى: توقد بهم النار ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الكفار إذا دخلوا النار، على وجه التوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين ما كنتم تزعمون أنها تنفع وتضر من أصنامكم التي عبدتموها؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ضاعوا عنا وهلكوا فلا نراهم، ولا نقدر عليهم، ثم يستدركون فيقولون: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ والمعنى: لم نكن ندعو شيئاً يستحق العبادة، ولا ما ننتفع بعبادته، عن الجبائي. وقيل: بل لم نكن ندعو شيئاً ينفع ويضر، ويسمع ويبصر. قال أبو مسلم: وهذا كما يقال لكل ما لا يغني شيئاً: هذا ليس بشيء. لأن قولهم: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ اعتراف بعبادتهم، ولأن الآخرة دار إلجاء، فهم مُلجؤون إلى ترك القبيح. وقيل معناه: ضاعت عباداتنا لهم، فلم نكن نصنع شيئاً إذ عبدناها، كما يقول المتحسر: ما فعلت شيئاً ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه: كما أضل الله أعمال هؤلاء، وأبطل ما كانوا يؤمّلونه، كذلك يفعل بجميع من يتدين بالكفر، فلا ينتفعون بشيء من أعمالهم. وقيل: يضل الله أعمالهم، أي: يبطلها، عن الحسن. وقيل: يضل الكافرين عن طريق الجنة والثواب، كما أضلهم عما اتخذوه إلهاً، بأن صرفهم عن الطمع في نيل منفعة من جهتها، عن الجبائي ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قيد الفرح وأطلق المرح، لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه، وقد يكون بالباطل فيذم عليه، والمرح لا يكون إلا باطلاً، ومعناه: أن ما فعل بكم جزاء بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، أي: بما كان يصيب أنبياء الله تعالى وأولياءه من المكاره، وبما كنتم تمرحون، أي: تأشرون وتبطرون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾
فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ
﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

● **المعنى**: ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنه يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ وهي سبعة أبواب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مؤبدين فيها، لا انقطاع لكربكم فيها، ولا نهاية لعقابكم. وقيل: إنما جعل لجهنم أبواب كما جعل لها دركات، تشبيهاً بما يتصور الإنسان في الدنيا من المطابق، والسجون، والمطامير[1]، فإن ذلك أهول وأعظم في الزجر ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس مقام الذين تكبروا عن عبادة الله تعالى، وتجبروا عن الانقياد له، وإنما أطلق عليه اسم بئس وإن كان حسناً، لأن الطبع ينفر عنه، كما ينفر العقل عن القبيح، فحسن لهذه العلة اسم بئس عليه. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك، وتكذيبهم إياك، ومعناه: أثبت على الحق، فسماه صبراً للمشقة التي تلحق به، كما تلحق بتجرع المر، ولذلك لا يوصف أهل الجنة بالصبر، وإن وصفوا بالثبات على الحق، وإن كان في الوصف به في الدنيا فضل، ولكنهم يوصفون بالحلم، لأنه مدح ليس فيه صفة نقص ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ معناه: إن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر، من الثواب في الجنة حق لا شك فيه، بل هو كائن لا محالة. وقيل: إن وعد الله بالنصر لأنبيائه، والانتقام من أعدائه، حق وصدق لا خلف فيه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، وإنما قال: بعض الذي نعدهم. لأن المعجل من عذابهم في الدنيا هو بعض ما يستحقونه ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يحل بهم ذلك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فنفعل بهم ما يستحقونه من العقاب، ولا يفوتوننا.

ثم زاد سبحانه في تسلية النبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ قصصهم وأخبارهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخبارهم. وقيل معناه: منهم من تلونا عليك ذكره، ومنهم من لم نتل عليك ذكره. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: بعث الله نبياً أسود لم يقص علينا قصته. واختلفت الأخبار في عدد الأنبياء، فروي في بعضها أن عددهم مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفاً. وفي بعضها أن عددهم ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من غيرهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بمعجزة ودلالة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وأمره، والمعنى: أن الإتيان بالمعجزات ليس إلى الرسول، ولكنه إلى الله تعالى، يأتي بها على وجه المصلحة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو القيامة ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بين المسلمين والكفار، والأبرار والفجار ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ عند ذلك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ لأنهم يخسرون الجنة، ويحصلون في النار بدلًا منها، وذلك هو الخسران المبين، والمبطل صاحب الباطل. ثم عدد سبحانه نعمه على خلقه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ أي: لتنتفعوا بركوبها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني أن بعضها للركوب والأكل كالإبل والبقر، وبعضها للأكل كالأغنام. وقيل: المراد بالأنعام ها هنا الإبل خاصة، لأنها التي تركب ويحمل عليها في أكثر العادات، واللام في قوله: ﴿لِتَرْكَبُواْ﴾ لام الغرض، وإذا كان الله تعالى خلق هذه الأنعام، وأراد أن ينتفع خلقه بها، وكان جل جلاله لا يريد القبيح ولا المباح، فلا بد أن يكون أراد انتفاعهم

(١) المطابق جمع المطبق: السجن تحت الأرض. والمطامير جمع المطمورة: الحفيرة تحت الأرض.

بها، على وجه القربة إليه والطاعة له ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني من جهة ألبانها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بأن تركبوها وتبلغوا المواضع التي تقصدونها بحوائجكم ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام وهي الإبل هنا ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: وعلى السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ يعني على الإبل في البر، وعلى الفلك في البحر، تحملون في الأسفار علم الله سبحانه أنّا نحتاج إلى أن نسافر في البر والبحر، فخلق لنا مركباً للبر، ومركباً للبحر.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه مخاطباً للكفار، الذين جحدوا آيات الله، وأنكروا أدلته الدالة على توحيده: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ويُعلمكم حججه، ويعرفكم إياها، ومنها إهلاك الأمم الماضية، ووجه الآية فيه: أنهم بعد حصولهم في النعم، ساروا إلى النعم بكفرهم وجحودهم، ومنها الآية في خلق الأنعام التي قدم ذكرها، ووجه الآية فيها تسخيرها لمنافع الناس، بالتصريف في الوجوه التي قد جعل كل منها لما يصلح له، وذلك يقتضي أن الجاعل لذلك قادر على تصريفه، عالم بتدبيره ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ هذا توبيخ لهم على الجحد، وقد يكون الإنكار والجحد تارة بأن يجحد أصلاً، وتارة بأن يجحد كونها دالة على صحة ما هي دلالة عليه، والخلاف يكون في ثلاثة أوجه: إما في صحتها في نفسها، وإما في كونها دلالة، وإما فيهما جميعاً، وإنما يجوز من الجهال دفع الآية بالشبهة، مع قوة الآية، وضعف الشبهة لأمور:

منها: اتباع الهوى، ودخول الشبهة التي تغطي على الحجة، حتى لا يكون لها في النفس منزلة.

ومنها: التقليد لمن ترك النظر في الأمور.

ومنها: السبق إلى اعتقاد فاسد لشبهة، فيمنع ذلك من توليد النظر للعلم.

ثم نبههم سبحانه فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن يمروا في جنباتها ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: وأعظم قوة ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالأبنية العظيمة التي بنوها، والقصور المشيدة التي شيدوها. وقيل: بمشيهم على أرجلهم على عظم خلقهم، عن مجاهد. فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا به، وكذبوا رسله أهلكهم الله واستأصلهم بالعذاب ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: لم يغن عنهم ما كسبوه

من البنيان والأموال شيئاً من عذاب الله تعالى. وقيل: إن ما في قوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ بمعنى أي، فالمعنى: فأي شيء أغنى عنهم كسبهم؟ فيكون موضع ما الأولى نصباً، وموضع ما الثانية رفعاً.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: فلما أتى هؤلاء الكفار رسلهم الذين دعوهم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له بالحجج والآيات، وفي الكلام حذف، تقديره: لما جاءتهم رسلهم بالبينات فجحدوها وأنكروا دلالتها، ووعد الله الرسل بإهلاك أممهم، ونجاة قومهم ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: فرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك، عن الجبائي. وقيل معناه: فرح الكفار بما عندهم من العلم، أي: بما كان عندهم أنه علم وهو جهل على الحقيقة، لأنهم قالوا: نحن أعلم منهم، لا نبعث ولا نعذب، واعتقدوا أنه علم، فأطلق عليه لفظ العلم على اعتقادهم، كما قال: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ وقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي: عند نفسك أو عند قومك، عن الحسن ومجاهد. وقيل معناه: فرحوا بالشرك الذي كانوا عليه، وأعجبوا به وظنوا أنه علم وهو جهل وكفر، عن الضحاك. قال: والمراد بالفرح شدة الإعجاب ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: حل بهم ونزل بهم جزاء استهزائهم برسلهم من العذاب والهلاك ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي: عذابنا النازل بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي: كفرنا بالأصنام والأوثان. ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ أي: عند رؤيتهم بأس الله وعذابه، لأنهم يصيرون عند ذلك مُلجئين وفعل الملجأ لايستحق به المدح ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ نصب سنة الله على المصدر، ومعناه: سن الله هذه السنة في الأمم الماضية كلها، إذ لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب، والمراد بالسنة هنا: الطريقة المستمرة، من فعله بأعدائه الجاحدين ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بدخول النار، واستحقاق النعمة، وفوت الثواب والجنة. وبالله التوفيق، وحسبنا الله ونعم المولى ونعم النصير.

تم المجلد الثامن من كتاب مجمع البيان

ويليه المجلد التاسع

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة العنكبوت	٥
سورة الروم	٣٤
سورة لقمان	٥٨
سورة السجدة	٧٥
سورة الأحزاب	٨٨
سورة سبأ	١٤٤
سورة فاطر	١٧٥
سورة يس	١٩٤
سورة الصافات	٢٢٤
سورة ص	٢٥٩
سورة الزمر	٢٩٠
سورة غافر	٣٢٠
الفهرس	٣٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم